تراثنا

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

السفر الأول

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، شَهادةَ عبدٍ نطق بها لسانُه وقلبُه، وأنِسَ بها ضميره ولُبُّه .

وأشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه، الذى جُعلت له الأرضُ مسجدا وترابُها طَهُورا، وأُنزل عليه : ﴿ يَأَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ . صلّى الله وسلّم عليه وعَلَى آله الذين رَقُوا بنسبهم إليه أعلَى المراتب، وتسنّموا من ذِرْوَة الشرف والثناء كاهلَ الكواكب ، وعلَى أصحابه الذين ٱتّطدت بهم قواعد الشريعة وعلا منارُها، وهُدِمت معاقلُ الكفر وعَفَتْ آثارُها، وأنفقوا من قَبْل الفتح وقاتلوا، وجالدوا فى دين الله وجادلوا : صلاةً ترفع منار قائلها، وتُرسِل عليه سحائب المغفرة بوابلها!

وبعد، فمن أَوْلَى ماتدبّجت به الطروس والدفاتر، ونطقت به ألسنة الأقلام عن أفواه المحابر، وأصدرته ذوو الأذهان السليمه، وٱنتسبت إليه ذوو الأنساب الكريمه، وجعله الكاتب ذريعةً يتوصّل بها إلى بلوغ مقاصده، ومَحَجّةً لا يَضِلُّ سالكها فى مصادره وموارده : فنُّ الأدب الذى ما حلّ الكاتب بِواديه، إلّا وعَمَرت بَوَاديه، ولا وَرَدَ مشارعه، إلّا وٱستعذَبَ شرائعه، ولا نَزَل بساحته إلّا وٱتّسعت له رحابها، ولا تأمّل مشكلاته إلّا وتبيّنت له أسبابها .

(٢) وكنتُ ممن عدل فى مباديه، عن الإلمام بناديه، وجعل صناعة الكتابة فَنَّه الذى يستظلّ بوارفه، وفنّه الذى جُمِع له فيه بين تليده وطارفه . فعرَفتُ جليَّها، وكشفتُ خَفِيَّها، وبسطتُ الخرائد(١) ونظمتُ منها الأرتفاع، وكنتُ فيها كموقد نارٍ علَى

(١) لعلها : الجرائد . أى جرائد الحسبانات التى يستخرج منها الأرتفاع أى مقدار الإيراد . وبقية الكلام تدل علَى ذلك لأنه ٱستعار ٱصطلاحات أهل الحساب .

يفاع . وآسترفعتُ القوانين ، ووضعتُ الموازين ، وعاينتُ المقْترَحات . وآعتمدتُ علىٰ المقايسات ، وفذْلكتُ علىٰ الأصل وما أُضيف إليه ، وحررتُ مابعد الفذْلكة فكان العمل علىٰ ما آستقرّت الجملة عليه . وآستخرجتُ وحصّلت . وجمّلتُ من عرضه وخصّلت ، وسُقتُ الحواصل . وأوردتُ المحاسيب وفذْلكتُ علىٰ الواصل ، وطردتُ ما آنساق إلىٰ الباقى والموقوف . ونضّدتُ شواهد المصروف ، وشطبتُ شواهد الأرتفاع ، وقرَنتُ أعمال المبيع بالمبتاع ، وآستوفيتُ أعمال الاعتصار وتوالى الغلات . وتأملتُ سياق الأصناف والآلات ، ونظرتُ فى سياقات العلوفات والعوامل . وأجبتُ عن المخرَّج والمردود فأعجزتُ المُناظر والمُناضل . وأتقنتُ مواد هذه الصناعه . وتاجرتُ فيها بأنفس بضاعه .

ثمّ نبذتُها وراء ظهرى ، وعزمتُ علىٰ تركها فى سِرّى دونَ جَهْرى ، وسألتُ الله تعالىٰ الغُنْيـة عنها ، وتضرّعتُ إليه فيما هو خيرٌ منها . ورغبتُ فى صناعة الآداب وتعلّقتُ بأهدابها ، وآنتظمتُ فى سلك أربابها . فرأيتُ غرضى لا يتمّ بتلقيها من أفواه الفضلاء شفاها . ومَوْرِدى منها لا يصفو مالم أُجرّد العزم سفاها .

فآمتطيتُ جواد المطالعه ، وركضتُ فى ميدان المراجعه . وحيث ذلّ لى مَرْكَبُها ، وصفا لى مشرَبها . آثرتُ أن أُجرّد منها كتابا أستأنِسُ به وأرجعُ إليه . وأعوّل فيما يعرِض لى من المهمّات عليه . فآستخرتُ الله سبحانه وتعالىٰ وأثبتُّ منها خمسة فنون حسَنة الترتيب . بيّنة التقسيم والتبويب : كلُّ فنّ منها يحتوى على خمسة أقسام .

الفن الأول

فى السماء والآثار العُلويّة ، والأرض والمعالم السُّفليّة

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول — فى السماء وما فيها .

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول — فى مبدإ خلق السماء .

الباب الثانى — فى هيئتها .

الباب الثالث — فى الملائكة .

الباب الرابع — فى الكواكب السبعة .

الباب الخامس — فى الكواكب الثابتة .

القسم الثانى — فى الآثار العُلويّة .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — فى السَّحاب ، وسبب حدوثه ، وفى الثلج ، والبَرَد .

الباب الثانى — فى الصواعق ، والنَّيَازك ، والرعد ، والبرق .

الباب الثالث — فى أُسْطُقُسّ الهواء .

الباب الرابع — فى أُسْطُقُسّ النار ، وأسمائها .

القسم الثالث — فى الليالى ، والأيام ، والشهور ، والأعوام ، والفصول ، والمواسم ، والأعياد .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — فى الليالى ، والأيام .

الباب الثانى — فى الشهور، والأعوام.

الباب الثالث — فى الفصول.

الباب الرابع — فى المواسم، والأعياد.

القسم الرابع — فى الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون.

وفيه سبعة أبواب :

الباب الأوّل — فى مبدإ خلق الأرض. (٣)

الباب الثانى — فى تفصيل أسماء الأرض.

الباب الثالث — فى طول الأرض، ومساحتها.

الباب الرابع — فى الأقاليم السبعة.

الباب الخامس — فى الجبال.

الباب السادس — فى البحار، والجزائر.

الباب السابع — فى الأنهار، والغُدْران، والعيون.

القسم الخامس — فى طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها، وخصائصها، والمبانى القديمة، والمعاقل، والقصور، والمنازل.

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأوّل — فى طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها.

الباب الثانى — فى خصائص البلاد.

الباب الثالث — فى المبانى القديمة.

الباب الرابع — فيما وُصِفَتْ به المعاقل.

الباب الخامس — فيما وُصِفَتْ به القصور، والمنازل.

ما قيل فى الشكر،والثناء.

ما قيل فى الوعد،والإنجاز.

ما قيل فى الشفاعة .

ما قيل فى الآعتذار،والآستعطاف.

الباب الثانى — فى الهجاء.

وفيه أربعة عشر فصلا :

ما قيل فى الهجاء،ومَن يستحقُّه.

ما قيل فى الحَسَد.

ما قيل فى السِّعاية والبَغْى.

ما قيل فى الغِيبة والنميمة.

ما قيل فى البُخل واللُّؤْم ، وأخبار البخلاء ، وآحتجاجهم.

ما قيل فى التطفُّل. و يتصل به أخبار الأَكَلَة والمؤاكلة.

ما قيل فى الجُبْن،والفِرار.

ما قيل فى الحُمق،والجهل.

ما قيل فى الكَذِب.

ما قيل فى الغدر،والخيانة.

ما قيل فى الكِبْر،والعُجْب.

ما قيل فى الحِرص،والطمع.

ما قيل فى الوعد،والمَطْل.

ما قيل فى العِىِّ،والحَصَر.

الباب الثالث — فى المُجون، والنوادر، والفُكاهات، والمُلَح .

الباب الرابع — فى الخمر، وتحريمها، وآفاتها، وجناياتها، وأسمائها. وأخبار مَن تنزّه عنها فى الجاهليّة، ومن حُدّ فيها من الأشراف، ومَن آشتهر بها، ولبس ثوبَ الخَلَاعة بسببها . وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيل فى وصف آلاتها، وآنيتها، وما قيل فى مبادرة اللذّات، وما وُصفت به المجالس، وما يجري هذا المجرى.

الباب الخامس — فى النُّدمان، والسُّقاة .

الباب السادس — فى الغِناء، والسَّماع، وما ورد فى ذلك من الحَظْر والإباحة، ومَن سمع الغِناء من الصحابة (رضوان الله عليهم) والتابعين، والأئمة، والعُبّاد، والزُّهّاد، ومَنْ غنّى من الخلفاء، وأبنائهم، والأشراف، والقوّاد، والأكابر، وأخبار المُغنّين ممن نقل الغناء من الفارسيّة إلى العربيّة .

الباب السابع — فيما يحتاج إليه المُغنِّى، ويُضْطَرّ إلى معرفته، وما قيل فى الغِناء، وما وُصفت به القِيان، وما وُصفت به آلات الطرب .

القسم الخامس — فى المَلِك ، وما يُشترَط فيه ، وما يَحْتاج إليه ، وما يجب له علىٰ الرعيّة ، وما يجب للرعيّة عليه . ويتّصل به ذكر الوزراء ، وقادة الجيوش ، وأوصاف السلاح ، ووُلاة المناصب الدينيّة ، والكُتّاب ، والبُلَغاء .

وفيه أربعة عشر بابا :

الباب الاوّل — فى شروط الإمامة : الشرعيّة ، والعرفيّة .

الباب الثانى — فى صفات المَلِك وأخلاقه ، وما يفضُل به علىٰ غيره . وذكر ما نُقل من أقوال الخلفاء والملوك الدالّة علىٰ عُلُوّ همّتهم ، وكرم شيمتهم .

الباب الثالث — فيما يجب للملك علىٰ الرعايا من الطاعة ، والنصيحة ، والتعظيم ، والتوقير .

الباب الرابع — فى وصايا الملوك .

الباب الخامس — فيما يجب علىٰ المَلِك للرعايا .

الباب السادس — فى حُسن السياسة ، وإقامة المملكة . ويتّصل به الحزم ، والعزم ، وٱنتهاز الفُرْصة ، والحلم ، والعفو ، والعقوبة ، والٱنتقام .

الباب السابع — فى المَشُورة ، وإعمال الرأى ، والٱستبداد ، ومن يُعتمد علىٰ رأيه ، ومن كَرِه أن يستشير .

الباب الثامن — فى حفظ الأسرار ، والإذن ، والحجاب .

الباب التاسع — فى الوزراء، وأصحاب المَلِك،

الباب العاشر — فى قادة الجيوش، والجهاد، ومكايد الحروب، و وصف الوقائع، والرباط، وما قيل فى أوصاف السلاح .

الباب الحادى عشر — فى القضاة، والحكام .

الباب الثانى عشر — فى ولاية المظالم، وهى نيابة دار العدل . (٥)

الباب الثالث عشر — فى نَظَر الحِسبة، وأحكامها .

الباب الرابع عشر — فى ذكر الكُتّاب، والبلغاء، والكتابة، وما تفرّع عنها من الوظائف والكتابات، وهى: كتابة الإنشاء، وكتابة الديوان، والتصرّف، وكتابة الحُكم، والشروط، وكتابة النسخ، وكتابة التعليم .

الفن الثالث

فى الحيوان الصامت

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأوّل — فى السباع، وما يتصل بها من جنسها.

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الاوّل — فى الأَسَد ، والبَبْر ، والنِّمِر.

الباب الثانى — فى الفَهْد ، والكلب ، والذئب ، والضَّبُع ، والنِّمْس.

الباب الثالث — فى السِّنجاب، والثعلب، والدُّبّ، والهِرّ، والخنزير.

القسم الثانى — فى الوحوش، والظباء، وما يتّصل بها من جنسها.

وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل — فيما قيل فى الفيل، والكَرْكَدَّن، والزَّرافة، والمَهَاة، والإِيَّل(١) .

الباب الثانى — فى الحُمُر الوحشيّة، والوَعِل، واللَّمْط.

الباب الثالث — فيما قيل فى الظَّبْى، والأرنب، والقرد، والنَّعام .

---

(١) ويقال أيضا : الأُيَّل والأَيِّل (قاموس) .

القسم الثالث — وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل — فى الخيْـــل.

الباب الثانى — فى البغال، والحمير.

الباب الثالث — فى الإبل، والبقر، والغَنَم.

القسم الرابع — وفيه بابان:

الباب الأوّل — فى ذوات السموم القواتل.

الباب الثانى — فيما هو ليس بقاتل بفعله، من ذوات السموم.

القسم الخامس — وفيه سبعة أبواب: ستّة منها فى الطيْر، وباب فى السمك.

(وذيّلتُ عليه بباب ثامن، أوردت فيه ما قيل فى آلات صيْد البرّ، والبحر).

الباب الأوّل — فى سباع الطيْر، وهى: العِقْبان، والبوازى، والصقور، والشواهين. (٦)

الباب الثانى — فى كلاب الطير، وهى: النَّسْر، والرَّخَم، والحِدَأة، والغُراب.

الباب الثالث — فى بهائم الطيْر، وهى: الدُّرّاج، والحُبَارى، والطاووس، والدِّيك، والدَّجاج، والإوَزّ، والبطّ، والنُّحام، والأنيس، والقاوَند، والخُطّاف، والقِيق، والزُّرْزور، والسُّمَانَى[1]، والهُدْهُد، والعَقْعق، والعصافير.

---

(١) فى الأصل السُّمّان. وقال فى الصحاح والسُّمَانَى ولا تشدّد الميم.

الباب الرابع — فى بُغَـاث الطيْر، وهو : القُمْرِى، والدُّبْسِىّ، والوَرَشانُ، والفَوَاخِتُ، والشِّفْنِين، والعَبَطْبَط، والنوّاح، والقَطَاة، واليَمَـام، وأصنافه، والبَبَّغاء.

الباب الخامس — فى الطـيْر الليـلىّ، وهو : الخُفَّاش، والكَرَوان، والبُوم، والصَّدىٰ.

الباب السادس — فى الهَمَج، وهو : النمـل، والزُّنبور، والعنكبوت، والجـراد، ودود القزّ، والذُّباب، والبَعوض، والبراغيث، والحُرْقُوص.

الباب السابع — فى أنواع الأسمـاك.

الباب الثامن — يشتمل على ذكر شىء مما وُصفت به آلات الصيْد فى البرّ، والبحر، ووصف رُماة البُنـدق، وما يجرى هذا المجرىٰ.

الفن الرابع

في النبات

ويشتمل على خمسة أقسام :

(وذيلتُ على هذا الفن، في القسم الخامس، بشيء من أنواع الطِّيب، والبَخُورات، والغوالي، والنُّدود، والمُستقطَرات، وغير ذلك) .

القسم الأوّل — في أصل النبات، وما تختصّ به أرضٌ دون أرض .

(ويتّصل به ذكر الأقوات، والخضْراوات، والبُقولات).

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأوّل — في أصل النبات، وترتيبه .

الباب الثاني — فيما تختصّ به أرض دون أرض، وما يستأصل شأفة النبات الشاغل للأرض عن الزراعة .

الباب الثالث — في الأقوات، والخَضراوات، والبقولات .

القسم الثاني — في الأشجار .

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأوّل — فيما لثمره قشرٌ لا يؤكل .

الباب الثاني — فيما لثمره نوًى لا يؤكل .

الباب الثالث — فيما ليس لثمره قشر ولا نوًى .

القسم الثالث — فى الفواكه المشمومة .

وفيه بابان :

الباب الأوّل — فيما يُشَمّ رَطْبًا ، ويُستقطر .

ويشتمل على أربعة أنواع : وهى "الوَرْد ، والنِّسْرِينُ ، والخِلَافُ ، والنَّيْلُوفَرُ" .

الباب الثانى — فيما يُشَمّ رَطْبا ، ولا يُستقطَر .

ويشتمل على ماقيل فى البَنَفْسَج ، والنرجس ، والياسَمين ، والآس ، والزعفران ، والحَبَق .

(٧) القسم الرابع — فى الرياض ، والأزهار .

(ويتصل به الصُّموغ ، والأَمْنَان ، والعصائر) .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأوّل — فى الرياض ، وما وُصفت به نظمًا ، ونثرًا .

الباب الثانى — فى الأزهار ، وما وُصفت به .

الباب الثالث — فى الصموغ .

وفيه ثمانية وعشرون صِنفا .

الباب الرابع — فى الأمنان .

القسم الخامس — فى أصناف الطيب ، والبَخُورات ، والغوالى ، والنُّدود ، والمُستقطَرات ، والأدهان ، والنَّضُوحات ، وأدوية الباه ، والخواصّ .

وفيه أحد عشر بابا :

الباب الأوّل — فى المسك ، وأنواعه

الباب الثاني — في العنبر، وأنواعه، ومعادنه .

الباب الثالث — في العُود ، وأصنافه ، وأنواعه ، ومعادنه .

الباب الرابع — في الصَّنْدل، وأصنافه، ومعادنه .

الباب الخامس — في السُّنْبُل الهنديّ ، وأصنافه ؛ والقَرَنْفُل، وجوهره .

الباب السادس — في القُسْط ، وأصنافه .

الباب السابع — في عمل الغَوَالي، والنَّدود .

الباب الثامن — في عمل الرامَك، والسُّكّ من الرامَك والأدهان .

الباب التاسع — في عمل النَّضوحات ، والمياه المستقطَرة، وغير المستقطرة .

الباب العاشر — في الأدوية التي تزيد في الباه ، وتُلذِّذ الجماع ، وما يتصل بذلك .

الباب الحادي عشر — فيما يفعل بالخاصِّيَّة .

الفن الخامس

فى التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول — فى مبدإ خلق آدم (عليه السلام) وحوّاء ، وأخبارهما ، ومَن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرّس .

وفيه ثمانية أبواب :

الباب الأول — فى مبدإ خلق آدم (عليه السلامَ)، وموسى (عليه السلام)، وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما .

الباب الثانى — فى خبر شيث بن آدم (عليهما السلام)، وأولاده .

الباب الثالث — فى أخبار إدريس : النبىّ (عليه السلام) .

الباب الرابع — فى قصّة نوح (عليه السلام) ، وخبر الطُّوفان .

الباب الخامس — فى قصّة هود (عليه السلام) مع عاد ، وهلاكهم بالريح العقيم .

الباب السادس — فى قصة صالح (عليه السلام) مع ثمود ، وعَقْرهم الناقة ، وهلاكهم .

الباب السابع — فى أخبار أصحاب البئر المُعَطَّلة ، والقصر المَشِيد ، وهلاكهم .

الباب الثامن — فى أخبار أصحاب الرّس ، وما كان من أمرهم .

القسم الثانى — فى قصّة إبراهيم، الخليل (عليه السلام)، وخبره مع نُمْرود؛ وقصّة لوط؛ وخبر إسحاق، و يعقوب؛ وقصّة يوسف؛ وأيُّوب؛ وذى الكِفْل؛ وشُعيب (عليهم السلام) .

وفيه سبعة أبواب :

القسم الثالث — يشتمل على قصّة موسىٰ بن عِمْران (عليه السلام)، وخبره مع فِرْعَوْن؛ وخبر يُوشَع، ومَن بعده؛ وحِزْقِيلَ، و إلياس، وآلْيَسَع، وعيلا، وأَشْمَوِيل، وطالوت، وجالوت، وداود، وسليمان بن داود، وشعيا، وأرميا، وخبر بُخْتَ نَصَّر، وخراب بيت المَقْدس، وعمارته؛ وما يتصل بذلك من خبر عُزَيْر؛ وقصّة

يُونس بن متّى ، وخبر بلوقيا ، وزكريا ، ويحيىٰ ، وعِمران ، ومريم ، وعيسى (عليهم السلام) ، وقصص الحواريّين ، وما كان من أمرهم فيمن أُرسِلوا إليه ، وخبر جرجيس .

وفيه ستة أبواب :

(وذيّلتُ على هذا القسم ذيلا يشتمل على أربعة أبواب ، ذكرتُ فيها ما قيل فى الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسىٰ — عليه السلام — إلى الأرض ومدّة إقامته بها ، ووفاته ، وما يكون بعده ، وشيئا من أخبار الحشر والمعاد) .

الباب الأوّل — فى قصّة موسىٰ بن عِمْران ، وهرون ، وغرق فِرْعَون ، وأخبار بنى إسرائيل ، وأخبار قارون ، وخبر بلعم بن باعوراء ، والجبّارين ، وغير ذلك .

الباب الثانى — فيما كان بعد موسىٰ بن عِمْران (عليه السلام) من أخبار يُوشَع بن النون ، ومَن بعده ، وخبر حِزْقيل ، وإلياس ، واليَسَع ، وعيلا ، وأشمويل ، وطالوت ، وجالوت ، وداود ، وسليمان .

الباب الثالث — فى أخبار شعيا ، وأرميا ، وخبر بُخْتَ نَصَّر ، وخراب بيت المقدس ، وعمارته ، وما يتّصل بذلك من خبر عُزَير .

الباب الرابع — فى قصّة ذى النون يونُس بن متّى (عليه السلام)، وخبر بلوقيا.

الباب الخامس — فى خبر زكريّا، ويحيىٰ، وعِمْران، ومريم آبنته؛ وعيسىٰ بن مريم (عليهما السلام).

الباب السادس — فى أخبار الحواريّين الذين أرسلهم عيسىٰ (عليه السلام)، وما كان من أمرهم بعد رفعه؛ وخبر جرجيس.

التذييل علىٰ هذا القسم — ويشتمل علىٰ أربعة أبواب:

الباب الأوّل — فى ذكر الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسىٰ بن مريم.

الباب الثانى — فى خبر نزول عيسىٰ إلىٰ الارض؛ وقتل الدجّال؛ وخروج يأجوج، ومأجوج، وهلاكهم؛ ووفاة عيسىٰ (عليه السلام).

الباب الثالث — فى ذكر ما يكون بعد وفاة عيسىٰ آبن مريم إلىٰ النفخة الأُولىٰ.

الباب الرابع — فى أخبار يوم القيامة والحشر، والمعاد؛ والنفخة الثانية فى الصُّور.

القسم الرابع — فى أخبار ملوك الأصقاع، وملوك الأمم، والطوائف؛ وخبر سيل العَرِم، ووقائع العرب فى الجاهليّة .

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول — فى أخبار ذى القرنين، المذكور فى سورة الكهف . (٩)

الباب الثانى — فى أخبار ملوك الأصقاع، وهم : ملوك مصر، والهند، والصين، وجبل الفتح .

الباب الثالث — فى أخبار ملوك الأمم من الأعاجم، وهم : ملوك الفُرْس الأُول ، وملوك الطوائف منهم ؛ والملوك الساسانيّة ؛ وملوك اليونان والسريان ؛ والكلدانيين ؛ والصقالبة ؛ والبوكبرد ؛ والإفْرِنْجة ؛ والجَلَالقة ؛ وطوائف السودان .

الباب الرابع — فى أخبار ملوك العرب . (ويتّصل به خبر سَيْل العَرِم) .

الباب الخامس — فى أيّام العرب، ووقائعها فى الجاهليّة .

القسم الخامس — فى أخبار الملة الإسلاميّة ؛ وذكر شىء من سيرة نبيّنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأخبار الخلفاء من بعده (رضى الله عنهم) ؛ وأخبار الدولة الأُمَويّة ؛ والعباسيّة ؛ والعلويّة ؛ ودول ملوك الإسلام، وأخبارهم، وما فتح الله (سبحانه وتعالىٰ) عليهم — على ماسنبيّن ذلك — إن شاء الله (تعالىٰ) .

وفيه آثنا عشر بابا :

البـاب الأوّل — فى سيرة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

البـاب الثـانى — فى أخبار الخلفاء من بعـده : أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ، وآبنه : الحَسَن (رضى الله عنهم أجمعين) .

البـاب الثـالث — فى أخبار الدولة الأُمَوِيّة بالشام وغيره .

البـاب الرابـع — فى أخبار الدولة العباسيّة بالعراق، ومصر .

البـاب الخامس — فى أخبار الدولة الأُمَوِيّة بالأندلس، وأخبـار الأندلس بعد آنقراض الدولة الأموية .

البـاب السادس — فى أخبار إفريقيّة، وبلاد المغرب، ومَنْ وَلِيَها من العُمَّال، ومَن آستقلّ منهم بالمُلك .

البـاب السـابع — فى أخبـار مَن نهض فى طلب الخلافة من الطالبيّين، فى مدّة الدولتين : الأُمَوِيّة، والعباسية ، فقُتل دونها، بعد مقتل الحسين آبن علىّ (رضى الله عنهما) .

البـاب الثـامن — فى أخبار صاحب الزنج، والقرامطة، والخوارج بالموصـل .

البـاب التـاسع — فى أخبار من آستقلّ بالمُلك، والممالك، بالبلاد الشرقيّة والشماليّة، فى خلال الدولة العباسيّة، وهم : ملوك خُراسان، وما وراء النهـر، والجبـال، وطَبَرِسْتَان، وغَزْنَة، والغور

وبلاد السند، والهند : كالدولة السامانيّة . والصّفّاريّة، والغزنويّة . والغوريّة، والدّيلميّة الجليّة .

الباب العاشر — فى أخبار ملوك العراق . وما والاه ؛ وملوك المَوْصل . والديار الجَزِيريّة . والبكريّة، والبلاد الشاميّة . والحَلَبيّة : كالدولة الحَمْدانيّة . والدّيلميّة البُوَيهيّة، والسُّلْجُقيّة، والأتابكيّة .

الباب الحادى عشر — فى أخبار الدولة الخُوَارَزْميّة . والجنكزخانيّة ، وهى دولة التتار، وما تفرّع منها .

الباب الثانى عشر — فى أخبار ملوك الديار المصريّة الذين ملكوا فى خلال الدولة العباسيّة ؛ نيابةً عن خلفائها ، وهم : الملوك العُبَيْديّون الذين آنتسبوا إلىٰ علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، وما كان من أمرهم ، وما ملكوه من بلاد المغرب ، وكيف آستولَوْا علىٰ الديار المصريّة ، والبلاد الشاميّة ، والحَلَبيّة ، والثغور ، والسواحل ، وغير ذلك إلىٰ أن آنقرضت دولتهم ؛ وقيام الدولة الأيّوبيّة ، وأخبار ملوكها بمصر ، والشام إلىٰ حين آنقراضها ؛ وقيام دولة الترك ، ومَن مَلَكَ منهم من أبنائهم ، وما حازوه من الأقاليم ، وما فتحوه من الممالك . وغير ذلك من

أخبارهم، وما آستقر فى ملك مُلوك هذه الدولة
إلىٰ حين وضعنا لهذا التاليف فى سنة ... ...
وسبعمائة (فى أيام مولانا السلطان السيد
الأجل المالك الملك الناصر، ناصر الدنيا
والدين، سلطان الإسلام والمسلمين،
أبى الفتح محمد، بن السلطان الشهيد، الملك (١٠)
المنصور، سيف الدنيا والدين، أبى المظفر
قلاون، الصالحىّ. خلد الله ملكه علىٰ ممر
الزمان، وسقىٰ عهد والده صَوْب الرحمة
والرِّضوان، ببركة سيد ولد عدنان!)

هذا مجموعُ ما يشتمل عليه هذا الكتاب، من فنون وأقسام وذيول وأبواب. ثم ينطوى كل باب منها علىٰ فصول وأخبار، ويحتوى علىٰ وقائع وآثار.

ولما آنتهت أبوابه وفصوله، وآنحصرت جملته وتفصيله، ترجمتُه:

بنهاية الأَرَب في فنون الأَدَب

وأتيتُ فيه بالمقصود والغرض، وأثبتُّ الجوهر ونفيتُ العَرَض، وطوّقتُه بقلائد من مقولى، ورصّعتُه بفرائد من منقولى. فكلامى فيه كالسارية تلتها السحائب، أو السرِيّة رَدِفَتْها الكتائب. فما هو إلّا مترجِمٌ عن فنونه، وحاجب لعيونه.

وما أوردتُ فيه إلّا ماغلب علىٰ ظنّى أنّ النفوس تميل إليه، وأن الخواطر تشتمل عليه. ولو علمتُ أنّ فيه خطأً لقبضتُ بنانى، وغضضتُ طَرْفى، ولو خَبَرتُ طريق

المعترض لعطفتُ عِنانى ، وثنيتُ عِطفى . لكنِّى تبعتُ فيه آثار الفضلاء قَبْلى ، وسلكتُ منهجهم فوصلتُ بحبالهم حبلى . فإنْ يكن آعتراض ، فعلىَّ عُلاهم لا علىَّ العار . وقد علمتُ أنه مَن صنّف كتابا فقد آستهدف ، وأصمّ الأسماع وإنْ كان لبعضها قد شنّف .

وخليق للواقف عليه أن يسُدّ مايجد به من خَلَل ، وأن يغفر ما يلمح فيه من زَلَل . فأسبِلْ عليها سِترَ معروفك الذى سترتَ به قِدمًا علىٰ عَوارى . والذى أدّى إليه آجتهادى من تأليفه فقد أصدرتُه . والذى وَقَفَتْ عنده غايتى فقد أوردتُه . قد تبلّغتُ فيه وُسعى ، لٰكنْ ليس من عثرة الكِتاب أمان . وبالله سبحانه المستعان ! وعليه أتوكّل ، واليه أتضرّع فى التيسير وأتوسل ، ومن فضله أستمدّ الصواب ، وباسمه أستفتح الكتاب[(١)] !

---

(١) ورد فى النسخة الفوتغرافية التى آعتمدنا الطبع عليها (وهى المحفوظة بكتبخانة الكوپرلى بالقسطنطينية) مانصه فى هذا الموضع : "هذا آخر الفهرست هذا الكتاب . ولنبتدئ إن شاء الله تبارك وتعالىٰ بما بدأ به مؤلفه عفا الله تعالىٰ عنه وهو الفن الأوّل . ونرجو بعون الله وحوله وقوته الإتمام بسلام . وصلى الله وسلم علىٰ أشرف الأنام ، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام" — وهى من زيادات الناسخ .

الفن الأوّل (١١)

في السماء والآثار العُلويّة، والأرض والمعالم السُّفليّة

وقد أوردتُ في هذا الفن نُبذة من وصف السماء، التي هي قبلة الدعاء، وباب الرجاء؛ والكواكب السيّارات ذوات السنا والسناء؛ والملائكة الذين هم أولو أجنحة، مثنىٰ، وثُلاثَ، ورُباع؛ والسحائب التي تجود بوَبْلها فتعدلُ في قَسْمها بين السهل واليَفاع؛ والرعدِ الذي إن وَنَتْ يَحُثُّها؛ والريح الذي إنِ آجتمعت يبُثُّها؛ والبرق الذي شُبِّه ببنانِ الحاسب والكفّ الخضيب؛ والثلج الذي خلَع علىٰ الأرض رداء المشيب؛ وقوس السَّحاب الذي تنكَّبهُ الجوُّ فأفرغ عليه مُصَبَّغات الحُلَل، ورمىٰ الجدْب ببنادق البَرَد فتباشرت بالخصب أهل الحِلَل؛ والنِّيران وعُبَّادِها وعَدَدِها، والمياه وأمدادها ومَدَدِها؛ والليالي والأيام، والشهور والأعوام؛ والسَّنةِ وفصولِها ومباديها، والأعيادِ والمواسم ومُتَّخِذِيها؛ والأرضِ والجبال، والبراري والرمال؛ والجزائرِ والبحار، والعيون والأنهار؛ وطبائعِ البلاد، وأخلاقِ مَن سكنها من العبّاد؛ والمباني والمعاقل، والقصور والمنازل.

وجعلتهُ خمسة أقسام يُستدلُّ بها عليه، ويُتَوَصَّل من أبوابها إليه.

القســـم الأوّل

فى السماء وما فيها

وفيــه خمســة أبواب :

الباب الأوّل

من القسم الأوّل من الفن الأوّل

---

١ — فى مبدإ خلق السماء

قال الله تعالى : ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ .

§ والسماء تُذَكَّر وتُؤنَّث .

فشاهد التذكير قول الله (عزّ وجلّ) : ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ ؛ وقول الشاعر :

فلو رَفَعَ السماءُ إليه قوما ، * لَحِقْنا بالسماء مع السّحاب !

وشاهد التأنيث، قوله (تبارك وتعالى) : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ؛ وقول الشاعر :

* يا ربِّ ، ربَّ الناس فى سماته(١) ! *

---

(١) هكذا فى الأصول، أى بالتاء المثناة . ولو همزت، لفات الشاهد .

٢ — ذكر ما قيل فى أسماء السماء وخَلْقِها

قد نطقت العرب السماء بأسماء .

منها : الجَرْباء . وسُمِّيَتْ بذلك لكثرة النُّجوم بها .

ومنها : الخَلْقاء . لملاستها .

و برقع[(١)] . والرَّقيع . ومنه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن مُعاذ : «لقد حكمتَ فيهم بحُكم الله من فوق سبع أرقعة » . أى من فوق سبع سماوات .

ومنها : الطرائق . قال الله تعالىٰ : ﴿ولَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ .

والسماء مخلوقة من دُخَان .

---

٣ — حُكى فى سبب حدوثه

أنَّ الله تعالىٰ خلق جوهرة ، وَصف من طولها وعرضها عظما . ثم نظر إليها نظرَ هيبة ، فَأَمَاعت ، وعلاها من شدّة الخوف زَبَدٌ ودُخَان . فخلق الله من الزبد الأرضَ ، وفتقها سبعا ؛ ومن الدخَان السماءَ ، وفتقها سبعا . ودليله قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ . قال : ولما فتق الله تعالىٰ السماوات ، أوحىٰ فى كل سماء أمرها . وٱختلف المفسّرون فى الأمر ، ما هو؟ فقال قوم : خلق فيها جبالا من بَرَد وبحارا ؛ وقال قوم : جعل فى كل سماء كوكبا ، قدّر عليه الطلوع والأفول ، والسير والرجوع . وقال قوم : أسكنها ملائكة سخّرهم للعالَم السُّفلىّ ، فوكّل طائفة بالسحاب وطائفة بالريح ، وجعل منهم حَفَظَة لبنى آدم وكاتِبِين لأعمالهم ومستغفِرِين لذُنوبهم .

---

(١) كزبرج وقنفذ كما فى القاموس .

الباب الثانى

١ — فى هيئتها

ذهب المفسّرون لكتاب الله عزّ وجلّ أنّ السماء مسطوحة ، بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾.

وقال تعالىٰ : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾.

ويُطلق علىٰ مجموعها فَلَكٌ ، لقوله تعالىٰ : ﴿ وكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾. (١٢)

وذهب الحَسَن إلىٰ أنّ الفَلَكَ غيرُ السماوات ، وأنّه الحامل بأمر الله تعالىٰ للشمس والقمر والنجوم.

قالوا : ولمّا فتق الله تعالىٰ رَتْق السماوات ، جعل بين كلّ سماء وسماء مسيرةَ خمسمائة عام.

ورُوى عن أبى هُرَيْرة (رضى الله عنه) ، قال : "بينما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالسٌ هو وأصحابه ، إذ أتىٰ عليهم سَحاب . فقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) هل تدرون ماهذا؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا العَنان[1] ، هذه رَوَايا الأرض ، يسوقها الله تعالىٰ إلىٰ قوم لايشكرونه ولا يدْعُونه . ثم قال : أتدرون ما فوقكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا الرقيع : سقف محفوظ ، وموج مكفوف . ثم قال : هل تدرون ما بينكم و بينها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : بينكم و بينها خمسمائة سنة . ثم قال : هل تدرون مافوق ذلك؟ قالوا : الله و رسوله أعلم . قال : سماءٌ فى بُعد ما بينهما

(١) العنان السحاب . واحدته بهاء . (قاموس).

خمسمائة سنة . قال ذلك حتّى بلغ سبع سماوات، ما بين كل سماءين، ما بين السماء والأرض . ثم قال: هل تدرون مافوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إنّ فوق ذلك العرش. وبينه وبين السماء بعد مابين السماءين. ثم قال: هل تدرون ماتحتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إنّها الأرض. ثم قال: أتدرون ما تحت ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال: إنّ تحتها أرضا أخرى، بينهما مسيرة خمسمائة سنة. حتّى عدّ سبع أرضين، بين كل أرض وأرض خمسمائة سنة ". أخرجه أبو عيسى الترمذىّ، فى "جامعه".

ويُروى عن آبن عبّاس (رضي الله عنهما) أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان جالسا بالبطحاء، بين أصحابه، إذ مرّت عليهم سحابة. فنظروا إليها . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هل تدرون ما آسم هذه؟ قالوا: نعم. هذا السحاب. فقال (صلى الله عليه وسلم): والمُزْن. قالوا: والمُزْن. قال: والعَنَان. قالوا: والعَنان. فقال: هل تدرون ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لاندرى. قال: خمسمائة عام. وبينها وبين السماء التى فوقها كذلك. (حتّى عدّ سبع سماوات). ثمّ قال: وفوق السماء السابعة بحرٌ، بينَ أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء (وفى لفظ: كما بين السماء والأرض). وفوق ذلك ثمانية أوْعال، بين أظلافهم وركبهم[1] مثل مابين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم[1] العرش، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض.

وجاء فى رواية أخرى ذكر الكُرسىّ، وقال: « ثم مابين السماء السابعة والكرسىّ مسيرة خمسمائة عام. ثم ما بين الكرسىّ إلى الماء مسيرة خمسمائة عام . والعرش فوق الماء. » ولم يذكر الأوْعال.

---

(١) فى الترمذىّ : أظلافهنّ وركبهنّ ... ... ظهورهنّ .

وجاء فى رواية أخرىٰ ذكر الكرسىّ ، وأنّ السماواتِ فى ضمنه . وهى بالنسبة إليه كحلْقة مُلقاة فى أرض فلاة ، والكُرسىّ بالنسبة إلىٰ العرش كذَرّة مُلقاة فى أرض فلاة فيحاء. (وفى رواية كحلقة).

ورُوى أن أبا ذرّ (رضى الله عنه) قال : "يارسول الله : أىّ آية أُنزلت عليك أعظم؟ قال : آية الكرسىّ . ثم قال : ياأبا ذرّ ! أتدرى ما الكرسىّ ؟ قلتُ : لا ؛ فعلّمنى يارسول الله ، ممـا علّمك الله . فقال : ما السماوات والأرض وما فيهنّ فى الكرسىّ ، إلا كحلْقة ألقاها مُلقٍ فى فلاة . وما الكرسىّ فى العرش ، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ فى فلاة . وما العرش فى المـاء ، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ فى فلاة . وما الماء فى الريح ، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ فى فلاة . وجميع ذلك فى قبضة الله كالحبّة ، وأصغر من الحبّة ، فى كفّ أحدكم . تعالىٰ الله سبحانه" . رواه أبو حاتم فى كتاب العَظَمة .

والقول فى هيئة السماء ، علىٰ مذاهب أصحاب علم الهيئة ، كثير . أغضينا عنه ، لأنه لايقوم عليه دليل واضح . فلذلك ٱقتصرنا علىٰ ذكر المنقول دون المعقول .

فلْنذكُرْ ما جاء فى الأمثال التى فيها ذكر السماء ، وما وصفها الشعراء به وشبّهوها .

٢ — أما الأمثـال

فقولهم : أرفع من السماء ، للبالغة .

وقول الشاعر :

مَن ذا رأىٰ أرضًا بغير سمـاء ؟

إنّ السماء تُرَجّى حين تحتجِبُ .

إنّ السماء ، إذا لم تبـك مُقلتُهـا ، * لم تضحكِ الأرضُ عن شىء من الزَّهَرِ .

٣ — وأما الوصف والتشبيه

فمنه قول عبد الله بن المعتز:

كأنَّ سماءَنا، لمّا تجلّتْ * خِلالَ نُجُومِها عندَ الصَّباحِ،
رياضُ بنفسجٍ خَضِلٍ، نَداه * تفتّح بينَــه نَوْرُ الأقاحِ.

وقال آخر:

كأنّ سماءَنا، والشُّهْبُ فيها، * وأصغرُها لأكبرها مُزاحِمْ،
بِساطُ زُمُرُّدٍ نُثِرتْ عليــه * دَنانِــيرٌ تُخالِطُها دَراهِمْ.

ونحوه قول الآخر:

كأنّ سَماءَ الأرض قِطَعُ زُمُرُّدٍ، * وقد فُرِشَتْ فيه الدَّنانيرُ للصَّرْفِ.

وقال آخر:

ورأيتُ السَّماءَ كالبَحْرِ إلّا * أنَّ مَرْسُوبَه من الدُّرِّ طافي. (١٣)
فيه ما يَمْلَأُ العيونَ كبيرٌ * وصغيرٌ ما بينَ ذلكَ خافي.

وقال التَّنوخيّ يصف ليلةً:

كأنما نُجُــومُها، * نُصْبَ عُيونِ الرُّمَّقِ،
دَراهِمٌ قَــد نُثِرَتْ * علىٰ بِساطٍ أزرَقِ.

وقال أبو طالب الرَّقّيّ:

وكأنّ أجرامَ السماءِ، لَوامعًا، * دُرَرٌ نُثِرْنَ علىٰ بِساطٍ أزرَقِ.

وقال ظافر الحدّاد:

كأنّ نُجُومَ الليلِ، لمّا تبلّجتْ، * توقُّــدُ جَمْرٍ في خِلالِ رَمادِ.
حكىٰ، فوق ممتدّ المجرّة شَكْلُها، * فَواقِــعَ تَطْفُو فَوْقَ لُجّةِ وادِي.

وقال آخر:

كأنّ النجومَ ، نجومَ السما ، * وقد لُحْنَ للعَيْنِ من فَرْط بُعْدِ،
مَسَاميرُ من فِضّةٍ سُمِّرَتْ * على وجه لَوْحٍ من اللّازَوَرْدِ .

وقال محمد بن عاصم :

تُرى صَفْحةُ الخَضْراء، والنّجْمُ فوقَها ، * ككفِّ سَدُوسىّ بَدَا فيه دِرْهَمُ .
تُرى ، وعلى الآفاق أثوابُ ظُلمةٍ ، * وأزْرارُها منها شَمالٌ ومِرْزِمُ[1] .

٤ — ومما قيل فى الفَلَك

قال أبو العَلاء المَعَرّىّ :

ياليتَ شِعْرى ! وهَلْ لَيْتٌ بنافِعةٍ؟ * ما ذا وراءَكَ أو ما أنتَ يا فَلَكُ ؟
كَمْ خاضَ فى إثْرِكَ الأقوامُ وٱختلفُوا * قِدْمًا ! فما أوْضَحُوا حقًّا ولا تَرَكُوا .
شمسٌ تَغِيبُ ويَقْفُو إثْرَها قَمَرٌ ، * ونُورُ صُبحٍ يُوافِى بَعْدَه حَلَكُ .
طَحَنْتَ طَحْنَ الرَّحى من قَبْلِنا أُمَمًا * شَتّى ، ولم يَدْرِ خلقٌ أيّةً سَلَكُوا .
وقال ، إنّكَ طَبْعٌ خامِسٌ ، نَفَرٌ . * عَمْرِى ! لقد زعموا بُطْلًا وقد أفَكُوا !
رامُوا سَرائرَ للرحْمن حَجّبَها ، * ما نالهُنّ نبىٌّ ، لا ولا مَلَكُ .

وقال الرئيس أبو علىّ بن سينا[2] :

بربّكَ ! أيُّها الفَلَكُ المُدارُ ، * أقَصْدٌ ذا المَسيرُ أمِ ٱضْطرارُ ؟
مَدارُكَ ، قُلْ لنا ، فى أىّ شىءٍ؟ * ففى أفهامِنا مِنكَ ٱنبهارُ !

---

(١) المرزم : الثابت القائم على الأرض .

(٢) قال صاحب عيون الأنباء (ج ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩) إن بعض الناس ينسب هذه القصيدة لابن سينا وليست له ، ونص على أنها لابن الشبل البغدادى وقد أوردها فى خمسين بيتا .

وعِندكَ تُرفَعُ الأرواحُ؟ أم هَل * مَعَ الأجسادِ يُدرِكُها البَوارُ؟
وفيكَ الشَّمسُ رافِعةٌ شُعاعًا ، * بأجنِحَةٍ قَوادِمُها قِصارُ؟
قُطُوفٌ ، ذِي النُّجومُ أمِ اللآلِي؟ * هِلالٌ أم يدٌ فيها سِوارُ؟
وشُهْبٌ ، ذِي المَجَرَّةُ أم ذُبالٌ (١) * عليها المَرْخُ (٢) يُقدَحُ والعَفارُ (٣)؟
وترصيعٌ ، نُجومُكَ أم حَبابٌ * تُؤلِّفُ بينها اللُّجَجُ الغِزارُ؟
تُمَدُّ رُقومُها لَيلًا وتُطوَى * نَهارًا، مِثلَ ما طُوِيَ الإزارُ!
فكَمْ بِصِقالِها صَدِئَ البَرايا ! * وما يَصْدا لها أبدًا غِرارُ.
وتَبدو ثُمَّ تَخْنِسُ راجِعاتٍ * وتكنِسُ مِثلَ ما كَنَسَ الصِّوارُ (٤).
فبَيْنا الشَّرقُ يُقْدِمُها صُعُودا * تَلَقَّاها من الغَرْبِ انْحِدارُ .
هي العَشْواءُ ، ما خَبَطَتْ هَشِيمٌ * هي العَجْماءُ ، ما جَرَحَتْ جُبارُ (٥).

وقال أبو عُبادة البُحتُرِيّ :

أناةً! أيُّها الفَلَكُ المُدارُ! * أنَهْبٌ ما تُصرِّفُ أم خِيارُ؟
ستَبلَى مِثلَ ما نَبلَى، وتَفنَى * كما نَفنَى ، ويُؤخَذُ مِنكَ ثارُ.

(١) الذبال : الفتائل .

(٢) المرخ : شجر سريع الوَرْى كثيره . وقد وصفه المؤلف فيا بعد (ص ٣٩) بأنه شجر تحتك بعض أغصانه ببعض فتورى نارا .

(٣) العفار : شجر يتخذ منه الزناد وهو من شجر النار .

(٤) الصوار كالصيار بكسر الصاد وضمها : القطيع من البقر .

(٥) الجبار (بضم الجيم) الهدر .

الباب الثالث

من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ — فى ذكر الملائكة

(١٤) قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أَطَّتِ(١) السماء، وحُقّ لها أن تَئِطّ . ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ، إلّا وعليه مَلَك قائم أو راكع أو ساجد".

والملائكة أولو أجنحة : مثنىٰ، وثُلاثَ، ورُباعَ، وأكثر من ذلك . فإنه قد ورد أن جبريل (عليه السلام) له ستمائة جناح . وهى الصورة التى رآه النبىّ (صلى الله عليه وسلم) فيها مرّتين :

إحداهما فى الأرض، وقد سدّ ما بين الخافقَين . ووصفه الله تعالىٰ بالقوّة، فقال تعالىٰ : ﴿ذِى قُوّةٍ عِنْدَ ذِى العرشِ مَكينٍ﴾ . ومن قوّته، أنه اقتلع مدائن قوم لوط، وكانت خمس مدائن، من الماء الأسود، وحملها علىٰ جناحه . ورفعها إلىٰ السماء، حتّى إنّ أهل السماء يسمعون نُبَاح كلابهم، وأصوات دَجاجهم، ثُمّ قلبها .

والمرّة الثانية، رآه (صلى الله عليه وسلم) عند سِدْرَة المنتهىٰ . قال الله تعالىٰ : ﴿ولقد رآه نَزْلَةً أُخرى عِندَ سِدْرةِ المُنْتَهىٰ﴾ .

وكان هبوط جبريل (عليه السلام) علىٰ الأنبياء (صلوات الله عليهم) ورجوعه فى أَوْحَىٰ(٢) من رَجْع الطَّرْف .

---

(١) أطّ : صوّت .

وعُظماء الملائكة أربعة، وهم : إسرافيل، وميكائيل، وجبرائيل، وعزرائيل . وأقربهم من الله تعالىٰ منزلةً، إسرافيل .

فإذا أراد الله تعالىٰ بوحْي، جاء اللوحُ المحفوظُ حتّى يقرعَ جَبْهة إسرافيل، فيرفع رأسه . فينظر فيه . فإن كان إلىٰ السماء، دفعه إلىٰ ميكائيل؛ وإن كان إلىٰ الأرض، دفعه إلىٰ جبرائيل؛ وإن كان بموت أحد، أمر به عزرائيل . صلوات الله عليهم !

وقد رُوى فى قوله تعالىٰ : ﴿ فالمُدَبِّرَاتِ أمْرًا ﴾، هم أربعة من الملائكة : جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل . فجبريل علىٰ الجنود والرياح، وميكائيل علىٰ القَطْر والنبات، وعزرائيل علىٰ قبض الأرواح، وإسرافيلُ يبلِّغهم مايؤمَرون به .

وجعل الله تعالىٰ لهم أن يتمثلوا للبشر علىٰ ماشاءوا من الصور، كما كان جبريل يتمثل لسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علىٰ صورة دِحْية الكلبيّ مرارا، وفى صورة غيره من الرجال؛ وكما تمثّل لمريم عليها السلام بشرا سويا . ونزلت الملائكة فى غزوة بدر علىٰ الخيول المسوّمة، وقد سدلوا ذوائب عمائمهم علىٰ مناكبهم . وهم مخلوقون من نور . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين !

الباب الرابع

من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ — فى الكواكب السبعة المتحيرة

قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِى الْكُنَّسِ ﴾ . ذهب المفسرون إلىٰ أنهـا هى الكواكب السبعة : زُحلُ، والمشترِى ، والمِرّيخ، والشمسُ، والزُّهَرة، وعُطارِدٌ، والقمر .

وقالوا : إن هذه الكواكبَ هى المعنيَّة بقوله تعالىٰ: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .

وسميت كُنَّسا لأنها تجرى فى البروج ثم تَكْنِس أى تستتر كما تكنس الظباء، وخُنسا لآستقامتها ورجوعها . وقيل الخُنَّس والكُنَّس منها خمسة، دون الشمس والقمر . وسميت خُنَّسا لأن الخُنُوس فى كلام العرب الآنقباض . وفى الحديث الشريف "الشيطانُ يُوَسْوِس للعبد، فإذا ذكر اللهَ تعالىٰ خَنَس" أى آنقبض ورجع . فيكون فى الكوكب بمعنىٰ الرجوع . وكُنَّسا من قول العرب كَنَس الظبيُ اذا دخل الكِنَاس، وهو مقرّه؛ ويكون فى الكوكب آختفاءه تحت ضوء الشمس .

وأسمـاء هذه الكواكب عند العرب مشتقة من صفاتها .

§ فقالوا فى زحل : زَحَل فلانٌ إذا أبطأ ، وبذلك سمِّى هذا الكوكب لبطئه فى السماء. وقيل الزَّحْل والزَّحِيل[(١)] الحقد وهو فى طبعه . وهذا الكوكب عند المفسرين هو المعنىٰ بقول الله عز وجل ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .

---

(١) الذحل الذى بمعنى الحقد بالذال المعجمة ولم يذكره أحد من أئمة اللغة فى الزاى . فهو آشتباه على الناقل . والذى "فى اللسان" أنه سمى بذلك لبعده .

§ وقالوا فى المشترِى : إنه إنما سمِّى بذلك لحسنه، كأنه آشترىٰ الحسنَ لنفسه. وقيل لأنه نجم الشراء والبيع، ودليل الأموال، والأرباح .

§ وقالوا فى المِرِّيخ : إنه مأخوذ من المَرْخ (وهو شجر تحتك بعض أغصانه ببعض فُتورِى نارا) فسمِّى بذلك لآحمراره . وقال آخرون المرِّيخ سهمٌ لاريش له إذا رُمِىَ به لايستمرّ فى ممرّه. وكذلك المِرِّيخ، فيه آلتواء كثير فى سيره وحكمه، فشبه بذلك .

§ وقالوا فى الشمس : إنها لما أن كانت واسطة بين ثلاثة كواكب عُلْوية وثلاثة سفلية، سميت بذلك لأن الواسطة التى فى المِخْنَقة تسمَّى "شمسة" .

§ وقالوا فى الزُّهَرَة : إنها مشتقة من الزاهر، وهو الأبيض النَّيِّر من كل شىء . (١٥)

§ وقالوا فى عطارد: إنه النافذ فى الأمور، ولهذا سمِّى بالكاتب. وهكذا هذا الكوكب كثير التصرف مع مايلابسه ويقارنه .

§ وقالوا فى القمر : إنه مأخوذ من القُمْرة، وهى البياض، والأقمر الأبيض .

§ والفُرس تسمِّى هـذه الكواكب بلغتها "كِيوان"، ويعنون به زُحَل؛ و"تير"، ويعنون به المشترِىَ (وبعضهم يسميه "البِرْجِيس")؛ و"بَهْرام" ويعنون به المِرِّيخ؛ و"مِهْر" ويعنون به الشمس ؛ و "أَناهيد" ويعنون به الزُّهَرَة (وبعضهم يسميها "بِيدُخْت")، و"هِرْمِسْ" (ويعنون به عُطارد)، و"ماه" (ويعنون به القمر) .

§ وقد جمع بعض الشعراء أسماء هـذه الكواكب فى بيت واحد من بيتين يمدح بهما بعض الرؤساء فقال :

لازلتَ تَبْقىٰ وتَرْقىٰ للعُـلَا أبدًا * مادامَ للسَّبْعةِ الأفلاكِ أحْكامُ!

مِهْرٌ، وماهٌ، وكِيوانٌ، و تيرُ معًا * وهِرْمِسٌ، وأَناهيدٌ، وبَهْرامُ!

وقال أبو إسحاق الصابى :

نَلِ المُنَىٰ فى يَوْمكَ الأجْوَدِ، * مُسْتَنْجِحا بالطالع الأسْعدِ!
وَٱرقَ كَمَرْقىٰ زُحَلٍ صاعِدًا * إلىٰ المَعَالِى أشرفَ المَقْصِدِ!
وفِضْ كَفَيْضِ المُشْتَرِى بِالنَّدىٰ * إذا ٱعْتَلىٰ فى أُفْقِه الأبعدِ!
وزِدْ علىٰ المِرّيخ سَطْوًا بِمَنْ * عاداكَ مِنْ ذى نَخْوةٍ أَصْيدِ!
وٱطْلُعْ كما تَطْلُعُ شمسُ الضُّحىٰ * كاسفةً للحِنْدِسِ الأسْوَدِ!
وخُذْ من الزُّهرةِ أفعالَهَا * فى عَيْشكَ المُسْتَقْبَلِ الأرغدِ!
وَضَاهِ بالأقْلامِ فى جَرْيِها * عُطارِدَ الكاتبَ ذا السُّودَدِ!
وبَاهِ بالمَنْظَرِ بَدْرَ الدُّجىٰ * وٱفضُلْهُ فى بَهْجَتِه وٱزْدَدِ!

وقد ٱختُص كُلُّ كوكب من هذه الكواكب بقول . سنذكر من ذلك ماتقوم به الحجة، وينهض به الدليل من الكتاب والسنة، وما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكرها، وما ورد فى ذلك من الأوصاف والتشبيهات : نظما ونثرا مما وقفتُ عليه فى أثناء مطالعتى لكتب الفضلاء وتصانيفهم ودواوينهم. وعدلتُ عن أقوال المنجمين لما فيها من سوء الطوية وقبح الاعتقاد : لأن منهم من يرىٰ أن للنجوم فى الوجود تأثيرات وأفعالا . أعاذنا الله تعالىٰ من ذلك!

٢ — ذكر ما قيل فى الشمس

(والشمس هى النيِّر الأعظم)

وقد ذهب بعض المفسرين لكتاب الله تعالىٰ إلىٰ أن نور الشمس والقمر فى سائر السماوات بدليل قول الله عز وجل ﴿وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ .

وجاء فى الحديث عن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "الشمس والقمر وجوههما إلىٰ السماء وأقفاؤهما إلىٰ الأرض" وفى حديث آخر "وجوههما إلىٰ العرش وأقفاؤهما إلىٰ الأرض". وفى حديث آخر "ان الشمس تكون فى الصيف فى السماء الخامسة، وفى الشتاء فى السماء السابعة تحت عرش الرحمن".

§ وزعموا أن حركتهما وحركة سائر الكواكب مستقيمة غير مستديرة، وأن الشمس تقطع سماء الدنيا فى يومها، وتغيب فى الأرض فى عين حَمِئَةٍ . ومعنىٰ حَمِئة ذات حَمْأة .

وقد جاء فى تفسير قوله تعالىٰ ﴿ والشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أى إلىٰ موضع قرارها، لأنها تجرى إلىٰ أبعد منازلها فى الغروب، ثم ترجع؛ ومن قرأ "لامستقرّ" لها أى هى دائبة السير ليلا ونهارا . وهى قراءة شاذة (١) .

وقد قال الله تعالىٰ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والقَمَرَ دائِبَيْنِ ﴾ وروى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنها تجرى لمستقر لها تحت العرش، فتخرّ ساجدة؛ فلا تزال كذلك حتّىٰ (١٦) يُؤْذَن لها فى الطلوع . ويوشك أن يقال لها : ٱرجعى من حيث جئت؛ وذلك طلوعها من مغربها .

وذهب وَهْب بن مُنَبِّه إلىٰ أن الشمس علىٰ عجلة لها ثلثمائة وستون عروة، وقد تعلق بكل عروة مَلَكٌ؛ يجرّونها فى السماء ودونها البحر المسجور فى موج مكفوف كأنه جبل ممدود فى الهواء، ولو بدت الشمس من ذلك البحر لأحرقت ماعلىٰ وجه الأرض من شىء حتّىٰ الجبال والصخور. ورُوى عن كعب أنه قال: "خلق الله القمر من نور وخلق الشمس من نار".

(١) هذا الرأى هو الذى ٱستقر عليه علماء الفلك أخيرا، بعد التحقيق والتدقيق . فللّه درّ صاحبه! فإنه، وإن كان قد خالفه فيه الدهماء، لكنه قد أقرّه الراسخون فى العلم الآن .

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ . والسراج لا يكون إلا من نار، وهما مضيآن لأهل السماوات، كما يضيآن لأهل الأرض .

وقد تقدّم الدليل على ذلك .

٣ — ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الشمس

يقال : أشهرُ من الشمس . أحسنُ من الشمس . أدلُّ على الصبح من الشمس .

ومن أنصاف الأبيات :

* وهَلْ شمسٌ تكونُ بلا شُعاعِ" *   * فى طَلْعةِ الشمسِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ *
* ولو لم تَغِبْ شمسُ النهار لَمُلَّتِ *   * الشمسُ نَمّامةٌ والليلُ قَوّادُ *
* الشمسُ طالعةٌ إنْ غُيِّبَ القَمَرُ *   * ورُبّما تَنْكَسِفُ الشمسُ *
* والشمسُ تَحُطُّ فى المَجْرى وترتفعُ *   * إذا الشمسُ لم تغرُبْ، فلا طَلَعَ البَدْرُ *

ومن الابيات قول الطائى :

فإنّى رأيتُ الشمسَ زِيدَتْ مَحبّةً * إلى الناس إذ لَيْسَتْ عليهم بسَرْمَد .

وقال علىّ بن الجهم .

والشَّمْسُ لولا أنها مَحْجُوبةٌ * عن ناظرَيْكَ لما أضاءَ الفَرْقَدُ .

وقال أبو تمّام :

وإنّ صَريحَ الرأى والحَزْمِ لامرئٍ * إذا بلغَتْهُ الشمسُ، أن يَتَحوّلا .

وقـــوله :

وكلُّ كُسوفٍ في الدَّرارِي شنيعةٌ، * ولكنّه في الشَّمسِ والبَدْرِ أشنَعُ.

وقـــوله أيضا :

أعِنْدكَ الشمسُ تجرِي في منَازِلِها، * وأنتَ مُشتَغِلُ الالحاظِ بالقَمرِ؟

وقال البُحتُريُّ :

كَذاكَ الشَّمسُ تبْعُدُ أنْ تُسامَى، * ويَدْنُو الضَّـوْءُ منهـا والشُّعاعُ.

وقال ابن الرومى :

ورأيتُهُ كالشَّمْسِ: إن هي لم تُنَلْ * فالدِّفْء منهـا والضِّياء يُنَـالُ.

وقال أيضـا :

كالشَّمْسِ لاتَبْـدُو فَضِـيلتُها * حتَّى تُغَشَّى الأرضُ بالظُّـلَمِ.

وقال أيضـا :

كالشمسِ في كَبِدِ السماءِ محلُّها، * وشـعاعُها في سـائرِ الآفاقِ.

وقال العبّاس بن الأحنف :

هِيَ الشمسُ مَسْكَنُها في السماء، * فعزِّ الفُـــؤادَ عَزاءً جميـــلا!

وقال أبو عبيد البكرى :

والشمسُ يُستَغْنَى، إذا طلَعتْ، * أن يستَضاءَ بغرَّة البَـــدْرِ.

وقال أبو الطيب المتنبي :

كالشمسِ لاتبتغي بمـا صَنَعتْ * مَنْفَعَةً عِنْدَهُــمْ ولا جاهَــا.

وقال ٱبن لَنْكَك البصرىّ :

وهَبْكَ كالشَّمس فى حُسنٍ، ألم تَرَها * يُفَرُّ منها إذا مالَتْ إلى الضَّرر؟

وقال ٱبن عَبَّاد :

فقلتُ : وشمسُ الضُّحىٰ تُحتَمىٰ * إذا بَسطَتْ فى المَصيف الأذىٰ.

وقال ابن مسعويه الخالدىّ :

لايُعْجِبَنَّكَ حُسْنُ القَصْرِ تنزِلُه * فَضِيلةُ الشمسِ لَيْسَتْ فى مَنازِلها.

وقال أبو الفتح البُسْتِىّ :

فالحرُّ حُرٌّ عَزِيزُ النَّفْسِ حَيْثُ ثَوىٰ، * والشَّمسُ فى كُلِّ بُرْجٍ ذاتُ أنوار.

---

٤ — ذكر ما جاء فى وصف الشمس وتشبيهها

§ من ذلك قول الوزير المهلَّبىّ :

الشَّمْسُ فى مَشْرِقها قد بَدَتْ * مُنِيرةً لَيْسَ لها حاجِبُ.

كأنَّها بُوتَقَةٌ أُحْمِيتْ، * يَجُولُ فيها ذهبٌ ذائبُ.

وقال ظافر الحدّاد :

اُنظُرْ لقَرْن الشَّمسِ بازِغَةً * فى الشَّرق تَبْدُو ثم تَرْتَفِع!

كَسَبِيكَةِ الزَّجَّاج ذائِبَةً * حَمْراءَ يَنْفُخُها فتَتَّسِع.

وقال أبو هلال العسكرىّ :

والشمسُ واضِحَةُ الجَبِينِ كأنَّها * وجهُ المَلِيحةِ فى الخِمَار الأزرق!

وكأنّها عند انبساطِ شُعاعِها * تِبْرٌ يذوبُ على فُروعِ المَشْرِقِ!

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي:

أَوَ مَا ترى شمسَ الأَصيلِ عليلةً * تَزْدادُ من بينِ المَغارِبِ مَغْرِبا؟

مالَتْ لتحجُبَ شخصَها فكأنّها * مَدّتْ على الدُّنيا مُلاءً مُذْهَبا!

§ ومما وصفت به — وقد قابلت القمر — قول الشاعر:

أما ترى الشمسَ، وهي طالعةٌ، * تمنعُ عنّا إدامةَ النَّظَرِ؟

حمراءَ صفراءَ في تلوُّنِها * كأنّها تشتكي من السَّهَرِ.

مثلَ عَروسٍ غداةَ ليلتِها * تُمسِكُ مِرآتَها من القمرِ.

وقال مؤيد الدين الطغرائي، عفا الله عنه ورحمه:

وكأنّما الشمسُ المنيرةُ إذ بدَتْ، * والبدرُ يجنحُ للمغيبِ وما غرَبْ، (١٧)

متحاربانِ: لِذا مِجَنٌّ صاغَهُ * من فِضّةٍ، ولِذا مِجَنٌّ من ذَهَبْ.

§ ومن أحسن ما وصفت به في الطلوع والزوال والغروب قول أعرابية:

مُخَبَّأةٌ: أمّا إذا الليلُ جَنّها * فتخفى وأمّا في النّهارِ فتظهرُ.

إذا انشقّ عنها ساطِعُ الفجرِ وانجلى * دُجى الليلِ وانجابَ الحجابُ المُسَتَّرُ

ألبِسَ عَرْضُ الأفقِ لونًا كأنّه * على الأفقِ الغربيّ ثوبٌ معصفرُ

عليها دُرُوعُ الزَّعفرانِ، يشوبُه * شُعاعٌ تلالا فهو أبيضُ أصفرُ:

ترى الظلَّ يُطوى حين تبدو وتارةً * تراه إذا زالَتْ عن الأرضِ يُنشَرُ.

فأفنَتْ قُرونًا، وهي في ذاك لم تزلْ * تموتُ وتحيا كلَّ يومٍ وتُنشَرُ!

وقال آخر:

وبدا لنا تُرسٌ من الذّهب الذى * لم يُنتزَعْ من معْدِنٍ بتعمُّل.
مِرآة نُور لم تُشَنْ بِصِياغة * كلّا ولا جُلِيَتْ بكفّ الصَّيْقَل.
تسمُو إلىٰ كَبِد السماء كأنّها * تبغِى هُناكَ دِفاعَ أمرٍ مُعْضِل.
حتّى إذا بلَغتْ إلىٰ حيثُ انتهتْ * وقفتْ كوقْفة سائلٍ عن منْزِل.
ثم انثنَتْ تبغِى الحُدورَ كأنها * طيرٌ أسَفَّ مَخافةً من أجْدَلِ.

§ ومما وصفت به، وقد قابلت الغيم، قول ابن المعتز:

تظَلُّ الشمسُ ترمُقُنا بطَرْفٍ * خفِيٍّ لحظُه من خلْفِ سِتْرِ.
تُحاوِلُ فَتْقَ غيمٍ وهو يأبىٰ * كعِنّينٍ يُحاوِلُ نَيْلَ بِكْرِ.

وقال آخر:

وعيْنُ الشمسِ ترْنُو من بَعيدٍ * رُنُوَّ البِكْرِ من خَلْفِ السُّتُورِ.

وقال محمد بن رشيق:

فكأنَّ الشّمسَ بِكْرٌ حُجِبتْ * وكأنَّ الغَيْمَ سِتْرٌ قد سُتِرْ.(١)

٥ — ذكر شيء مما وصفت به علىٰ طريق الذم

فمن ذلك ماقاله عبد الملك بن عمير، وقد سئل عنها فقال: مُظْهِرة للدّاء، مثقِّلة للهواء، مَبْلاة للثوب، جالبة للّهب.

وقال آخر: الشمس تشحب اللون، وتغيِّر العَرَق، وتُرخِى البدن، وتُثير المِرَّة. إذا احتجمت فيها، أمرضتك؛ وإن أطلت النوم فيها، أفلجتك؛ وإن قرُبت منها، صرت زَنْجِيًّا، وإن بعدت عنها، صرت صقلِيًّا.

(١) كذا بالأصل ولعل يد الناسخ حرفته عن "سدل" كما هو ظاهر.

وقال ابن سنا الملك :

لا كانت الشمسُ! فكَمْ أصْدأتْ * صَفحةَ خدٍّ كالحُسام الصَّقيلْ!
وكَمْ وكَمْ صَدّتْ بِوادِى الكرَى * طيفَ خيالٍ جاءنى عن خَليلْ!
وأعدمَتْنِى من نُجومِ الدُّجى * ومنه روْضًا بين ظِلٍّ ظليلْ!
تكْذِبُ فى الوعْدِ، وبُرهانُه * أنّ سَرابَ القفرِ منها سَليلْ.
وهْىَ إذا أبصَرَها مُبصرٌ * حَديدُ طرفٍ، راحَ عنها كَليلْ.
ياعِلَّةَ المَهمُومِ، يا جِلدةَ الـ * ـمحموم، يا زَفرةَ صَبٍّ نحيلْ!
ياقَرْحَةَ المَشْرِق عند الضُّحى، * وسَلْحَةَ المَغرِبِ عِندَ الأصيلْ!
أنتِ عَجُوزٌ، لِمْ تبرَّجْتِ لِى، * وقد بَدَا منكِ لُعَابٌ يَسيلْ؟

وقال التيفاشى - عفا الله تعالى عنه ورحمه :

فى خِلْقَةِ الشمس وأخلاقِها * شَتّى عُيُوبٌ ستةٌ تُذْكَرُ.
رَمْداءُ، عَمْشاءُ، إذا أصبحَتْ، * عَمياءُ عِندَ الليلِ، لا تُبصِرُ.
ويَغتدِى البدرُ لها كاسِفًا * وجِرْمُها من جِرْمِه أكبرُ.
خُرورُها فى القَيْظِ لا تُتَّقَى * ودِفْؤُها فى القُرِّ مُستَحْقَرُ.
وخُلْقُها خُلْقُ المَليكِ الذى * يَنْكُثُ فى العهد ولا يَصبِرُ.
ليسَتْ بحسناءَ. وما حُسْنُ مَنْ * يَحْسِرُ عنه اللحظُ لا يُبصِرُ؟

وقال أبو الطيب المتنبى :

تُسَوِّدُ الشمسُ منّا بِيضَ أوجُهِنا * ولا تُسَوِّدُ بِيضَ العُذْرِ واللِّمَمِ.
وكان حالُهما فى الحكم واحدةً * لو احتَكَمْنا من الدُّنيا إلى حَكَمِ.

٦ — ذكر ما قيل فى الكسوف

روى أن الشمس كُسفت فى عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ووافق ذلك موتَ إبراهيم بن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال الناس: إنما كسفت الشمس لأجله فقال النبىّ (صلى الله عليه وسلم) "إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتان من آيات الله تعالى يُخوِّف بهما عباده، وإنهما لا يكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك، فادْعُوا اللهَ وكبِّروا وصلُّوا حتّى يكشَفَ ما بكم".

وقال محمد بن هانئ فى الكسوف.

هى الحوادثُ لا تُبْقِى ولا تَذَرُ! * ما للبَرِيَّة من مَحْتُومها وَزَرُ!
لَوْ كان يُنْجِى عُلُوٌّ من بَوَائِقِها، * لم تُكْسَفِ الشمسُ بل لم يَخْسَفِ القمرُ!

٧ — ذكر أسماء الشمس اللغوية

وللشمس أسماء نطقت بها العرب. فمنها: ذُكاءُ، والجارية، والجَوْنة، والغَزَالة، واللاهة[1]، والضُّحى، والضِّحّ، ويُوح (بالياء المثناة والباء الموحدة)، والشَّرْق، وحَنَاذِ، والعَيْن، والمؤوَّبة، والسِّراج.

(١) الذى فى كتب اللغة أن اللاهة اسم لحيّة. وأما الشمس فاسمها إلاهة مثلثة، وأليهة. فلعل ما هنا تصحيف من الناسخ.

٨ — ذكر عُبَّاد الشمس

قال الشهرستانىّ فى كتابه المترجم "بالملل والنحل": إن عَبَدَة الشمس طائفةٌ من الهنود يسمّون الديبكينية(١) أى عباد الشمس، ومذهبهم مذهب الصابئة. وتوجههم إلى الهياكل السماوية دون قصر الإلهية والربوبيّة عليها . ويزعمون أن الشمس ملَك من الملائكة، وأن لها نفسا وعقلا، ومنها نور الكواكب، وضياء العالم، وتكوّن الموجودات السفلية . وهى مَلَك يستحق التعظيم، والسجود، والتبخير، والدعاءَ . ومن سنتهم أنهم آتخذوا لها صنما بيده جوهرة على لون النار. وللصنم بيت خاصٌّ بنوه بأسمه ووقفوا عليه ضياعا. وله سَدَنة وقُوّام . فتأتى هذه الطائفة إلى البيت، ويصلّون فيه ثلاث كرّات . ويأتى أصحاب العلل والأمراض فيصومون له، ويصلّون، ويدعون، ويستشفون به.

٩ — ذكر ماقيل فى القمر

(وهو النير الثانى)

ذهب وَهْبُ بن مُنَبِّه أن القمر موضوع على عجلة فى فَلَك، والفلك يدور بأمر الله تعالى إلى ناحية المغرب، والعجلة يجرها ثلثمائة وستون ملكا إلى ناحية المشرق؛ وتدوير العجلة من تدوير الفلك الأعظم؛ وتدوير فلك القمر من تدوير العجلة .

ويقال: إن القمر كان كالشمس فى الضياء. فلم يكن يعرف الليل من النهار، فأمر الله تعالى جبريل أن يمرّ عليه بجناحه، فمرّ عليه، فمحاه . فهو ما ترى فيه من السواد .

(١) الذى فى الشهرستانى طبع نويدرة: "الدينكيتيّة". وهو الأقرب للصواب ويقول مترجمه الألمانى العلامة هاربردكرانه ولعله من "ديـ كَرت" ومعناه «صانع النهار» .

وبهذا القول فسر قوله تعالىٰ ﴿ وجَعَلْنا اللَّيْـلَ والنَّهارَ آيتَيْن فَمَحوْنا آيةَ الليـلِ وجَعَلْنا آيةَ النَّهارِ مُبْصِرة ﴾ .

قالوا: ولا يسمّى قمرا إلا بعد مضيّ ثلاث ليال من آستهلاله . والأقمر هو الأبيض .

١٠ — ذكر ما قيل فى القمر

(من آستهلاله إلىٰ آنقضاء الشهر وأسماء لياليه)

قالوا : وللقمر من أوّل الشهر إلىٰ آخره خمسُ حالات ، وللياليه عشرة أسماء

§ أما حالاته الخمس :

فالأُولىٰ : الهلالية ، وهى خروجه من تحت شُعاع الشمس وظهوره فى الغرب فى أوّل الشهر .

الثانية : أن يفضل فيه النور علىٰ الظلمة ، وذلك فى الليلة السابعة من الشهر .

الثالثة : الآستقبال ، وهو كونه فى البرج السابع من بروج الشمس ، ويسمّى الآمتلاءَ لآمتلاء القمر فيه نورا ، وذلك فى الليلة الرابعة عشرة من الشهر ، ويسمّى القمر فيها بدرًا لكماله ، ويسمّى بذلك لآمتلائه ، وقيل لمبادرته الشمسَ بالطلوع ، وتسمّى الليلة التى قبلها (وهى الثالثة عشرة) ليلة السَّواء لآستواء القمر فيها ، وقيل : لآستواء ليلها ونهارها فى الضياء ، وهى ليلة التَّمام .

الرابعة : أن تفضل الظلمة فيه علىٰ النور ، وذلك فى الليلة الثانية والعشرين من الشهر .

الخامسة: المحاقيّة، وهى مُدّة آستتاره بُشعاع الشمس؛ ويسمّى ذلك أيضا سِرارا، (١٩) وذلك فى الليلة التاسعة والعشرين، ويمكن أن يغيب ثلاث لَيال لا يرىٰ ويهلّ فى اليوم الرابع، ويسمّى حينئذ قمرا لاهلالًا؛ والشمس تعطيه من نورها كلّ ليلة مايستضىء به نصفُ سُبع قُرصه حتّى يكمل، ثم يُسْلَبُه من الليلة الخامسةَ عشرةَ، فى كل ليلة نصف سبع قرصه حتّى لا يبقى فيه نور فيستتر.

§وأما أسماء لياليه، فإنه يقال لأوّل ثلاثة منها غُرَر، والثانية شُهب، والثالثة زُهْر، والرابعة بُهْر، والخامسة بِيض، والسادسة دُرَع(١)، والسابعة حَنادِس، والثامنةُ ظُلَمٌ، والتاسعة دَآدٍ، والعاشرة ليلتان منها مِحَاق وليلة سِرَار؛ ويسمّون الليلة الثامنة والعشرين الدَّعْجاء، والليلة التاسعة والعشرين الدَّهماء، والليلة المُوفيَةَ ثلاثين اللَّيْلاءَ، ويسمّونها ليلة البَرَاء لتبرّى القمر من الشمس.

١١ — ذكر أسماء القمر اللُّغوية

وللقمر أسماء نطقَتْ بها العرب. فمنها: القَمر، والباهِر، والبَدْر، والطُّوْس، والجَلَمُ، والغاسِقُ، والوَبّاص، والزِّبْرِقانُ، والمُنْشَقُّ، والواضِح(٢)، والباحُور، والأبرص، والزَّمْهَرِير. ومنه قول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ وقول بعض العرب.

وليلةٍ ظَلَامُها قد آعتكرْ ❊ قَطَعْتُها والزَّمهرِيرُ ما ظهرْ.

---

(١) الذى فى اللسان والقاموس: ان الظُّلَمَ، ثلاث ليال يَلِينَ الدُّرَع. والحنادس، ثلاث ليال بعد الظلم. ويؤيده ما فى الصحاح: ان الحِنْدِس الليل الشديد الظلمة. وقد ذكر آبن سيدة هذه الأسماء فى المخصص (ج ٩ ص ٣٠ — ٣١) وأوردها على هذا الترتيب. وعليه فصواب العبارة هكذا: (والسادسة درع، والسابعة ظلم، والثامنة حنادس الخ) اه.

(٢) الذى فى كتب اللغة: ان الوضح القمر، فلعله تحريف من الناسخ.

ومن أسمائه : السِّنِمَّار، والسَّاهُور .

§ والفَخْت ضوءُه، والأُخُذ(١) مَنزلته . وكذلك الوَكْس، وهى المنزلة التى يُكْسَف فيها . والهالَة دارتُه .

---

١٢ — ذكر مايتمثل به ممـا فيه ذكر القمر

يقال فى أمثالهم :

أضيَعُ من قمر الشتاء! قيل لأنه لايُجلَس فيه .

إن يَبْغِ عليكَ قومُكَ، لا يبْغِ عليك القمر .

ويقال : أضوأ من القمر ، وأتمُّ من البدر .

ومن أنصاف الأبيات :

* أُرِيهـا السُّهَا وتُرِينِى القَمَرْ * * لاتَخْرُجُ الأقمارُ من هالاتها *
* هكذا البَدْرُ فى الظَّلام يُوافِى * * كذاكَ كُسُوفُ البدرِ عِنْدَ تَمامِه *

ومن الأبيات قول الطائى :

إنَّ الهِلَالَ إذا رأيتَ نُمُوَّه * أيقنتُ أنْ سيَكُونُ بَدْرا كامِلا .

وقال آبن أبى البغل، والبيت الثانى لآبن بحر :

المَرْءُ مِثْلُ هِلَالٍ حين تُبْصِرُه * يَبْدُو ضعيفًا ضَئِيلا ثم يَتَّسِق .
«يَزْدادُ حتّى إذا ماتمَّ أعْقَبَه * كَرُّ الجَدِيدَيْنِ نَقْصًا ثم يَنْمَحِق» .

وقال أبو الفرج الببغا :

ستَخْلُصُ من هذا السِّرَار وأيُّما * هلالٌ توارَى فى السِّرارِ فما خَلَصْ !

---

(١) عبارة اللسان فى مادة (ا خ ذ) : ونجوم الأخذ منازل القمر لأن القمر يأخذ كل ليلة فى منزل منها اهـ.

١٣ — ذكر ماقيل فى وصفه وتشبيهه

من ذلك قول عبد الله بن المعتز فى الهلال:

وَٱنْظُرْ إليهِ كَزَوْرَقٍ من فِضَّةٍ * قد أثقلَتْه حُمُولُه من عَنْبرِ!

وقول عبد الجبار بن حمديس الصقلىّ:

ورُبَّ صُبْحٍ رقَبْناهُ، وقد طَلَعتْ * بَقِيَّةُ البَـــدْرِ فى أُولىٰ بَشَـائِرِه!

كأنَّمـا أدهَمُ الإظْلامِ حينَ نَجَـا * من أشْهبِ الصُّبْحِ، ألقىٰ نَعْلَ حافِرِه!

وقال آخر:

قَدِ ٱنقضَتْ دَوْلَةُ الصِّيامِ وقد * بَشَّر سُقْمُ الهِلَالِ بالعِيـــدِ!

يَتْـلُو الـثُّرَيَّا كفاغِرٍ شَرِهٍ * يَفْتَحُ فاهُ لأَكْلِ عُنْقُـــودِ!

وقال أبو هلال العسكرىّ:

فى هِلَالٍ كأنَّهُ حَيَّـــةُ الرَّمْـــلِ أصابَتْ علىٰ اليَفَاعِ مَقِيلا.

باتَ فى مِعْصَمِ الظَّلامِ سِوَارًا * وعلىٰ مَفْرِقِ الدُّجىٰ إكْليلا.

وقال آخر:

والجَوُّ صافٍ والهِلالُ مُشَنَّفٌ * بالزُّهرة الزَّهْراء نَحْوَ المَغْرب.

كصَحِيفةٍ زَرْقاءَ فيهـا نُقْطةٌ * من فضةٍ من تحتِ نُونٍ مُذْهَب.

وقال آخر:

قُلْتُ لَمَّا دنتْ لَمِغْرِبِهـا الشَّمْـــسُ ولاحَ الهِلَالُ للنُّظَّـار:

أقرضَ الشَّرقُ صِنْوَه الغَرْبَ دينًا * را فأعطاهُ الرَّهْنَ نِصفَ سِوَار.

(٣٠) وقال أبو العلاء المعرّى :

ولاحَ هِـلالٌ مِثلُ نُونٍ أجادَهَـا * بذَوْب النُّضار الكاتِبُ ٱبنُ هِلال .

وقال آخر :

وكأنّ الهِـلالَ نُونُ لُجَيْنٍ * غَرِقتْ فى صَحِيفةٍ زَرْقاء .

وقال أبو عاصم البصرىّ من شعراء اليتيمة :

رأيتُ الهِلالَ، وقد أحدَقَتْ * نُجُــومُ الثُّريّا لكى تَسْـبِقَه .

فشَــبّهتُهُ وَهْو فى إثرِهـا * وبينَهُما الزُّهَرةُ المُشْرِقـــه ،

بقَــوْسٍ لِرامٍ رَمىٰ طـائرا * فأتْبَــع فى إثْرِه بُنْـــدُقه .

وقال آخر :

ولاح لَنا الهِلالُ كشَطْرِ طَوْقٍ * علىٰ لَبّـاتِ زَرقاءِ اللّباسِ .

وقال الواوا الدمشقىّ رحمه الله :

وكأنّ الهِلالَ تحتَ الثُّرَيّا * مَلِكٌ فَوْقَ رأسه إكليلُ !

وقال إبراهيم بن محمد المرادىّ، من شعراء الأُنموذج، ملغزا فيه :

دَعْ ذا! وقُلْ للنّاس: ماطارِقٌ، * يَطْرُقُكُمْ جَهْرًا ولا يَتّـــقِى ؟

ليس له رُوحٌ علىٰ أنّـــهُ * يَرْكَبُ ظَهرَ الأدْهَمِ الأبْلَقِ .

شَـيْخٌ رَأىٰ آدَمَ فى عَصْرِه * وهْوَ إلىٰ الآنَ بخدٍّ نَقِى .

ومدّ وَسْطَ السِّجنِ معْ قَوْمِه * لايَنْبَرِى من نَهجه الضَّيِّق .

هذا ويَمْشِى الأرضَ فى لَيْلةٍ * أَعْجِبْ به من مُوثَقٍ مُطْلَق .

فتارةً يَــنْزِلُ تحتَ الـثَّرىٰ * وتارةً وَسْطَ السَّــما يَرْتقى .
وتارةً يُوجَــدُ فى مَغْــرِبٍ * وتارةً يُوجَد فى المَشْــرِق .
وتارةً تحسَــبُه سابِحًــا * يَسْرِى بِشاطِى البَحْرِ كالزَّوْرَق .
وتارةً تحسَــبُه وهْــوَ فى * أسـتارِهِ والبعضُ منه بَقِى ،
ذُبابةٌ من صارِمٍ مُرْهَفٍ * بارِزةٌ من جَفْنِه المُطْبَــق .
يَدْنُو إلىٰ عِــرْس له حُسْنُها * يختَطِفُ الأبصــارَ بالرَّوْنَق .
حــتّى اذا جا معها يَرْتَدِى * بحُــلّةٍ سَــوْداءَ كالمُحْرَق .
وهــو علىٰ عادتِهِ دائمًــا * يُجامِــعُ الأنثىٰ ولا يَتَّــقِى .
ثم يَجُوبُ القَــفْرَ من أجْلِهـا * مُشْــتَمِلا فى مِطْرَفٍ أزرقِ .
حــتّى إذا قابَلَهـا ثانِيًـا * تَشُكُّه بالرُّمْحِ فى المَفْــرِق .
وبَعْــد ذا تُلْبِسُــه حُلَّةً * يا حُسْنَها فى لَوْنِهـا المُونِق !
فجِسْــمُه من ذهبٍ جامِدٍ * وجِلْدُه صِيغَ من الزِّئْبَقِ .
وهو إذا أبصرته هــكذا * أملحُ من صــاحبة القُرْطَق .

وقال ابن المعتز :

نَظَــرْتُ فى يَوْمٍ لَذَّةٍ عَجَبًا * وافىٰ به للسُّــعودِ مِقْـدارُ .
يقابِلُ الشمسَ فيه بدرُ دُجى * يأخُذُ من نُورِهــا ويَمْتــارُ .
كصَيْرَفىٍّ يروحُ منتَقِــدًا * فى كَفِّه دِرْهَــمٌ ودينَــارُ .

وقال عبد الله بن علىّ الكاتب :

كَشَفَ البدرُ وجْهَهُ لتمامٍ، * فوُجُوه النُّجُومِ مستَتِراتُ .
وكأنَ البَدْرَ التَّمامَ عَرُوسٌ، * وكأنَ النُّجُومَ مُستنقِباتُ .

١٤ — ذكر شىء مما قيل فيه على طريق الذم

حكى أن أعرابيا رأى رجلا يرْقُبُ الهلال . فقال له : ماترقب فيه، وفيه عيوب لو كانت فى الحمار لَرُدَّ بها؟ قال: وما هى؟ فقال : إنه يهدم العمرَ، ويقرب الأجل، ويُحِلُّ الدَّين، ويَقرِض الكتّان، ويشحب اللون، ويفسد اللحم، ويَفْضَح الطارق، ويَدُلُّ السارق .

(٣١) ومن عيوبه أن الإنسان إذا نام فى ضوئه حدث فى بدنه نوع من الاسترخاء والكسل، ويهيج عليه الزكام والصُّداع ، وإذا وُضعت لحوم الحيوانات مكشوفة فى ضوئه، تغيرت طعومها وروائحها .

وقال ابن الرومىّ :

رُبَّ عِرْضٍ مُنَزَّهٍ عن قَبِيحٍ * دنَّسَتْه مُعرِضاتُ الهِجاء .
لوأرادَ الأديبُ أن يَهْجُوَ البَدْ * رِ، رماه بالخُطَّة الشَّنْعاء .
قال : يابدْرُ أنتَ تَغْدُرُ بالسَّا * رِى وتُزْرِى بزَوْرَة الحَسْناء .
كَلَفٌ فى شُحُوبِ وجْهِكَ يَحكى * نُكَتًا فوقَ وَجْنةِ بَرْصاءِ .
يَعْتَرِيكَ المِحاقُ ثمّ يُحَلِّيـ * ـكَ شبِيهَ القُلامة الحَجْناء .

ويَليكَ النُّقصانُ في آخِرِ الشَّهْـــرِ * فيمْحُوكَ من أديمِ السَّماء .
فإذا البَدْرُ نِيلَ بالهَجْوِ، هَلْ يا * مَنْ ذُوالفَضْلِ ألْسُنَ الشُّعراء ؟
لا لأجلِ المَديحِ ، بل خِيفَةَ الهَجْـــوِ * أخذْنا جَـــوَائِزَ الخُلَفاء !

هذا ما أمكن إيراده في القمر، فلنذكر خبر عُبّاد القمر .

١٥ — ذكر عُبَّاد القمر

قال الشهرستانيّ : عُبَّاد القمر طائفة من الهنود يسمّون الجندر بكتية[(١)]، أي عُبّاد القمر . يزعمون أن القمر ملَك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي، ومنه نُضْج الأشياء المتكونة واتصالها إلى كمالها، وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات ؛ وهو تِلْو الشمس وقرينها، ومنها نوره، وبالنظر إليها زيادته ونقصانه ؛ ومن سُنّتهم أنهم اتخذوا صنما على عجلة تجره أربعة[(٢)]، وبيده جوهرة ؛ ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه، وأن يصوموا النصف من كل شهر، ولا يفطروا حتّى يطلع القمر، ثم يأتون الصنم بالطعام والشراب واللبن، ثم يرغبون إليه وينظرون إلى القمر، ويسألونه حوائجهم ؛ فإذا استهل الشهر عَلَوُا السُّطوح، وأوقدوا الدُّخَن، ودعَوْا عند رؤيته، ورغبوا إليــه، ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور، ولم ينظروا إليه إلا على وجوه حسنة . وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار، أخذوا في الرقص واللعب بالمعازف بين يدي الصنم والقمر .

(١) في الشهرستاني طبع لوندرة : "الجندريكنية" . وأفادنا مترجمه الى الألمانية أن "چندراكا" معناه القمر في لغتهم .

(٢) الذي في الشهرستاني : صنما على صورة عجل وبيد الصنم الخ .

١٦ — ذكر ما قيل فى الكواكب المتحيرة

والكواكب الخمسة الباقية من الكواكب السبعة تُسمَّى المتحيرة. ثلاثة منها علوية تعلو أفلاكُها فلكَ الشمس ، وهى : زحل ، والمشترِى ، والمِرِّيخ ؛ وآثنان سفلية فلكهما تحت فلك الشمس ، وهى : الزُّهَرَة ، وعُطارد .

وسمِّيت هذه الكواكب المتحيرةَ لأنها ترجع أحيانا عن سَمْت مسيرها بالحركة الشرقية ، وتتبع الغربية . فهذا الآرتداد فيها شبه التحير .

١٧ — ذكر عباد الروحانيات

(وما آحتجوا به فى سبب عبادتهم لها[١])

وعباد الروحانيات هم الصابئة . يقال : صبأ الرجل إذا مال وزاغ .

ومذهب هؤلاء أن للعالَم صانعا فاطرا حكيما مقدّسا عن سمات الحدثان .

وكانت الصابئة تقول : إنا نحتاج فى معرفة الله تعالىٰ ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه ، إلىٰ متوسط ؛ ولكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيا لا جسمانيا . وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب ؛ والجسمانىّ بشر مثلنا يأكل مما نأكل ، ويشرب مما نشرب ، يماثلنا فى الصورة والمادّة .

قالوا : ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ .

وقالوا : الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلىٰ جلاله ، وإنما يتقرب إليه [٣٣] بالمتوسطات المقربين لديه ، وهم الروحانيون المقدّسون المطهرون ، جوهرا وفعلا وحالة .

(١) نقل المؤلف هنا بعض عبارات الشهرستانى فى الملل والنحل مع تقديم وتأخير (أنظر ص ٢٠٣ من طبعة الأب كرتون الانكليزى فى لندرة سنة ١٨٤٢ — ١٨٤٦) .

أما الجوهر فهم المقدّسون عن المواد الجسمانية ، المبرؤون عن القوى الجسدانية ، أى منزّهون عن الحركات المكانية ، والتغييرات الزمانية ؛ قد جبلوا علىٰ الطهارة ، وفطروا علىٰ التقديس والتسبيح ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ .

وإنما أرشدنا إلىٰ هذا معلمنا الأول ، عاذيمون ، وهُرْمُس . فنحن نتقرب إليهم ، ونتوكل عليهم ، وهم أربابنا ، وآلهتنا ، ووسائلنا ، وشفعاؤنا عند رب الأرباب ، وإلٰه الآلهة . فالواجب علينا أن نطهّر نفوسنا من دنس الشهوات الطبيعية ، ونهذّب أخلاقنا عن علائق القوىٰ الشهوانية والغضبية ، حتّى يحصل لنا مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات . فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم ، ونعرض أحوالنا عليهم ، ونصبأ فى جميع أمورنا إليهم . فيشفعون لنا إلىٰ خالقنا وخالقهم ، ورازقنا ورازقهم . وهذا التطهير والتهذيب ليس إلا بآكتسابنا ، ورياضتنا ، وفطامنا لأنفسنا عن دَنيَّات الشهوات ، بآستمداد من جهة الرُّوحانيات ؛ والآستمداد هو التضرّع والآبتهال بالدعوات ، وإقامة الصلوات ، وبذل الزكوات ، والصيام عن المطعومات والمشروبات ، وتقريب القرابين والذبائح ، وتبخير البَخُورات ، وتعزيم العزائم . فيحصل لنفوسنا آستعداد أو آستمداد من غير واسطة ، بل يكون حكنا وحكم من يدعى الوحى واحدا .

قالوا : والأنبياء أمثالنا فى النوع ، وأشكالنا فى الصورة ، ومشاركونا فى المادّة . يأكلون مما نأكل ، ويشربون مما نشرب ، ويساهموننا فى الصورة . أناس بشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم ، وبأيّة مزية لهم لزم مشايعتهم ؟ ﴿ولَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ .

قالوا : وأما الفعل ، فالروحانيات هم الأسباب المتوسطون فى الآختراع ، والإيجاد ،

وتصريف الأمور من حال إلى حال، وتوجيه المخلوقات من مبدإ إلى كمال، يستمدّون القوّة من الحضرة القدسية، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية.

§ فمنها — مدبرات الكواكب السبعة السيّارة فى أفلاكها، وهى هياكلها. فلكل روحانى هيكل، ولكل هيكل فلك. ونسبة الروحانىّ إلى ذلك الهيكل الذى آختص به نسبة الروح إلى الجسد . فهو ربه ومديره ومدبره .

وكانوا يسمون الهياكل أربابا (وربما يسمونها آباء)، والعناصرَ أمهاتٍ .

ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها آنفعالات فى الطبائع والعناصر، فيحصل من ذلك تركيبات وآمتزاجات فى المركبات فتتبعها قوّى جسمانية، وتركب عليها نفوس روحانية، مثل أنواع النبات والحيوان . ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحانىّ كلىّ، وقد تكون جزئية صادرة عن روحانىّ جزئىّ . فمع جنس المطر ملك، ومع كل قطرة مَلَك .

§ ومنها — مدبرات الآثار العلوية الظاهرة فى الجوّ مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبَرَد والرياح، وما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب، وما يحدث فى الجوّ من الرعد والبرق والسحاب وقوس قُزَح وذوات الأذناب والهالة والمَجَرّة، وما يحدث فى الأرض من الزلازل والمياه والأبخرة إلى غير ذلك .

§ ومنها — متوسطات القوى السارية فى جميع الموجودات، ومدبرات الهداية الشائعة فى جميع الكائنات، حتى لا ترى موجودا مّا خاليا عن قوّة وهداية، إذا كان قابلا لهما.

قالوا : وأما الحالة، فأحوال الروحانيات من الرَّوْح، والرَّيحان، والنعمة، واللذة، والراحة، والبهجة، والسرور فى جوار رب العالمين، كيف تخفى؟ ثم طعامهم وشرابهم

التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد ؛ وأنسهم بذكر الله وطاعتـه ، فمن قائم وراكع وساجد ، ومن قاعد لايريد تبدل حالته لما هو فيه من النعمة واللذة ، ومن خاشع بصره لايرفع ، ومن ناظر لايغمض ، ومن ساكن لايتحرك ، ومتحرك لايسكن ، وكَرُوبِيٌّ[1] فى عالم القبض ، وروحانىٌّ فى عالم البسط ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ .

وقد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء فى المفاضلة بين الروحانىّ المحض والبشرية النبوية ، ليس هذا موضع إيرادها .

فلنذكر إن شاء الله تعالىٰ بيوت الهياكل ، تلو ماذكرناه من عباد الروحانيات ومحتجّاتهم !

---

١٨ — ذكر بيوت الهياكل

(وأماكنها ونسبتها إلىٰ الكواكب)

(٢٣)

قالوا : ثم لم تقتصر الصابئة علىٰ التقرب إلىٰ الروحانيات بأعيانها ، والتلقى بذواتها حتى اتخذوا أصناما علىٰ هيئة الكواكب السبعة ، وجعلوا لها بيوتا ، وسمّوا البيوتَ بالهياكل ، وجعلو [illegible] الأفلاك للكواكب . وعظموا هـذه الأصنام التى صنعوها ، وزعموا أنهـم إذا عظموها تحركت لهم الكواكب السبعة العلوية بكل مايريدون .

وحكىٰ المسعودىّ فى كتابه المترجم " بمروج الذهب ومعادن الجوهر " أن هـذه الطائفة تزعم أن البيت الحرام هيكل زُحَل ، وإنما طال بقاء هـذا البيت علىٰ مرور الدهور ، معظما فى سائر العصور ، لأن زُحَل تولّاه[2] : إذ من شأنه الثبوت .

---

(١) الكروبيون سادة الملائكة المقربون .

(٢) راجع الشهرستانى طبعة كرتن (ص ٤٣٠ – ٤٣١) .

ومن البيوت المشهورة[1] :

§ بيت على رأس جبل أصفهان، يسمى مارس[2] ، ثم اتخذه بعض ملوك المجوس بيت نار ؛

§ وبيت ببلاد الهند ،

§ وبيت ببلخ، بناه منوشهر على اسم القمر، وكان الموكل بسدانته يسمونه برمك، وإليه تنسب البرامكة ؛

§ وبيت غُمْدان باليمن، بناه الضحاك على اسم الزُّهَرة ؛

§ وبيت بفرغانة[3]، على اسم الشمس، يعرف بكاوسان، بناه كاوس[4] أحد ملوك الفرس، وخربه المعتضد[5] بالله ؛

§ وبيت ببلاد الصين، بناه ولد عامور بن شوبل[6] بن يافث، وقيل بناه بعض ملوك الترك[7] .

§ وحكى غير المسعودى أن البيت الأول الكعبة . ويذكرون أن إدريس (عليه السلام) أوصى به، وأوصى أن يكون الحج إليه وهو عندهم بيت زحل ؛ والبيت

---

(١) وراجع الشهرستانى (ص ٤٣١، ٤٣٢) .

(٢) فى الشهرستانى : فارس .

(٣) من مدن خراسان .

(٤) فى الأصل : مكاوس [وهو خطأ من الناسخ . والتصويب عن المسعودى وعن الشهرستانى] .

(٥) فى الشهرستانى أنه المعتصم .

(٦) فى بعض نسخ المسعودى : سوبل (بالسين المهملة) .

(٧) انظر الباب الرابع والستين من مروج الذهب، ففيه تفصيل لما أورده النويرى هنا بغاية التلخيص .

الثانى وهو بيت المرّيخ، يزعمون انه كان بصور من الساحل الشامىّ؛ والبيت الثالث وهو بيت المشترِى، كان بدمشق بناه جيرون بن سعد بن عاد، وموضعه الآن الجامع الأموىّ؛ والبيت الرابع وهو بيت الشمس بمصر، ويسمى عين شمس، وآثاره باقية الى وقتنا هذا[1]؛ والبيت الخامس وهو بيت الزهرة، كان بمَنْبِج وخرِب؛ والبيت السادس بيت عُطارد، وكان بصَيْدا من الساحل الشامىّ وخرِب؛ والبيت السابع وهو بيت القَمَر، كان بحرّان؛ وهو بيت الصابئة الأعظم .

الباب الخامس

من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ — فى الكواكب الثابتة

ذهب بعض من تكلم فى ذلك أن هذه الكواكب معلقة فى سماء الدنيا كالقناديل، وأنها مخلوقة من نور .

وقال آخرون : إنها معلقة بأيدى ملائكة . وفسر بهذا القول قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ . يقال انتثارها يكون بموت من كان يحملها من الملائكة .

وهذه الكواكب فى سماء الدنيا بنص الكتاب العزيز لقول الله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ .

(١) زالت هذه الآثار الآن .

وقال قَتادة : خلق الله تعالىٰ هذه النجوم لثلاثة : جعلها زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يُهتدىٰ بها فى البر والبحر. فمن تأوّل غير هذا فقد أخطأ .

قالوا : وإنما سميت بالثوابت، وإن كانت متحركة لأنها ثابتة الابعاد علىٰ الأبد، لا يقرب أحدها من الآخر، ولا يبعد عنه، ولا يزيد، ولا ينقص، ولا تتغير عن جهاتها . لأنها تتحرك بحركتها الطبيعيه حول قطبي العلم . ولهذا سميت ثابتة . وهى فى فلك ثامن غير أفلاك الكواكب السبعة السيارة . ودليل ذلك أن للكواكب السبعة حركات أسرع من حركات هذه .

---

٢ — ذكر مايتمثل به مما فيه ذكر الكواكب

يقال : أنأىٰ من كوكب ؛ أبعد من مَنَاط النجم ؛ أهدىٰ من النجم .

ومن أنصاف الأبيات :

* وأَيْنَ نَزِيلُ الأرضِ عِندالكَواكِبِ؟ * * وأَيْنَ الثُّرَيَّا مِنْ يَدِ لِمُتناوِلِ؟ *

* والكَوْكَبُ النَّحْسُ يَسْقِى الأرضَ أحْيانَا *

ومن الأبيات قول أبى تمّام عفا الله عنه : (٢٤)

كالنَّجْم إن سافَرْتَ كانَ مُوَاكِبًا * وإذا حطَطْتَ الرحْلَ كانَ جَلِيسا .

وقال أبو نُوَاس :

أينَ النُّجُــومُ الثَّـابِتا * تُ مِنَ الأهلّةِ والبُدورِ؟

وقال آخر :

وكُنّا فى اجْتِماعٍ كالثُّرَيّا، * فصِرْنا فُرْقَةً كبَناتِ نَعْشِ !

وقال آخر:

كالفَرْقَدَيْنِ إذا تأمَّلَ ناظِرٌ، * لم يَعْلُ موضِعَ فَرْقدٍ من فَرْقدِ.

وقال الوزير أبو الفتح البُستىّ:

ولِلنَّجم من بَعْدِ الرُّجُوع ٱسْتِقامةٌ * وللشَّمْس من بَعْد الغُرُوب طُلُوعُ.

وقال جَحْظَةُ:

مثـــل الّذى يَرْجُو البُــلُو * غَ إلى الكَوَاكب وهو مُقْعَدْ.

وقال عمر بن أبى ربيعة:

أيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلا، * عَمْرَكَ اللهَ! كيفَ يَلْتقِيانِ؟

هِىَ شاميَّةٌ إذا ما ٱسْتَهَلَّتْ، * وسُهَيْلٌ إذا ٱستَهلَّ يمَــانى.

وقال آخر:

وكُلُّ أخٍ مُفارِقُه أخُوه، * لعَمْرُ أبيكَ، إلا الفَرْقَدانِ!

---

٣ — ذكر ماقيل فى وصف الكواكب وتشبيهها

من ذلك ماقاله ٱبن حَجَّاج فى المَجَــرَّة:

ياصاحِبَىَّ ٱسْــتَيقِظا من رَقْدةٍ * تُزْرِى على عَقْلِ اللَّبيبِ الأكْيَسِ!

هــذِى المَجرَّةُ والنُّجومُ كأنَّهــا * نَهَرٌ تَدَفَّقَ فى حَديقةِ نَرْجِسِ!

وقال آخر:

وكأنَّ المَجَــرَّ جَدْوَلُ ماءٍ * نَوَرَ الأُقْحُــوانُ فى جانِبَيْهِ.

وقال المهذب بن الزبير فيها :

وترى المجـرة والنجوم كأنها * تسقى الرياض بجدول ملآن.
لو لم يكن نهرا، لما عامت به * أبدا نجوم الحوت والسرطان.

وقال أبو هلال العسكرى :

تبـدو المجرة منجرا ذوائبها * كالماء ينساح أو كالأيم (١) ينساب.

وقال هشام بن إلياس فى الجوزاء:

فكأنما جوزاؤه فى غربها * بيضاء سابحة ببركة زئبق.
وكأنما أومت ثلاث أنامل * منها تقول: إلى ثلاث نلتق!

وقال آخر :

وكأن الجوزاء لما استقلت * وتدلت، سرادق ممـدود.

وقال العلوى فيها أيضا :

ها إنها الجوزاء فى أفقها * واهية ناعسـة تسحب.
نطاقها واه لدى أفقها * ينسل منها كوكب كوكب.

وقال ابن وكيع فيها :

قم فاسـقنى صافية * تهتك جنح الغسق!
أما ترى الصبح بدا * فى ثوب ليل خلق؟

(١) الأيم، والأين : ضرب من الحيات . (عن النوادر فى اللغة) .

أَمَا تَرىٰ جَوْزاءَهُ * كأنَّها فى الأُفُقِ،
مِنْطَقَةٌ من ذَهَبٍ * فَوْق قَباءٍ أزْرَقِ؟

وقال كعب الغَنَوِىّ :

وقد مالَتِ الجَوْزاءُ حتّىٰ كأنّها * فَساطيطُ رَكْبٍ بالفَلاةِ نُزُولُ.

وقال آمرؤ القيس فى الثُّرَيَّا :

إذا ما الثُّرَيَّا فى السَّماءِ تعرَّضَتْ * تَعَرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المُفَصَّلِ.

وقال آبن الطَّثَرِيَّة :

إذا ما الثُّرَيَّا فى السَّماءِ كأنَّها * جُمَانٌ وَهىٰ من سِلْكِهِ، فتبدَّدَا.

وقال المبرّد :

إذا ما الثُّرَيَّا فى السَّماءِ تعرَّضَتْ، * يَراهَا حَدِيدُ العينِ ستَّةَ أنجُمِ.
علىٰ كَبِدِ الجَرْباءِ وهْىَ كأنَّها * جَبِيرةُ دُرٍّ رُكِّبَتْ فوقَ مِعْصَمِ.

وقال عبد الله بن المعتز :

فناوَلَنِيها، والثُّرَيَّا كأنَّها * جَنىٰ نَرْجِسٍ حَيَّا النَّدامىٰ بها السَّاقِى.

وقال أيضا :

كأنَّ الثُّرَيَّا فى أواخِرِ لَيْلِها * تَفَتُّحُ نَوْرٍ أو لِجامٌ مُفَضَّضُ.

وقال السلامىّ، شاعر اليتيمة فيها :

فَسَمَوْنا، والفَجْرُ يَضْحَكُ فى الشَّرْ * قِ إلَيْنا مُبَشِّرًا بالصَّباحِ.

والثُّرَيَّا كَرَايَةٍ أو لِجَام * أو بَنَانٍ أو طائرٍ أو وِشَاح،
وكأنَّ النُّجومَ فى يَدِ ساقٍ * يَتَهادَى تَهادِىَ الأقداح.

وقال ٱبن المعتز :

ولاحَتْ لِسَارِيها الثُّرَيَّا كأنَّها * على الأُفُقِ الغَرْبِىِّ قُرْطٌ مُسَلْسَلُ.

وقال أبو نضلة :

وتأمَّلْت الثُّرَيَّا * فى طُلُوعٍ ومَغِيب.
فتخَيَّرْتُ لَهَا التشْـ * ـبِيهَ فى المَعْنَى المُصيب.
وَهْىَ كأسٌ فى شُرُوقٍ * وهى قُرْطٌ فى غُرُوب.

(٢٥) وقال آخر :

كأنَّ الثُّرَيَّا هَوْدجٌ فَوْقَ ناقةٍ * يَسِيرُ بها حادٍ مَعَ الليل مُزْعِجُ،
وقد لمَعَتْ بَيْنَ النُّجومِ كأنَّها * قَوارِيرُ فيها زِئْبَقٌ يَتَرَجْرَجُ.

وقال ٱبن سكرة الهاشمىّ :

تَرَى الثُّرَيَّا، والغَرْبُ يَجْذِبُها * والبَدْرُ يَهْوِى والفَجْرُ يَنْفَجِر.
كَفَّ عَرُوسٍ لاحَتْ خَوَاتِمُها * أو عِقْدَ دُرٍّ فى البَحْرِ يَنْتَثِر.

وقال محمد بن الحسن الحاتمىّ :

وخِلْتُ الثُّرَيَّا كَفَّ عَذْراءَ طَفْلةٍ * مُخَتَّمةٍ بالدُّرِّ منها الأنامِلُ.
تخَيَّلْتُها فى الجَوِّ طُرَّةَ جَعْبةٍ * مُلُوكِيَّةٍ لم تَعْتَلِقْها حَمَائلُ.
كأنَّ نِبالًا سِتَّةً من لآلِئٍ * يُوَافِى بها فى قُبَّةِ الأُفْقِ نابِلُ.

وقال أحمد بن إبراهيم الضبيّ: شاعر اليتيمة :

خِلْت الثريا إذ بَدَتْ * طالعةً في الحِنْـدس:
مُرْسَـــلَةً من لُؤلُؤٍ * أو باقةً من نَرْجس

وقال أبو العلاء المعرّيّ في سُهَيل .

وسُهَيْل كوجْنَة الحِبِّ في اللَّو * نِ وَقَلْب المُحِبِّ في الخَفَقان.
مُسْتَبِدًّا كأنّهُ الفـارِسُ المُعْـــ * ـلَمُ يَبْـدُو مُعَارِضَ الفُرْسان.

وقال عبد الله بن المعتز :

وقَدْ لاحَ لِلسَّارِي سُهَيْلٌ كأنّهُ * على كُلِّ نَجْمٍ في السَّماءِ رَقيبُ!

وقال الشريف بن طباطبا :

وسُـهَيْلٌ كأنّهُ قَلْبُ صَبٍّ * فاجَأَتْه بالخَوْفِ عَيْنُ الرقيب.

وقال أبو عبادة البُحْتُرِيّ :

كأنَّ سُهَيْلًا شَخْصُ ظمآنَ جانحٌ * من اللَّيْلِ في نَهْرٍ من المـاءِ يَكْرَع.

وقال ابن طباطبا :

كأنَّ سُهَيْلًا، والنُّجُومُ أمامَه * يُعَـارِضُهَا ، راعٍ أمامَ قطيـع.

وقال الشريف الرضيّ في الفرقدين :

وهَبَّتْ لِضَوْءِ الفرقَدَيْن نَواظرى * إلى أن بَدَا ضَوْءٌ من الفَجْرِ ساطِعُ.
كأنّهُـــما إلفـانِ قال كِلاهُمَـا * لشَخْصِ أخِيه : قُلْ فإنِّيَ سامعُ!

وقال آخر:

قُلْتُ للفَرْقَدَيْنِ واللّيـلُ مُرْخٍ * سِـــتْرَ ظَلْمـائِهِ علىٰ الآفاقِ:
اِبقَيـا ما بَقِيتُما سَـوْفَ يُرْمىٰ * بَيْنَ شَخْصَيْكُما بسَهْمِ الفِراقِ!

وقال القاضى التنُوخىّ :

وأشقرِ الجوّ قد لاحتْ كواكبُهُ * فيــه كدرٍّ علىٰ الياقوت مَنْثُور.

وقال القاضى الفاضل، عبد الرحيم من رسالة :

"سِرْنا، وروضةُ السماء فيها من الزهر زَهَر، ومن المجرّة نَهَر، والليل كالبَنَفْسَج تخلله من النجوم أَقَاح، أو كالزِّنْج شـعله من الرمح جراح، والكواكب سائرات المواكب لامُعَرّس لهـا دون الصَّباح، وسهيل كالظمآن تدلّى إلىٰ الأرض ليشرب، أو الكريم أَنِفَ من المُقام بدار الذُّل فتغرب. فكأنه قَبَسٌ تتلاعب به الرياح، أو زينـة قدمها بين يَدَى الصباح، أو ناظر يغُضُّه الغيظ ويفتحه، او معنًى يغمضه الحسن ثم يشرحه، أو صديقٌ لجماعة الكواكب مغاضب، أو رقيبٌ علىٰ المواكب مُواكِب، أو فارسٌ يحمِى الأعقاب، أو داع به إليهـا وقد شَرَدت عن الأصحاب. والجوزاء كالسرادق المضروب، أو الهودج المنصوب، أو الشجرة المنورة، أو الحبر المصوّرة. والثريا قد همّ عُنقودها أن يتدلّى، وجيش الليل قد همّ أن يتولّى".

القسم الثاني

من الفن الأول في الآثار العلوية

(٢٦) وفيه أربعة أبواب

الباب الأول

من القسم الثاني من الفن الأول

---

١ — في السحاب، وسبب حدوثه، وفي الثَّلْج والبَرَد

والسحاب من الآثار العلوية .

روى أبو الفرج بن الجوزي بإسناد يرفعه إلى عبيد ابن عمير أنه قال : يبعث الله ريحا فتقُمُّ الأرض، ثم يبعث المُثيرة فتثير السحاب، وذلك أنها تحمل الماء فتمجّه في السحاب، ثم يَمْرِيه فيَدِرُّ كما تدرّ اللِّقحة .

وقد روى في الأثر أن الرياح أربع : ريح تَقُمّ، وريح تُثير، فتجعله كِسَفًا، وريح تؤلّف، فتجعله رُكَامًا، وريح تُمْطر .

ورُوِيَ عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال : إن الله تعالى يرسل الرياح فتُثير سحابا، وينزل عليه المطر فتتمخض به الريح كما تمخض النَّتوج بولدها .

وروى عن عكرمة (رضي الله عنه) أنه قال : يُنزل الله الماء من السماء السابعة

فتقع القطرة على السحاب مثل البعير ، والسحابُ للطر كالغربال ينزل منه بقَدَر . ولولا ذلك لأفسد ما على الأرض .

وقال الزمخشرى فى تفسيره : السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من يزعم أنه يأخذ من البحر . ويؤيد ذلك قوله عز وجل ﴿ وَيُنَزِّلُ من السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ .

٢ — ذكر ما قيل فى ترتيب السحاب

(وأسمائه اللغوية وأصنافه)

قال أبو منصور ، عبد الملك بن محمد الثعالبىّ فى فقه اللغة ، ينقله عن أئمتها :

أوّل ما ينشأ السحاب، فهو نَشْء .

فإذا آنسحب فى الهواء ، فهو السَحَابُ .

فإذا تغيرت وتغممت له السماء ، فهو الغَمَام .

فإذا كان غيم ينشأ فى عُرْض السماء فلا تبصره، وإنما تسمع رعده، فهو العَقْر .

فإذا أطلّ وأظلّ السماء، فهو العارِضُ .

فإذا كان ذا رعد وبرق، فهو العَرَّاصُ .

فإذا كانت السحابة قِطَعا صغارا متدانياً بعضُها من بعض، فهى النَّمِرَةُ .

فإذا كانت متفرّقة ، فهى القَزَعُ .

فإذا كانت قطعا متراكمة، فهى الكِرْفِئُ (واحدتها كِرْفِئَة) .

فإذا كانت قطعا كأنها قطع الجبال ، فهى قَلَعٌ ، وكَنَهْوَرٌ (واحدتها كَنَهْوَرَة) .

فإذا كانت قطعا رِقَاقا، فهى الطَّخَارِيرُ (واحدتها طُخْرُور) .

فإذا كانت حولها قطع من السحاب، فهى مُكَلَّلةٌ .

فإذا كانت سوداء، فهى طَخْياءُ، ومُتَطَخْطِخَة .

فإذا رأيتها وحسبتها ماطرة، فهى مُخَيِّلة .

فإذا غَلُظ السحاب وركب بعضُه بعضا، فهو المُكْفَهِرّ .

فإذا آرتفع ولم ينبسط، فهو النَّشَاصُ .

فإذا تقطع فى أقطار السماء وتلبَّدَ بعضُه فوق بعض، فهو القَرِدُ .

فإذا آرتفع وحمل الماء وكثُف وأطْبَق، فهو العَمَاء، والعَمَاية، والطَّخَاء، والطَّخَاف، والطَّهَاء .

فإذا آعترض آعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء، فهو الحَبِيُّ .

فإذا عنّ، فهو العَنَان .

فإذا أظل الأرض، فهو الدَّجْن .

فإذا آسودّ وتراكب، فهو المُحْمَوْمِى (١) .

فإذا تعلق سحاب دون السحاب، فهو الرَّبَاب .

فإذا كان سحاب فوق سحاب، فهو الغِفَارَةُ .

فإذا تدلّى ودنا من الأرض مثل هُدْب القَطِيفة، فهو الهَيْدَبُ .

فإذا كان ذا ماء كثير، فهو القَنِيف .

فإذا كان أبيض، فهو المُزْن، والصَّبِير .

فإذا كان لرعْده صوتٌ، فهو الهَزِيم .

(١) اسم فاعل من آحومى الشيء اذا آسودّ . يوصف به نحو السحاب والليل .

فإذا ٱشتدّ صوتُ رعده، فهو الأجَشُّ .

فإذا كان باردًا وليس فيه ماءٌ، فهو الصُّرَّاد[١] .

فإذا كان ذا صوت شديد، فهو الصَّيِّب .

فإذا أهرق ماءه، فهو الجَهَام (وقيل بل الجَهَام الذى لا ماء فيه) .

٣ — ذكر ما قيل فى ترتيب المطر

قال الثعالبى رحمه الله: أخفُّ المطر وأضعَفُه الطَّلُّ، ثم الرَّذَاذُ، ثم البَغْشُ والدَّثُّ ومثله الرَّكُّ، ثم الرِّهْمة .

(٢٧) ويقال أيضا: أوّله رَشٌّ وطَشٌّ، ثم طَلٌّ ورَذَاذ، ثم نَضْح ونَضْخ، وهو قَطْرٌ بين قَطْرين، ثم هَطْل وتَهْتانٌ، ثم وابِلٌ وجَوْدٌ .

٤ — ذكر ما قيل فى فعل السحاب والمطر

يقال إذا أتت السماءُ بالمطر اليسيرِ الخفيف[٢] : حَفَشت، وحَشَكت .

فإذا ٱستمرّ قَطْرها، قيل : هَطَلتْ، وهَتَنَتْ .

فإذا صبَّت الماءَ، قيل : هَمَعت، وهَضَبتْ .

فإذا ٱرتفع صوتُ وَقْعها، قيل : ٱنهَلَّت، واستَهَلَّت .

---

(١) فى فقه اللغة بعده : فإذا كان خفيف تسفره الريح فهو الزِّبْرِج، وبعده فإذا كان ذا صوت الخ .

(٢) كذا فى فقه الثعالبى وعبارة لسان : حَفَشت السماء تحفِش حَفْشا : جاءت بمطر شديد ساعة ثم أقلعت، ومثله حشكت وأغبت فالحَفْشة والحَشْكة والغَبْيه بمعنى واحد .

فإذا سالَ المطرُ بكثرة،قيل : آنسكَبَ، وآنبعَقَ.

فإذا سال يركب بعضُه بعضا، قيل : آثعَنْجَرَ،وآثعَنْجَجَ.

فإذا دام أيامًا لايُقْلِع،قيل : أَثْجَمَ، وأَغْبَطَ،وأدْجَنَ.

فإذا أقلع،قيل : أَنْجَمَ،وأَفْصَمَ،وأفصى.

---

٥ — ذكر أسماء أمطار الأزمنة

قالت العرب : أوّل مايبدأ المطر فى إقبال الشتاء،فآسمه الخَرِيفُ،ثم يليه الوَسْمِىّ، ثم الرَّبيع،ثم الصَّيِّف،ثم الحَمِيم.

وقيل المطر الأوّل هو الوَسْمِىّ،ثم يَليه الوَلْىُ،ثم الربيع،ثم الصَّيِّف،ثم الحَمِيم.

---

٦ — ذكر أسماء المطر اللغوية

قال الثعالبىّ :

إذا أحيا الأرض بعدَ موتها،فهو الحَيَا.

فإذا جاء عقيبَ المَحْل أو عند الحاجة إليه،فهو الغَيْثُ.

فإذا دام مع سكون،فهو الدِّيمةُ. والضَّرْب فوق ذلك قليلا، والهَطْل فوقه.

فإذا زاد،فهو الهَتَلَان،والهَتَّان،والتَّهْتَانُ.

فإذا كان القطر صغارا كأنه شَذْرٌ،فهو القِطْقِطُ.

فإذا كانت مطرة ضعيفة،فهى الرِّهْمَةُ.

فإذا كانت ليست بالكثيرة،فهى الغَبْيَة،والحَفْشة،والحَشْكة.

فإذا كانت ضعيفة يسيرة، فهى الذِّهَابُ، والهَمِيمَةُ(١).

فإذا كان المطر مستمرّا، فهو الوَدْق.

فإذا كان ضخمَ القَطْر شديدَ الوَقْع، فهو الوَابِل.

فإذا انْبَعَق بالماء، فهو البُعَاق.

فإذا كان يروى كل شيء، فهو الجَوْد.

فإذا كان عامًّا، فهو الجَدَا.

فإذا دام أيّاما لا يُقلِع، فهو العيْن.

فإذا كان مسترْسلا سائلا، فهو المُرْثَعِنُّ.

فإذا كان كثير القطر، فهو الغَدَق.

فإذا كان شديد الوَقْع كثير الصَّوْب، فهو السَّحِيفَةُ(٢).

فإذا كان شديدا كثيرا، فهو العزُّ، والعُبَاب.

فإذا جرَف ما مرّ به، فهو السَّحِيقَةُ(٢).

فاذا قشرتْ وجه الأرض، فهى السَّاحِيَةُ.

فإذا أثرت فى الأرض من شدّة وقعها، فهى الحَرِيصَةُ.

فإذا أصابت القطعةَ من الأرض وأخطأت الأُخرى، فهى النُّفْضَةُ.

فإذا جاءت المطرة لما يأتى بعدها، فهى الرَّصْدة، والعِهَادُ نحوٌ منها.

---

(١) فى فقه الثعالبي: الهَيْمة. بإسقاط الميم الأولى وهو تحريف كما يعلم من مراجعة القاموس.

(٢) نقل صاحب اللسان فى مادة (س ح ف) عن الأصمعى: (ان السحيفة بالفاء، المَطْرة الحديدة التى تجرف كل شىء. والسحيقة بالقاف، المطرة العظيمة القطر الشديدة الوقع القليلة العرض) وهو عكس ما نقله النويرى عن الثعالبي.

فإذا أتى المطر بعد المطر، فهو الوَلِيُّ.

فإذا رجع وتكرر، فهو الرَّجْعُ.

فإذا تتابَعَ، فهو اليَعْلُولُ.

فإذا جاءت المطرة دَفَعات، فهى الشَّآبِيبُ.

٧ — ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر المطر

يقال: أبردُ من غِبِّ المطر. أرقُّ من دَمْع الغمام. أسرَعُ من السيل إلى الحُدُور. أطغى من السيل. أغشَمُ من السيل. أمضى من السيل. يذهب يومُ الغيم ولا يُشْعَر به. قد بلغ السيل الزُّبى. اِضطره السيل إلى مَعْطَشِه. أرِنيها نَمِره، أُرِيكَها مَطِره. سبق سيله مطَرَه. قبل السحاب أصابنى الوَكْف.

ومن أنصاف الأبيات:

* هَلْ يُرْتَجى مَطَرٌ بغَــيْرِ سَحَابِ *   * وأوّلُ الغَيْثِ طَلٌّ ثم يَنْسَكِبُ *

* سَحَابَةُ صَيْفٍ عنْ قَرِيبٍ تَقَشَّعُ *   * فَدَرّ كما دَرّ السَّحاب على الرَّعْدِ *

* أسْرَعُ السُّحْبِ فى المَسِير الجَهامُ *   * ومَنْ يَسُدُّ طَرِيقَ العارِضِ الهَطِلِ؟ *

* سَحَابٌ عَدانِى فَيْضُه وهْوَ صَيِّبُ *   * يَحْسَبُ المَمْطُورُ أنْ كُلُّ مُطِرْ *

* سالَ بِهِ السَّيْلُ وما يَدْرِى بِهِ *

ومن الأبيات قول الطائى:

وكذا السَّحائبُ، قَلّمَا تَدْعُو إلى * مَعْرُوفِهَــا الرُّوَّادَ ما لم تَبْرُقِ.

وقال البحترىّ عفى عنه :

وَاَعْلَمْ بأنَّ الغَيْثَ ليس بنافِعٍ * مالم يَكُنْ للنَّاس فى إبَّانِهِ . (٣٨)

وقال أبو الطَّيِّب :

لَيْتَ الغَمَامَ الَّذِى عِنْدِى صَواعِقُهُ * يُزِيلُهُنَّ إلىٰ مَنْ عِنْدَهُ الدِّيَمُ !

وقال كُثيِّر :

كما أَبْرَقَتْ يَوْمًا عِطَاشًا غَمَامةٌ . * فلمَّا رجَوْها ، أَقْشَعَتْ وتجلَّتِ .

وقال آخر :

أنَا فى ذِمَّة السَّحابِ وأظما ! * إنَّ هٰذَا لَوَصْمَةٌ فى السَّحابِ !

وقال آخر :

والله يُنْشِى سَحَابًا تَطْمَئِنُّ بِهِ النُّـ * ـفُوسُ من قَبْل بَلِّ الأَرْضِ بالمَطَر .

---

٨ — ذكر شيء مما قيل فى وصف السحاب والمطر

قال أبو تمَّام الطائى :

سَحَابةٌ صادِقَـــةُ الأَنْواءِ * تَجُرُّ أهْدابًا علىٰ البَطْحاءِ ،
تَجْمَعُ بَيْنَ الضِّحْكِ والبُكَاءِ : * بَدَتْ بنَارٍ وثَنَتْ بمـاءِ .

وقال أبو عبادة البُحْتُرِىّ عفا الله تعالىٰ عنه :

ذات ٱرْتِجَـاسٍ بِحَنِينِ الرَّعْدِ * مَجْرُورَةَ الذَّيْل صَدُوق الوَعْدِ ،
مَسْفُوحة الدَّمْع بغَـيْرِ وَجْدِ * لَهَـا نَسِيمٌ كَنَسِـيم الوَرْدِ ،

ورنَّةٌ مثــل زئير الأُسْـــد * ولَمْعُ برقٍ كسيُوف الهِنْــد.
جاءتْ بها ريحُ الصَّبا من نَجْدِ * فانتثرتْ مثلَ انتثار العِقْد.
وراحتِ الأرضُ بعَيْشٍ رَغْدِ * من وَشْيِ أنوار الثَّرىٰ فى بُرْد.
كأنمــا غُدْرانُهــا فى الوَهْد * يَلْعَبْنَ تَرْحاباً بهــا بالرَّنْد.

وقال أبو الحسن علىّ بن القاسم القاشانى من شعراء اليتيمة عفى عنه:

إذا الغُيُومُ ٱرْجَحَنَّ باسِقُها * وحَفَّ أرجاءَها بوَارِقُهــا،
وعُبِّيتْ للـــثَّرىٰ كتائبُهــا * وٱنتصبتْ وسْطَها عَقائقُها،
وجَلْجَلَ الرعدُ بَيْنها فَحكىٰ * خَفْقَ طُبُولٍ أَلَحَّ خافِقُهــا،
وٱبتسَمتْ فَرحةً لوامِعُها * وٱختلفَتْ عَبرةً حَمــالِقُها،
وقيل: طُوبىٰ لبلدةٍ نُحِيتْ * بِجَـــوِّ أكنافِها بوَارِقُهــا.
أيَّةُ نَعْماءَ لا تَحُـــلُّ بها؟ * وأىُّ بأساءَ لا تُفــارِقُها؟

وقال القاضى التَّنُوخىّ:

سحــابٌ أتىٰ كالأمْنِ بعد تَخَوُّف * له فى الثَّرىٰ فِعلُ الشِّفاء بمُدْنَف.
أكبَّ علىٰ الآفاقِ إكْبابَ مُطْرِقٍ * يُفَكِّــرُ أو كالنَّــادم المُتلهف.
ومَدَّ جَناحَيْه علىٰ الأرضِ جانِحًا * فراحَ علَيْهــا كالغُــراب المُرفْرِف.
غدا البَرُّ بحرا زاخِرًا وٱنثنىٰ الضُّحى * بظُلْمته فى ثوبِ ليـــلٍ مُسَجَّف.
فعبَّسَ عن بَرْقٍ به مُتَبَسِّـــمٍ * عُبُوسَ بَخِيـــلٍ فى تبسُّم مُعْتَفِ.
تُحاوِلُ منه الشمسُ فى الجوِّ مَخْرَجا * كما حَاوَلَ المغلوبُ تَجْرِيدَ مُرْهَف.

وقال ابن الرومى :

سَحَائبُ قِيسَتْ بالبِلاد فأُلفِيَتْ * غِطَاءً على أغوارِهَا ونُجُودِهَا.
حَدَتْها النُّعَامَى مُقبِلاتٍ فأقبَلَتْ * تَهادَى رُوَيْدا سَيْلُها كرُكُودِها.

وقال أبو هلال العسكرى :

وبَرْقٍ سَرَى، والليلُ يُمْحَى سَوادُه * فقُلْتُ : سِوارٌ فى مَعَاصِمِ أسْمَرا!
وقد سَدَّ عُرْضَ الأُفْقِ غَيْمٌ تَخَالُه * يَزُرُّ على الدُّنيا قَمِيصًا مُعَنْبَرا.
تَهادَى على أيْدِى الجَنائبِ والصَّبَا * تَخَرُّقَ من الفِتْيانِ نازَعَ مُسْكِرا.
تَخَالُ بِهِ مِسْكًا وبالقَطْرِ لُؤْلُؤًا * وبالرَّوْضِ ياقُوتًا وبالوَحْلِ عَنْبَرا.
سَوَادُ غَمَامٍ يَبْعَثُ الماءَ أبيضًا * وغُرَّةُ أرضٍ تُنْبِتُ الزَّهْرَ أصْفَرا.
أتَتْكَ بِهِ أنْفَاسُ رِيحٍ مَرِيضَةٍ * كَمُقْطَعَةٍ رَعْناءَ تَسْتاقُ عَسْكَرا. (٣٩)
فألْقَى على الغُدْرانِ دِرْعًا مُسَرَّدًا * وأهدَى إلى القِيعانِ بُرْدًا مُحَبَّرا.
تَخَالُ الحَيَا فى الجَوِّ دُرًّا مُنظَّمًا * وفى وَجَناتِ الرَّوْضِ دُرًّا مُنَثَّرا.
وأقبَلَ نَشْرُ الأرضِ فى نَفَسِ الصَّبَا * فباتَ بِهِ ثَوْبُ الهَوَاءِ مُعطَّرا.
إذا مادَعَتْ فيه الرُّعُودُ فأسْمَعَتْ * أجابَ حُدَاةً واسْتَهَلَّ فأغْزَرا.
ويَبْكِى إذا ما أضْحَكَ البَرْقُ سِنَّهُ * فيَجْعَلُ نارَ البَرْقِ ماءً مُفَجَّرا.
كأنَّ بِهِ رُؤْدَ الشَّبابِ خَرِيدَةً * قد اتَّخَذَتْ ثِنْىَ السَّحابَةِ مِعْجَرا.
فثَغْرٌ يُرِينا من بَعِيدٍ تَبَلُّجًا * ودَمْعٌ يُرِينا من بَعِيدٍ تَحَدُّرا.

وقال مؤيد الدين الطُّغرائى :

سارِيةٌ ذاتُ عُبوسٍ بَرْقُها * يَضْحَك والأجْفانُ منها تَهْمُلُ .
كحُلَّةٍ دَكْناءَ فى حاشِيَةٍ * فيها طِرازٌ مُذْهَبٌ مُسَلْسَلُ .
إذا دَنَتْ عِشارُها، صاحَ بِها * قاصِفُ رَعْدٍ وحَدَتْها الشمْأَلُ .

وقال عبد الله بن المعتزّ :

ومُزْنةٍ جاد من أجْفانها المطَرُ: * فالرَّوْض منتَظِمٌ والقَطرُ منتَثِرُ .
ترىٰ مواقعَهُ فى الأرضِ لائحةً * مِثْلَ الدراهِمِ تَبْدُو ثم تَسْتَتِرُ .

وقال أيضا :

ما ترىٰ نِعْمَةَ السَّماء علىٰ الأر * ضِ وشُكْرَ الرِّياضِ للأمْطارِ؟
وكأنّ الرَّبيعَ يجْلُو عَرُوسا * وكأنّا مِنْ قَطرِه فى نِثَارِ!

وقال ٱبن عوف الكاتب فى إطباق الغيم وقُربه :

فى مُزْنةٍ أطبقَتْ فكادَتْ * تُصافِحُ التُّرب بالغَمام .

وقال آخر :

تَنَسَّمَتِ الرِّيحُ ، رِيحُ الجَنُو * بِ فِيها هَوًى غالِبًا وٱدِّكارا .
وساقَتْ سَحابًا كمِثْلِ الجبَال * إذا البَرْقُ أوْمَضَ فيه، أنارَا .
إذا الرَّعْدُ جَلْجَلَ فى جانِبَيْـ * ـه،رَوَىٰ النَّباتَ وأرْوَىٰ الصَّحارىٰ .
تُطالِعُنا الشَّمْسُ مِنْ دُونِه * طِلَاعَ فَتاةٍ تَخَافُ ٱشْتِهارا ،
تَخافُ الرَّقيبَ علىٰ نَفْسِها * وتَحْذَرُ من زَوْجها أن يَغارَا .
فتَسْتُرُ غُرَّتَها بالخِمَا * رِ طَوْرًا، وطَوْرًا تُزِيلُ الخِمارا .

فلمّا رآهُ هُبُوبُ الجنُو * بِ وٱنْهمَرَ الماءُ فيه ٱنْهمارا،
تبسّمَتِ الأرضُ لمّا بكَتْ * عليْها السّماءُ دُمُوعًا غِزَارا!

وقال الأسعد بن بُليطة من شعراء الذخيرة :

لَوْ كُنْتَ شاهِدَنا عَشِيَّةَ أمْسِنا، * والمُزْنُ تَبْكِينا بعَيْنَىْ مُذْنِبِ،
والشمسُ قد مَدَّتْ أَدِيمَ شُعاعِها * فِى الأرضِ تَجْنَحُ غيرَ أنْ لم تَذْهَبِ،
خِلْتَ الرَّذَاذَ بُرادةً مِنْ فِضَّــةٍ * قد غُرْبِلَتْ من فَوْقِ نِطْعٍ مُذْهَبِ!

وقال أبو عبد الله محمد بن الخياط من شعرائها :

راحَتْ تُذَكِّرُ بالنَّسِــيمِ الرّاحا * وَطْفاءُ تَكْسِرُ للجُنُوحِ جَنَاحا.
أَخْفَى مَسَالِكَها الظلامُ فأوْقدَتْ * من بَرْقِها، كى تَهْتَدِى، مِصْباحا.
وكأنّ صَوْتَ الرَّعْدِ خَلْفَ سَحابِها * حادٍ إذا وَنَتِ السحائبُ، صاحا.
جادَتْ على التَّلَعاتِ فٱكتسَتِ الرُّبا * حُلَلًا أقامَ لها الرَّبِيــعُ وِشاحا.

وقال ٱبن بُرد الأصغر الأندلسىّ من شعرائها : (٣٠)

ومازِلْتُ أحسَبُ فيه السَّحاب، * ونارُ بَوَارِقِهــا تَلْتَهِبْ :
بَخَاتِىَّ تُوضِعُ لى سَــيْرَها * وقد قُرِعَتْ بِسِياطِ الذَّهَبْ.

ومما ورد فى وصفها نثرا

§ قال بعض الأندلُسيّين من رسالة :

ثم أرسل الله الرياح من كائنها، وأخرجها من خزائنها؛ فجرّتْ ذيولَها، وأجرت خيولَها؛ خافقة بنودُها، متلاحقــة جنودُها؛ فأثارتِ الغمام، وقادَتْه بغير زِمام؛ وأنشأت بَحْرِيَّةً من السحاب، ذات أتراب وأصحاب؛ كثيرًا عددُها، غزيرا مددُها،

فبشّرتْ بالقَطر كلَّ شائم ، وأنذرت بالوِرْد كلَّ حائم ، والريح تَنُثُّها ، والبرق يحثُّها ، كأنه قضيب من ذهب، أو لسان من لهب ؛ وللسحاب من ضوء البرق هاد، ومن صوت الرعد حاد ؛ والريح توسع بلُحْمتها سَدَاها، وتُسْرع في حياكتها يداها . فلما التحم فَتْقُها ، والتأم رَتْقُها ؛ وامتدت أشطانها ، واتسعت أعطانها ؛ وانفسحت أجنابها ، وانسدلت أطنابها ؛ وتهدّل حملها ، وتمخض حملهـا ؛ ومدّت على آفاق السماء نِطاقَها ، وزرّت على أعناق الجبال أطواقَها ، كأنها بناء على الجو مقبوب ، أو طَبَقٌ على الأرض مكبوب ؛ تمشي من الثقل هَوْنا ، وتستدعي من الريح عَوْنا ؛ ومخايلها تقوى ، وعارضها أحوى . فلما أذن الله لها بالانحدار ، وأنزل منه الوَدْق بمقدار ، أرسلت الريح خُيوطَ القطر من رُود السحائب ، وأسبلتها إسبال الذوائب . فدرّت من خِلْف مَصْرور ، ونثرت طلّها نثر الدرور . ثم انخرق جيبُها ، وانبثق سيبُها ؛ وصار الخيط حبلا ، والطلّ وَبْلا . فالسحاب يتعلّق، والبرق يتألّق ؛ والرعد يرتجس ، والقطر ينبجس ؛ والنُّقَط تترامى طِباقَها ، وتتبارى اتساقها ؛ فيَرْدف السابقُ المصلّي، ويتصل التابع بالمولّي؛ كما يقع من المُنْخَل البُر، وينتثر من النظام الدُّر، لجيوب السماء تُسقطه ، وأكُفّ الغُدْران تلْقُطه ؛ والأرض قد فتحت أفواها ، وجَرَعت أمواها . حتّى أخذت رِيَّها من المطر، وبلغت منه غاية الوطر، خلى من الرعد تسبيحه، وطَفِئت من البرق مصابيحه، وحَسَرت السماء نِقابها ، وولّت المطر أعقابها ؛ وحكت في ردّها طِلْق السابق ، وهَرَب الآبق .

§ ومن رسالة لمحمد بن شرف القيرواني :

برئ عليل البرى، وأثرى فقير الثرى، وتاريخ ذلك انصرام ناجر[1]، وقد بلغتِ القلوبُ

(١) رجب أو صفر . وكل شهر من شهور الصيف (قاموس) .

الحناجر، مُمارَّةٌ احمرت لها خضرة السماء، واغبرّت مِرْآة الماء، حتّى انهلّ طالعَ وسْمِىّ، وتلاه تابع ولِىّ، دنا فأسفّ، ووكَفَ فما كفّ. فما فتئ مسكوبا قَطْرُه، محجوبا شمسه وبدرُه، وجليت عروسُ الشمس، معتذرةً عن مغيبها بالأمس. فعندها مُزِّق عن الدقعاء صحيحُ إهابها، واختُزِن دُرّ البر فى أصداف ترابها. فما مرّت أيام إلا والقِيعان مسندَسه، والآكام مطوّسه.

§ ومن رسالة لأبى القاسم، محمد بن عبد الله بن أبى الجد فى وصف مطر بعد قَحْط:

قال: لله تعالى فى عباده أسرار، لا تُدرِكها الأفكار، وأحكام، لا تنالُها الأوهام. تختلف والعدل مُتَّفِق، وتفترق والفضل مجتمع مُتّسق. ففى مِنَحها نفائس المأمول، وفى مِحَنها مَدَاوس(١) العقول. وفى أثناء فوائدها حدائقُ الإنعام رائقه، وبين أرجاء سرائرها بوارق الإعذار والإنذار خافقه. وربما تفتحت كمائم النوائب، عن زَهَرات المواهب. وانسكبت غمائم الرزايا، بنفحات العطايا. وصدع ليلَ اليأس صبحُ الرجاء، وخلع عاملَ البأس والِى الرخاء. ذلك تقدير اللطيف الخبير، وتدبير العزيز القدير!

(٣١) ولما ساءت بتثبط الغيث الظُّنون، وانقبض من تبسط الشك اليقين، واسترابت حياض الوِهاد، بعهود العِهاد، وتأهبت رياضُ النِّجاد، لبرود الحداد، واكتحلت أجفان الأزهار، بإثمد النقع المُثَار، وتعطلت أجياد الأنوار، من حُلى الديمة المِدْرار، أرسل الله بين يدى رحمته ريحا بَليلةَ الجَناح، مُخِيلةَ النَّجَاح، سريعة الإلقاح. فنظمتْ عقودَ السحاب، نظم السِّخاب، وأحكمت برود الغَمام، رائقة الأعلام. وحين ضربت تلك المُخِيلةُ فى الأفق قِبابَها، ومدّت على الأرض أطْنابَها، لم تلبث أن انهتك رُواقها،

(١) جمع مِدْوَس [أى مصاقل العقول].

وآنبتك وَشِيكًا نِطاقُها، وآنبرت مدامعُها تبكى بأجفان المُشْتاق، غداة الفِراق، وتحكى بَنّان الكرام، عند أريحيّة المُدام، فآستغربت الرياض ضحكا ببُكائها، وآهتزّ رُفَات النبات طَرَبا لتغريد مُكَّائها، وآكتست ظهور الأرض من بيض إنائها، خُضْرَ مُلائها. فكأنّ صنعاء قد نشرت علىٰ بسيطها بِساطا مُفَوَّفا، وأهدت إليها من زخارف بَزّها ومطارف وشْيها ألطافا وتحفا. وخُيِّل للعُيون أن زواهِر النجوم، قد طلعت من مواقع التُّخُوم، ومباسم الحسانِ، قد وصلت بآفترار الغيطان. فيا بَرْدَ موقِعها علىٰ القلوب والأكباد! ويا خلوص ريها إلىٰ غُلَل النفوس الصَّواد! كأنما آستعارت أنفاسَ الأحباب، أو ترشّفَت شَنَب الثنايا العِــذاب، أو تحملتْ ماء الوِصال، إلىٰ نار البلبال. أو سرت علىٰ أنداء الأسحار وريحان الآصال. لقد تبين للصنع الجليل، من خلال ديمها تنفس ونصول، وتمكنَ للشكر الجميل، من ظلال نعمها معرّس ومقيل. فالحمد لله علىٰ ذلك ما آنسكب قطر، وآنصدع بحر، وتوقّد قبَس، وتردّد نَفَس، وهو الكفيل تعالىٰ بإتمام النعمىٰ، وصلة أسباب الحياة والحيا بعزته!

§ وقال الوزير أبو عمرو الباجىّ فى مثل ذلك :

إن لله تعالىٰ قضاياَ واقعةً بالعدل، وعطاياَ جامعةً للفضل؛ ونِعَما يبسطها إذا شاء إنعــاما وتَرْفيها، ويقبضها متىٰ أراد إلهــاما وتنبيها؛ ويجعلها لقوم صــلاحا وخيرا، ولآخَرين فسادا وضَيْرا. ﴿وهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا ويَنْشُرُ رَحْمَتَــهُ وهُوَ الوَلِىُّ الحَمِيدُ﴾. وإنه كان من آمتساك السُّقيا، وتوقُّف الحيــا، ما رِيعَ به الآمن، وآســتُطِير له الساكن؛ ورَجَفت الأكباد فزعا، وذَهَلت الألبابُ جَزَعا؛ وأذكتْ ذُكاءُ حرَّها، ومنعت السماءُ دَرّها؛ وآكتست الأرضُ غُبرة بعد خُضرة، ولبست شُحوبا بعد نَضْرة؛ وكادت بُرُودُ الرياض تُطْوىٰ، ومُدُود نِعم الله تُزْوىٰ؛

ثم نشر الله تعالىٰ رحمته ، وبسط نِعمته ، وأتاح مِنَّته ، وأزاح مِحْنته . فبعث الرياح لَوَاقِح ، وأرسل الغَمام سَوَافِح ، بماء يتدفّق ، ورَوَاءٍ غَدَق ، من سماء طبَق . آستهلّ جفنها فدَمَع ، وسمح دمعها فهمَع ، وصاب وَبْلُها فنقع . فاستوفت الأرضُ رَيّاً ، وآستكملت من نَباتها أثاثا ورِيّاً ؛ فزينــة الأرض مشهوره ، وحُلّةُ الزهر منشوره ، ومِنّة الرب موفوره ؛ والقلوب ناعمة بَعد بُوسها ، والوجوه ضاحكة إثر عُبُوسها ؛ وآثار الجزَع ممحوّه ، وسُوَر الشكر متلوّه ؛ ونحن نسترِيد الواهب نعمة التوفيق ، ونستهديه فى قضاء الحقوق إلىٰ سواء الطريق ؛ ونستعيذ به من المِنّة أن تعودَ فتنه . والمنحة أن تصير محنه ! والحمد لله رب العالمين !

---

٩ — ذكر شيء مما وصف به الثلج والبَرَد

قال أبو الفتح كشاجم :

الثَّلجُ يسقُطُ أم لُجَينٌ يُسبَكُ ، * أم ذا حَصىٰ الكافورِ ظَلَّ يُفرَكُ ؟
راحتْ به الأرضُ الفَضاءُ كأنّها * فى كُلِّ ناحيــةٍ بثَغرٍ تَضْحَكُ ! (٣٣)
شابتْ ذوائبُها فَبيْنَ ضحكِها * طرباً وعَهْدِى بالمَشيبِ يُنَسِّكُ !
وتَرَدّت الأشجـارُ منــه مُلاءةً * عمّـا قَليـلٍ بالرِّياحِ تُهَتَّــكُ !

وقال أيضا :

ثَلْـجٌ وشمسٌ وصَـوْبُ غادِيةٍ * فالأرضُ من كُلِّ جانبٍ غُرّه !
باتت . وقيعـانُها زَبَرْجدةٌ * فأصبحتْ قد تحوّلتْ دُرّه !
كأنهـا والثُّـلوجُ تُضحِكُها * تُعـارِ ممن أُحبُّـه ثَغْـرَه !
شابتْ فَسُرّتْ بذاك وآبتهجتْ * وكان عهدِى بالشَّيب يُستَكْرَه !

وقال الصاحب بن عبّاد :

أَقبـلَ الثّلجُ فى غلائل نَوْرٍ * تتَهـادىٰ بلؤلؤ منثُـورِ !
فكأنّ السماءَ صاهَرَتِ الأر * ضَ فصار النّثار من كافُور !

وقال النميرىّ :

أهـدىٰ لنـا بَرَدًا يلُوحُ كأنه * فى الجو حَبُّ لآلِئٍ لم يُثْقَبِ،
أو ثغرُ حَواءِ الّلثَـاتِ تبسّمتْ * عن واضحٍ مثل الأقَاحى أشْنَبِ!

البــاب الثـانى

من القسم الثـانى من الفن الأوّل

فى النيازك، والصواعق، والرعد، والبرق، وقوس قُزَح

(١) فأما النيازك، فهو مايُرىٰ من الذوائب المتصلة بالشُّهب والكواكب .

روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال لجماعة من الأنصار : "ما كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يرمىٰ به؟ قالوا : يارسول الله، كنا نقول إذا رأيناها يرمىٰ بها : مات ملك ، ولد مولود . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ليس ذلك كذلك، ولكن الله تعالىٰ كان إذا قضىٰ فى خلقـه أمرا سمعه الملائكة فيسبحون، فيسبّح مَن تحتهم لتسبيحهم، فيسبّح مَن تحت أولئـك حتّى ينتهى إلىٰ السماء الدنيا فيسبحون، ثم يقولون ألا تسألون من فوقكم ممّ يسبحون، فيقولون قضىٰ الله فى خلقه كذا وكذا، للأمر الذى كان . فيهبط به الخبر من سماء إلىٰ سماء حتّى ينتهى إلىٰ السماء الدنيا فيتحدّثون به، فتسترقه الشياطين بالسمع علىٰ توهم واختلاف . ثم يأتون

به الكُهّان، فيصيبون بعضا، ويُخطئون بعضا . ثم إن الله تعالىٰ حجب الشياطين بهذه النجوم التى يُقْذَفون بها، فانقطعت الكَهَانة، فلا كَهَانةَ اليومَ".

والشهب التى يُقذف بها الشياطين غير النجوم الثوابت التى منها البروج والمنازل لقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصَابِيحَ وجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾.

وقال بعض الشعراء :

وكَوْكَبٍ نَظَرَ العفريتَ مُسْتَرِقًا * للسَّمْعِ فَٱنْقَضَّ يُذْكِى إثْرَه لَهَبَه
كفارسٍ حلَّ من تِيهٍ عمامَتَه * وجَرَّها كُلَّها من خَلْفِه عَذَبه

وكتب ٱبن الحرون إلىٰ صديق له ،وقد كثر ٱنقضاض الكواكب،وذلك فى أيام المتوكل علىٰ الله :

أما بعد . فإن الفلك قد تفرّى عن شُهُبٍ ثواقب ، كنيران الحُبَاحِب، مُتَّقِدَة كشرر الزنود،وشُعَل زُبَر الحديد ؛ مازجها عرض حمرة البَهْرَمَان، وصفرة العِقْيَان[(١)]. فهى كأرسال جرادٍ منتشِر، وهشيم ذَرَتْه ريحٌ صرصَرٌ، فى سُرْعة الكفِّ ، ووَحَى لحظ الطَّرْف .

(ب) وأما الصواعق ، فهى ماقاله الزمخشرىّ فى تفسيره : الصاعقة قصفة من رعد ينقضُّ معها شُقَّة من نار .

وقالوا : إنها تنقدح من السحاب إذا ٱصطكّت أجرامُه . وهى نار لطيفة حديدة لا تمر بشىء إلا أتت عليه،إلا أنها مع حدّتها سريعةُ الخمود . علىٰ أنها متىٰ سقطت علىٰ نخلة أحرقت عاليَها .

(١) العقيان الذهب .

وقال صاحب كتاب "مناهج الفكر ومباهج العبر" فى كتابه :

ومن عجيب شأنها أنها تحرق ما فى الكِيس ، ولا تُحْرِق الكِيس ؛ وإن آحترق فإنما يحترق باحتراق ما ذاب فيه وسال. قال : وهى إذا سقطت على جبل أو حجر كلسته ونفذته ، و إذا سقطت فى بحر غاصت فيه وأحرقت ما لاقت من جوانبه.

(٣٣) وربما عرض لها عند آنطفائها فى الأرض برد ويبس ، فتكوّن منها أجرام حجرية ، أو حديدية ، أو نحاسية . وربما طبعت الحديد سيوفا لا يقوم لها شىء .

(ج) وأما الرعد وما قيل فيه . قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾. قال المفسرون : الرعد مَلَكٌ موكل بالسحاب ، معه كُرٌّ من حديد ، يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعى إبله . فكلما خالف سحاب ، صاح به فزجره . فالذى يُسْمَع هو صوت المَلَك .

وقال الزمخشرى من تفسيره : الرعد الذى يسمع من السحاب ، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدّتها الريح فتصوّت عند ذلك .

وأما صوت الرعد ، تقول العرب : رَعَدت السماء .

فإذا آزداد صوتها ، قيل : آرتجست .

فإذا زاد ، قيل : أرزَمت ، وقَعقَعتْ[1] .

فإذا بلغت النهاية ، قيل : جَلْجلَتْ ، وهَدْهَدَتْ .

---

(١) عبارة فقه اللغة : (فإذا زاد ، قيل : أرزمت ، ودوّت . فإذا زاد واشتد ، قيل : قصفت ، وقعقعت . فإذا بلغ النهاية إلخ) اهـ .

المثـــل

رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعدة. (للبخيل المتكبر) .

(د) وأما البرق وما قيل فيه، فقد ذهب المفسرون لقول الله تعالى إلى أنه ضَرْبُ المَلَك الذى هو الرعد للسحاب بمِخْراق من حديد . وروى عن مجاهد: ان الله عز وجل وكّل بالسحاب مَلَكا. فالرعد قَعْقَعة[(١)] صوته، والبرق سَوْطه[(٢)] .

وأما ترتيبه فى لمعانه

تقول العرب إذا برق كأنه يتبسم، وذلك بقدر ما يريك سوادَ الغَيْم من بياضه : ٱنْكَلّ ٱنْكِلالًا .

فإذا بدا من السماء برقٌ يسير، قيل : أَوْشَمَت السماءُ . ومنه قيل : أوشَمَ النبتُ إذا أبصرت أوّلَهُ .

فإذا بَرَق بَرْقا ضعيفا، قيل: خَفَا .

فإذا لمع لمعا خفيفا، قيل : لَمَحَ، وأَوْمَضَ .

فإذا تشقق، قيل: ٱنعقّ ٱنْعِقَاقًا .

فإذا ملأ السماء وتكشف وٱضطرب، قيل: تبوّجَ .

فإذا كثر وتتابع، قيل: ٱرْتَعَجَ .

فإذا لمع وأطمَعَ ثم عَدَلَ، قيل له : خُلَّبٌ .

---

(١) فى الأصل نغنغة : . وهو محرّف عن قعقعة بالقاف كما يقتضيه السياق .

(٢) فى الأصل صوته . وهو محرّف عن سوطه وهو مخراق الحديد الذى ذكر فى السطر الذى قبله .

المثـــل :

" ليس فى البرق اللّامِع مُسْتَمْتَعٌ " .

ذكر ما قيل فى وصف الرعد والبرق

قال أبو هلال العسكرىّ، عفا الله عنه :

والرعـــدُ فى أرجائه مُـــتَرَنِّم * والـــبرقُ فى حافاته متلَهِّبُ .
كالبُلْق ترمَح، والصَّوارمُ تُنْتَضىٰ * والجو يَبْسِمُ، والأنامل تَحْسُب .

وقال آخر :

إذا وَنَتِ السُّحْبُ الثِّقالُ وحثَّها * من الرعد حادٍ ليس يُبْصِرُ أكْمَهُ،
أحاديثُه مُسْـتَهوِلاتٌ وصَوْتُه * إذا آنخفضت أصواتُهن مُقَهْقِهُ،
إذا صـاح فى آثارهنّ حَسِبْتَه * يحاوِبُه من خَلْفِه صاحبٌ له .

وقال آبن الدقّاق الأندلُسىّ :

أرىٰ بارقًا بالأبلق الفَـرْدِ يُومِض * يُذَهِّب أكنافَ الدُّجىٰ ويُفَضِّضُ .
كأنَّ سُلَيْمىٰ من أعاليــه أشرَفَتْ * تَمُدّ لنـا كفًّا خضِيبا وتَقبِضُ .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلُسىّ :

ويوم جَرىٰ برقُـــهُ أشـــقَرا * يُطارِدُ من مُزْنه أشهبَا :
ترىٰ الأرضَ فيه وقد فُضِّضَتْ * ووجهَ السَّـماءِ وقد ذُهِّبَـا !

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبىّ، شاعر الذخيرة :

ولمـا تجلّىٰ اللّيـلُ والبَرْقُ لامِعٌ * كما سَلَّ زَنْجِىٌّ حُساماً من التِّبر.
وبِتُّ سَمِيرَ النجم وهو كـأنه * علىٰ مِعْصم الدّنيا جبائرُ من دُرّ.

وقال محمد بن عاصم، شاعر الخريدة عفا الله عنه :

أضاءَ بِوادِى الأثْلِ والّليلُ مُظلِمٌ * بُرَيْقٌ كحَدِّ السَّيف ضَرَّجَهُ الدَّمُ.
إذا البرقُ أجرىٰ طرْفه فصهيله * إذا ما تفرّى رعدُه المُتَرَنِّمُ. (٣٤)
فشبَّهتُه إذ لاحَ فى غَسَقِ الدُّجىٰ * بأسنانِ زَنْجِيٍّ بَدَتْ تَتبسَّمُ.

وقال أيضا :

والبرقُ يَضحَكُ كالحبيب وعِنْده * رَعْدٌ يُخَشِّنُ كالرَّقيب مَقَالَهُ!

وقال آخر :

أرِقْتُ لبرقٍ غَدَا مَوْهِنًا * خَفِيٍّ كغَمزِكَ بالحاجب.
كأنَّ تألُّقَه فى السما * يدَا كاتبٍ أو يدَا حاسبِ.

وقال عبد الله بن المعتزّ، يشير إلىٰ سحابة :

رأيتُ فيها بَرْقها مُنذُ بدتْ * كمثل طَرْفِ العين أو قلبٍ يجِبْ.
ثم حَدَتْ بها الصَّبا حتّى بدا * فيها إلىٰ البرق كأمثال الشُّهُب.
تَحْسَبُه فيها إذا ما انْصَدَعَتْ * أحْشاؤها عنه شُجَاعًا يَضْطَرِبْ.
وتارةً تُبصِرُه كأنّهُ * أبْلَقُ مالَ جُلُّه حِينَ وَثَبْ.
حتّى إذا ما رَفَع اليَوْمُ الضُّحىٰ * حَسِبْتَه سَلاسلًا مِنَ الذَّهَبْ.

قوله شجاع يضطرب مأخوذ من قول دعبل :

أرِقتُ لبَرْقٍ آخِرَ الليلِ مُنْصِب * خَفِيٍّ كبطن الحَيَّة المتَقلِّبِ.

وقال ايضا :

مازِلتُ أكْلأُ بَرْقًا فى جَوانِبه * كطَرْفةِ العَيْنِ تَخْبو ثم تَخْتَطِفُ.
بَرْقٌ تجاسَرَ من حَفَّان لامِعُه * يَقْضِى اللُّبانَةَ من قَلْبى ويَنْصَرِفُ.

(هـ) وأما قوس قزح وماقيل فيه . قالوا : وإنما سمى بذلك لتلوّنه .

وكان ابن عبّاس (رضى الله عنهما) يكره أن يسميَه قوس قُزَح، ويسميه قوس الله، ويقول: قُزَحُ اسم الشيطان .

وزعم القدماء فى علة تلوّنه وتكوّنه، أنه إذا تكاثف جزء من الهواء بالبرد ثم أشرق عليه نور بعض الكواكب انصبغ ذلك الجزء، وانعطف منه الضوء إلى مايليه من الهواء، كالحمرة الصافية إذا طلعت عليها الشمس سطع نُورها، وانعطف منه ألوان مختلفة إلى ما يقرب منها. وحمرته وصفرته من قِبَل الرُّطوبة واليُبْس .

قالوا : وقياس ذلك النارُ ، فإنها إذا كانت من حطب رَطْب ، كان لونها أحمر كَدِرًا، فإن كانت من حطب يابس، كان لونها أصفر صافيا .

وقال آخرون : القوس يحدث عن رطوبة الهواء وصقالته، حتّى يمكن أن ترسم فيه دائرة الشمس كما تُرسم الأشباح فى المَرَايا، وتشتبك الأشعة بما يكون فيه البخار الرطب فيتولد، فيكون منها تلك الألوان. وإنما توجد دائرة على الناظر، لأن الشمس أبدا تكون فى قفاها ، ولذلك تُرى فى مقابلة الجهة التى تكون فيها الشمس، فتُرى فى المغرب إذا كانت الشمس فى المشرق، وتُرى فى المشرق إذا كانت فى المغرب .

وزعم بعض القدماء أن أثر القوس غير حقيقىّ، وإنما هو تخييل لا وجودَ له فى نفسه. وقال إن إدراكه على نحو إدراك صورة الإنسان فى المرآة من غير أن تكون منطبعة على الحقيقة فيها ولاقائمةً بها. وذلك بحسب غِلَظ الحس الباصر، وهو لايُرى إلا أن يكون وراء السحاب الصقيل، إذ ذاك يكون كالمرآة مؤديا للبصر على نحو تأدية البِلَّوْر، إذا جعل وراءه شىء غير مشفّ، ولا يكون ذلك عن السحاب الصقيل وحده، كما لا يكون عن البِلَّوْر وحده، ولا عن غير المُشِفّ وحده. والله أعلم .

ذكر ما قيل فى وصفه وتشبيهه

قال أبو الفرج الوأواء، عفا الله تعالىٰ عنه و(٢) :

سَقْياً ليومٍ بَدَا قَوْسُ الغَمامِ به * والشَّمْسُ طالِعةٌ والبرقُ خَلَّاسُ ! ﴿٣٥﴾
كأنه قَوْسُ رامٍ والبُرُوقُ له * رَشْقُ السِّهامِ وعينُ الشمسِ بُرْجاسُ .

وقال سعيد بن حميد القيروانى، رحمة الله عليه :

أما ترىٰ القوسَ فى الغَمامِ وقد * نَمَّقَ فيه الهَواءُ نُوَّارا؟
حَكَىٰ الطَّواوِيسَ وهى جاعلةٌ * أذنابَها لِلْيَاهِ أستارا .
أخْضَرُ فى أحمرٍ علىٰ يَقَقٍ * علىٰ وِشاحِ السَّحابِ قد دارا .
كأنما المُزْنُ وهى راهبةٌ * شَدَّتْ علىٰ الأُفْقِ منه زُنَّارا .

وقال ظاهر الدين الحريرى . شاعر الخريدة عفا الله عنه :

ألستَ ترىٰ الجوَّ مُستَعْبِرا * يُضَاحِكُه برقُهُ الخُلَّبُ؟
وقد بَاتَ من قُزَحٍ قوسُه * بعيدًا وتحسَبه يَقْرُبُ؟
كَطاقَىْ عَقِيقٍ وفَيْرُوزَجٍ * و بينهما آخَرٌ مُذْهَبُ .

وقال سيف الدولة بن حمدان، من أبيات :

وقد نشرَتْ أيْدِى الجَنُوبِ مَطارِفًا * علىٰ الجوِّ دُكْنًا والحَواشى علىٰ الأرض .
يُطَرِّزُها قَوْسُ السَّحابِ بأصفرٍ * علىٰ أحمرٍ فى أخْضَرٍ وَسْطَ مُبْيَضِّ .
كأذيالِ خَوْدٍ أقبلَتْ فى غَلائلٍ * مُصَبَّغةٍ، والبعضُ أقصرُ من بعضِ .

وقال عبد المحسن الصُّورىّ، عفا الله تعالىٰ عنه :

تأمَّلِ الجَوَّ ترىٰ والِيًا * قد ولىَ العَهْدَ علىٰ السُّحْبِ !
سارٍ، وقَوْسُ الله تاجٌ له ، * رَكْضًا من الشَّرقِ إلىٰ الغَرْبِ !

الباب الثالث

من القسم الثانى من الفن الأوّل

١ — فى أُسطقسّ[(١)] الهواء

رُوى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : "الريح من رَوْح الله تعالى، تأتى بالرحمة ، وتأتى بالعذاب . فلا تسبُّوها ، وآسألوا الله خيرها ، وآستعيذوا بالله من شرّها". أخرجه البيهقىّ فى سننه .

وروى أبو الفرج بن الجوزىّ بإسناده أن الريح تنقسم إلى قسمين : رحمة وعذاب ، وينقسم كل قسم إلى أربعة أقسام . ولكل قسم آسم . فأسماء أقسام قسم الرحمة : المبشِّرات ، والنُّشُر ، والمرسَلات ، والرُّخاء . وأسماء أقسام قسم العذاب : العاصف ، والقاصف (وهما فى البحر) ، والعقيم ، والصرصر (وهما فى البر) .

وقد جاء القرءان بكل هذه الأسماء .

٢ — ذكر ما قيل فى حدّ الهواء

قال الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سينا فى حدّه : الهواء جِرم بسيط ، طباعه أن يكون حارّا رطبا مشفا متحركا إلى المكان الذى تحت كرة النار التى فوق كرة الأرض والماء .

(١) كلمة معربة عن اليونانية معناها : العنصر .

وقال إبقراط : إنّ تغير حالات الهواء هو الذى يغير حالات الناس مرة إلى الغضب، ومرة إلى السكون، وإلى الهمّ والسرور، وغير ذلك . و إذا آستوت حالات الهواء، آستوت حالات الناس وأخلاقهم .

وقال : إن قوى النفوس تابعة لأمزجة الأبدان، وأمزجة الأبدان تابعة لتصرف الهواء، إذا برد مرة، وسخن مرة، خرج مرة الزرع نضيجا، ومرة غير نضيج، ومرة قليلا، ومرة كثيرا، ومرة حارّا، ومرة باردا، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم . وإذا آستوى وآعتدل الهواء، خرج الزرع معتدلا، فآعتدلت بذلك الصور والمزاجات. قال : والعلة فى تشابه التُّرك، هو أنه لما آستوى هواء بلادهم فى البرد آستوت صورهم وتشابهوا .

وقال : إنّ الرياح تقلب الحيوان حالا إلى حال، وتصرفه من حرّ إلى برد، ومن يبس إلى رطوبة، ومن سرور إلى حزن، و إنها تغير ما فى البيوت من أصناف المآكل كالتمر، والعسل، والسمن، والشراب، فتسخنها مرة، وتبردها أخرى، وتصلّبها مرة، وتيبّسها مرة . وعلة ذلك أنّ الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها، و إذا تغير (٣٦)
الهواء، تغير بتغيره كل شىء .

وقال : إنّ الجنوب إذا هبت، أذابت الهواء وبرّدته، وسخنت البحار والأنهار . فكل شىء فى رطوبة تغير لونه وحالاته . وهى ترخى الأبدان والعصب، وتورث الكسل، وتحدث ثِقَلا فى الأسماع، وغشَاوة فى الأبصار. وأما الشَّمَال فإنها تصلب الأبدان، وتصحح الأدمغة، وتحسن اللون، وتصفى الحواس، وتقوّى الشهوة والحركة، غير أنها تهيج السعال، ووجع الصدر .

وزعم بعض من تأخر فى الإسلام من الحكماء : أن الجنوب إذا هبت بأرض العراق، تغير الورد، وتناثر الورق، وتشقق القُنَّبيط، وسخُن الماء، وٱسترخت الأبدان، وتكدر الهواء .

وزعم آخرون من القدماء : ان الهواء جسم رقيق متىٰ تموج من المشرق إلىٰ المغرب سمى ريح الصَّبا .

قيل : سميت ريحَ الصَّبا، لأن النفوس تصبو إليها لِطيب نسيمها و رَوْحها . والصَّبْوة المَيْل . وجاء فى بعض الآثار : مابعث نبىّ إلا والصَّبا معه، وهى الريح التى سُخِّرت لسليمان (عليه السلام) غدوُّها شهر، أى من أول النهار إلىٰ الزوال، ورواحها شهر، أى من الزوال إلىٰ المغرب . كان يغدو من تَدْمُر من بلاد الشام فيَقِيل فى إصْطَخْر من بلاد فارس، و يبيت بكَابُل من بلاد الهند .

وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال "نُصِرْتُ بالصَّبَا . وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور" .

وإذا تموج من الجَنُوب إلىٰ الشمال، سمى ريحَ الجنوب، وهى الريح التى أهلك الله عز وجل بها عادًا .

وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالىٰ فى الفن الخامس من كتابنا هذا .

وإذا تموج من الشَّمال إلىٰ الجَنوب، سمى ريحَ الشَّمال .

وهم يزعمون أن مبادئ الرياح شَمَالية أخَذَتْ إلىٰ الجَنوب . وغربيةٌ أخَذَتْ إلىٰ المشرق للطف الهواء فى هاتين الجهتين .

والعرب تُحبُّ الصَّبَا لرقتها . ولأنها تجىء بالسحاب . والمطرُ فيها والخِصْبُ .

وهى عندهم اليمانية .

٣ — ذكر أسمـاء الرياح اللغوية

قال الثعالبيّ فى فقه اللغة :

إذا وقعتِ الريحُ بين رِيحَيْنِ، فهى النَّكْباءُ .

فإذا وقعت بين الجَنوب والصَّبَا، فهى الجِرْبِيَاء .

فإذا هَبَّتْ من جهات مختلفة، فهى المتناوِحة .

فإذا كانت لَيِّنَةً، فهى الرَّيْدانةُ .

فإذا جاءت بنَفَسٍ ضعيف ورَوْح، فهى النَّسِيمُ .

فإذا كان لها حَنِين كحَنِينِ الإبل، فهى الحَنُونُ .

فإذا ٱبتدأت بشدّة[1]، فهى العاصف، والسَّيْهُوج .

فإذا كانت شديدة ولها زَفْزَفة وهى الصوت، فهى الزَّفْزافَةُ .

فإذا ٱشتدّت حتّى تَقْلَع الخيامَ، فهى الهَجُوم .

فإذا حرَّكت الأغصانَ تحريكا شديدا أو قَلعت الأشجار، فهى الزَّعْزاع، والزَّعْزَعانُ، والزَّعْزَعُ .

فإذا جاءت بالحَصْباء، فهى الحاصِبَةُ .

فإذا دَرَجتْ حتّى ترىٰ لها ذيلا كالرَّسَن فى الرمل، فهى الدَّرُوج .

فإذا كانتْ شديدة المرُور، فهى النَّؤوج .

فإذا كانتْ سريعة، فهى المُجْفِل، والجافِلَةُ .

فإذا هَبَّت من الأرض كالعَمُود نحوَ السماء، فهى الإعْصَار .

فإذا هبَّت بالغَبَرة، فهى الهَبوة .

(١) عبارة الثعالبى . فإذا ٱبتدأت بشدة . فهى النافجة . فإذا كانت شديدة . فهى العاصف الخ .

فإذا حمَلَتِ المُورَ وجَرَّت الذيل، فهى الهَوْجاء .

فإذا كانتْ باردةً، فهى الحَرْجَف، والصَّرْصر، والعَرِيَّة .

فإذا كان مع بَرْدها نَدًى، فهى البَلِيل .

فإذا كانتْ حارّةً، فهى الحَرُور، والسَّمُوم .

فإذا كانت حارّة وأتتْ من قِبَل اليَمَن، فهى الهَيْف .

فإذا كانت باردةً شديدة تَخْرِق البيوت، فهى الخَرِيق[(١)] .

فإذا ضَعُفت وجرت فُوَيقَ الأرض، فهى المُسَفْسِفَة .

فإذا لم تُلْقِحْ شجرا ولم تحملْ مطرا، فهى العَقِيم . (وقد نطق بها القرآن) .

٤ — فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع

يقال : الرياح الحواشِك : المختلفة الشديدة . البوارح : الشَّمال الحارّة فى الصيف . الأعاصير : التى تهيج بالغُبَار . المُعْصِرات : التى تأتى بالأمطار . المبَشِّرات : التى تَهُبُّ بالسحاب والغيث . السَّوافى : التى تسفى التراب .

٥ — ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر الهواء

يقال :

أخَفُّ من النسيم . أسرع من الرِّيح . ريحهما جَنوب (يضرب للمتصافِيَيْن) . هو ساكن الريح (اذا كان حليما) . قد هبَّتْ ريحه (إذا قامت دولته) .

ومن أنصاف الأبيات .

* إن كنتَ رِيحاً فقد لاقَيْتَ إعصارا * * وبعضُ القولِ يَذهبُ بالرياح *

* تَجْرى الرياحُ بما لاتشتهِى السُّفنُ * * لوكنتَ ريحًا كانتِ الدَّبُورا *

(١) فى اللسان أنها الريح الباردة الشديدة الهبوب كأنها خُرِقَت . أماتوا الفاعل بها .

ومن الأبيات :

إذا هبَّتْ رِياحُكَ، فآغتنمها. * فإن لكلّ خافقــةٍ سُكُونُ!

وقال آخر :

وكلُّ ريحٍ لهــا هُبوبٌ * يوماً فلا بدَّ من رُكُودِ.

وقال آخر :

والريحُ ترجعُ عاصــفًا * من بعد ما آبتدأتْ نسيما.

(٣٧) وقال أبو تمَّــام، عفا الله عنه :

إنّ الرياحَ إذا ما أعْصَفَتْ، قَصَفَتْ * عِيــدانَ نَجْــدٍ ولم يَعبأْنَ بالرَّتَمِ.

وقال آبن الرومىّ، رحمة الله عليه :

لا تُطفِئَنَّ جَوًى بلَوْمٍ إنه * كالريحِ تُغرِى النَّارَ بالإحراق.

٦ — ذكر ما جاء فى وصف الهواء وتشبيهه

قال عبد الله بن المعتزّ، رحمة الله عليه :

ونَسيمٍ يُبَشِّرُ الأرضَ بالقَطْــرِ * كذيْلِ الغِــلالةِ المَبْلول.

ووجوهُ البلاد تنتظِرُ الغَيْــثَ * آنتظارَ المُحِبِّ ردَّ الرسول.

وقال آبن الرومىّ :

حَيَّتْك عنّا شَمَــالٌ طَافَ طــائفُها * تحيَّـــةً، بجرَتْ رَوْحا ورَيْحَــانا.

هبَّتْ سُحَيْرًا فناجَى الغُصْنُ صاحبَه * سِرًّا بهــا، وتنادَى الطَــيرُ إعلانا.

وُرْقٌ تَغَــنَّى على خُضْرٍ مُهَــدَّلة * تَسْــمُو بها وتَشَمُّ الأرضَ أحيانَا.

يُخَــالُ طائرُها نَشْوانَ من طَــرَبٍ * والغصنُ من هَزِّه عِطْفَيه نَشْوانا.

وقال أيضا :

كأنَّ نسيمَها أرَجُ الخُزامىٰ ❊ ولاَهَا بَعْدَ وَسْمِيٍّ ولِيٌّ.

هَدِيَّةُ شمالٍ هبَّتْ بليلٍ ❊ لأفنانِ الغُصونِ بها نجِيٌّ.

إذا أنفاسُها نسَمَتْ سُحَيرا ❊ تنفَّسَ كالشَّجِيِّ لها الخَلِيُّ.

وقال آخر :

وأنفاسٌ كأنفاسِ الخُزامىٰ ❊ قُبَيْلَ الصُّبْحِ بلَّتْها السماءُ.

تَنَفَّسَ نشرُها سَحَرًا فجاءتْ ❊ به سَحَرِيَّةُ المَسْرىٰ رُخاءُ.

وقال إسحاق الموصليّ :

ياحبَّذا ريحُ الجَنُوب إذا جَرَتْ ❊ في الصُّبح وهي ضَعِيفةُ الأنفاسِ!

قد حُمِّلت بَرْدَ النَّدىٰ وتحمَّلتْ ❊ عَبَقًا من الجَثْجاث (١) والبَسْباس (٢)!

---

(١) في الأصل بالإهمال وهو من إهمال الناسخ . فقد ورد في مادة (ج ث ث) من لسان العرب : « الجثجاث شجر أصفر مُرٌّ طيب الريح تستطيبه العرب وتكثر ذكره في أشعارها » . وقال أبو حنيفة الدينوري إنه من أحرار الشجر وهو أخضر ينبت بالقيظ له زهرة صفراء كأنها زهرة العرفج طيبة الريح . وقال ابن البيطار : أول ما رأيته بساحل نيل مصر في أعلاه في صحاريه بمقربة من ضيعة هناك ، تسمى شاهورة وهي على طريق الطرانة . وقال داود في تذكرته إنه يسمى باليونانية ترديسيون .

(٢) في اللسان : "البسباس نبات طيب الريح". وهو المعروف عند علماء العرب بالاسم الفارسي "الرازيانج" وبهذا الاسم كان يعرف في الأندلس والمغرب ولا يزال معروفا به إلى اليوم في قطر الجزائر واسمه السرياني "برهليا" ويعرف في مصر والشام باسم "الشمار" ومنه نوع برى ينبت بالقيروان ويسميه

وقال آخر:

إذا خلَا الجَوّ من هَواء، * فعيْشُهم غُمَّـــةٌ وبُوسُ.
فَهْــو حَيــاةٌ لكلِّ حىٍّ، * كأنّ أنفاسَــــه نُفُوسُ.

وقال آبن سعيد الأندلسىّ :

الرِّيحُ أقودُ ما يَكُونُ لأنَّهــا * تُبدى خَفَايا الرِّدْف والأعْكَانِ[1].
وتُمَيِّــلُ الأغْصانَ بعْــدَ عُلوِّها * حتّى تُقَبِّـــلَ أوجُهَ الغُــدْران.
وكذلكَ العُشَّــاقُ يتَّخِــذُونَهَا * رُسُلا إلىٰ الأحْباب والأوْطانِ.

وقال آخر :

أيا جَبَـــلَىْ نَعمانَ باللهِ خَلِّيَــا * سَبِيلَ الصَّبا يَخْلُصْ إلىّ نَسِيمُها.
أجِدْ بَرْدَها أو تَشْفِ منّى حَرارةً * علىٰ كَبِـــدٍ لم يبـقَ إلا صَمِيمُها.
فإنَّ الصَّبَا رِيحٌ إذا ما تَنَفَّستْ * علىٰ كَبِــدٍ حرَّاءَ، قَلَّتْ هُمُومُها.

وقال آبن هُتَيْمل اليمنىّ :

هبَّتْ لنا سَحَرًا، والصبحُ ملتَثِمٌ، * واللّيلُ قد غابَ فيه الشَّيبُ والهَرَمُ.
سَقيمةٌ من بَنَـاتِ الشَّرقِ أضْعفَهَا * عن قُوَّة السَّيْر، لمَّـا هبّتْ، السَّقَمُ.
فبلَّغتْ بِلِســانِ الحـــالِ قائـــلةً * ما لم يُبَلِّغْـــهُ يومًا إلىّ فَـــمُ،
سِرًّا لغــانِيَــةٍ تَســرِي إلىّ بِهِ * من النَّســيم رَسُولٌ ليس يُتَّهَمُ.
أُصــافِحُ الرِّيحَ إجلالا لِمَــا حَمَلَتْ * إلىّ من ريح بُرْدَيْهــا وأسْــتَلِمُ.

---

(١) واحده عُكْنة بالضم، وهى ماتثنى من لحم البطن سِمَنا.

البـاب الرابع
من القسم الثـاني من الفن الأول

١ — في أسطقس النار وأسمائها، وعبادها، وبيوت النيران (١)

(٣٨) حكى أصحاب التواريخ في حدوث النار أن آدم عليه السـلام لما هبط إلى الارض وجع، نزل جبلَ أبي قُبَيْس. فأنزل الله إليه مَرْخَتَيْن من السماء، فحكّ إحداهما بالأخرى فأَوْرَيَا نارا. فلهذا سمي الجبل بأبي قُبَيْس.

ويدل على أن النار من الشجر، قوله عز وجل : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فإذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ .

والعرب تقول : "في كل شجر نار، واستمجد المَرْخ والعَفَار". لأنهما أسرع اقتداحا. قال الله عز وجل : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُم أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾.

وقال أصحاب الكلام في الطبائع : إن الله عز وجل جمع في النـار الحركة، والحرارة، واليُبوسـة، واللّطافة، والنور. وهي تفعل بكل صورة من هـذه الصور خلاف ما تفعل بالأخرى.

فبالحركة تعلى الأجسام، وبالحرارة تسخن، وباليبوسة تجفف، وباللطافة تنفذ، وبالنور تضيء ما حولها.

(١) أنظر في كتاب الحيوان للجاحظ تفصيلات ومعلومات عن النـار . وهي مما يجب الوقوف عليه والاحاطة به من الوجهة العلمية والفلسفية . أما من حيث اللغة والأدب فيراجع ما ورد في كتاب « سرور النفس بمدارك الحواس الخمس » للتيفاشي باختصار صاحب لسان العرب، وهو موجود بالفتوغرافية في « دار الكتب المصرية » ومحل الشاهد هو الباب الثامن من ص ٣٩١ الى ص ٤٢٣

ومنفعة النار تختص بالإنسان دون سائر الحيوان. فلا يحتاج إليها شيء سواه، وليس به عنها غنى فى حال من الأحوال .

ولهذا عظمتها المجوس[(١)]،وقالوا : إذ أفردتنا بنفعها، فنفردها بتعظيمها . على أنهم يعظمون جميع ما فيه منفعة على العباد ، فلا يدفنون موتاهم فى الأرض، ولا يستنجون فى الأنهار .

---

٢ — ذكر أسماء النار

(وأحوالها فى معالجتها وترتيبها)

أما أسماؤها ، فمنها :

النار ، والصِّلاء ، والسَّكَن ، والضَّرَمةُ ، والحَرَق ، والحَمَدةُ (وهو صوتُ آلتهابها)، والحَدَمةُ . والجَحيم ، والسَّعير ، والوَحَىْ .

وأما تفصيل أحوالها ومعالجتها وترتيبها ، فقد قال الثعالبيّ فى فقه اللغة :

إذا لم يُخْرِج الزَّنْدُ النارَ عند القَدْح ،قيل : كَبَا يَكْبُو .

فإذا صوّت ولم يخرج،قيل: صَلَدَ يَصْلِد.

فإذا أخرج النار، قيل : وَرَى يَرِى .

فإذا ألقى الإنسانُ عليها ما يحفَظُها ويُذْكِيها، تقول : شيّعتها وأثقبْتها .

فإذا عالجها لتلتهبَ ،قال : حَضَأْتُها وأَرَّثتها[(٢)] .

فإذا جعل لها مَذْهَبا تحت القِدْر، قال : سَخَوتُها .

---

(١) guèbres, mages. عند الفرنسيين . والمجوس لفظ مشتق من "موغ" و "مُغ" ومعناه النور فى اللغة الطورانية .

(٢) فى فقه الثعالبي : وأرّشتها بالشين وعبارة القاموس فى مادة (ارش) وتأريش النار تأريثها .

فإذا زاد في إيقادها وإشعالها، قال : أَجَّجْتُها .

فإذا اشتدّ تأجُّجها، فهي جاحِمة (١) .

فإذا طَفِئت البتة، فهي هامدةٌ .

فإذا صارت رَمَادا، فهي هابِيَة .

والله تعالى أعلم .

٣ – ذكر عُبَّاد النار

(وسبب عبادتها و بيوت النيران)

§ أوّل مَن عبد النار قابيلُ بنُ آدم .

وذلك أنه لما قتل أخاه هابيلَ هرب من أبيه إلى اليمن ، فجاءه إبليس لعنه الله ، وقال له : إنما قُبِل قُرْبان هابيلَ وأكلته النارُ لأنه كان يخدمها و يعبُدها . فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولِعَقِبِك ، فبنى بيت نار .

فهو أول من نَصَب النار وعَبَدها .

§ وأوّل من عظمها من ملوك الفرس، جم . وهو أحد ملوك الفرس الأُوَل ، عظمها ودعا النـاس إلى تعظيمها ، وقال : إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب ، لأن النور عنده أفضل من الظلمة .

§ ثم عُبِدت النار بالعراق ، وأرض فارس ، وكَرْمان ، وسِجِسْتان ، وخُرَاسان ، وطَبَرِسْتَان ، والجبال ، وأَذْرَبِيجان ، وأَرَّانَ ، وفي بلاد الهند ، والسند ، والصين .

---

(١) عبارة فقه اللغة بعده : (فاذا سكن لهبها ولم يُطفأ جرها فهي خامدة) وبعده فاذا طفئت البتة الخ

§ و بُنِىَ فى جميع هذه الأماكن بيوت للنِّيران ، نذكرها بعد إن شاء الله تعالىٰ .

§ ثم ٱنقطعت عبادة النيران من أكثر هـذه الأماكن إلا الهند. فإنهم يعبدونها إلىٰ يومنا هـذا . وهم طائفة تدعىٰ الإكنواطرية[1] . زعموا أن النار أعظم العناصر جِرْما ، وأوسعُها حيزا ، وأعلاها مكانا ، وأشرفها جوهرا ، وأنورها ضـياء و إشراقا ، وألطفها جسما وكيانا ؛ وأن الٱحتياج إليها أكثر من الٱحتياج إلىٰ سائر الطبائع ؛ ولا نور فى العالم إلا بها ؛ ولا نمو ولا ٱنعقاد إلا بممازجتها .

وعبادتهم لها أن يحفِروا أُخْدُودا مربعا فى الأرض و يحشُوا النار فيه ، ثم لا يَدَعُون طعاما لذيذا ، ولا شرابا لطيفا ، ولا ثو با فاخرا ، ولا عطرا فائحا ، ولا جوهرا نفيسا ، إلا طرحوه فيها : تقربا إليها ، وتبركا بها . وحرّموا إلقاء النفوس فيها ، و إحراق الأبدان بها ، خلافا لجماعة أخرىٰ من زهّاد الهند .

§ وعلىٰ هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظمائها . يعظمون النار لجوهرها تعظيما بالغا ، ويقدّمونها علىٰ الموجودات كلها .

§ ومنهم زهّاد وعبّاد يجلسون حول النـار صاغين ، يسدّون منافسهم حتّىٰ لا يصل إليها من أنفاسهم نَفَسٌ صَدَرَ عن صَدْر مجرم . وسُنّتهم الحثّ علىٰ الأخلاق الحسنة ، والمنع من أضـدادها ، وهى : الكذب ، والحسـد ، والحِقْد ، والكِفَاح ، والحرص ، والبغى ، والبطر . فإذا تجرّد الإنسان عنها ، تقرب من النار . (٣٩)

---

(١) أفادنا المترجم الألمانى لكتاب الملل والنحل أن هذه الكلمة مأخوذة من "أجنيهُتْرا" وهى النار المقدسة (أى التى تتأجج إكراما للإله أجنى .)

٤ — وأما بيوت النيران

(ومَن رسمها من ملوك الفرس)

قال المسعودى :

§ أول من حُكِى ذلك عنه أفريدون الملك . وذلك أنه وجد نارا يعظمها أهلها ، [وهم] (١) معتكفون على عبادتها . [فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم فى عبادتها . فأخبروه بأشياء آجتذبت نفسه إلى عبادتها] (١) وأنها واسطة بين الله تعالى و بين خلقه ، وأنها من جنس الآلهة النورية ، وأشياء ذكروها له . وجعلوا للنور مراتب وقوانين [وفرقوا بين طبع النار والنور] (١) وزعموا أن الحيوان يجتذبه النور ، فيحرق نفسه : كالفَرَاش الطائر بالليل فما لَطف جسمه ، يطرح نفسه فى السراج فيحرقها . وغير ذلك مما يقع فى صيد الليل من الغزلان ، والوحش ، والطير ؛ وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج فى الزوارق كما يصاد السمك ببلاد البصرة فى الليل ، فإنهم يجعلون السُّرُج حوالى المركب ، فيثب السمك من الماء إليها ؛ وأن بالنور صلاح هذا العالم ، وشرف النار على الظلمة إلى غير ذلك .

فلما أخبروا الملك أفريدون بذلك أمر أن تحمل جمرة منها إلى خراسان ، فحملت . فاتخذ لها بيتا بطوس . [وآتخذ بيتا آخر بمدينة بخارا يقال له برد سورة] (٢) . و بيتا آخر بسجستان كواكر (٣) ، كان آتخذه بهمن بن إسفنديار بن يُستاسف بن بهراسف .

---

(١) الزيادة عن المسعودى .

(٢) سماه الشهرستانى : "قُباذان" (ص ١٩٧) .

(٣) سماه الشهرستانى : "كَرْكَرَا" (ص ١٩٧) .

§ و بيت آخر ببلاد الشير و الرّان ، كانت فيه أصنام أخرجها منه أنوشروان ، وقيل إنه صادف هذا البيت ،وفيه نار معظمة فنقلها إلىٰ الموضع المعروف بالبركة .

§ و بيت آخر للنار يقال له كوسجة (١) : بناه كيخسرو الملك .

§ وقد كان بقومس بيت نار معظم لايُدرىٰ من بناه ، يقال له حريش (٢) . و يقال إن الإسكندر لما غلب عليها ،تركها ولم يطفئها .

§ و بيت نار آخر يسمّى كَنْكَدَز ، بناه سياوش بن كاوس الجبار ، وذلك فى زمن لُبْثِه بشرق الصين مما يلى البركة .

§ و بيت نار بمدينة أرّجان من أرض فارس ،بناه قمار .

§ و بيت بأرض فارس اتُّخِذ فى أيام يهراسف (٣) .

§ فهذه البيوت كانت قبل ظهور زرادشت .

§ ثم اتخذ زرادشت بعد ذلك بيوتا للنيران . فكان مما اتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان ، و بيت بمدينة نَسا والبيضاء من أرض فارس . وقد كان زرادشت أمر يستاسف (٤) الملك بطلب نار كان يعظمها جَمْ (٥) فطلبت ،فوجدت بمدينة خوارزم . فنقلها يستاسف إلىٰ مدينة دَارَابْجِرْد من أرض فارس ... ... والمجوس تعظم هـذه النار مالا تعظم غيرها من النيران والبيوت ... ... وللفرس بيت نار

(١) سماه الشهرستانى : "كُوَيسة" (ص ١٩٧) .

(٢) سماه الشهرستانى : "جَرِير" (ص ١٩٧) .

(٣) هو فراسب .

(٤) فى الشهرستانى : كشتاسف .

(٥) هو الملك جمشيد .

بإصطخر فارس، يعظمه المجوس . كان فى قديم الزمان للأصنام، فأخرجتها حمان بنت بهمن بن آسپنديار وجعلته بيت نار. ثم نقلت عنه النار فخرب ... ... وفى مدينة سابور من أرض فارس بيت معظم عندهم آتخذه دارا بن دارا . وفى مدينة جور من أرض فارس ... ... بيت بناه أردشير بن بابك ... ... وقد كان أردشير بنى بيت نار يقال له بارنوا فى اليوم الثانى من غلبته على فارس . و بيت نار على خليج القسطنطينية من بلاد الروم بناه سابور الجنود آبن أردشير بن بابك حين نزل على هذا الخليج وحاصر القسطنطينية . ولم يزل هذا البيت إلى خلافة المهدى . وكان سابور آشترط على الروم بقاء هذا البيت ... ... و بأرض العراق بيت نار بالقرب من مدينة السلام . بنته بُوران(١) بنت كسرى أبرويز، الملكة، بالموضع المعروف بأسنيبا(٢) .

و بيوت النيران كثيرة تعظمها المجوس . والذى ذكرناه هو المشهور منها(٣) .

٥ — ذكر نيران العرب

ونيران العرب أربعة عشر نارا .

١ — نار المُزْدلِفة . توقد حتّى يراها مَن دفع من عرفة . وأول من أوقدها قُصىّ بن كلاب .

٢ — نار الآستسقاء . كانت الجاهلية الأولى، إذا تتابعت عليهم الأَزَمات، وآشتدّ الجدب، وآحتاجوا إلى الأمطار . يجمعون لها بَقَرًا، معلقة فى أذنابها وعراقيبها

(١) فى الشهرستانى : توران .

(٢) فى المسعودى : استينيا . وفى الشهرستانى : إسفينيا .

(٣) هذا الباب كله منقول عن مروج الذهب (أنظر طبعة باريس ج ٤ ص ٧٢ — ٨٦) .

السَّلَع[١] والعُشَر[٢]، ويصعدون بها إلىٰ جبل وَعْر، ويشعلون فيها النار، ويَضِجُّون بالدعاء والتضرّع. وكانوا يرَوْن ذلك من الأسباب المتوصَّل بها إلىٰ نزول الغيث[٣]. وفى ذاك يقول الوديك الطائى :

لادرَّ دَرُّ رجالٍ خابَ سَــعْيُهم، * يَستَمْطِرُونَ لَدىٰ الأزماتِ بالعُشَرِ! (٤٠)
أجاعِلٌ أنت بَيْقُــورًا مُسَــلَّعةً * ذَريعــةً لَكَ بيْنَــ اللهِ والمَطَــرِ؟

وقال أُمية بن أبى الصَّلْت :

ويَسُوقُون باقِرَ السَّهْلِ للطَّوْ * دِ مَهَازِيلَ خَشيةً أن تَبُورَا.
عاقِدِينَ النِّـيرانَ فى بكَرِ الأذْ * نَابِ منها، لِكَىْ تَهِيجَ النُّحُورا.
سَلَعٌ مّا ومِثْــلُه عُشَرٌ مّا * عائلٌ مّا وعالَتِ البَيْقُــورا.

٣ — نار الزائر والمسافر. ويسمونها نار الطَّرْد. وذلك أنهم كانوا إذا لم يحبوا رجوع شخص، أوقدوا خلفه نارا ودَعَوْا عليه، ويقولون فى الدعاء: أبعده الله وأسحقه! وأوقدوا نارا إثره. قال الشاعر :

وجُمَّةِ قَوْمٍ قد أتَوْكَ ولم تكُنْ * لِتُوقِدَ نارًا خَلْفَهــا للتندُّمِ.

(١) قال العلامة الدكتور أوغست هفنر الألمانى والأب المحقق الفاضل لويس شيخو اليسوعى فى حاشية صفحة ٣٦ من كتاب النبات والشجر للأصمعى الذى عنيا بتحقيقه وطبعه فى بيروت سنة ١٩٠٨، مانصه: السلع نبات. وقيل شجر مر، وقيل أنه سمّ. له ورقة صغيرة شاكة كأن شوكها زغب. وهو بقلة تفرش كأنها راحة الكلب.

(٢) قال الفاضلان المذكوران فى ذلك الموضع أيضا مانصه : "قيل إن العشر من كبار شجر العضاه وهو ذو صمغ حلو وحرّاق مثل القطن. يقتدح به. وهو عريض الورق. يخرج من شــعبه ومواضع زهره سكر فيه شيء من المرارة يقال له سكر العشر. ويخرج له نفاخ كشقاشق الجمال. وله نور كالدِفلَى، مشرق حسن النظر. وله ثمر: L.. Asclepiasgigantea. Le.. Asclépiade: Forsk.. Calotropis procera

(٣) أما الافرنج والأمريكان فى هذا العصر فانهم يستنزلون الغيث باطلاق المدافع لاحداث الدوىّ والضجيج والالتهاب فى الجو.

والجُمَّة : الجماعة يمشون فى الدم، وفى الصلح . ومعنىٰ هذا البيت : لم تندم علىٰ ما أعطيت فى الحَمَـالة عند كلام الجماعة، فتوقد خلفهم نارا كى لا يعُودوا .

٤ — نار التحاليف . كانوا لا يعقِدون حِلْفهم إلا عليها، فيذكرون منافعَها، ويدعُون اللهَ بالحِرْمان والمنـعِ من منافعها علىٰ الذى ينقضُ العهـدَ، ويطرحُون فيها الكبريتَ والمِلْح . فإذا فرقعتْ هوّل علىٰ الحالف . قال الكُمَيت :

هُمُو خَوَّفُونِى بالعَمىٰ هُوَّة الرَّدىٰ * كما شَبَّ نارَ الحالِفِينَ المُهَوِّلُ .

وقال أَوْس بن حَجَر :

إذا آستَقْبلَتْه الشَّمْسُ، صَدَّ بوَجْهِه * كما صَـدَّ عنْ نارِ المُهَوِّلِ حالِفُ .

٥ — نار الغَـدْر . كانت العرب إذا غدر الرجل بجاره، أوقدوا له نارا بمنى، أيامَ الحج علىٰ الأخشَب (وهو الجبل المطلّ علىٰ منًى) . ثم صاحوا : هذه غَدْرة فلان . قالت آمرأة من هاشم :

فإنْ نَهْلِكْ فلم نَعْرِفْ عُقُوقا * ولم تُوقَدْ لنا بالغَـدْرِ نارُ .

٦ — نار السَّـلامة . وهى نار توقد للقادم من سـفره، إذا قدم بالسـلامة والغنيمة . قال الشاعر :

يا سُلَيْمىٰ أَوْقِدى النارا * إنَّ مَنْ تَهْوِينَ قَدْ زارَا .

٧ — نار الحرب . وتسمّى نار الأُهْبَة والإنذار . توقد علىٰ يَفَاعٍ، فتكون إعلاما لمن بَعُد . قال آبن الرومى :

له ناران : نارُ قِرًى وحَرْبٍ . * ترىٰ كِلْتَيْهِمَا ذاتَ آلتهابِ .

٨ — نار الصَّيْد . يوقدونها لصيد الظباء، لتُعْشِىَ أبصارها .

٩ — نار الأَسَد . كانت العرب توقدها إذا خافوه؛ فإن الأسـد إذا عاين النار حدّق إليها وتأملها .

١٠ — نار السَّلِيم . توقَد للدوغ ، والمجروح ، ومَن عضه الكَلْب الكَلِب حتى لايناموا فيشتدّ بهم الألم . قال النابغة :

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمامِ سَلِيمُها ✻ لِحَلْيِ النِّساءِ فى يَدَيْهِ قَعاقِعُ .

وذلك لأنهم كانوا يعلقون عليه حَلْى النساء ويتركونه سبعة أيام .

١١ — نار الفــداء . وذلك أن ملوكهم كانوا إذا سبَوْا قبيلة وخرجت إليهم السادات فى الفداء وفى الآستيهاب ، كرهوا أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضِحْن . وأما فى الظلمــة فيخفى قدر ما يحبسون من الصفىّ لأنفسهم ، وقدرُ ما يجودون به ، وما يأخذون عليه الفداء . فيوقدون لذلك النار . قال الشاعر :

نِساءُ بنِي شَيْبَانَ يَوْمَ أُوَارةٍ ✻ علَى النَّارِ إذ تُجْلَى له فَتَياتُها .

١٢ — نار الوَسْم . كانوا يقولون للرجل : ما نارك ؟ (فى الآستخبار عن الإبل) أو ما سِمَتُك ؟ [فيقول] : حياط ، أو عِلاط ، أو حَلْقة ، أو كذا ، أو كذا .

حُكى أن بعض اللصوص قرّب إبلا كان قد أغار عليها وسلبها من قبائل شتّى إلى بعض الأسواق ، فقال له بعض التجّار : ما نارُك ؟ و إنمـا ساله عن ذلك ، لأنهم كانوا يعرفون مِيسَم كل قوم وكرم إبلهم من لؤمها ، فقال :

تَسْأَلُنِي البــاعةُ : ما نِجارُها ، ✻ إذ زَعْزَعُوها فسَمَتْ أبصارُها ؟
وكــلُّ دارٍ لأُناسٍ دارُها ! ✻ وكلُّ نارِ العــالَمِين نارُهــا ! (١)

(١) يقول العرب فى أمثالهم : "كل نجار إبل نجارها" وشطره الثانى "ونار إبل العالمين نارها" يضربون المثل للمخلط الذى فيه كل لون من الأخلاق وليس له رأى يثبت عليه .

١٣ — نار القِرىٰ . وهى من أعظم مفاخر العَرَب . كانوا يوقدونها فى ليالى الشتاء، ويرفعونها لمن يلتمس القِرىٰ . فكلما كانت أضخم وموضعها أرفع، كان أفخر. وهم يتمادحون بها، قال الشاعر :

له نارٌ تُشَبُّ بكُلِّ وادٍ * إذا النِّيرانُ أُلْبِسَتِ القِنَاعا .

وقال إبراهيم بن هَرمة :

إذا ضلَّ عنهم ضَيْفُهم، رَفَعُوا له * من النار فى الظَّلْماء أَلْوِيةً حُمْرا .

١٤ — وكانت للعرب نار عظمىٰ تسمَّى نار الحرّتين . وهى التى أطفأها الله تعالىٰ بخالد بن سنان العبسىّ . وكانت حَرَّة ببلاد عبس، تسمَّى حَرَّة الحدثان .

روى عن آبن الكلبىّ أنه قال : كان يخرج منها عنق فيسيح مسافة ثلاثة أو أربعة (٤١) أميال، لا تمر بشىء إلا أحرقته . وأن خالد بن سنان أخذ من كل بطن من بنى عبس رجُلا فخرج بهم نحوها، ومعه درّة حتّى آنتهىٰ إلى طَرَفها، وقد خرج منها عُنُق كأنه عُنُق بعير فأحاط بهم، فقالوا : هلكتْ والله أشياخ بنى عبس آخِرَ الدهر! فقال خالد كلَّا ! وجعل يضرب ذلك العُنُق بالدِّرّة ويقول : " بَدًّا بَدًّا ، كلُّ هَدْيِ الله يُؤَدّىٰ ! أنا عبد الله خالد بن سنان ! " فما زال يضربه حتّى رجع، وهو يتبعه والقوم مَعه كأنه ثُعبانٌ يملك حجارة الحرة حتّى آنتهىٰ إلىٰ قَلِيب، فآنساب فيه وتقدّم عليه، فمكث طويلا . فقال آبن عم لخالد، يقال له عروة بن شب : لا أرىٰ خالدا يخرج إليكم أبدا! فخرج يَنْطُف عَرَقا، وهو يقول : زعم آبن راعيـة المِعْزىٰ أنى لا أخرج . فقيل لهم بنو راعية المعزىٰ إلىٰ الآن .

وفى هذه النار يقول الشاعر :

كنار الحَرَّتَيْن لها زَفيرٌ * تُصِمُّ مَسَامِعَ الرجل السَّميع .

٦ — ذكر النيران المجازية

ومن النيران، نيران مجازية لا حقيقية. فمنها :

§ نار البرق . وقد وصفها بعض الأعراب فقال :

نارٌ تُجَدِّد للعِيدانِ نَضْرتَها ✻ والنارُ تُشْعِل عِيداناً فتَحْتَرِق

إشارة إلى أن النار تُحْرق العيدان، إلا نار البرق فإنها تجيء بالغيث .

§ نار المَعِدَة . وهى التى تهضم الطعام. وهى كنار الحياة، ونار الغريزة. وقوتها مادّة للصحة، كما أن ضعفها سبب للعلة .

§ نار الحُمَّى . وقد قيل : النيران ثلاثة : نار لا تأكل ولا تشرب، وهى نار الآخرة؛ ونار تأكل وتشرب، وهى نار الحُمّى، تأكل اللحم وتشرب الدم؛ ونار تأكل ولا تشرب، وهى نار الدنيا .

ومن النيران المجازية :

§ نار الشوق، نار الشَّرَه، نار الشباب، نار الشراب.

قال شاعر يمدح بعض الملوك :

وُقِيتَ نارَ الجَحيم يامَلِكُ، ✻ أربعُ نِيرانِه له نَسَقُ!
نارُ شَبابٍ تَرُوقُ نَضْرتُها، ✻ ونارُ راحٍ كأنّهُ شَفَقُ،
ونارُ سُلْطانِه، تقارِنُها ✻ نارُ قِرًى لاتَزَالُ تَأْتلقُ،

٧ — ذكر النيران التي يضرب المثل بها

يُضْرب المثل :

§ بنار الحُباحِب . وهي نار لبخيل كان يوقدها . فإذا آستضاء بها إنسان ، أطفأها . وقيل : إنها النار التي تُوريها الخيل بسنابكها من الحجارة . قال الله تعالى : ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ . وقال النابغة :

* ويُوقِدْنَ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحب *

وهذا المثل يضرب لما لا منفعةَ فيه ولا حاصلَ له .

§ نار الغَضْى . يضرب بها المثل في الحَرَارة . وهي جمر أبيض لا يصلح إلا للوقود .

§ نار العَرْفَج . هي نار تتقد سريعا . قال قتيبة بن مسلم لعمرو بن عباد بن الحصين : "للسُّؤددُ أسرع إليك من النار في يبس العرفج" . إذا آلتهبت فيه النار آنتشرت وتسمى نار الزَّحْفتين . لأن العرفج إذا آنتشرت فيه النار عظُمت وآستفاضت . فمن كان بالقرب منها زحف عنها ، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها . فيحتاج الذى زحف عنها أن يزحف إليها . فلا يزال المصطلي بها كذلك ، فلذلك سميت نار الزحفتين .

§ نار الحَلْفاء . يضرب بها المثل في سرعة الآتقاد ، كما قيل :

فما ظَنُّك بالحَلْفا * ءِ أذْنَيْت له نارا .

وفي سرعة الآنطفاء ، كما قيل : نار الحَلْفاءِ سريعة الآنطفاء .

٨ ـــ ذكر ماجاء منها على لفظ أفعل

يقال :

آكل من النار، أحرّ من النار، أحرّ من الجمر، أحسَنُ من النار، أسرع من شرارة في قَصْباء .

ويقال :

فلان وارِى الزِناد، وَرِيَتْ بك زِنَادى، فلان ثاقب الزَّنْد، فلان كَابِى الزِّنَاد، صَلَدَتْ زِنَادُه، فلان مايُصْطَلَى بِنَارِه، هو القَابِسُ العَجْلان، هما زَنْدَانِ فى وِعاء.

ومن أنصاف الأبيات :

والنـار قد يُخمِـدُها النَّافخُ * كَمُلْتَمِسٍ إطفاءَ نارٍ بنَافخ * (٤٢)

والجمر يُوضَعُ فى الرَّمادفيَخْمُدُ * كذا كُلُّ نارٍ رُوِحَتْ تتوَهَّجُ *

* هيهاتَ تُكْتَمُ فى الظَّلام مَشَاعِلُ *

ومن الأبيات قول علىّ بن الجَهْم :

والنَّارُ فى أحْجارها مَكْنُونَةٌ * لاتَصْطَلِى إن لم تُثِرْهَا الأزْنُدُ

وقال آخر :

والنارُ بالماء الذى هو ضِدُّها * تُعْطِى النِّضَاجَ، وطَبْعُهَا الإحراقُ.

وقال آخر :

والكَاتِمُ الأمْرِ ليس يَخْفَى * كالمُوقِدِ النارِ باليَفَاعِ .

وقال آخر :

لاتَتْبعْ كلَّ دُخانٍ تَرَى، * فالنَّارُ قد تُوقَدُ لِلْكَىِّ .

وقال أبو تمام :

لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ ، * ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرْفِ العُود .

وقال آخر :

وفتيلةُ المصباح تُحْرِق نفسَها * وتُضيءُ للسّاري ، وأنت كذا كا .

٩ — ذكر ما قيل في وصف النار وتشبيهها

قال عبد الله بن المعتزّ ، غفر الله له :

كأنّ الشَّرَارَ على نارها * وقد راق مَنْظَرُها كُلَّ عين .

سُحَالَةُ تِبْرٍ إذا ما عَلَا ، * فإمّا هوى فَفُتَاتُ اللُّجَيْن .

أخذه العسكريّ فقال :

أَوْقَدْتَ بعد الهُدُوِّ نارًا * لها على الطارقين عَيْنُ .

شرارُها إنْ علا نُضارٌ ، * لكنّه إن هوى لُجَيْنُ .

وقال السَّريّ الرفّاء :

والتهبتْ نارُنا ، فمنظرُها * يُغْنِيك عن كُلِّ مَنْظرٍ عَجَبِ .

إذا رمتْ بالشّرار فاطّردتْ * على ذُرَاها مطارِدُ اللَّهَبِ ،

رأيتَ ياقوتةً مُشَبَّكَةً * تطيرُ عنها قُرَاضَةُ الذَّهَب .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ :

حَمْراءُ نازعتِ الرِّياحَ رِداءَها * وَهْنًا وزاحمتِ السَّماءَ بِمَنْكِبِ .

ضَرَبَتْ سَماءً من دُخانٍ فوقها ، * لم تدر منها شُعْلَةً من كوكب .

وتَنَفَّحَتْ عن كُلِّ نفحة جَمْرةٍ * باتت لها ريحُ الشَّمال بِمَرْقَب .

قد أُلْهِبَتْ فتذهَّبتْ فكأنها * شَقْراءُ تَمْرَحُ في عَجَاجٍ أَكْهَبِ (١) .

(١) الكهبة لون ليس بخالص في الحمرة . وهو في الحمرة خاصة (صحاح الجوهري) .

وقال أبو الفتح كُشَاجِمُ :

كأنما النارُ والرَّمادُ وقد ... كاد يُوارِى من نُورِها النُّورَا :
وَرْدٌ جَنِيٌّ القِطافِ أحمرُ قد ... ذَرَتْ عليه الأَكُفُّ كافُورَا .

وقال تاج الملوك بن أيوب :

أمَا تَرَى النارَ وهى تُضْرَمُ فى ... أحشاء كانُونِها وتلتَهِبُ ؟
كأنّما الفحمُ فوقها قُضُبٌ ... من عَنْبَرٍ وهى تحتَهُ ذَهَبُ .

وقال أبو مرْوان بن أبى الخِصَال :

لأبنة الزَّنْدِ فى الكوانين جَمْرٌ ... كالدَّرارِى فى دُجَى الظَّلماءِ .
خَبِّرونى عنها ولا تكْتُمُونى ، ... ألَدَيْها صِناعَةُ الكِيمياءِ ؟
سَبَكَتْ فَحْمَها صَفائِحَ تِبْرٍ ... رَصَّعَتْها بالفِضَّة البيضاءِ .
كُلَّمَا رَفْرَفَ النَّسِيمُ عليها ... رَقَصَتْ فى غِلالةٍ حَمْراءِ .

هذا البيت مأخوذ من قول الخفاجى :

وكأنَّها والرِّيحُ عابِثَةٌ بها ... تُزْهَى فَتَرْقُصُ فى قَمِيصٍ أحمرِ .

وقال أبو هلال العسكرى :

نارٌ تَلَعَّبُ بالسُّقُوفِ كأنها ... حُلَلٌ مُشَقَّقَةٌ على حُبْشَانِ .
رَدَّتْ عليها الرِّيحُ فَضْلَ دُخانِها ... فأتَتْ به سُبُجًا على عِقْيانِ .
فالجوُّ يَضحَكُ فى ٱبيضاضِ شَرارِها ... منها ويَعْبِسُ فى ٱسْوِدادِ دُخانِ .

وقال ٱبن أبى الخِصَال :

٤٣ وعُوجُوا على ياقوتة ذَهَبِيَّـــةٍ * يَهِيمُ بها المقرورُ بالسَّـــبَرَاتِ[1] .
إذاما ٱرتمتْ من فَحْمِها بِشَرَارِها * رَأَيْتَ نُجومَ اللَّيلِ مُنْكَدِرات .

وقال سيف الدّولة بن حمدان :

كأنمـا النارُ والرَّمادُ معا * وضَوْءُها فى ظلامِهِ يُحْجَبْ :
وَجْنَـةُ عذراءَ مَسَّهَا خَجَـلُ * فٱستَتَرَتْ تحتَ عنبرٍ أشْهَبْ .

وقال آخر :

فحـمٌ كيوم الفِراق تُشْـعِلُهُ * نارٌ كنار الفِـرَاق فى الكَبِدِ .
أسْوَدُ قَدْ صار تحت حُمْرتها * مثلَ العُيونِ ٱكْتَحَلْنَ بالرَّمَدِ .

وقال أبو طالب المأمونى :

ما تَرَى النارَ كيف أسْتَمَهَا القُــرُّ * فأضحت تخبو وطورا تَسَـــعَّرْ؟
وغَدَا ٱلجمْـرُ والرَّمادُ عَلَيْــهِ * فى قميصٍ مُـذَهَّبٍ ومُعَنْـــبَرْ؟

وقال أبو فِرَاس الحَمْدانى :

لله بَــرْدٌ ما أشـــ * ـــدَّ ومَنْظَرٌ ما كانَ أعْجَبْ !
جاء الغـــلامُ بنارِهِ * هَوْجاءَ فى فَحْمٍ تَلَهَّبْ .
فكأنمـا جَمَعَ الحُــلِيَّ * فَمُحْرَقٌ منه ومُذْهَبْ .
ثم ٱنطفت فكأنمـا * ما بيننـا نَدٌّ مُعَشَّبْ .

---

(١) سَبْرَة : الغداة الباردة .

١٠ — ذكر شىء مما قيل فى الشَّمْعَة والشَّمْعدان

(والسراج(١) والقِنْديل(٢))

١ — أما الشمعة، فمن جَيِّد ماقيل فيها قولُ الأرّجانىّ :

نَمَّتْ بأسرار لَيْـلٍ كان يُخْفيها * وأطْلَعَتْ قلبهَا للنّاس مِنْ فِيهَا .
قَلْبٌ لها لم يرُعْنَا وهو مُكْتَمِنٌ * إلا بِرُقْيَـةِ نار من تَرَاقِيهـا .
سقيمةٌ لم يَزَلْ طولُ اللسان لها * فى الحىّ يَجْنِى عليها ضَرْبَ هَادِيها .
غَرِيقَةٌ فى دُمُوع، وهى تُحْرِقُها * أنفاسُها بدَوامٍ من تلَظّيهـا .
تَنَفَّسَتْ نَفَسَ المَهْجُور إذْ ذَكَرَتْ * عَهْدَ الخَلِيط فبات الوَجْدُ يُبْكِيها .
يُخْشَى عليها الرَّدَى مَهْمَا ألَمّ بها * نَسِـيمُ رِيحٍ إذا وافَى يُحَيِّيهـا .
بَدَتْ كَنَجْمٍ هوَى فى إثْرِ عِفْرِيَةٍ * فى الأرض فاشتعلَتْ منه نَوَاصِيها .
نجم رأى الأرضَ أولَى أن يُبَوِّأها * من السماء، فأمْسَى طَوْعَ أهلِيها .
كأنهـا غُرّةٌ قد سالَ شادِخُها * فى وَجْه دَهْمَـاءَ يُزْهيها تَجَلِّيهـا .
أوضَرّةٌ خُلِقَتْ للشّمْسِ حاسدةٌ * فكُلَّما حُجِبَتْ، قامت تُحاكِيها .
وحِيـدةٌ كشَبَاةِ الرُّمْح هازمةٌ * عساكرَ الليل إن حَلَّتْ بِوادِيها .
ماطَنَّبَتْ قَطُّ فى أرض مخيِّمةً * إلا وأقْمَرَ للأبصـار داجِيهـا .

---

(١) مما يجب التنبيه اليه ان "سُورَج" و"سُرج" معناهما الشمس فى اللغة الهندية عن السنسكريتيه (أنظر القاموس الهندى الانكليزى تأليف فوربس) .

(٢) فى اللغة اللاتينية Candella وفى الفرنسية Chandelle بمعنى الشمعة وعنها Candélabre . و يقول علماء الافرنج ان اختراع الشمع للاستضاءة مما توصل اليه الغاليون وعلى ذلك يكون الأصل افرنكيا ثم نقله العرب لمعنى المصباح المعرف بالقنديل .

لَهَا غَرائبُ تَبْدُو من مَحَاسِنها، * إذا تَفَكَّرْتَ يومًا فى مَعانيها.
كصَعْدةٍ فى حَشَا الظَّلْمَاءِ طاعنةٍ * تَسْقِى أسافِلُهَا رَيًّا أَعَالِيها.
فالوَجْنَةُ الوَرْدُ إلا فى تناوُلِهَا * والقَامةُ الغُصْنُ إلا فى تَثَنِّيها.
صَفْراءُهِنْدِيَّةٌ فى اللَّوْنِ إن نُعِتَتْ، * والقدِّ واللِّين إن أَثْمَمْتَ تَشْبيها.
فالهِنْدُ تَقْتُل بالنِّيرانِ أنْفُسَها * وعِنْدَها أنَّ ذاكَ القَتْلَ يُحْيِيها.
قد أثْمَرتْ وردةً حمراءَ طالِعةً * تَجْنِي علىٰ الكَفِّ إن أَهْوَيْتَ تَجْنِيها.
وَرْدٌ تُشَاكُ به الأَيْدِى إذا قُطِفَتْ، * وما علىٰ غُصْنِها شوكٌ يُوَقِّيها.
ما إن تَزَالُ تَبِيتُ اللَّيلَ ساهِرةً * وما بِها غُلَّةٌ فى الصَّدْرِ تُطْفِيها.
صُفْرٌ غَلائلُها، حُمْرٌ عمائِمُها، * سُودٌ ذوائبُها، بِيضٌ لياليها.
تُحْيِي الليالىَ نُورًا، وهى تَقْتُلُها. * بئس الجَزاءُ لَعَمْرُ اللهِ تَجْزِيها! ٤٤
قُدَّتْ علىٰ قَدِّ ثوبٍ قد تَبَطَّنَها * ولم يُقَدَّرْ عليها الثوبَ كاسِيها.
غَرَّاءُ فَرْعاءُ ماتنفكُّ قاليَةً * تقصُّ لِمَّتَها طَوْرًا وتَفْلِيها.
شَبَّاءُ شَعْثاءُ لا تُكْسى غدائرُها * لَوْنَ الشَّبيبةِ إلا حينَ تُبْلِيها.
قَنَاةُ ظَلْمَاءَ لا تنفك يأكلُها * سِنانُها طولَ طَعْنٍ أو يُشَظِّيها.
مَفْتوحةُ العين تُفْنِي ليلها سَهَرًا، * نَعَمْ، وإفنَاؤُها إيَّاهُ يُفْنِيها.
ورُبَّما نالَ من أطْرافِها مَرَضٌ * لم يُشْفِ منه بغير القَطْعِ مُشْفِيها.

وقال آخر:

بَيْضاءُ أضحكتِ الظلامَ فِرَاعَها * فبَكَتْ وأسبلَتِ الدُّموعَ بَوَادِرا.
جَفَّت دُموعُ جُفُونِها فكأنَّما * كُسِيَتْ من الطَّلْعِ النَّضِيد ضَفَائِرا.

وقال أبو القاسم المطرِّز من أبيات :

وللشُّموع عُيونٌ كُلَّما نظَرَتْ * تَظَلَّمَتْ من يَدَيْها أنْجُم الغَسَق .

من كلِّ مُرْهَفَةِ الأعْطاف كالغُصن الـ * ـمَيَّاد لكنَّه عارٍ من الوَرَق .

إنى لأعْجَبُ منها وهى وادِعَةٌ * تَبْلَىٰ ، وعيشَتُها من ضَرْبة العُنُق !

وقال آخر :

جاءتْ بِجِسْمٍ كأنَّه ذَهب * تَبْكِي وتَشْكِي الهَوىٰ وتلتهِبُ .

كأنها فى أكُفِّ حامِلِها * رمحُ لجينٍ سِنانُه ذَهَبُ .

وقال محمد بن أبى الثبات، شاعر اليتيمة :

ومَجْدولَةٍ مثل صَدْر القناة * تعرّت ، و باطِنُها مُكْتَسِى .

لها مُقْلَةٌ هى رُوحٌ لَهَا ، * وتاجٌ علىٰ الرأس كالبُرْنُس .

إذا غازَلَتْها الصَّبا حَرَّكَتْ * لِسَانًا من الذَّهَبِ الأمْلَس .

وتُنْتِجُ من حيثُ ما ألْقَحَتْ * ضِياءً يُجَلِّى دُجىٰ الحِنْدِس .

فنَحْنُ من النُّور فى أسْعُدٍ ، * وتِلْكَ من النارِ فى أنْحُس !

وقال آخر :

ورشيقةٍ بيضاءَ تُطْلِعُ فى الدُّجىٰ * صُبْحا وتَشْفِى الناظِرِينَ بِدَائها .

شابَتْ ذوائِبُها أوانَ شَبابِها ، * واسْوَدَّ مَفْرِقُها أوانَ فَنَائِها .

كالعَيْن : فى طَبَقَاتِها ودُمُوعِها * وبَيَاضِها وسوادِها وضِيَائِها .

وقال الصاحب بن عبّاد :

وشَمعـــةٍ قُدِّمَتْ إلينَـا * تَجْمَعُ أوْصافَ كُلِّ صَبِّ :
صُفرةُلونٍ،وذَوْبُجِسمٍ، * وفَيْضُ دَمْعٍ. وحرّ قَلْب .

وقال السريّ الرفّاء :

مَفْتُـــولَةٌ مَجْـــدُولَةٌ * تَحْكي لنَا قدّ الأَسَـلْ .
كأنّهَـا عُمْـــرُ الفَـتى * والنـارُ فِيهَـا كالأجَلْ .

ومما ورد فى وصفها نثرا .

من رسالة لابن الأثير الجزريّ جاء منها :

وكان بين يديّ شمعةٌ تعمّ مجلِسي بالإينـاس،وتغني بوجودها عن كثرة الجُلّاس؛ وكانت الريح تتلعّبُ بِشُعَبها،وتدور علىٰ قُطْب لهَبها ؛ فطَوْرًا تقيمه فيصير أُنمُـله، وطورا تُميله فيصير سِلسِله؛وتارة تُجَوّفه فيصير مُدْهُنَه، وتارة تجعله ذا ورَقات فيمثل سَوْسَنَه؛ وآونة تنشره فيبسط منديلا، وآونة تَلُفّه علىٰ رأسها فيستدير إكليلا .

ومن رسالة أخرىٰ له :

وكانت الريح تتلعّبُ بلَهَبِها لدىٰ الخـادم فتشكله أشكالا. فتارة تُبْرِزُه نجما،وتارة تُبْرِزه هِلالا؛ولربمـا سـطع طورا كالجُلّنارَة فى تضاعيف أوراقها،وطورا كالأصابع فى آنضمامها وآفتراقها .

(٤٥) §وقال سيف الدّين المشدّ فى الفانوس :

وكأنّما الفَانُوسُ فى غَسَقِ الدُّجىٰ * دَنِفٌ بَراهُ سُـــقْمُهُ وسُهَـادُه.
حُنِيَتْ أضالِعُه ورقّ أديمُـــه * وجَرَتْ مَدامعُـه وذابَ فُؤادُه .

٢ – ومما قيل فى السراج .

من رسالة لأبى عبدالله محمد بن أبى الخصال ، جاء منها :

عذرا إليك أيدك الله ! فإنى خططت والنوم مُغَازِل ، والقُرُّ نازل ؛ والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليه صَوْلَةَ الحجّاج ؛ فطورا تبرزه سنانا ، وتحرّكه لسانا ؛ وآونةً تَطْوِيه جُنَّابَه ، وأخرىٰ تنشره ذُؤَابه ؛ وتارة تقيمه إبْرة لهب ، وتعطفه بُرَةَ ذهب ؛ وحينا تقوسه حاجب فتات ، ذات غمزات ؛ وتسـلطه علىٰ سليطه ، وتديله علىٰ خليطه ؛ وربما نصبته أُذُنَ جَوَاد ، ومسخته حَدَقَ جَرَاد ؛ ومشـقّته حروف برق ، بكفِّ وَدْق ؛ ولَثَمت بسناه قِنْدِيلَه ، وألقت علىٰ أعطافه مِندِيلَه ؛ فلاحظَّ منه للعين ، ولا هداية فى الطِّرس سيدين .

٣ – رسالة القِنْدِيل والشمعدان .

من إنشاء المولىٰ الفاضل البارع البليغ تاج الدين عبد الباقى بن عبدالمجيد اليمـانى ، سمعتُها من لفظه ، وقرأتها عليه ، وأجاز لى روايتها عنه . وهى الموسومة "بزهر الجنان ، فى المفاخرة بين القنديل والشمعدان" .

ابتدأها بأن قال :

الحمد لله الذى أنار حَالك الظّلْمَاء ، بأنوار بَدْر السماء ؛ وحلّى جيدها ، بعقود النجوم ، وحرس مَشيدها ، بسِهَام الرجوم ؛ وجعلها عبرة للأستبصار ، ونزهة للأبصار ؛ غِشَاؤها لَا زَوَرْدٌ مكلل بِنُضَار ، أو أقاحىٌ خميلة تفتحت فيها أزرارُ الأزهار ؛ تَهْـدِى السارىَ بسواريها ، وتُزْرِى بالدرر أنوارُ دراريها ؛ كرع فى نهر مجرّتها النَّسْران ، ورتع فى مراعى رياضها الفَرْقَدَان .

أحمده علىٰ نعمه التى لايقوم بشكرها لسان، ولا يؤدّى واجب حقها إنسان، حمدا يجلِبُ إلىٰ الحامد أنواعَ الإحسان، ويسوق إلىٰ الشاكر ركائب الخيرات الحسان.

وأصلى وأسلم علىٰ سيدنا محمد الذى أنار الله بوجوده ظُلْمة الوجود، وأظهر بظهوره أفعالَ الركوع والسجود؛ صلىّ الله وسلم عليه وعلىٰ آله الوافين بالعهود، وعلىٰ أصحابه أهل الإفضال والجود، صلاة وسلاما دائمين إلىٰ اليوم الموعود!

وبعد فإن فُنونَ الاداب كثيرة الشعوب، متباينة الأُسْلُوب؛ طالمَا تلاعب الأديب بفنونها بين جِدٍّ ومُجُون، وكيف لا والحديث ذو شجون. وكنت بحمد الله ممن هو قادر علىٰ إبراز مُلَحِ الأدب، وعلىٰ إظهار لطائف لغة العرب؛ فَتَمَثَّل فى خاطرى المفاخرة بين الشمعدان والقِنديل، ولا بدّ من إبراز المفاخرة بينهما فى أحسن تمثيل؛ لأنهما آلتا نور، ونديما سرور؛ طالما مزّقا جِلْباب الدُّجىٰ بأضوائهما، وحسما مادّة الظلمة بأنوارهما، وطلعا فى سماء المجالس بدورا، وأخجلا نَوْر الرياض لما أصدرا من جوهرهما نُورا. سما كل واحد منهما إلىٰ أنه الأصل، وأن بمدحه يَحْسُن الفصل والوصل، وأنه الجوهرة اليتيمه، والبَدْرَةُ التى ليست لها قيمه؛ سارت بمحاسنه ركائب الركبان، ونُظِمت فى جيد مجده قلائدُ العِقْيان.

فأحببت أن أنْظِمهما فى مَيْدان المناظرة لِيُبْرِز كل واحد منهما خصائصه الواضحه، ويُظْهِرَ نقائص صاحبه الفاضحه؛ وليتسنم غارب الاستحقاق بالفضيله، ويؤكد فى تقرير فضائله الراجحة دليله؛ مع أنه لاتقبل الدّعاوىٰ إلا بالبرهان، ولعمرى لقد قيل قدْمًا:

من تَحَلّى بغَيْرِ ماهُو فِيهِ * فَضَحَتْه شَواهِدُ الإمْتِحان.

فأتلع الشمعدان جِيدَه للطاوله، وعَرَض سَمْهَرِيّه الجينىّ للناضله. وقال :

* اِسْتَنَّت الفِصالُ حَتّى القَرْعَىٰ *

لستَ بنديم الملوك فى المجالس. كلَّا ولا الرَوضةِ الغَنَّاءِ للمُجَالس! طالما أحدقتْ (٤٦) بى عساكرُ النظار، ووقفت فى ٱستحسان هياكلى رؤيةُ الأبصار، وحُمِلْتُ علىٰ الرؤوس إذا عُلِّقْتَ بآذانك، وجُلِيتُ بِجَلاء المرهَفَات إذا ٱسودّ وجهك من دُخَانك.

فنضنض لسانُ القِنديل نضنضة الصِّلّ، وٱرتفع ٱرتفاع البازى المُطِلّ. وقال :

إن كان فخرك بمجالسة السلاطين. فٱفتخارى بمجالسة أهل الدين! طالما طلعتُ فى أفق المحراب نجما ٱزداد عُلا. وٱزدانت الأماكن المقدسة بشموس أنوارى حُلا؛ جمع شكلى مجموع العناصر، فعلىٰ مثلى تُعْقَد الخناصر؛ يحسَبُنى الرائى جوهرة العقد الثمين، إذا رأىٰ ٱصفرار لونك كصُفْرة الحزين؛ ولقد علوتك فى المجالس زمانا، ومن صبر علىٰ حرّ المشقة ٱرتفع مكانا.

فنظر إليه الشمعدان مُغْضَبًا، وهمّ بأن يكون عن جوابه منكِّبا. وقال :

أين ثمنك من ثمنى، ومسكنك من مسكنى؟ صفائحى صَفَحات الإبريز. فلذا سموت عليك بالتَّبْريز؛ تتنزّه العيونُ فى حمائلى الذهبيه، وتسر النفوسُ ببُزُوغ أنوارى الشمسيه؛ ولا يملكنى إلا من أوطنته السعادة مِهادَها، وقَرَّبَتْ له الرياسة جِيادها. ولقد نفعتُ فى الصحة والسَّقَم، وٱزدادت قيمتى إذا نقصتَ فى القيم؛ إن ٱنفصمت عُرَاك فلا تُشْعَبْ، ولا تعاد إلىٰ سبْكِ نار فتصبّ وتُقْلَبْ؛ لست من فُرْسان مناظرتى، ولا من قُرَناء مفاخرتى.

فالتفت القنديل ٱلتفات الضِّرغام، وفَوّق إلىٰ قرينه سهامَ الملام. وقال :

أنت عندى كثُعاله، لامحاله، طالك العنقود، فأبرزت أنواع الحقود؛ وأين الثريّا من يد المتناول؟ أم أين السها من كف المتطاول؟ تالله إنك فى صرفك بصُفرك مغلوط! لقـد خُصِصْتُ بالعلو وخُصِصْتَ بالهُبُوط. ترى باطنى من ظاهرى مشرقا، وتخالنى لخزائن الأنوار مطلقا، فحديث سيادتى مُسَلْسَل، وتاج فضائلى بجواهر العلو مكلَّل.

فلحظه الشَّمعدان بطرَف طَرْفه. وأرسل فى مَيْدان المناظرة عِنان طِرْفه. وقال:

إنّ ٱفتخارك بالعلو غير مفيد، ومزية ٱختصاصك به ليس له أبهّة مزيد؛ طالمـا علا القَتَام وٱنحطت الفُرسان، ومكث الجمر وسمـا الدُّخان؛ ولقد صَيَّرتكَ كنظر المشـنوق حاله، وكضوء السُّها ذُبَاله؛ وأنت الخليق بمـا قيل:

* وقلْبٌ بلا لُبٍّ، وأذْنٌ بلا سَمْعِ *

وسلاسلك تشـعر بعقلك، وعوَك ينبئ عن غلو إسقاطِ كمثلك؛ عادلت التبر كِفّة بِكفّه، ووزنته إذ كان فيه خفه. فأصخ لمفاخرى الجليله، وٱستمع مناقبى الجميله. أُطارِد جيوش الظَّلْماء برمحى، وأمزق أثواب الديجور بصبحى؛ جمع عاملى بين طلع النخل. وحلاوة النحل؛ يتلو سورة النور لسـانى. ويقوى فى مصادمة عساكر الليـل البهيم جَنَانى؛ أسامر المليك خَلْوه، ويستجلى من محاسنى أحسن جَلْوَه.

ولله درّ القائل:

أُنظر إلى شَمْعِــدانٍ شَكْلُه عَجَبُ * كروضة رَوَضتْ أزهارَها السُّحُبُ.
يُطارِدُ الليــلَ رمْحٌ فيــه من وَرِق * ســنَانُه لَهَبٌ من دونه الذَّهَبُ.

فمثل هذه المناقب تتلى. ومثل هذه المحاسن تظهر وتُجْلى.

فأضرم نار تبيينه، فى أحشاء قرينه . فعندها قال القنديل :

لقد أطلت الآفتخار بمحاسن غيرك ، لمّا وقفتُ فى المناظرة ركائبُ سيرك ؛ فآشكر اليد البيضاء من شمعك ، وآحرص علىٰ معرفة قيمتك ووضعك ؛ وأما آفتخارك بتلاوة سورة النور ، فأنا أحق بها منك إذ محلى الجوامع ، والفرقان فارق بينى وبينك مع أنه ليس بيننا جامع ؛ ففضيلتى فيه بيّنه ، وآية نورى فى سورة النور مبيّنه ؛ فآقطع موادّ اللجاجة ، وآقرأ الآية المشتملة علىٰ الزجاجة ؛ يظهر لك من هو الأعلىٰ ، ومن بالآفتخار الأولىٰ ؛ تخالنى دُرَّة عُلِّقت فى الهواء ، أو كوكبا من بعض كواكب الجوزاء .

ولله درّ القائل :

قِنْـــديلُنَـا فاقَ بأنوارِه ٭ نَوْرَ رِياضٍ لم تَزَلْ مُزْهِرهْ
ذُبالةٌ فيـــه إذا أُوقِدَتْ ٭ حَكَتْ بحُسْنِ الوَضْعِ نَيْلُوفَرهْ

لا يحمل الأقذاء خاطرى . ولا يغتمّ مشاهدى وناظرى ؛ فأنا خلاصة السبك ، والتبر الذى لا يفتقر إلىٰ الحكّ ؛ إشتقاق آسمك من النحوس ، ومن جِرْمك تقام هياكل الفلوس ؛ لقد عرّضتَ نفسك للمنيـه ، وآنعكست عليك موادّ الأمنيـه ؛ مع أن الحق أوضحُ من لَبَّة الصباح ، وأسطعُ من ضوء المصباح ؛ والآن غُصِصْتَ بِرِيقك ، وخفيتْ لوامع بُرُوقك ؛ فهذه الشهباء والحَلْبَه ، وهذه ميادين المناضلة رَحْبه . (٤٧)

فخار الشمعدان فى الجواب ، وجعل ما أبداه أوّلا فصل الخطاب

فقال القنديل :

لا بدّ من الإقرار بأن قِدْحى المعلّٰى ، وأنى عليك بالتقديم الأولىٰ ؛ وأن مقامى العالى ، ونورى المتوالى .

فقال الشمعدان :

لا منازعة فيما جاء به الكتّاب من تفضيلك، وكونك الكوكب الدّرّىّ الذى قَصُر عن بلوغك باعُ مثيلك .

فجنح الشمعدان للسِّلْم ، وترفع عن آستيطان مواطن الإثم؛ وشرع يُبْدِى شعائر الخضوع، وينشر أعلام الأوبة عما قال والرجوع ؛ وقال :

لولا حَمِيّةُ النفوس، ما تجَمَّلت بمفاخرنا صفحات الطروس؛ ولولا القال والقيل، ما ضَمَّنا معرض التمثيل؛ ولكن أين صفاؤك من كدرى، وأين نظرك من نظرى؛ خصك الله بنوره، وذكرك فى فرقانه وزبوره.

فعندها تهللت أسارير القِنْديل ، وتبسم فرحا بالتعظيم والتبجيل . وقال :

حيث رجعنا إلىٰ شرع الإنصاف، وإظهار محاسن الأوصاف، ففضلك لايبارىٰ، ووصفك لايجارىٰ؛ يحسبك الرائى خميلة نَوْر تفتّحت أزهارها، وحديقة نرجس آطّردت أنهارها؛ تُسَرّ بك النفوس، وتدار علىٰ نضارتك الكؤوس؛ وإن اللائق بحالنا طىّ بساط المنافسه، وإخماد شرر المقابسه؛ والآستغفار فيما فرط من كلامنا، والرجوع إلىٰ الله فى إصلاح أقوالنا وأفعالنا .

ونقول :

الأصل فيما نقلناه عدمه، فقد حَفِىَ كل واحد منا فى إبراز معايبه قَلَمُه . ونسأل الله أن تدوم لنا نِعَمُه، ويتعاهدنا فى المساء والصباح كرمه ! بمنه وجوده وكرمه ! آمين !

القسم الثالث من الفن الأوّل

فى الليالى والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد

وفيه أربعة أبواب

الباب الأوّل

من هذا القسم

---

١ — فى الليالى والأيام

رُوى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : خلق الله الخلق فى ظلمة (ورُوى : فى عَمَاء) ثم رش عليهم من نوره .

وهذا يدل علىٰ أن الظلمة خلقت قبل النور .

وروى أن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) سئل عن الليل ، أكان قبل أو النهار؟ قال : أرأيتم حيث كانت السماوات والأرض رتقا ، هل كان بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل كان قبل النهار .

والذى ورد فى القرآن من ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور بدأ الله (عز وجل) بذكر الليل قبل النهار، وبالظلمات قبل النور .

ويروىٰ أن الله (عز وجل) لما خلق السماء والأرض ، وقع ظل السماء علىٰ الارض فأظلمت ، فجعل الشمس ضياء والقمر نورا .

ثم خلق الزمان وقسمه قسمين : ليلا، ونهارا . فجعل حصة الليل للقمر، وحصة النهار للشمس . فكانا يتعاقبان بالطلوع فيهما ، فلم يكن بين الليل والنهار فرق فى الإضاءة .

فلما أراد الله عز وجل خلق النوع الإنسانىّ — وعلم أنه لاغِنىٰ له عن حركته للعاش نهارا وسكونه للراحة ليلا — أمر جبريل فأمرّ جناحه علىٰ القمر فمحا نوره . فالسواد الذى يرىٰ فى القمر هو أثر المحو، وصار الليل مظلما ، والنهار مبصرا .

ورُوِى أيضا أن الله (عز وجل) خلق حجابا من ظلمة مما يلى المشرِق، ووكّل به مَلَكا يقال له سراهيل . فإذا آنقضت مدّة النهار، قبض الملك قبضة من تلك الظلمة وآستقبل بها المغرب ، فلا تزال الظلمة تخرج من خلل أصابعه وهو يراعى الشفق . فإذا غاب الشفق، بسط كفه فطبق الدّنيا ظلمة . فإذا آنقضت مدّة الليل، قبض كفه علىٰ الظلمة ، إصبعا بعد إصبع إلىٰ أن يذهب الظلام، حتّى تنتقل الشمس من الشرق إلىٰ الغرب . وذلك من أشراط الساعة . والله أعلم !

---

٢ — ذكر ما قيل فى الليل وأقسامه

الليل طبيعىّ ، وشرعىّ .

أما الطبيعىّ ، فهو من حين غروب الشمس واستتارها إلىٰ طلوعها وظهورها .

وأمّا الشرعىّ ، فهو من حين غروبها إلىٰ طلوع الفجر الثانى ، وهو المراد بقوله (٨)
تعالىٰ : ﴿حَتّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ منَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ منَ الفَجْرِ﴾ .

§ والليل ينقسم إلىٰ آثنتى عشرة ساعة ، لها أسماء وضعتها العرب ، وهى :

الشاهد، ثم الغَسَق، ثم العَتَمةُ، ثم الفَحمةُ، ثم المَوْهِنُ، ثم القِطْعُ، ثم الجَوْشَنُ ثم العبكة[(١)]، ثم التَّباشير، ثم الفجر الأوّل، ثم الفجر الثانى، ثم المُعْتَرِض .

هذا ما ذكره ابن النحاس فى وصف صناعة الكُتّاب .

وحكى الثعالبىّ فى فقه اللغة — عن حمزة الأصفهانىّ، قال : وعليه عهدته — أسماء غير هذه، وهى :

الجَهْمَةُ، والشَّفَقُ، والغَسَقُ، والعَتَمَةُ، والسُّدْفَةُ، والزُّلّة[(٢)]، والزُّلْفَةُ، والبُهْرَةُ، والسَّحَر، والفجر، والصُّبح، والصَّباح .

فصل

وقد عُبِّر بالليالِى عن الأيام، كقول الله عزّ وجلّ : ﴿وَوَاعَدْنا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾؛ وقوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾. فعبر عن الأيام بالليالى، لأن كل ليلة تتضمن يوما .

٣ — ذكر الليالى المشهورة

من الليالى المشهورة :

§ ليلة البَرَاءة . وهى ليلة النصف من شعبان، قيل سميت بذلك لأنها براءة لمن يُحييها؛

§ وليلة القَدْر . والصحيح أنها فى مفرَدات العشر الأخير من شهر رمضان؛

§ وليلة الغَدِير . وهى ليلة الثامنَ عشرَ من ذى الحجة؛

(١) كذا بالأصل والذى فى كتب اللغة بهذا المعنى "الْمُتَكَّةُ" فلعل ماهنا تحريف من الناسخ .

(٢) لا توجد هذه الكلمة بهذا المعنى لا فى اللسان ولا فى القاموس ولا فى مستدرك شارحه . وهذا هو الذى دعا الثعالبى لجعل العهدة على حمزة الاصفهانى .

§ وليلة الهَرِير . وهي ليلة من ليالي صِفِّينَ ، قُتِل فيها خَلْقٌ كثير من أصحاب معاوية (رضي الله عنه) ؛

§ وليلة الخُلَعاء . وهي ليلةٌ باتها أبو الطَّمَحان القَيْنِيّ عند دَيْرانية ، فأكل طَفَيْشَلها[1] بلحم الخنزير ، وشرب خمرها ، وزنىٰ بها ، وسرق كساءها ؛

§ وليلة النابغة . يُضْرب بها المثل في الخوف ؛

§ وليلة المتوكل . تضرَب مثلا في موت نتج من سرور ، لأنه قُتِل في مجلس أُنسه ، علىٰ ما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالىٰ .

٤ — ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر الليل

يقال :

أطغىٰ من الليل . أطْفَل من ليل علىٰ نهار . أحْيَرُ من الليل . أستَرُ من الليل . أظلم من الليل . أندىٰ من ليلةٍ ماطرة .

ويقال :

الليل أخفىٰ للويل . الليل نهار الأريب . الليل طويل وأنت مُقْمِر . الليل وأهضام الوادي . الليل أعور (لأنه لايُبْصَر فيه) .

ويقال :

اتخذ الليلَ جَمَلا . شَمِّرْ ذيلا ، وادَّرِعْ ليلا . أمرُ نهارٍ قُضِي بليل .

---

(١) نوع من المرق (قاموس) . وقال ابن الخشاب في تفسير ألفاظ الكتاب المنصوري للرازي مانصه : طِفِشيل (بهذا الضبط) طعام يتخذ من الحبوب كالباقلّى والحِمَّص ونحوهما (عن تكملة المعجمات العربية لدوزي) .

ومن أنصاف الأبيات :

* الليل حُبْلىٰ ليس تَدْرِى ما تَلِد * * ما أقصرَ الليـلَ علىٰ الراقد! *

* ما أشْبَهَ الليـلَةَ بالبارِحَهْ! * * وليـلُ المُحِبّ بلا آخـر *

* إحدىٰ لياليك فهِيسى هِيسى! * * فإنَّكَ كالليل الذى هو مُدْرِكى *

ومن الأبيـات :

إن اللَّيالىَ لم تُحْسِـنْ إلىٰ أحدٍ * إلا أسَاءتْ إليـه بعْدَ إحسان.

✤

واللَّيـالى كما عَهِـدتَ حَبَالىٰ * مُقْـرِبَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيب.

✤

أمَا تَرىٰ اللَّيـلَ والنهـارا * جَارَيـنِ لا يُبْقِيَـان جارَا؟

وقال حميد بن ثور :

وَلَنْ يَلبَثَ العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ * إذا طَلَبَـا أن يُدْرِكَا ما تَيَمَّمَـا!

وقال أبو حية النُّمَـيرىّ :

إذا ما تقاضىٰ المرءَ يومٌ وليلةٌ، * تقاضاه شىءٌ لا يَمَـلُّ التَّقاضيَا.

٥ — ذكر ما قيل فى وصف الليل وتشبيهه

قد أكثر الشعراء فى وصف الليل بالطُّول والقصَر. وذكروا سببَ الطول الهُمُومَ وسبَب القِصر السرورَ.

ولهذا أشار بعض الشعراء فى قوله :

إنّ اللياليَ للأنامِ مَنَـاهل * تُطوىٰ وتُنْشَرُ بينها الاعمارُ،

فقِصارُهنّ مع الهُمُومِ طويلةٌ، * وطِوالُهنّ مع السرورِ قِصارُ.

وقال آخر :

إنّ التّواصُلَ فى أيامِه قِصَرٌ، * كما التهاجُر فى أيّامِه طُولُ.

فليس يَعْرِف تَسْهيدًا ولا رَمَدًا * جفنٌ برؤية مَنْ يهواهُ مشغولُ.

وقال آبن بَسّام :

لا أَظْلِمُ الليلَ ولا أدّعى * أنّ نجومَ الليلِ ليستْ تَغُورْ.

ليلى كما شاءت فإن لم تَزُر، * طالَ؛ وإنْ زارَتْ، فلَيلُ قِصيرْ. (٤٩)

أصله من قول علىّ بن الخليل :

لا أَظلِمُ الليلَ ولا أدّعى * أنّ نجوم الليلِ ليسَتْ تَعُولْ.

ليلٌ كما شاءَتْ قصيرٌ إذا * جادَتْ، وإن صدّتْ، فليلٌ طوِيلْ.

وقال آخر :

أخُو الهوىٰ يستطيلُ الليلَ مِن سَهرٍ، * والليلُ فى طُوله جارٍ علىٰ قَدَرِهْ.

ليلُ الهوىٰ سَنَةٌ فى الهَجْر مدّتُه؛ * لكِنّه سِنَةٌ فى الوَصْل منْ قِصَرِهْ.

وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

لا أسألُ اللهَ تغييرًا لما صَنَعَتْ : * نامتْ وقد أسهرتْ عَيْنَىّ عيناها.

فالليلُ أطولُ شيءٍ حينَ أَفقِدُها * والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها.

---

٦ — وأمّا ما وصِف به من الطول

قال الخبّاز :

ولَيْلٍ كَوَاكِبُه لا تَسِيرْ * ولا هُوَ مِنْها يُطيقُ البَرَاحا.

كيومِ القِيَامةِ فى طُولِهِ * علىٰ مَنْ يُراقِبُ فيه الصَّبَاحا.

وقال ابن المعتز :

مالِي أرى الليلَ مُسْبِلًا شَعَرًا * عَنْ غُرّةِ الصُّبْحِ غيرَ مفروقِ .

وقال بشار :

خَلِيليّ ! ما بالُ الدُّجى لا يُزَحْزَحُ ، * ومابالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لا يتوضّحُ ؟
أَضَلَّ النَّهارُ المستَنيرُ طَرِيقَهُ ؟ * أَمِ الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّه لَيْس يَبْرَحُ ؟

وقال الرَّفاء :

ألا رُبَّ لَيْلٍ بِتُّ أرعى نُجومَهُ * فلم أَغْتَمِضْ فيه ولا اللَّيلُ أغْمَضا .
كأنَّ الثُّرَيَّا راحةٌ تَشْبُرُ الدُّجى * لِتَعْلَمَ طال اللَّيْلُ لى أم تعرّضا .
عَجِبْتُ لِلَيْلٍ بَيْنَ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ * يُقَاس بشِبْرٍ كَيْفَ يُرجى له انْقِضا ؟

وقال محمد بن عاصم :

أقول ، واللَّيْلُ دُجىً مُسْبَلٌ * والأنْجُمُ الزُّهْرُ به مُثَّلُ :
ياطُولَ لَيْلٍ ما لَهُ آخرٌ * مِنْكَ ، وصُبْحٌ ماله أوّلُ !

وقال التنوخيّ :

ولَيْلَةٍ كأنَّها قُرْبُ أمَلْ * ظَلامُها كالدَّهْرِ ما فيه خَلَلْ .
كأنَّما الإصْباحُ فيها باطِلٌ * أزْهَقَهُ اللهُ بحقٍّ ، فبَطَلْ .
ساعاتُها أطولُ من يَوْمِ النَّوى * وليلةِ الهَجْرِ وساعاتِ العَذَلْ .
مؤصَدَةٌ على الورى أبوابُها * كالنار لا يَخْرُجُ منها مَن دخلْ .

وقال أبو محمد ، عبد الله بن السِّيد البَطَلْيُوسيّ :

ترى لَيلَنا شابتْ نواصِيه كِبْرَةً * كما شَبَّ ، أو فى الجَوِّ روضُ نَهارِ ؟
كأنّ الليالى السَّبعَ فى الأُفْقِ جُمِّعَتْ * ولا فصلَ فيما بَيْنَها بنهارِ .

وقال الشريف البياضي:

أقولُ لصَحْبِي والنجومُ كأنَّها، * وقد ركَدَتْ في بَحْرِ حِنْدِسِها غَرْقَى:
أرى ثوبَ هذا اللَّيلِ لا يَعرِفُ البِلَى! * فهل أَرَيْنَ للصُّبْحِ في ذَيْله فَتْقا؟

وقال أيضا:

أقولُ وللدُّجَى عُمْرٌ مَدِيدٌ * وآخِرُه يُرَدّ إلى مَعادِ.
وقد ضَلَّتْ كواكِبُه، فظلَّتْ * حَيَارَى ما لها في الأُفْقِ هادِي:
لعلَّ الليلَ ماتَ الصُّبحُ فيه، * فلازَمَ بعده لُبْسَ الحِداد.

وقال آخر:

أَمَا لِظَلَامِ لَيْلِي من صَباحِ؟ * أَمَا لِلنَّجم فيه من بَرَاحِ؟
كأنَّ الأُفْقَ سُدَّ، فليس يُرجَى * به نَهْجٌ إلى كُلِّ النواحي.
كأنَّ الشَّمسَ قد مُسِخَتْ نُجومًا * تَسِيرُ مَسِيرَ رُوَّادٍ طِلَاحِ.
كأنَّ الصُّبحَ مَهجورٌ طَرِيدٌ، * كأنَّ الليلَ ماتَ صَرِيعَ راحِ.
كأنَّ بناتِ نَعْشٍ مُتْنَ حُزْنًا، * كأنَّ النَّسرَ مكسورُ الجَناحِ.

وقال آخر:

يا لَيْلةً طالَتْ على عاشِقٍ، * مُنْتَظِرٍ للصُّبْحِ مِيعادَا!
كادَتْ تكونُ الحَوْلَ في طُولِها، * إذا مَضَى أوَّلُها، عادا.

وقال ابنُ الرومي:

رُبَّ لَيْلٍ كأنَّه الدَّهْرُ طُولًا * قد تَناهَى فليس فيه مَزِيدُ. (٥٠)
ذي نُجومٍ كأنَّهنَّ نُجومُ الشَّـ * ـيْبِ لَيستْ تَزُول، لكنْ تَزِيدُ.

وقال أبو الأحنف :

حَدِّثُونِى عن النَّهارِ حَدِيثًا * أو صِفُوه، فقد نَسِيتُ النَّهارا .

وقال بشّار :

طالَ هذا اللَّيْلُ بَلْ طالَ السَّهرْ ! * ولقَدْ أعْرِفُ لَيْلِى بالقِصَرْ .
لم يَطُلْ حَتّى دَهانِى فى الهَوىٰ * ناعِمُ الأطْرافِ فَتّانُ النَّظَرْ .
فكأنَّ الهَجْرَ شَخْصٌ ماثِلٌ * كُلَّما أبْصَرَه النَّومُ نَفَر .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأَنْدَلُسِىّ :

يا لَيْلَ وَجْدٍ بِنَجْدٍ * أما لِطَيْفِكَ مَسْرىٰ ؟
وما لِدَمْعِى طَلِيقٌ * وأَنْجُمُ الجَوِّ أسْرىٰ ؟
وقد طَمَا بحرُ لَيْلٍ * لم يُعْقِبِ المَدُّ جَزْرا .
لا يَعْبُرُ الطَّرْفُ فيه * غَيْرَ المَجَرَّةِ جِسْرا .

وقال أبو مَرْوان بن أبى الخصال :

وليلٍ كأنّ الدّهرَ أفضىٰ بعُمْره * جميعًا إلَيْه، فانتهىٰ فى ٱبْتِدائه .
يُحَدِّثُ بعضُ القومِ بَعْضًا بطُولِه، * ولم يَمْضِ منه غيرُ وَقْتِ عِشائِه .

وقال إبراهيم ولد ٱبن لنكك البصرىّ، شاعر اليتيمة :

ولَيْلَةٍ أرّقَنِى طُولُها * فبِتُّها فى حَيْرَةِ الذّاهِلِ .
كأنّما ٱشْتُقَّتْ لإفراطها * فى طُولها من أمل الجاهل .

وقال امرؤ القيس :

وليلٍ كمَوْجِ البَحْرِ مُرْخٍ سُدولَه * علىَّ بأنواع الهُمُومِ ليبتلى .
فقُلتُ له لما تَمطّى بصُلْبِه * وأردفَ أعجازًا وناءَ بِكَلْكَلِ :

ألَا أيُّها الليلُ الطويلُ، ألَا انجلِي * بصُبْحٍ! وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ!
فيا لَكَ من ليلٍ كأنّ نُجومَه * بأمراسِ كتّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ.

وقال آخر:

أُراقبُ في السَّماءِ بناتِ نعشٍ، * ولو أستطيعُ، كنتُ لهنَّ حادي.
كأنَّ الليلَ أُوثِقَ جانِباهُ * وأوسَطُه بأمراسٍ شِدادِ.

وقال أخرم بن حميد:

وليلٍ طويلِ الجانبَيْنِ قطعتُه * على كَمَدٍ، والدَّمعُ تجرِي سَواكِبُهْ.
كواكبُه حَسرى عليه كأنها * مُقيَّدةٌ دونَ المسيرِ كواكِبُه.

وقال ابن الرقاع:

وكأنَّ ليلى حينَ تغربُ شمسُهُ * بسوادِ آخَرَ مثلِهِ مَوْصولُ.
أرْعى النجومَ إذا تغيبَ كوكبٌ، * أبصرتُ آخَرَ كالسِّراجِ يجُولُ.

وقال آخر:

ما لِنجُومِ الليلِ لا تَغْرُبُ؟ * كأنَّها من خَلفِها تُجذَبُ!
رَواكِدٌ ما غارَ في غَربِها * ولا بدَا من شَرقِها كوكبُ.

وقال سعيد بن حميد:

يا ليلُ، بل يا أبَدُ! * أنائمٌ عنكَ غَدُ؟
يا ليلُ لو تَلْقَى الذي * ألْقَى بها أو تجِدُ،
قَصَّر من طُولكَ أو * ضَعَّفَ منكَ الجَلَدُ!

وقال سيف الدّين المشدّ :

ماتَ الصَّباحُ بلَيْلٍ * أحْيَيْتُه حِينَ عَسْعَسْ .
لو كانَ فى الدهرِ صُبْحٌ * يَعيشُ ، كان تَنَفَّسْ .

٧ — أما ما وصف به من القِصَر

فمن ذلك قول إبراهيم بن العباس :

ولَيْلةٍ إحْدىٰ الليالى الزُّهْرِ ، * قابلتُ فيها بَدْرَها ببَدْرى .
لم تَكُ غَيْرَ شَفَقٍ وفَجْرٍ ، * حتَّى تَوَلَّتْ وهى بِكْرُ الدَّهْرِ .

وقال الشريف الرضىّ :

يا لَيْـلَةً كادَ من تَقاصُرِها * يَعْثُرُ فيها العِشاءُ بالسَّحَرِ .

وقال آخر :

يا ليلةً جَمَعَتْنا بعد فُرْقَتِنا * فبِتُّ من صُبْحِها لَمَّا بدا ، فَرِقا .
لما خَلَوْتُ بآمالى بها ، قَصُرتْ * وكاد يَسبِقُ فيها فجرُها الغَسَقَا .

وقال آخر :

يا رُبَّ لَيلِ سُرُورٍ خِلْتُهُ قِصَرًا * يُعارِضُ البرق فى أُفْقِ الدُّجىٰ بَرَقَا .
قد كاد يَعْثُرُ أُولاه بآخِرِهِ * وكادَ يسبِقُ منه فجرُهُ الشَّفَقَا .

وقال القاضى السعيد بن سناء الملك : (٥١)

يا ليلةَ الوَصْلِ ، بل يا ليلَةَ العُمُرِ ! * أحْسَنْتِ ، إلا إلىٰ المشتاق ، فى القِصَرِ .
يا ليتَ زِيدَ بحكم الوصل فيكِ لنا * ما طوّلَ الهَجْرُ من أيامِكِ الأُخَرِ .

أو ليتَ نجمكِ لم تقفُلْ ركائبُه، * أو ليتَ صُبحكِ لم يَقدُم من السَّفر.
أوليتَ لم يَصْفُ فيكِ الشرقُ من غَبَشٍ، * فذلك الصَّفوُ عندي غايةُ الكَدَر،
أوليتَ كُلًّا من الشرقينِ ما ٱبتسَما، * أو ليتَ كُلًّا من النَّسرينِ لم يَطرِ.
أو ليتَ كنتِ كما قد قال بعضُهم: * "لَيلَ الضَّرير فصُبحي غيرُ مُنتَظَر".
أو ليتَ بحرَكِ لم يَنفُرْ به رشَئي، * أو ليتَ شمسَكِ ما جارَتْ على قمَري.
أو ليتَ قلبي وطَرْفِي تحتَ مِلْك يدي * فزدْتُ فيه سوادَ القلب والبصَر.
أو ليتَ ألقىٰ حبيبي نحرَ مُقلَتِه * على العشاء فأبقاها بلا سحَر.
أو ليتَ كنت سألتيه مُساعدةً * فكان يحبُوك بالتكحيل والشَّعَر.
كأنَّها حينَ ولَّتْ قمتُ أجذِبُها * فٱنقدّ في الشَّرق منها الثَّوبُ من دُبُر.
لا مَرحبًا بصَباحٍ جاءني بدَلًا * من غُرّة النَّجم أو من طَلْعة القمر!

وقال عبد الله بن المعتز:

يا ليلةً ما كان أطيَبَها سِوى قِصَر البقاء!
أحييتُها فأمتُّها * وطَويتُها طَيَّ الرِّداء.
حتّى رأيتُ الشمسَ تتلو البدرَ في أُفقِ السماء.
فكأنه وكأنَّها * قَدحانِ من خمرٍ وماء.

وقال المهلبي:

قد قَصُرَ الليلُ عندَ أُلفتِنا * كأنّ حادي الصَّباح صاحَ بِهِ.

وقال آخر:

كأنَّما الليلُ راكِبٌ فرسًا * منهزِمًا والصَّباح في طَلَبِه.

٨ — أما ما وصف به من الإشراق

فمن ذلك قول شاعر أندلسىّ :

رُبَّ ليلٍ عَمَرتُه * فيكَ خالٍ من الفِكَرْ
كَثُرتْ حَوْلَه الجُو * لُ وسارَتْ به الغُرَرْ

وقال أبو بكر الصنوبرى :

يا ليلةً طَلَعتْ بأسْعَدِ طالِعِ * تاهتْ على ضَوْءِ النهارِ السّاطعِ
بمحاسنٍ مَقْرُونةٍ بمحاسن * وبَدائع مَوْصُولةٍ ببَدائعِ
ضَوءُ الشُّمُوعِ وضَوْءُ وجهِكَ مازجا * ضَوْءَ العُقارِ وضوءَ برقٍ لامعِ
فكأنّما ألقى الدُّجى جلْبابَه * وأراكَ جلْبابَ النَّهارِ الساطعِ

٩ — أما ما وصف به من الظلمة

قال الله عز وجل : ﴿أوْ كَظُلُماتٍ فى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ﴾ . فهذه أتمّ أوصاف الظلمة .

وقال مُضَرِّسُ بن رِبْعِىّ :

وليلٍ يقولُ الناس فى ظُلُمَاته : * سَواءٌ صحيحاتُ العُيُونِ وعُورُها
كأنّ لَنَا منه بيوتًا حَصِينةً * مُسُوحٌ(١) أعاليها وسَاجٌ كُسُورُها

وقال أبو تمام :

إليكَ هَتَكْنا جُنْحَ ليلٍ كأنّما * قد اكتحلَتْ منه البِلادُ بإثمِدِ

(١) جمع مِسْح بكسر فسكون وهو الكساء يتخذ من الشعر .

وقال أبو نواس :

أَبِنْ لى: كيف صِرتَ إلى حَرِيمِى، * وجَفْنُ الليــلِ مُكْتحِلٌ بقار

وقال العلوىّ الأصفهانىّ :

وربَّ ليـلٍ باتَتْ عَساكِرُهُ * تحمِلُ فى الجو سُـودَ رايات
لامعــة فوقَهَـا أسِنّتُهـا * مثل الأزاهير وسْطَ رَوْضَات

(٥٢) ومن رسالة لأبي عبدالله بن أبي الخصال . جاء منها :

والليل زنجىّ الأديم، تبرِىّ النجوم، قد جلَّلَنا ساجهُ، وأغرقتنا أمواجهُ، فلا مجال لِلَحظ، ولا تعارُف إلا باللفظ، ولو نظرتْ فيه الزرقاء لاكتحلت، ولو خُضبتْ به الشَّيبة مانَصَلَتْ .

---

١٠ — ومما قيل فى تباشير الصباح

قال أبو محمد العلوىّ :

كأنّ اخْضِرارَ الجو صَرْحٌ مُمَرَّدٌ * وفيـه لآلٍ لم تُشَنْ بثُقُوبِ.
كأنّ سَوَادَ اللّيلِ فى ضَوْءِ صُبْحِه * سوادُ شَباب فى بياضِ مَشِيبِ.

وقال أبو علىّ بن لؤلؤ، الكاتب :

رُبَّ بِخْرٍ كطَلْعةِ البدر جَلَّى * جُنْحَ ليلٍ كطلعةِ الهِجْرانِ،
زَارَ فى حُلَّةِ البُزاة فولّى اللـ * ـيلُ عنه فى حُلّةِ الغِرْبانِ .

وقال الخالديّان :

وكأنّما الصُّبحُ المنيرُ وقد بدا * بازٌ(١) أطارَ من الظَّلامِ غُرابَا .

(١) البازلغة فى البازىّ . (عن الجوهرى)، واخترنا ذلك لأنه منقول عن كلمة فارسية هى "باز" . وتركية "طوغان" وهو نوع من الصقور وأشد الجوارح تكبرا وأضيقها خلقا . يوجد بأرض الترك و يؤخذ للصيد .

وقال النظامُ البلخيّ، من شعراء الخريدة :

فَلاحَ الصبحُ مبتسِمَ الثَّنايَا ❊ وطارَ اللَّيلُ مَقْصُوصَ الجَناحِ.
يَطِيرُ غُرابُ أوْكارِ الدَيَاجِى ❊ إذا ماحَلَّ بازِىُّ الصَّباحِ.

وقال تميم بن المعزّ :

وكأنَّ الصَّباحَ فى الأُفقِ بازٌ ❊ والدُّجىٰ بين مِخْلَبيْه غُرابُ .

وقال ٱبن وكيع :

غَرَّدَ الطيرُ فنبِّهْ من نَعَسْ. ❊ وأدرْ كأسَكَ فالعيشُ خُلَسْ!
سُلَّ سَيْفُ الفجرِ مِنْ غِمْدِ الدُّجىٰ ❊ وتعرّىٰ الصبحُ من ثوبِ الغَلَسْ.
وٱنْجَلىٰ فى حلة فضِّيَّةٍ ❊ ما بها من ظُلْمة اللَّيل دَنَسْ.

وقال أبو مروان بن أبى الخصال :

ولَمَّا رأيتُ الغَرْبَ قد غُصَّ بالدُّجىٰ ❊ وفى الشَّرْق من ثوب الصَّباح دلائلُ،
توهَّمتُ أن الغربَ بحرٌ أخُوضُهُ ❊ وأن الذى يَبْدُو من الشَّرْق ساحلُ.

وقال أسعد بن بليطة الأندلسىّ :

جَرتْ بِمسْك الدُّجىٰ كافُورةُ السَّحَر ❊ فغـاب، إلا بَقَايَا منه فى الطُّرَرِ،
صبحٌ يَفِيض وجُنحُ الليلِ مُنغَمِسٌ ❊ فيه كما غَرِقَ الزنْجِىُّ فى نَهَرِ.
قد حَارَ بينَهُما فى بَرْزَخٍ قَمَرٌ ❊ يلُوحُ كالشَّنْف بين الخدِّ والشَّعَر.

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبىّ :

بِتْنا كأنَّ حِدَادَ الليلِ شَمْلتنا ❊ حتّى بدا الصبْحُ فى ثوبٍ سحُولىّ .
كأنَّ ليلتنا، والصبح يتبعها، ❊ زنجيّةٌ هربتْ قُدّام رُومىّ .

وقال أبو نُوَاس :

فقُمْتُ والليلُ يجلوه الصَّباحُ، كما * جَلا التَّبسُّمُ عن غُرِّ الثَّنِيَّاتِ.

وقال عبد الله بن المعتزّ :

قد أغتدِى واللَّيلُ فى جِلْبَابِهِ * كالحَبَشِىِّ فَرّ من أصحابِهِ.
والصُّبحُ قد كَشَّرَ عن أنيابِهِ * كأنَّما يَضْحَكُ من ذَهَابِه.

وقال السرىّ :

وشَرَّدَ الصبحُ عنَّا الليلَ فٱتَّضَحتْ * سُطُورُه البيضُ فى آياتِهِ السُّود.

وقال أبو فراس :

مَدَدْنَا علينا الليلَ، والليلُ راضِعٌ * إلى أن تَرَدَّى رأسُه بمَشيب.
بحالٍ تَرُدُّ الحاسدينَ بغَيْظهم * وتَطْرِفُ عنّا عينَ كُلِّ رقيبِ.
إلى أنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّباح كأنه * مَبَادِى نُصُولٍ فى عِذَارِ خَضِيب.

وقال عبد الصمد بن بابك، شاعر اليتيمة :

وٱستهلَّتْ لِمَصْرعِ الليلِ وُرْقٌ * ثاكلاتٌ، حدادُها التَّطْويقُ.
فتضاحَكْتُ شامتًا وكأنَّ الصُّبحَ جيْبٌ على الدّجى مَشْقُوق.

وقال أبو بكر الصنوبرىّ :

وليلَةٍ كالرَّفْرفِ المُعْلَمِ * مَحْفُوفَةِ الظَّلْماء بالأنجمُ. ٥٣
تَعَلَّقَ الفجرُ بأرْجائها، * تعلُّقَ الأشقَر بالادْهم.

وقال النلامىّ، شاعر اليتيمة :

وقد خالطَ الفجرُ الظَّلامَ كما ٱلتقى * على روضةٍ خضْراءَ وَرْدٌ وأَدهمُ.

وَعَهدى بها، والليلُ ساقٍ ووَصْلُنا ٭ عُقَارٌ، وفُوها الكأسُ أو كأسُها الفمُ.
إلىٰ أن بَدَرْنا بالنجوم ، وغربُهـا ٭ يَفُضُّ عُقُودَ الدُّرِّ والشَّرقُ يَنْظِم.
ونَبَّهتُ فِتيـانَ الصَّـبُوحِ للذَّة ٭ تلوحُ كدينارٍ يُغَطِّيـه دِرْهمُ.

٭٭٭

ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، عفا الله عنه . جاء منها :

"فلما قضىٰ الليلُ نحبَه، وأرسلَ الصباحُ علىٰ دُهْمِه شُهْبَه؛ شمَّر الليلُ إزارَه، ووضع النجمُ أوزارَه؛ ونزحَ بالطَّيْف طاردًا، وظلَّ وراء الصبح ناشدا؛ وفجَر الفجرُ نهر النهار، وآستردّ البنفسجَ وأهدىٰ البَهار؛ فمواكِب الكواكب منهزمَه، وغرّة الفجر كغرّة مولاى مبتسمَه".

٭٭٭

ومما يدخل فى هذا الباب، ما حُكِي أن بعض الأعراب تزوج بأربع نسوة، فأراد أن يختبر عقولهنّ.

فقال لإحداهنّ : إذا دنا الصبحُ فأيقظينى . فلما دنا الصبح، قالت له : قم، فقد دنا الصبح! فقال : وما يدريك؟ قالت : غارت صغار النجوم وبقى أحسنها وأضوؤها وأكبرها، وبَرَدَ الحُلِيُّ علىٰ جسدى، وآستلذذت بآستنشاق النسيم . فقال لها : إن فى ذلك دليلا .

ثم بات عند الثانية، فقال لها مثل مقالتـه للأولىٰ . فلما دنا الصبح، أيقظته . فقال لها: وما يُدرِيك؟ قالت: ضحكت السماءُ من جوانبها، ولم تبق نابتة إلا فاحت روائحُها، وعينى تطالبنى بإغفاءة الصباح . فقال لها : إن فى ذلك دليلا .

ثم بات عند الثالثة، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح، أيقظته . فقال لها : وما يدريك ؟ فقالت : لم يبق طائر إلا غَرِد، ولا ملبوس إلا بَرَد، وقد صار للطَّرْف فى الليل مجال، وليس ذلك إلا من دنو الصباح . فقال لها : إن فى ذلك لدليلا .

ثم بات عند الرابعة، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح، قالت له : قم، فقد دنا الصبح ! فقال لها : وما يُدريكِ؟ قالت : أبتْ نفسى النوم، وطلبنى فمى بالسواك وآحتجت إلى الوَضُوء . فقال لها : أنت طالق، فإنكِ أقبحهنّ وصفا .

١١ — ذكر ما قيل فى النهار

والنهار طبيعىّ، وشرعىّ .

فالطبيعىّ زمان بين طلوع نصف قرص الشمس من المشرق، وإلى غيابه فى المغرب . والشرعىّ ما بين آنفجار الفجر الثانى إلى غروب الشمس .

والفجر فجران : الفجر الكاذب، وهو بياض مستطيل؛ والفجر الصادق بياض مستطير .

§ وقد وضعت العربُ لساعات النهار أسماء، كما وضعت لساعات الليل، وهى : الذُّرُورُ، ثم البُزوغُ، ثم الضُّحىٰ، ثم الغَزَالةُ، ثم الهاجرة، ثم الزَّوالُ، ثم الدُّلُوكُ، ثم العَصْرُ، ثم الأصيلُ، ثم الصَّبوبُ، ثم الحَدُورُ، ثم الغُروبُ .

ويقال أيضا : البُكورُ، ثم الشُّروق، ثم الإشراقُ، ثم الرَّأْدُ، ثم الضُّحىٰ، ثم المُتُوع، ثم الهاجرة، ثم الأصيلُ، ثم العَصْر، ثم الطَّفَل، ثم العَشِىّ، ثم الغُرُوب .

ذكر ذلك معا أبو جعفر النحاس .

وحكى الثعالبى فى كتاب فقه اللغة — عن حمزة بن الحسن — قال: وعليه عهدتها: الشُّروقُ، ثم البُكورُ، ثم الغُدْوةُ، ثم الضُّحىٰ، ثم الهاجرة، ثم الظَّهيرة، ثم الرَّواحُ، ثم العصر، ثم القَصْر، ثم الأصيل، ثم العِشىُّ، ثم الغروب.

§ وكانت العرب العاربةُ تُسَمِّى أيامَ الأُسبوع بأسماءٍ غير هذه التى نتداولها الناس فى وقتنا هذا، وهى:

"أوَّلُ" وهو الأحد "أهْوَنُ" وهو الاثنان "جُبَارٌ" وهو الثلاثاء "دُبَارٌ" وهو الأربعاء "مُؤْنِسٌ" وهو الخميس "عَرُوبةُ" وهو الجمعة "شِيَارٌ" وهو السبت.

نظم ذلك شاعرٌ فقال:

أؤمِّلُ أن أَعِيشَ وأنَّ يومى * لِأوّلَ أو لِأهونَ أو جُبَارِ،
أو التالى دُبارَ وإن أُفُتْه * فمؤنِسَ أو عَرُوبةَ أو شِيارِ. ٥٤

١٢ — ذكر الأيام التى خُصَّتْ بالذكر

منها:

§ الأيام المعلومات. وهى عشر ذى الحجة، وفيها يوم التَّرْوية. وهو اليوم الثامن سمى بذلك لأنهم يرتوون من الماء لما بعده، لأن مِنًى لا ماء بها.

§ الأيام المعدودات. هى أيام التشريق. وعدّتها ثلاثةٌ بعد يوم النحر. سميت بذلك لأنهم كانوا يشرّقون فيها لحومَ الأضاحى فى الشمس والهواء، لئلا تَفْسُدَ.

§ أيام العجوز. ويقال فيها الأيام الأعجاز. وهى سبعة: أولها السادس والعشرون من شباط من شهور الروم، والخامس من برمهات من شهور القِبط. وهى لا تخلو من رياح وبرد. وسميت بالعجوز: لأنها فى عَجُزِ الشتاء.

§ يوم عَبِيد ، مَثَلٌ لليوم المنحوس . كان عَبِيد بن الأبرص قد تصدّى للنعمان فى يوم بؤسه الذى لا يُفْلِحُ مَن لقيه فيه، كما لا يَخِيبُ مَن لقيه فى يوم نعيمه، قال أبو تمّـام :

مِنْ بعدِ ماظَنَّ الأعادى أنَّه ⁂ سيكونُ لى يومٌ كيوم عَبِيدِ.

§ يوم المطر . يضرب مثلا فى كفر النعمة . وذلك أنه حكى عن المعتمد على الله آبن عباد صاحب إشبيلية أنه خلا بزوجته الرميكية فى مجلس أنس، والزمان فيه قيظٌ . فتمنَّتْ عليه غيما ومطرا . فأمر بمجامر العنبر والعود والنَّـدّ، حتّى آنعقد الدّخان كالضّباب، ثم أمر برشّ صحن المجلس بمـاء الورد من أعلاه . وحصل بينهما بعد ذلكَ نَبْوَةٌ[1]، فقالت له : مارأيتُ معكَ يومَ سرورٍ قَطُّ ! فقال لهـا : ولا يوم المطر؟

صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى قوله : إنَّهنَّ يَكْفُرْنَ العَشِيرَ .

§ يوم عاشوراء . وهو اليوم العاشر من المحرّم . ورد فى فضله أحاديث كثيرة . و يقال إن نوحا (عليه السلام) ركب السفينةَ فيه فصامه وأمر مَن معه بصومه .

وصحّ أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لمـا هاجر، رأى اليهود فى المدينة صِيَاما فى هذا اليوم . فسألهم عنه . فقالوا : هذا اليوم الذى نجّى الله تعـالى فيه موسى و بنى إسرائيل، وأغرق فرعون وقومه . فنحن نصومه شكرا لله تعالى . فقال (عليه الصلاة والسلام) : أنا أحقُّ بأخى موسى . ثم أمر مناديا فنادى: من أكل فليُمْسِكْ، ومن لم يأكل فليصُم !

وفيه قُتِل الحسين بن علىّ (رضى الله عنهما) .

(١) راجع رواية أوفى فى نفح الطيب .. .. "يوم الطين" . (ص ٢٨٧ ج ١ طبعة ليدن) .

١٣ — ذكر أيام أصحاب الملل الثلاث

§ يوم الجمعة، للسلمين . وسبب آتخاذهم له أنه اليوم الذى أتمّ الله فيه خلق العالَم، وأوجد فيه أبا البشر آدم (عليه السلام) وفيه قُبِضَ ، وفيه يكون النفخُ فى الصُّور، وفيه الصَّعْقُ، وفيه الساعة التى لا يُصادفُها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها حاجة إلا قضاها له .

§ يوم السبت، لليهود . وحُجّتهم علىٰ آتخاذهم له أن الله تعالىٰ آبتدأ خلق العالَم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، وأن يوم السبت يومُ فراغٍ ودَعَةٍ . ولهم فى ذلك أقوال كثيرة .

§ يوم الأحد، للنصارىٰ . ذكر فى سبب آتخاذهم له أن الله (سبحانه وتعالىٰ) آبتدأ فيه بخلق الأشياء .

---

١٤ — ذكر مايُتَمَثَّل به مما فيه ذكر النهار

يقال :

أطولُ من يوم الفِراق . أضْوأُ من نهارٍ . أنورُ من وضَحِ النهار .

ويقال :

يَذْهَبُ يومُ الهَمّ ولا يُشْعَرُ به . ما يومُ حَليمةَ بسِرٍّ . مَنْ يَرِ يومًا يُرَ بِهِ . يومُ السُّرورِ قصيرٌ . اليومَ خمرٌ وغدًا أمرٌ . اليومَ عَيْشٌ وغَدًا خَيْشٌ . اليومَ فِعْلٌ وغدًا ثوابٌ . يومٌ لنا ويومٌ علينا . لكُلِّ قَوْمٍ يومٌ .

ومن أنصاف الأبيات :

* وهل يَخْفَى علىٰ الناس النهارُ * * وفى اللَّيالى والأيامِ مُعْتَبَر *

ومن الأبيات :

وآلله ما أمكن يومٌ صالحٌ * إنّ يومَ الشّر لا كانَ عَتِيدَا !

وقال آخر :

أُمامَ! لا أَدْرِى، وإن سَأَلْتِ: * ما نُسْكُ يومِ جمعةٍ من سَبْتِ .

وقال آخر :

وأيامُ! الشُّرورِ مُقَصَّصَاتٌ * وأيّامُ السُّرورِ تَطِيرُ طَيرَا .

وقال آخر:

لا تَحْمِلَنَّ هُمُومَ أيَّامٍ علىٰ * يومٍ، لعلَّكَ أن تُقَصِّرَ عن غَدِه .

١٥ — ذكر شيء مما قيل فى وصف النهار وتشبيهه

فمن ذلك قول شاعر، يصفه بالقِصَر :

ويوم سُرُورٍ قد تَكامَلَ وصفُه * سِوىٰ قِصَرٍ، لاعيبَ فيه سِواهُ !

وعَهْدِى به كالرُّمحِ طُولًا، فعندَمَا * هَزَزْناهُ لِلَّهْوِ آلتَقَىٰ طَرفَاه . (٥٥)

وقال آخر :

بِأبى مَنْ نَعِمْتُ منه بيومٍ، * لم يَزَلْ لِلسُّرورِ فيه نُمُوُّ !

يومُ لَهوٍ، قد آلتقىٰ طَرَفاهُ * فكأنَّ العَشِىَّ فيه غُدُوُّ .

وقال آخر :

لم يَنتَشِرْ فَلَقُ الإصْباحِ مِنْ سَمَرٍ * فيه إلىٰ أن طَواهُ فَيْلَقُ الغَسَق .

ولم يكن مُلْتَقَىٰ جَفْنَىْ أخى رَمَدٍ * كمُلتقىٰ طرفيه: الصُّبحِ والشَّفَق .

وما تناولْتُ فيه الرِّطلَ مُصْطَبِحًا * إلا أعادَتْه مِنّى كَفُّ مُغْتَبِق .

وقال آخر :

لِلّهِ يَــومُ مَسَــرَّةٍ * أضْوَا وأقصرُ من ذُبَالَهْ !
لمـا نَصَـبْنَا لِلْــمُنى * فيه بأشْراكٍ حِبَـالَهْ ،
طـارَ النَّهـارُ مُرَوَّعًا * فيه وأجفَلَتِ الغزَالَهْ !

وقال آخر :

حُثَّ الكُؤوسَ ! فهذا يومٌ به قِصَرٌ ، * وما به من تمـام الحُسْـنِ تَقصِـيرُ .
صَحْوٌ وغَيمٌ ، يَرُوقُ الطَّرفَ حُسْنُهُما : * فالصَّــحوُ فَيْرُوزَجٌ ، والغـيمُ بَلُّورُ .

وقال آخر :

ويوم تَحَــلَّى الغانِيَـاتِ سَــلَبتُه * حُلِيَّ الرُّبَا حتَّى آنثَنَى وهو عاطِــلُ .
سبقت إليه الشمس ، والشمسُ غَضَّةٌ * وصِبْغُ الدجى من مَفْرِق الفجرِ نَاصِلُ .

⁂

ومن كلام آبن برد الأصغر الأندلسيّ :

اليومُ يومٌ بكت أمطـارُه ، وضحِكت أزهاره ، وتقنعت شمسُــه ، وتعطّر نسيمُه ؛ وعندنا بُلْبُـلٌ هَزِج ، وساقٍ غَنِج ، وسُلَافتانِ : سُلَافَةُ إخوان ، وسُلَافَةُ دِنَان ؛ قد تشاكلتا فى الطباع ، وآزدوجتا فى إثارة السرور . فأخرِق إلينا سُرادقَ الدجْنِ تجد مَرْأى لم يحسن إلا لك ، ولا يتم إلا بك .

ومن كلامه أيضا :

لم نلتق منـذ عرّينا مَرْكَبَ اللّهو ، وأخلينا رَبْعَ الأُنس ، وقَصَصنا جناحَ الطَّرَب ، وعبَسْنا فى وجوه اللذات . فإن رأيت أن تخِفَّ إلى مجلس قد نُسِخت فيه الرياحين

بالدواوين، والمجامر بالمحابر، والأطباق بالأوراق، وتنازع المدام، بتنازع الكلام؛ وآستماع الأوتار، بآستماع الأخبار، وسجع البلابل، بسجع الرسائل؛ كانَ أشحذ لذهنك، وأرشدَ لرأيك .

١٦ — ذكر شيء مما وصفت به الآلات

الموضوعة لمعرفة الأوقات

قد وضع أهلُ هذا الفنّ لمعرفة درجات الليل وساعات النهار آلات، يستدلُّون بها علىٰ معرفة مامضى من ذلك ومابقِي، ولتحرير المواقيت: كالأصْطرلاب، والطَّرْجَهارة والبنكام .

ووصف الشعراء والفضلاء ذلك بأوصاف، نذكر منها إن شاء الله تعالىٰ ما نقف عليه .

١ — فأما الأصطرلاب وما قيل فيه .

فقال أبو طالب، عبد السلام المأمونى :

وشبيهٍ بالشّمس يَسْترِقُ الأنــوارَ من نُورِ جِرْمها فى خفـاء.
فـــتَراهُ أدرىٰ وأعلمَ منهـا ، * وهو فى الأرض، بالذى فى السّماء.

وقال أيضاً :

وعالم بالغيبِ مِنْ غيرِمَا * سَمْعٍ، ولا قَلْبٍ، ولا ناظر!
يُقابلُ الشمسَ فيأتى بما * ضُمِّنَها من خبرٍ حاضرِ.
كأنها ناجتْـــهُ لَمَّا بَدَا * لِعَينِها بالفكر والخـاطرِ.
وألهَمَتْه علمَ ما يحتوِى * عليه صَدْرُ الفلكِ الدّائرِ.

وقال أبو إسحاق الصابى ، وقد أهداه فى مهرجان إلىٰ مخدومه :

أَهْدىٰ إليكَ بَنُو الآمالِ وآجتهدُوا * فى مَهْرجانٍ جديدٍ أنت تُبْلِيه،

لكنَّ عبدَكَ إبراهيمَ، حين رأىٰ * سمُوّ قَدْرِكَ عن شَىءٍ يُساميه،

لم يرضَ بالأرض يُهدِيَها إليك فقد * أهدىٰ لك الفَلَكَ الأعلىٰ بمـا فيه!

وقال أبو الصلت أُمَيَّة بن عبد العزيز :

أفضَلُ ما آستَصْحَبَ النبيلُ فلا * يُعْـدَل به فى المُقَام والسَّـفَرِ،

جِرْمٌ إذا ما آلتَمَسْتَ قيمتَـه * جَلَّ عن التِّبر وهو من صُـفُرِ.

مُختصَـرٌ وهـو إذْ تُفَتِّشُـه * عن مُلَحِ العـلم غيرُ مختصَرِ.

ذُو مُقْـلةٍ تَستنيرُ ما رَمَقَتْ * عن صائبِ اللحظ صادقَ النَّظَرِ.

تَحمِـلُه وهـو حامِـلٌ فَلَكًا * لو لم يُدَرْ بالبَنَـانِ لم يَدُرِ.

مَسْـكنُه الأرضُ وهو يُنْبِئنا * عن جُلِّ ما فى السماء من خَبَرِ.

أبدعَهُ رَبُّ فِـكْرةٍ بَعُـدَتْ * فى اللُّطفِ عن أنْ تُقَاسَ بِالفِكَرِ.

فاسـتَوْجَبَ الشُّكرَ والثناءَ به * من كلِّ ذى فطنـةٍ من البَشَرِ.

فهو لذِى اللُّبِّ شَـاهدٌ عَجَبٌ * علىٰ آختـلاف العُقُول والفِطَرِ.

(٥٦) وكتب أبو الفرج الببغاء يصف آصطرلابا أهداه فقال :

آثرتك — أيدك الله — ببرهان الحكمة ونسبها ، ومدار الفلسفة وقطبها ؛ ومُرشد الفكر ومناره ، وميزان الحسن ومِعياره ، ونافِى الشك ومُزِيله ، وشاهدِ الأثير ودليله ؛ مصوّر الحكمة ومُمثِّلها ، ومقسم البروج ومعدّلها ؛ وموقف النجوم ومسـيِّرها ، وجامع الأقاليم ومدبِّرها ؛ مرآة الحبك ، وصورة الفلك ؛ وأمين الكواكب ، وحدّ المشارق والمغارب ؛ بما آخترعت العقولُ تسـطيحَه ، وأتقنَ الحُسَّابُ تصحيحَه ، وتمـارت الفطَنُ

في ترتيبه، واصطلحت الحكماءُ على تركيبه، فأوضحت بالنقش تقسيمَه، وأبانتْ بالكتابة رُسومَه، إلى أن شافهنا بالارتفاع على بعد مسافته، وحصرَ متفرّقَ الأمور في خَرْقَي عضادته، واحتوى على قُطْرَيِ الشّمال والجَنوب، واطلع باللطف على خفيّات الغيوب، الملقب بالأصطرلاب، الفاصل بين الخطإ والصواب .

وقال أبو نصر الكاتب فيه :

قطبُ الزمن ومدارُه، وميزانُ الفلك ومعيارُه، وأساسُ الحكمة وموضوعها، وتفصيلُ الفطنة ومجموعُها، الناطقُ في صمته، المُوفي على نعته، مظهرُ السِّر المكنون، المخبر بما كان وما يكون، ذو شكل مقمر مستدير، ولون مشمس مستنير، ومنطَقة محيطة بأجزائه، وخطوط معدّلة على اعضائه، وكتابة مطبقة بتدويره، ورموز بائحة بضميره، متقابل الأهداف، متكامل الأوصاف، بحجرة مسكونه، وصفائح مصونه، وقدّ مموق، وباب مطروق، للعلم فتحه ورتاجه، وعليه طريقه ومنهاجه، إذا انتصب قال فحمد، وإذا اضطجع عي فلم يُفْند، صفريّ الانتساب، ذهبيّ الإهاب، يخترق الأنوار من نقابه، ويستخدم الشّمسَ في حسابه، يجمع الشرقَ والغرب في صفحته، ويستره الحامل في راحته، رافعه ينظر من تحته، وأخباره تسند عن خُرْتِه .

٢ — ومما قيل في طَرْجَهارَة .

قال أبو الفتح كُشَاجم يصفها[1] :

رُوحٌ من الماء في جِسْم من الصُّفْرِ * مؤلَّفٌ بلطيف الحِسِّ والفِكْرِ.

(١) هي من الآلات التي تعرف بها الساعات . ولهم آلات أخرى في هذا المعنى مثل صندوق الساعات، دبّة الساعات، الرخامة، المكحلة، اللوح (أنظر مفاتيح العلوم للخوارزمي طبع ليدن ص ٢٣٥) .

له علىٰ الظُّهــر أجفانٌ مُحَجَّرةٌ * ومُقْــلةٌ دَمْعُها جارٍ علىٰ قَــدَرِ .
تُنْشا له حَركاتٌ فى أسافــلِهِ * كأنهــا حَرَكاتُ المـاءِ فى الشَّجَرِ .
وفى أعاليــه حُسَّابٌ مُفَصَّــلَةٌ * للنــاظِرينَ بلَا ذِهْنٍ ولا نَظَــرِ .
إذا بكىٰ ، دارَ فى أحشــائه فَلَكٌ * خافِى المَسيرِ؛ وإن ، لم يَبْكِ لم يَدُرِ .
ومُخْــرِجٌ لك بالأجزاء ألطفَهَــا * من النهار، وقَوْسُ اللَّيل فى السَّحَرِ .
مُتَرجِمٌ عن مواقيتٍ يُخَــبِّرُنا * عنها فيوجَدُ فيها صادقَ الخــبرِ .
تُقْضَى به الخمسُ فى وقت الوجوب وإن * غُطِّى علىٰ الشمس أوغُطِّى علىٰ القمرِ .
وإن سَهِرتُ لأســباب تُؤَرِّقُنى * عَرَفْتُ مقدارَ ما ألقىٰ من السَّهَرِ .
مُحَــدِّدٌ كُلَّ ميقَــاتٍ ، تَخَــيَّرَهُ * ذَوُو التَّخَيُّرِ للأَسباب والسَّــفَرِ .

البــاب الثــانى

من القسم الثــالث من الفن الأوّل

فى الشــهور والأعوام

نذكر فى هذا الباب الشهورَ العربيةَ ، وآشتقاقها ، والشهورَ العجميةَ ، ودخول بعضها فى بعض ، والسنين القمرية ، والشمسية ، والنسىء ومعناه ، وما يجرى هذا المجرىٰ ، مما لمحناه أثناء المطالعة بعون الله تعالىٰ وقدرته . وإياه أسأل التوفيق بكرمه ومنته ! .

---

١ — ذكر الشهور وما قيل فيها

الشهر إما طبيعىّ ، وإما آصطلاحىّ .

فالطبيعىّ هو مدّة مسير القمر من حين يفارق الشمس إلىٰ حين يفارقها مرة أخرىٰ .

وقال آخرون : هو عود شكل القمر فى جهة بعينها إلىٰ شكله الأوّل .

وأما الاصطلاحىّ ، فهو مدّة قطع الشمس مقدارَ برج من بروج الفلك . وذلك ثلاثون يوما ، وثلثُ عُشْرِ يوم بالتقريب . وهذا مذهب الروم ، والسريان ، والفُرْس والقبط . والله (سبحانه وتعالىٰ) أعلم !

٢ — ذكر الأشهر العربيـــة (٥٧)

(وما يختص بها من القول)

والأشهر العربية قسمان : قسم غير مستعمل ، وهو الذى وضعته العرب العاربة ؛ وقسم مستعمل ، وهو الذى وضعته العرب المســتعربة . وكلا القسمين موضوع علىٰ الأشهر القمرية .

§ فأما القسم غير المستعمل ، فهو أسماء كانت العرب العاربة آصطلحوا عليها ، وهى : مؤتمر ، ناجر ، خَوّان ، صوان (ويقال فيه : بُصَان) ، رُنّى ، أيِّدة ، الأصَمُّ ، عَادِل ، ناطِلٌ ، واغِلٌ ، وَرْنَةٌ ، بُرَك .

وفى هذه الأسمـاء خلاف عند أهل اللغـة . والذى ذكرناه منها هو المشهور ، ويدل عليه قول الشاعر :

بمؤتَمِـرٍ وناجرٍ آبتــدأنا * وبالخوّانِ يَتْبعُـه البُصَانُ
ورُنّى ثُم أَيِّدَةٌ تليــه * تَعودُ أَصَمُّ صُمَّ به السِّنَانُ
وعادله وناطــله جميعًـا * وواغِله فَهم غُرَرٌ حِسَانُ
ووَرْنَةُ بعدها بُرَكٌ فتمتْ * شُهورُ الحول يَعْقِدها البَنَانُ .

§ وأما القسم المستعمل، فهو هذه الأسماء المشهورة :

المحرَّمُ، صَفَر، الربيعان، الجُمَادَيان، رَجَبٌ، شعبانُ، رمضانُ، شوّالُ، ذو القَعْدة، ذو الحِجّة .

قيل : وإنما وضعوا هذه الأسماء على هذه الشهور لاتفاق حالات وقعت فى كل شهر، فسمى الشهر بها عند ابتداء الوضع . فسموا المحرّم محرما : لأنهم أغاروا فيه فلم ينجحوا، فحرّموا القتال فيه، فسمَّوْه محرما . وسموا صَفَراً : لِصَفَرِ بيوتهم فيه منهم عند خروجهم إلى الغارات . وقيل : لأنهم كانوا يُغيرُون على الصُّفْرِيّة، وهى بلاد. وشهرا ربيع : لأنهم كانوا يُخصِبون فيهما بما أصابوا فى صفر، والربيع الخِصْب. والجُمَاديان : من جَمَد الماءُ، لأن الوقت الذى سميا فيه بهذه التسمية كان الماء جامدا فيه لبرده . ورجب : لتعظيمهم له . والترجيب التعظيم . وقيل : لأنه وسطُ السنة فهو مشتق من الرواجب، وهى أنامل الأصبع الوسطى . وقيل : إن العود رجب النبات فيه أى أخرجه، فسمى بذلك . وكذلك تشعّب العود فى الشهر الذى يليه، فسمى شعبان . وقيل : سمى بذلك لتشعبهم فيه للغارات . وسمى رمضان، أى شهر الحر، مشتق من الرمضاء . وشوّال، من شالت الإبل أذنابها إذا حالت، أو من شال يشول إذا ارتفع . وذو القعدة : لقعودهم فيه عن القتال إذ هو من الأشهر الحرم . وذو الحجة، لأن الحج اتفق فيه، فسمى به .

ويقال إن أوّل من سماها بهذه الأسماء، كلاب بن مُرّة .

ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم، ثلاثة سَرْد، وهى : ذو القَعْدة، وذو الحجة، والمحرم؛ وواحد فرد، وهو رجب .

هذا ما رواه الأصمعيّ عن العرب فى ترتيب الأشهر الحرم. وآختار غيره أن الواحد الفرد هو المحرّم، والسرد رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، لتكون الأربعة أشهر فى سنة واحدة . وهذا مروى عن آبن عباس رضى الله عنهما .

ومنها أربعة أشهر لا تكاد العرب تنطق بها إلا مضافة، وهى : شهرا ربيع، وشهر رجب، وشهر رمضان (١) .

فهذه الشهور العربية وما قيل فيها .

٣ — وأما شهور اليهود

فأسماؤها :

تشرى، مرحشوان، كسلاو، طابات، شباط، آذار، نيسان، أيّار، سيوان، تموز، آب، أيلول .

٤ — وأما الشهور العجمية

فإنها شمسية . وهى أقسام، بحسب الأمم التى تنسب إليهم .

§ فمنها الشهور القبطية، وتنسب لدقلطيانوس . وكل شهر منها ثلاثون يوما . وما فضل من عدد أيام السنة الشمسية جعلوه كبيسا فى آخر شهر منها، وهى :

توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برموده، بشنس، بؤونه، أبيب، مسرى .

وأوّل توت يكون النوروز . وفى أوّل يوم من كيهك تدخل الأربعينيات، وهى أربعون يوما باردة تؤذن بالشتاء . وفى الرابع من برمودة تدخل الخمسينيات، وهى أيام حارّة تؤذن بالصيف .

(١) أى لا يقال : ربيع الأوّل، ربيع الثانى، رجب، رمضان . بل يضيفون الى كل منها لفظة "شهر" .

§ ومنها شهور السريان والروم . وهما متفقان فى العدد والدّخول . والسريانيون
(٥٨) ينسبون شهورهم لأغسطش[١]، وهو قيصر. وهذه الشهور منها ما ينقص عن الثلاثين، ومنها ما يوفيها، ومنها ما يزيد عليها. وفيها يقول الكيزانىّ :

شهورُ الروم ألوانُ: * زياداتٌ ونقصانُ.
فتشرينُهم الثانى، * وأيلولٌ ونيسانُ.
ثلاثون ، ثلاثون ، * سَــواءٌ، وحَزيرانُ.
وأشــباطٌ ثمــانٌ بعــ * ـد عشرين له شَانُ.

والسبعة التى تركها ، كل شهر منها يزيد يوما .

ووضع لهـا بعض المغاربة ضابطا ، وهو حروف معجمة ومهملة يجمعها فى أربع كلمات، وهى : "فازَ رجلٌ ختَمَ بحجّ" . وجمعها آخر فى مثل ذلك فقال : "غاب عنك زيدٌ لحجٍّ" . فما كان معجما فهو أحد وثلاثون يوما، وما كان مهملا فهو ثلاثون، والشهر الموافق للألف ثمانية وعشرون .

وأوّل سنة السريان تشرين الأوّل. ودخوله رابع بابه، ويوافق أكتوبر من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما ؛ ثم تشرين الثانى ، ودخوله فى الخامس من هتور، ويوافقه نُوَمبر[٢] من شهور الروم ، وهو ثلاثون يوما ؛ ثم كانون الأوّل ، ودخوله فى الخـامس من كيهك، ويوافقه دجنبر[٣] من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما ؛

(١) هو القيصر الرومانى المشهور، نقلا عن اللاتينية Augustus . ولكن العرب حينما عربوا الشهر المعروف باسمه اكتفوا بقولهم أغشت (August) للتمييز بين اللفظين . وأما نحن فى هذه الأيام فقد تركنا هذا الفارق ونقول فى تسمية هذا الشهر "أغسطس" أيضا .

(٢) Novembre . ونقول فى مصر الآن نوفبر .

(٣) Décembre . ونقول فى مصر الآن ديسمبر .

ثم كانون الثانى، ودخوله فى السادس من طوبه، ويوافقه ينير[١] من شهور الروم، وهو أوّل سنتهم، وعدد أيامه أحد وثلاثون يوما؛ ثم شباط، ودخوله فى السابع من أمشير ويوافقه فبرير[٢] من شهور الروم، وهو ثمانية وعشرون يوما وربع يوم؛ ثم آذار، ودخوله فى الخامس من برمهات، ويوافقه مارس من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم نيسان، ودخوله فى السادس من برمودة، ويوافقه أبريل من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما؛ ثم أيّار، ودخوله فى السادس من بشنس، ويوافقه مايه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم حزيران، ودخوله فى السابع من بؤونة، ويوافقه يونيه من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما؛ ثم تموز، ودخوله فى السابع من أبيب، ويوافقه يوليه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم آب، ودخوله فى الثامن من مسرى، ويوافقه أغشت[٣] من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم أيلول، ودخوله فى الرابع من توت، ويوافقه ستنبر[٤] من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما.

⁂

§ ونظم بعض الشعراء أرجوزة فى مداخلة الشهور، فقال:

وإن حفِظتَ أشهرَ السُّرْيانِ * وكنتَ من ذاكَ علىٰ بيانِ
ورُمْتَ منها عَمَلَ المنازل * فإنها معلومةُ التداخلِ

(١) Janvier . وتقول فى مصر الآن يناير . (وقد كان عربه المرحوم رفاعه بك بقوله: "ينويه") غير ان هذا الاصطلاح لم يُعمل به .

(٢) Février . وتقول فى مصر الآن فبراير (مع الإشباع) .

(٣) أنظر حاشية رقم (١) من صفحة ١٦٠

(٤) تقول الآن فى مصر "سبتمبر" مجاراة للنطق الفرنسى الحديث Septembre . على انهم يقولون "ست" عند ما يريدون السبعة Sept بإهمال حرف الباء، فاذا أرادوا السبعين لفظوا بالباء .

أيلولُ يبدو رابعًا من تُوتِ * هـذا بحكم النظر المثبوتِ.
وهكذا تشرينُ وهو الأوّلُ * من بابة أربعـة تكمل.
أوّل تشرين الأخير يدخلُ * ومن هتور خمسـة يارجلُ.
أوّل كانون وأعـنى الأوّلا * وخامس من كيهك تعـدّلا.
أوّل كانون الأخيرسادس * من طوبة فيها يقيس القائس.
ومن شـباط أوّلٌ يوافى * سـابع أمشـير بلا خلاف.
أوّل آذار حسـابٌ صادقُ * من برمهات خامسا يوافِقُ.
برمودة سادسُـه وأوّلُ * نيسانَ وَفْقٌ ليس عنه مَعْدل.
أوّل أيّار بغـير لبسِ * يوافقُ السادسَ من بشنسِ.
بؤونة وافق منـه سابعه * أوّلُ حزيران لما يتابعـه.
أوّل تمـوز على الترتيب * يدخلُ فى السابع من أبيب.
أوّل آب ثامن من مسرىٰ * العلم بالمـرء اللبيب أحرىٰ.

وقال بعض الشعراء فى مثل ذلك :

٥٩ متىٰ تشأ معرفة التـداخُل * من أوّل الشهور فى المنازل.
فعدّ من توت بلا تطويل * أربعـةً فهى ابتدا أيلول .
وبابة كذاك من تشرين * الأوّل السابق فى السنين .
والخامسُ المعدودُ من هاتور * أوّل تشرينهـم الأخـير .
أوّلُ كانون بغير دُلْسَـهْ * إذا نقصت من كيهك خمسه .
وطوبة إن مرّ منه ستّهْ * أتاك كانونُ الأخيرُ بَغْتَـهْ .

ومن شباط أوّل يوافقُ * سابعَ أمشير، حسابٌ صادقُ .
أوّل آذار إذا جعلتَه * لبرمهات خامسًا وجدتَه .
أوّلُ نيسانَ لدى التجريد * السادسُ المعدودُ من برمودِ .
ومثله أيّار مع بشنس * واحدةٌ مقرونةٌ بخمس .
أما حزيرانُ فيحسُبُونَهْ * من أوّل السابعِ من بؤونه .
كذلك السابع من أبيبِ * أوّلُ تموز بلا تكذيب .
أوّل آب عند من يُحَصِّل * ثامنُ مسرى ذاك ما لا يُجْهَلُ .

✣

§ وأما شهور الفرس، فهى موافقة لشهور القبط فى العدد. لأن كل شهر منها ثلاثون يوما، إلا أبان ماه، وهو الشهر الثامن، فإنهم يضيفون إليه خمسة أيام لأجل النسىء، ويسمونها الاندركاه . ولكل يوم من أيام الشهر آسم خاص، يزعمون أنه آسم ملك من الملائكة موكل به . فأسماء المشهور منها : افريدون ماه (وهو رأس سنتهم)، أرديهشت ماه، خرداد ماه، تير ماه، ترد ماه، بر ماه، مهر ماه، أبان ماه، ادر ماه، دى ماه، بهمن ماه، اسفندار ماه . ويعنون بقولهم "ماه" القمر .

✣

المثل — قول بعض الشعراء :

شُهُورٌ ينقضينَ وما شَعَرنا * بأنْصَافٍ لهُنَّ ولا سِرَارِ

٥ — ذكر ما يختص بالسنة من القول

وما جاء من ٱختلاف الأمم فى ٱبتدائها وٱنتهائها، والفرق بين السنة والعام

§أما الفرق بين السنة والعام، فإنهم يقولون "سَنةٌ جَدْبٌ" و "عامٌ خِصْبٌ". قال الله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾. وقال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ .

والصحيح أنهما ٱسمان موضوعان علىٰ مسمًّى واحد . قال الله تعالىٰ : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ .

§والسنة طبيعية ، وٱصطلاحية .

فالطبيعيــة قمرية ؛ وأولهـا ٱستهلال القمر فى غُرَّة المحرم، وٱنسلاخُها بِسَرَارِه فى ذى الحجة . وهى ٱثنا عشر شهرا ، وعدد أيامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما وخمس وسدس يوم تقريبا ؛ ويتم من هـذا الخمس والسدس فى ثلاث سنين يومٌ، فتصير السنة فى الثالثة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوما . ويبقى شىء يتم منه ومن خمس اليوم وسدسه المستأنف فى السنة يوم واحد إلىٰ أن يبقىٰ الكسر أصلا بأحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة . وتسمّى تلك السنين كبائس العرب .

وأما الســنةُ الاصطلاحيةُ فإنها شمسيَّةٌ ، وعَدَدُ أيامها عند سائر الأمم ثلثمائة يوم وخمسة وستون يوما وربعُ يوم. فتكون زيادتها علىٰ السنة العربية عشرة أيام ونصف يوم وربع يوم وثمن يوم وخُمسًا من خُمس يوم .

ويقال : إنهم كانوا فى صدر الإسلام يُسقِطون عند رأس كل ٱثنتين وثلاثين سنةً عربيةً ســنةً ، ويسمونها الازدلافَ . لأن كل ثلاث وثلاثين ســنةً قمرية ٱثنتان

وثلاثون سنة شمسية تقريبا . وذلك لتحرزهم من الوقوع فى النسىء الذى أخبر الله عز وجل أنه زيادة فى الكفر . وهذا الأزدلاف هو الذى نسميه فى عصرنا هذا بين كتاب التصرف " التحويل " . لأنا نحوّل السنة الخراجية إلى الهلالية ، ولا يكون ذلك إلا بأمر السلطان .

§ وسنة العالم — على ما آتفق عليه المنجمون — هى من حين حلول الشمس رأس (٦٠)
الحمل ، وهو الأعتدال الربيعىّ . ومنهم من يجعل أوّلها من حين حلول الشمس رأس الميزان ، وهو الأعتدال الخريفىّ .

§ وآبتداء سنة القبط قطع الشمس آثنتى عشرة درجة من السنبلة ، وآبتدؤا بفعل ذلك فى زمن أغسطش ، وهو قيصر الأول على ما ذكره أصحاب الزيجات .

§ وأما الفُرْس ، فأول سنتهم عند حلول الشمس أوّلَ نقطة من الحَمَل[(١)] .

§ وأما السُّريانيون ، فأول سنتهم عند قطع الشمس من الميزان ستَّ عشرة درجة .

٦ — ذكر النسىء ومذهب العرب فيه

يقال إن عمرو بن لُحَىّ ، وهو خُزاعة — ويقال آسمه عمرو بن عامر الخزاعىّ — هو أوّل من نَسَأ الشهور ، و بَحر البحيرةَ ، وسَيَّب السائبة ، وجعل الوصيلة ، والحامى . وهو أوّل من دعا الناس إلى عبادة هُبَلَ ، قدم به معه من هِيت .

ومعنى النسىء أنهم يُنْسِئُونَ المحرمَ إلى صَفَر ، ورجبَ إلى شعبان .

(١) وهذا اليوم هو عيد نيروزهم إلى الآن .

وكان جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم الأشهر الحرم الأربعة، وكانوا يتحرّجون فيها من القتال. وكانت قبائل منهم يستبيحونها فإذا قاتلوا فى شهر حرام، حرموا مكانه شهرا من أشهر الحلّ، ويقولون نُسِئ الشهر.

وحكى ٱبن إسحاق صاحب السيرة النبوية (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) أن أوّل من نَسَأ الشهور على العرب، وأحلّ منها ما أحلّ، وحرّم ما حرّم، القَلَمَّسُ. وهو حذيفة بن فُقَيم بن عامر بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة.

ثم قام بعده ولده عباد، ثم قام بعد عباد ٱبنه قلع، ثم قام بعد قلع ٱبنه أمية، ثم قام بعد أمية ٱبنه عوف، ثم قام بعد عوف ٱبنه أبو ثمامة جنادة، وعليه ظهر الإسلام.

فكانت العرب إذا فرغت من حجها، ٱجتمعت عليه بمنى، فقام فيها على جمل، وقال بأعلى صوته: «اللهم إنى لا أخافُ ولا أعابُ(1)، ولا مردّ لما قضيتُ! اللهم إنى أحللت شهر كذا (ويذكر شهرا من الأشهر الحرم، وقع ٱتفاقهم على شنّ الغارات فيه) وأنسأته إلى العام القابل (أى أخرت تحريمه) وحرمتُ مكانه شهر كذا من الأشهر البواقى!»

وكانوا يحلون ما أحلّ، ويحرّمون ما حرّم.

وفى ذلك يقول عمرو بن قيس بن جذل الطّعان، من أبيات يفتخر:

ألَسْنَا الناسئينَ على مَعَدٍّ * شُهُورَ الحِلِّ، نجعلُها حَرامَا؟

وحكى السهيلى فى كتابه المترجم "بالروض الأُنُف" أن نسىء العرب كان على ضربين: أحدهما تأخير المحرّم إلى صفر لحاجاتهم إلى شنّ الغارات وطلب الثأر، والثانى تأخير الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية. فكانوا يؤخرونه فى كل عام

(1) فى اللسان: "أنا الذى لا أعاب ولا أجاب ولا يرد لى قضاء".

أحد عشر يوما حتّى يدور الدّور فى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلىٰ وقته . فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة، حج بالناس أبو بكر الصدّيق (رضى الله عنه) فوافق حجه فى ذى القَعدة، ثم حج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى العام القابل فوافق عود الحج إلىٰ وقته فى ذى الحجة كما وضع أوّلا . فلما قضىٰ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حجه، خطب فكان مما قال فى خطبته (صلى الله عليه وسلم) : "إنَّ الزمانَ قد ٱستدار كهيئته يوم خلق الله السماوٰاتِ والأرض". يعنى أن الحج قد عاد فى ذى الحجة .

٧ — ذكر السنين التى يضرب بها المثل

يُضْرب المثل :

§ بعام الجراد . كان بسنة ثمان من الهجرة .

§ عام الحزن . وهى السنة التى مات فيها أبو طالب عم النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وخديجة (رضى الله عنها) وهى سنة عشر من الهجرة ، وكان موتها بعده بثلاثة أيام وقيل بسبعة .

§ عام الرَّمَادةِ . كان سنة ثمانى عشرة من الهجرة، فى خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) . أصاب الناسَ فيه قَحْطٌ حتّى صارت وجوههم فى لون الرماد من الجوع . وقيل : كانت الريح تَسفِى ترابا كالرَّمادِ لشدّة يُبْس الأرض . على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالىٰ فى "التاريخ" .

§ عام الرُّعَاف . كان سنة أربع وعشرين من الهجرة، سمى بذلك لكثرة ما أصاب الناسَ فيه من الرُّعاف .

§ عام الجماعة . كان سنة أربعين من الهجرة . فيه سلّم الحسن بن علىّ (رضى الله عنهما) الخلافة لمعاوية ، فاجتمعت الكلمة فيه .

§ عام الجُحَاف . كان سنة ثمانين من الهجرة ، وقع بمكة سيل عظيم ذهب بالإبل وعليها الحمول .

§ عام الفقهاء . وهو سنة أربع وتسعين من الهجرة . فيها مات علىّ بن الحسين زين العابدين ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق (رضى الله عنهم) وسعيد بن المسيّب ، وعروة بن الزبير ، وعطاء بن يسار ، وسعيد بن زيد بن ثابت . وفيه قَتَل الحجاج بن يوسف الثقفىّ سعيدَ بن جبير .

§ سُنَيَّاتُ خالد . يُضربُ بها المثلُ فى الجدب . وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث المعروف بأبى مطير . كان قد تولّى لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين توالى (٦١) القحط فيها حتّى أجلى أهل البوادى .

§ سنة عشر ومائة . مات فيها قرينان فى الزهد : الحسن البصرى ومحمد بن سيرين ، وقرينان فى الشعر : جرير والفرزدق .

§ سنة ست وخمسين وثلثمائة . مات فيها جماعة من الملوك ، وهم : شمكير بن زياد صاحب طبرستان وجرجان ، ومعز الدولة بن بويه ، وكافور الأخشيدىّ صاحب مصر ، ونقفور ملك الروم ، وأبو علىّ محمد بن إلياس صاحب كرمان ، وسيف الدولة ابن حمدان ممدوح المتنبى ، والحسن بن فيرزان صاحب أَذْرَبِيجان .

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الأول

١ — فى الفصول وأزمنتها

وفصول السنة أربعة : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء . ولكل فصل منها ثلاثة بروج ، وثلاثة أشهر ، وسبع منازل ، وموافقة من الطبائع الأربع .

١ — **فأما فصل الربيع** ، وهو عند العرب الصيف ، فطبعه حارّ رطْب . ودخوله عند حلول الشمس برج الحمل ، والثور ، والجوزاء . وهذه البروج عندهم تدل على الحركة . وله من السن الطفوليةُ والحداثةُ ، ومن الرياح الجنوب ، ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة ، ومن القوى القوّة الجاذبة ، ومن الأخلاط الدم ، ومن الكواكب القمرُ والزُّهَرَة ، ومن المنازل بعض الفَرْغ المقدّم والفرغ المؤخر ، والرشاء ، والسَّرَطَان ، والبُطَينُ ، والثُّريّا ، والدَّبَران ، وبعض الهَقْعة . وعدد أيامه أربعة وتسعون يوما .

وحلول الشمس (١) فى الثانى عشر من آذار ، ويوافقه مارس من شهور الروم ، وفى السادس عشر من برمهات من شهور القبط ، وفى العشرين من آسفندار ماه من شهور الفرس . وإذا حلت الشمس برج الحمل ، آعتدل الليل والنهار ، وصار كل واحد منهما آثنتى عشرة ساعة . ثم يأخذ النهار فى الزيادة ، والليل فى النقصان .

وفى هذا الفصل تتحرك الطبائع ، وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء . فيطلع النبات وتَزْهِرُ الأشجار وتُورِق ، ويَهيجُ الحيوان للسِّفاد ، وتذوب الثلوج ، وتنبُع العيون ، وتسيل الأودية .

(١) أى برج الحمل الذى هو أول فصل الربيع .

ذكر ما قيل فى وصف فصل الربيع وتشبيهه نظما ونثرا .

فمن ذلك ما قاله الصنوبرىّ :

ما الدَّهرُ إلّا الرَّبيعُ المُسْتَنيرُ إذا * جاء الرَّبيــعُ، أتاكَ النوْر والنور.
فالأرضُ ياقوتةٌ، والجوُّ لؤلؤةٌ ، * والنَّبْتُ فيروزَجٌ، والمـاءُ بلّورُ.

وقال آخر:

اِشرَبْ هنيئًا قــد أتاكَ زَمانٌ * مُتَعَطِّرٌ، مُتَهَلِّلٌ، نَشْــوانُ!
فالأرضُ وَشْىٌ، والنَّسيمُ مُعَنبرٌ، * والمـاءُ راحٌ، والطُّيــورُ قِيانُ.

وقال الثعالبىّ :

أظُنُّ الرَّبيعَ العَـامَ قد جاءَ زائرًا * ففى الشَّمسِ بَزَّازًا، وفى الرِّيح عطَّارا.
وما العَيشُ إلا أنْ تُواجِهَ وجْهَــهُ * وتَقْضِىَ بين الوَشْيِ والمِسْكِ أوْطارا.

وقال آخر:

وفصَّلَ فصْلُ الربيعِ الرياضَ * عقودًا ورصَّــعَ منها حُلِيًّا.
وفاخَرَ بالأرضِ أفقَ السَّماء * فَخَـلَّى الثَّرىٰ بنجومِ الثُّرَيَّا.

وقال الحسن بن وهب :

طَلَعَتْ أوائلُ للرَّبيعِ فبشَّـــرتْ * نَوْرَ الرِّياضِ بِجِـدَّةٍ وشَبَــابِ!
وغَدَا السحابُ يكادُ يَسْحَبُ فى الثَّرىٰ * أذْيَالَ أسْحَمَ حَالكِ الجِلْبَــابِ.
فَـتَرىٰ السَّماءَ إذا أجَـدَّ رَبَابُهَـا * فكأنَّمـا التحفَتْ جَنَـاحَ غُرَابِ.
وتَرىٰ الغُصُونَ إذا الرِّياحُ تَناوَحَتْ * مُلتَفَّـةً كتَعَانُقِ الأحْبَـابِ.

وقال بعض فضلاء أصفهان فى وصف فصل الربيع من رسالة ذكرها العماد الأصفهانىّ فى الخريدة :

أما بعد . فإن الزمانَ جَسَدٌ وفصلُ الربيعِ رُوحُه ، وسِرّ حكمةٍ إلهية وبه كَشْفُه ووضُوحُه ، وعمر مقدور وهو الشبيبة فيه ، ومنهلٌ جَمٌّ وهو نَميره وصافيه ، ودَوْحَة (٦٢) خَضِرَةٌ وهو يَنْعُها وجَنَاها ، وألفاظ مجموعة وهو نتيجتها ومعناها ؛ فمن لم يَسْتَهو طباعَه نسيمُ هوائه ، ولم يُدرِك شِفَاء دَائه في صَفَاء دَوَائه ؛ لم يَذُق لِطَعْم حياته نفعًا ، ولم يجد لخفض حظه من أيامه رفعا .

٢ — وأما فصل الصيف ، فإن طبيعته الحرارة واليبس ، ودخوله عند حلول الشمس برج السرطان ، والأسد ، والسنبلة .

وهذه البروج تدل على السكون . وله من السنّ الشباب ؛ ومن الرياح الصبا ؛ ومن الساعات الرابعة والخامسة والسادسة ؛ ومن القوى القوة الماسكة ؛ ومن الأخلاط المِرّة الصفراء ؛ ومن الكواكب المرّيخ ، والشمس ؛ ومن المنازل بعض الهَقْعة ، والهَنْعة ، والذراع ، والنَّثْرة والطَّرْف والجَبْهة (وهى أربعة عشر يوما) والخَرَاتَان وبعض الصَّرْفة . وتنزل الشمس في برج السرطان في الرابع عشر من حزيران . وعدد أيامه ثلاثة وتسعون يوما ، ويوافقه ينير من شهور الروم ؛ وفي العشرين من بؤونه ، وإذا حلت الشمس برج السرطان ، أخذ الليل في الزيادة ، والنهار في النقصان . والله أعلم .

ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيهه نظما ونثرا

فمن ذلك ما قاله ذو الرمة :

وهَاجِرَةٍ حَرُّهَا وَاقِدٌ * نَصَبْتُ لِحَاجِبِهَا حَاجِبِى .
تَلُوذُ من الشمس أطْلاؤُهَا * لِيَاذَ الغَرِيم من الطَّالِب .
وتَسْجُدُ للشمس حِرْبَاؤُهَا * كما يَسْجُدُ القَسُّ للرَّاهِب .

وقال مسكين الدارمى :

وهَاجرةٍ ظَلّتْ كأنّ ظِبَاءَهـا * إذا ما اتّقتْهـا بالقرون سُجُودُ.
تَلُوذُ بِشُؤْبُوبٍ مِن الشمس فوقَها * كما لاذَ مِن حرّ السِّنَانِ طَرِيدُ.

وقال ابن القفيسىّ :

فى زَمانٍ يَشْوِى الوُجُوهَ بِحَرٍّ، * ويُذِيبُ الجُسومَ لو كُنَّ صخرا.
لا تَطِيرُ النُّسُورُ فيـه إذا ما * وَقَفتْ شمسُه وقاربَ ظُهْرا.
ويَوَدُّ الغُصْنُ النَّضِـيرُ به لَوْ * أنه مِن لِحَائِه يَتَعَرّى.

وقال أيضـا :

يالَيـلةً بِتُّ بها سَاهِـدًا * من شِدّةِ الحَرّ وفَرْطِ الأُوارْ.
كأنني فى جُنْحِها مُحْرِمٌ * لو أنّ لِلعورةِ مِنّى ٱستِتَارْ.
وكيف لا أُحرِمُ فى لَيـلةٍ * سَمَاؤُها بالشُّهْبِ تَرْمِى الجِمَارْ؟

وقال آخر :

ويومِ سَمُومٍ خِلتُ أنّ نَسِيمَهُ * ذَوَاتُ سُمُومٍ للقُـلوبِ لَوَادِغُ،
ظَلِلْتُ به أشكو مُكَابَدَةَ الهوى * فَكُوزِى مَلآنٌ ومائِى فارِغُ.

وقال محمد بن أبى الثياب، شاعر اليتيمة :

وهاجِرَةٍ تَشْوِى الوُجُوهَ كأنّهـا * إذا لَفَحتْ خَـدّىَ نارٌ تَوَهّجُ.
وماءٍ كلونِ الزيتِ مِلْحٍ كأنّه * بِوَجْدِى يَغْلِى أو بِهَجْرِكَ يُمْزَجُ.

وقال الثعالبىّ :

رُبَّ يَـومٍ هَـوَاؤُهُ يَتَلَظّى * فَيُحاكِى فُـؤَادَ صَبٍّ مُتَيّمْ.
قُلْتُ إذ صَـكّ حَرُّهُ حُرَّ وَجْهِى : * "رَبَّنا ٱصْرِفْ عنّا عَذابَ جَهَنّمْ"!

ومما وصف به من النثر قول بعضهم :

أوقدتِ الظَّهِيرةُ نارَها ، وأذكَتْ أُوارَهَا ؛ فأذابت دماغ الضب ، وألهبت قلب الصب ؛ هاجرة كأنها من قلوب العُشَّاق ، إذا اشتعلت بنيران الفراق ؛ حتى تهرُب له الحرباء من الشمس ، وتستجير بمتراكب الرمس ؛ لا يطيب معه عيش ، ولا ينفع معه سرج ولا خيش (١) ؛ فهو كقلب المهجور ، أو كالتنور المسجور .

٣ — وأما فصل الخريف — فإن طبعه بارد يابس ؛ ودخوله عند حلول الشمس برأس الميزان والعقرب والقوس .

وهذه البروج تدل على الحركة ؛ وله من السن الكُهُولة ؛ ومن الرياح الشَّمال ؛ ومن الساعات السابعة والثامنة والتاسعة ؛ ومن القوى القوة الهاضمة ؛ ومن الأخلاط (٦٣) المِرَّة السوداء ؛ ومن الكواكب زُحَلُ ؛ ومن المنازل بعض الصَّرفة والعَوَّاءُ والسِّماك والغَفْر والزُّبَانَيَانِ والقلب وبعض الشولة ؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوما ؛ ويكون حلول الشمس الميزان فى الخامس عشر من أيلول ، ويوافقه سِتمبر من شهور الروم ، وفى الثامن عشر من توت .

وفى هذا الفصل يبرد الهواء ، ويتغير الزمان ، وتُصْرم الثمار ، ويغبرّ وجه الأرض ، ويصفرّ ورق الشجر ، وتهزل البهائم ، وتموت الهوامّ ، وتنجحر الحشرات ، وتطلب الطير المواضع الدفئة ، وتصير الدنيا كأنها كهلة مدبرة .

ويقال : فصل الخريف ربيع النفس كما أن فصل الربيع ربيع العين .

والله أعلم .

---

(١) هكذا بالأصل وفى صبح الأعشى ثلج .

ذكر ماقيل فى وصف فصل الخريف وتشبيهه نظما ونثرا .

فمن ذلك ماقاله الصنوبرى، عفا الله عنه :

ماقضىٰ فى الربيع حقّ المسرّا * تِ مُضيعٌ زمانَهُ فى الخريف.
نحنُ منه علىٰ تلَقّ شتاءٍ * يُوجِبُ القصْفَ أو وَدَاعَ مَصيف.
فى قميص من الزمان رقيقٍ * ورِداءٍ من الهَواءِ خفيف.
يَرعُدُ الماءُ منه خوفًا إذا ما * لمسَتْه يدُ النسيم الضعيف.

وقال عبد الله بن المعتز :

طابَ شُرْبُ الصَّبوح فى أيلولِ! * بَرَدَ الظلُّ فى الضُّحىٰ والأَصيلِ!
وخَبَتْ جَمْرةُ الهواجِر عنّا، * وآستَرَحْنا من النهار الطويلِ.
وخَرَجْنا من السَّمومِ إلىٰ بَرْ * دِ نَسيمٍ، وطيبِ ظلٍّ ظَليلِ،
وشَمالٍ تبشّر الأرض بالقَطْـ * ـرِ كذيل الغِلالة المبلولِ.
فكأنّا نزداد قُرْبا الى الجنْـ * ـة فى كلّ شارقٍ وأصيلِ.
وَوُجوهُ البِقاعِ تنتظِرُ الغيْـ * ـثَ آنتِظارَ المُحِبِّ رَدَّ الرَّسولِ.
تبتَغِى غُلّةً لِتَعْمَلَ روْضًا * بكثيرٍ من الحَيَا أو قَليلِ.

وقال آخر :

اِشرَبْ علىٰ طيبِ الزمانِ فقد حَدَا * بالصّيف من أيلولَ أسْرَعُ حادِ.
وأتَتْنا باللّيلِ بَرْدَ نَسيمِه * فارتاحَتِ الأرواحُ فى الأجسادِ.
وافاكَ بالأنداءِ قُدَّامَ الحَيَا * فالأرضُ للأمطارِ فى آستعدادِ.
كم فى ضَمائرِ تُربِها من رَوْضَةٍ * بمَسيلِ ماءٍ أو قَرارةِ وادِ.
تَبدُو إذا جادَ السَّحابُ بِقَطْرِهِ * فكأنّما كانَا علىٰ ميعادِ.

وقال آخر :

لا تَصْـغَ لِلّوْمِ إنَّ اللّومَ تَضْلِيلُ * وٱشْرَبْ ففى الشُّرْبِ للأحزانِ تَحليلُ .
فقد مَضىٰ القيظُ وٱجتُثَّتْ رَوَاحِلُه ، * وطَـابَتِ الرَّاحُ لمـا آلَ أيْـلُولُ .
وليس فى الأرضِ نَبتٌ يشتكي رَمَدًا * إلا ونَاظِـرُهُ بالطَّـلِّ مَكْحولُ .

وقال آخر يذمه :

خُذْ بالتَّــدَثُّرِ فى الخَرِيفِ فإنَّهُ * مُسْــتَوبَلٌ ، ونَسِــيمُه خَطّافُ .
يَجْـرى معَ الأيَّام جَرْىَ نِفَاقِهـا * لِصَدِيقِها "ومن الصَّديق يُخَافُ"!

ومما وصف به من النثر :

قال أبو إسحاق الصابي يصفه :

الخريفُ أصح فصول السنة زمانا ، وأسهلُها أوانا ؛ وهو آحد الاعتدالين ، المتوسطين بين الانقلابين ، حين أبدتِ الأرضُ عن ثمرتهـا ، وصرَّحَتْ عن زينتها ؛ وأطلقت السماءُ حوافِلَ أنوائِها ، وتأذَّنَتْ بانسكاب مائها ؛ وصَارَتِ الموارد ، كُتُونِ المَبَـارِد ؛ (٦٤) صَــفَاءً من كَدَرِها ، وتَهَــذُّباً من عَكَرِها ؛ وٱطَّرادا مع نَفَحات الهواء ، وحركات الريح الشَّجْوَاء ؛ وٱكتَسَتِ المـاشيةُ وبَرَها القَشِيب ، والطائرُ رِيشَه العَجيب .

وقال ٱبن شبل :

كُلُّ ما يَظْهَر فى الربيع نُوَّاره ، فنى الخَرِيفِ تُجْتَنَى ثِمَارُه ؛ فهو الحاجِبُ أَمَامَه ، والمُطْرِقُ قُدَّامَه .

وقال ضياء الدين ٱبن الأثير الجزرى عن الخريف يفتخر على فصل الربيع :
أنا الذى آتِى بذَهاب السَّمُوم ، وإيابِ الغُيُوم ، وٱعتصار بناتِ الكُروم ، وتكاثر ألوان المشروب والمطعوم ؛ وفىَّ يترقرقُ صفاءُ الأنهار ، فتشتبه القوابلُ بالأسحـار ، وأيامى

هى الذهبيات وتلك نسبة كريمة النِّجار، ومن ثمراتى ما لا تزال أمّهاته حوامل ، وأوراقه بو ضر وغيرها ذوابل، وقد شبه بالمصابيح وشبهت أغصانه بالسلاسل .

ولقد أنصف من قال :

مَحَاسِنُ لِلخَرِيف بِهِنَّ فَخْرٌ * علىٰ زمن الربيع، وأىُّ فَخْرِ !
به صَارَ الزَّمانُ أَمَامَ بردٍ * يُرَاقِبُ نَزْحَهُ وعقيبَ حَرِّ .

؛ — وأما فصل الشتاء، فإن طبعه بارد رطب، ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدى والدلو والحوت .

وهذه البروج تدل علىٰ السكون. وله من السنّ الشيخوخة؛ ومن الرياح الدّبور؛ ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة؛ ومن القوىٰ القوّة الدافعة ؛ ومن الاخلاط البلغم؛ ومن الكواكب المشترى وعُطَارِد؛ ومن المنازل بعض الشولة والنعائم والبلدة وسعدُ الذابح وسعدُ بُلَعَ وسعد السعود وسعد الأخبية وبعض الفرغ المقدم؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوما .

ويكون حلول الشمس برأس الجدى فى الثالث عشر من كانون الأول، ويوافقه دجنبر من شهور الروم ؛ وفى السابع عشر من كيهك من شهور القبط . وإذا حلت الشمس ببرج الجدى يشتدّ البرد، ويخشن الهواء، ويتساقطُ ورق الشجر، وتنجحرُ الحيوانات، وتضعُفُ قوىٰ الأبدان، وتكثر الأنواء، ويُظْلِم الجوّ. وتصير الدّنيا كأنها عجوز هَرِمة قد دنا منها الموت .

وروى عن علىّ (رضى الله عنه) أنه قال : "توقَّوا البرد فى أوّله، وتلقّوه فى آخره، فإنه يفعل فى الأبدان كفعله فى الأشجار : أوّله يُحرِق، وآخره يُورِق".

ذكر ماقيل فى وصف فصل الشتاء وتشبيه .

فمن ذلك ماقاله جرير شاعر الحماسة :

فى لَيلَةٍ من جُمادَىٰ ذاتِ أَنْدِيَةٍ * لايُبْصِرُ الكَلْبُ فى ظَلْمَائِها الطُّنُبا .
لا يَنْبَحُ الكَلْبُ فِيها غَيْرَ واحِدَةٍ * حَتَّى يَلُفَّ علىٰ خَيْشُومِهِ الذَّنَبا .

وقال ابن حكينا البغدادى :

اِلْبَسْ إذا قَدِمَ الشِّتاءُ بُرودا * وافْرُشْ علىٰ رَغْمِ الحَصِيرِ لُبُودا .
الرِّيقُ فى اللَّهَواتِ أَصْبَحَ جامِدًا * والدَّمْعُ فى الآماقِ صارَ بَرُودا .
وإذا رَمَيْتَ بفَضْلِ كَأْسِكَ فى الهَوا * عادَتْ عَلَيْكَ من العَقِيقِ عُقُودا .
وتَرىٰ علىٰ بردِ المِياهِ طُيُورَها * تختارُ حَرَّ النّارِ والسَّفُّودا .
ياصاحِبَ العُودَيْنِ لاتُهْمِلْهُما * أَوْقِدْ لَنا عُودًا، وحَرِّكْ عُودا!

وقال آخر :

ويومُنا أرواحُه قَرَّةٌ * تُخَمِّشُ الأبدانَ من قَرْصِها .
يومٌ تَوَدُّ الشمسُ من بَرْدِه * لو جَرَّتِ النّارَ إلىٰ قُرْصِها!

وقال عبد الله بن المعتز :

قد مَنَعَ الماءُ من اللَّبسِ * وأَمْكَنَ الجَمْرُ من المَسِّ .
فليسَ تَلْقَى غيرَ ذِى رِعْدَةٍ ، * ومُسْلِمٍ يَسْجُدُ للشَّمْسِ!

وقال آخر :

ليس عندى من آلَةِ البردِ إلّا * حُسْنُ صَبْرِى ، ورِعْدَتِى ، وقُنوعِى .
فكأنّى لِشِدَّةِ البَرْدِ هِرٌّ * يَرْقُبُ الشَّمسَ فى أَوانِ الطُّلُوعِ .

(٦٥) وقال ٱبن سُكَّرة الهاشمىّ، عفا الله تعالىٰ عنه ورحمه :

قيل : ما أعدَدْتَ للبَرْ * دِ وقد جاءَ بِشِـدَّهْ؟
قلت : دُرَّاعَـةُ بَرْد * تحتَها جُبَّـةُ رِعْدَهْ.

وقال أبو سعيد المخزومىّ :

إذا كُنتَ فى بلدةٍ نازلًا * وحلَّ الشِّتاءُ حُلُولَ المُقيم،
فلا تبرُزَنَّ إلىٰ أن تَرَىٰ * من الصَّحْو يومًا صحيحَ الأديم.
فكم زَلْقةٍ فى حواشِى الطريق * تَرُدُّ الثيابَ بِخِزْيٍ عَظيمْ!
وكم مِنْ لئيمٍ غدَا راكبًا * يُحِبُّ البلاءَ لماشٍ كَريم!

وقال الصاحب بن عبّاد :

أنِّى رَكِبْتُ فكفُّ الأرضِ كَاتِبَةٌ * علىٰ ثِيابِى سُطورًا ليس تَنكَتِمُ.
فالأرضُ مِحْبَرَةٌ، والحِبْرُ مِنْ لَثَقٍ * والطِّرسُ ثوبى، ويُمنَى الأشهبِ القَلَمُ.

قال أبو علىّ كاتب بكر شاعر اليتيمة :

يا بلدةً أسلَمِني بَردُهَا * وبَرْدُ مَنْ يَسكُنُها للقَلَقْ.
لا يَسْلَمُ الشَّاتِى بها من أذًى * من لَثَقٍ، أو دَمَقٍ، أو زَلَقْ.

ومما وصف به نثرا قول بعضهم :

إذا حلَّتِ الشمسُ برجَ الجدى مدّ الشتاءُ رِواقَه، وحلَّ نِطاقَه؛ ودبَّتْ عقارِبُ البردِ لاسِبَهْ، ونفَعَ مَذْخُورُ الكَسْبِ كَاسِبَهْ.

ومن رسالة لٱبن أبى الخصال، جاء منها :

الكلب قد صافَحَ خَيشومه ذنبَه، وأنكر البيتَ وطُنُبَه، وٱلْتَوىٰ ٱلتواءَ الحُبَاب، وٱستدارَ ٱستدَارة الغراب، وجلّده الجليد، وضربه الضَّريب وصعّد أنفاسَه الصعيد؛

فَماه مباح، ولا هَرِيرَ له ولا نُباح، والنارُ كالصَّدِيق، أوكالرَّحيق، كلاهما عَنْقاء مُغْرِب، أونجم مُغَرِّب .

وقال بعضهم :

برد يُغير الألوان، وينشّف الأبدان، ويُجمّد الريقَ فى الأشداق، والدَّمعَ فى الآماق؛ بَردٌ حالَ بين الكلب وهَرِيره، والأسدِ وزَئِيره، والطيرِ وصَفيرِه، والماء وخَرِيره .

وقيل لبعضهم : أىُّ البرد أشدُّ؟ فقال : إذا دمعت العينان، وقَطر المَنْخَران، وتلجلج اللسان، واصطَكّت الأسنان .

ووصف ابن وكيع الفصول الأربعة فى أرجوزة فقال :

عِنْدِىَ فى وَصْفِ الفُصول الأَرْبَعه * مَقَالَةٌ تُغْنِى اللَّبيبَ مُقْنِعَهْ .

ذكر ما قيل فى فصل الصيف

أمَّا المصيفُ، فاستمِعْ ما فيه * من فَطِنٍ يُفْهِمُ سَامِعِيه .
فصل من الدَّهر إذا قِيلَ حَضَرْ، * أذْكَرَنا بِحَرِّهِ نارَ سَقَرْ .
يَظَلُّ فيه القلبُ مُقْشَعِرًّا، * والأرضُ تشكو حَرّه المُضِرَّا .
أوّلُه فيه نَدًى مُنَغِّصُ * كأنه على القُلُوب يَقْنِص .
يَلْصَقُ منه الجلدُ بالثِّيابِ * ويَعْلَقُ التُّرابُ بالأثواب .
حتّى إذا ما طَرَدَتْه الشمسُ * وفَرِحتْ بأن يَزُولَ النَّفَسُ .
فَتَّحَتِ النَّارُ لنا أبوابَها * وشَبَّ فيها مالكٌ شِهابَها .
حَرٌّ يُحِيلُ الأوجُهَ الغُرَّانا * حتّى تُرى الرومُ به حُبْشانا .
يَعلُو بِهِ الكَرْبُ ويَشْتَدُّ القَلَقْ * وتَنْضَحُ الأبدانُ فيه بالعَرَقْ .

تُبصِرُه فوقَ القَميصِ قد عَلَا * حتّى ترىٰ مُبيضَّهُ مُصَنْدَلَا .
إن كانَ رَثًّا ، زادَ فى تَمزِيقِه ، * أو مُسْتَجِدًّا ، جَدَّ جَبْلَ زيقه . (٦٦)
ثم يُعيدُ الماءَ نارًا حامِيَهْ * يَزِيدُ فى كربِ القُلوبِ الصّادِيَه .
شارِبُهُ يَكرَعُ فى حَمِيمِ * كأنّه من ساكِنِى الجَحِيمِ .
يُنْسِيهِ ما يَلقىٰ من ٱلْتِهابِهِ * أن يَحمَدَ اللهَ علىٰ شَرَابِه :
حتّى إذا أعْيَا ، ٱنقضىٰ نهارُه * وأُرْخِيَتْ من لَيلِهِ أستارُه ،
تَحَرَّكَتْ فى جُنحِه دَواهِى * سارِيَةٌ ، وأنتَ عنها لَاهِى .
من عَقرَبٍ يَسعىٰ كَسَعْىِ اللِّصِّ * سِلَاحُها فى إثْرِه كالشِّصِّ .
وحَيَّةٍ تَنفُثُ سُمًّا قاتِلَا * تُزَوِّدُ المَلْسُوعَ حَتْفًا عاجِلَا .
تُبصِرُ ما بِجِلدِها من الرَّقَشْ * كَوَجْنَةٍ مُصْفَرَّةٍ فيها نَمَشْ .
لو نَهَشَتْ بالنّابِ منها الخَضِرَا ، * لَنَثَرَتْ منه الحياةَ نَثْرَا .
فلا تَقُلْ إن جاء يومًا أهْلَا * فَلعنَةُ اللهِ عليهِ فَصْلَا .

ذكر ما قيل فى فصل الخريف

حتّى إذا زَالَ ، أتىٰ الخريفُ : * فَصْلٌ بِكُلِّ سَوْأَةٍ مَعروفُ .
أهونُه يُسرِعُ فى حَلِّ الجَسَدْ * وهو كَطَبعِ الموتِ يُبْسٌ وبَرَدْ .
يَجْنِى علىٰ الأجسامِ من آفاتِه ، * وأرضُهُ قَرْعَاءُ من نَبَاتِه .
لا يُمكِنُ النّاسَ ٱتِّقاءُ شَرِّه * ولا خِلافُ بَرْدِه وحَرِّه .
تُبصِرُه مثلَ الصَّبِىِّ الأَرْعَنِ * من كثرةِ العُشّاقِ والتَّلَوُّنِ .
فأنتَ منه خائفٌ علىٰ حَذَرْ * لأنه يَمزُجُ بالصَّفوِ الكَدَرْ .

أَحْسَنُ مَا يُهْدِى لَكَ النِّسيَا * يَقْلِبُهُ فى سَاعَةٍ سُمُوما.
وهو علىٰ المعدودِ من ذُنُوبِهِ * خيرٌ من الصَّيفِ علىٰ عُيُوبِهِ.

ذكر ما قيل فى فصل الشتاء

حَتّى إذا ما أقبلَ الشّتاءُ، * جاءتكَ منه غُمّةٌ عَمْيَاءُ.
لو أنَّهُ رُوحٌ، لكان قَذْمَا * أو أنه شَخصٌ، لكان جَهْمَا.
يلقاكَ منه أسَدٌ يَزِيرُ * له وَعِيدٌ وله تحذيرُ.
تأتيكَ فى أيَّامِهِ رِيَاحُ * ليسَ علىٰ لَاعِنِهَا جُنَاحُ.
حَرَاكُها ليس إلىٰ سُكُونِ * تَضُرُّ بالأَسْمَاعِ والعُيُونِ.
يَحْدُثُ من أفعالِها الزُّكَامُ * هذا إذا ما فاتَكَ الصُّدَامُ.
ثم يَلِيهَا مَطَرٌ مُدَاوِمُ * كأنه خَصْمٌ لَنَا مُلازِمُ.
يَقْطَعُنَا بعضًا عن الطريقِ * وعن قضاءِ الحَقِّ للصَّديقِ.
وربما خَرَّ عليك السَّقْفُ، * فإن عَفا عنكَ أتاكَ الوَكْفُ.
وإنْ أردتَ فى النَّهارِ الشُّرْبَا * فيه، فقد قاسَيْتَ خَطْبًا صَعْبَا.
واحتجتَ أن تُوقِدَ فيه نَارَا * تُطِيرُ نحو الحَدَقِ الشَّرَارَا.
يَتْرُكُ مُبيَضَّ الثّيابِ أرْقَطَا * يَحكِى السَّعيدىَّ لكَ المُنَقَّطَا. (٦٧)
وبَعْدَ ذَا تُسَدِّدُ النِّقَابَا * من خوفه وتُغْلِقُ الأبوَابَا.
نعم، وتُرخى دُونَه السُّتُورَا * حتّى ترىٰ صَبَاحَه دَيْجُورَا.
وإنْ أردتَ الشُّربَ فى الظَّلَامِ * عاقَكَ عن تَنَاوُلِ المُدَامِ.
حَسْبُكَ أن تَنْدَسَّ فى اللِّحَافِ * من خَشيةِ البَرْدِ علىٰ الأطرافِ!
ورَعْدُهُ يَشْغَلُ عن كُلِّ عَمَلْ * ويُذْهِبُ النَّومَ ويَسْتَحْلِى الكَسَلْ.

حتّى إذا جئتَ إلىٰ الرُّقَادِ، * نِمْتَ علىٰ فرشٍ من القَتَادِ.
إنّ البراغيثَ عذابٌ مُزْعِجُ * لكُلّ قلبٍ وجِلْدٍ ينضجُ.
لا يَسْتَلِذُّ جِلدُكَ المَضَاجِعَا * كأنّما أفرشتَهُ مَباضِعَا.
تَنَحَّ فَضْلًا فوق ماذمَمْتُهُ * لو أنه يَظْهَرُ لى، قَتَلْتُهُ.
حَتّى إذا ماهُوَ عَنّا بَانَا * وزَالَ عنّا بَعْضُه، لَا كَانَا!

ذكر ماقيل فى فصل الربيع

جاءَ إلَيْنا زَمنُ الرَّبيع * فجاءَ فصلٌ حَسَنُ الجَميعِ.
لبَرْدِهِ وحَرِّهِ مِقْدارْ * لم يكْتَنِفْ حَدَّهُمَا إكْثَارُ.
عُدِّلَ فى أوزانِهِ حتّى اعْتَدَلْ * وحُمِد التَّفْصيلُ منهُ والجُمَلْ.
نهارُهُ فى أحسَنِ النّهارِ * فى غايَةِ الإشْرَاقِ والإسْفَارِ.
تَضْحَكُ فيه الشَّمسُ من غيرِ عَجَبْ * كأنّها فى الأُفْقِ جامٌ من ذَهَبْ.
ولَيْلُهُ مُسْتَلْطَفُ النَّسيم * مُقَوَّمٌ فى أحسَنِ التَّقْويمِ.
لبَدْرِهِ فَضْلٌ علىٰ البُدُورِ * فى حُسْنِ إشْراق وفَرْطِ نُورِ.
كَجَامَةِ البلُّورِ فى صَفَائِهَا * أذَابَتِ الجرادَ فى نِقابِهَا.
كأنّها إذا دَنَتْ من بَدْرِهِ * جَوْزَاؤُه قَبلَ طُلُوعِ فجْرِه.
رُوميّةٌ حُلّتُها زَرقاءُ * فى الجِيدِ منها دُرّةٌ بَيضاءُ.
هذا وكم تجمعُ من أمورِ * إطْرَاءُ مُطْرِيهَا من التَّقْصيرِ.
فيه تَغَنَّى الطّيرُ فى تَرنُّمِ * حاذِقَةً باللّحْنِ لم تُعَلَّمِ.
غِنَاؤها ذُو عُجْمَةٍ لا يَفْهَمُهْ * سَامِعُهُ وهو علىٰ ذا يغرمُهْ.
من كُلّ دُبْسِيٍّ له رَنِينُ * وكُلّ قُمْرِيٍّ له حَنينُ.

فى قُرْطَقٍ أَغْجَلَ أن يُورَّدا * خاطَ له الخيّاطُ طَوْقاً أَسْوَدا.
تُبصِره منهُ علىٰ الحَيْزُومِ * كَمِثْلِ عِقْدِ سَبَجٍ مَنْظُومِ.
هـذا وفيه للرِّياضِ مَنْظَرُ * يُفْشِى الثَّرىٰ من سِرِّه مايُضْمِرُ.
سِرُّ نَبَاتٍ حُسْنُهُ إعْلَانُهُ * إذا سِوَاهُ زَانَهُ كِتْمَانُهُ.
فيه ضروبٌ لنبَاتِ[(١)] الغَضِّ * يَحْكى لِبَاسَ الجُنْدِ يومَ العَرْضِ.
من نَرْجِسٍ أبيضَ كالثُّغُورِ * كأنَّه مَخَانِقُ الكافُورِ.
وروْضَةٍ تُزهِرُ من بَنَفْسَجِ * كأنَّها أرضٌ من الفَيْرُوزَجِ.
قد لَبِسَتْ غِلالَةً زَرْقَاءَ * وكَايَدَتْ بلونِهَا السَّمَاءَ.
يَضْحَكُ منها زَهَرُ الشَّقِيقِ * كأنَّه مَدَاهِنُ العَقِيقِ.
مُضَمَّناتٍ قِطَعاً من السَّبَجْ * قد أَشْرَقَتْ من احمرارٍ ودَعَجْ.
كأنَّما الحُمْرُ فى المُسْوَدِّ * منهُ إذا لاحَ عيونُ الرُّمْدِ.
وارْمِ بِعَيْنَيْكَ إلىٰ البَهَارِ * فإنَّهُ من أَحْسَنِ الأَزْهَارِ.
كأنَّهُ مَدَاهِنٌ من عَسْجَدِ * قد سُمِّرَتْ فى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ
فانْهَضْ إلىٰ اللَّهْوِ ولا تَخَلَّفِ * فلَسْتَ فى ذلك بالمُعَنَّفِ.
واشْرَبْ عُقَاراً طالَ فينا كَوْنُهَا * يَصْفَرُّ من خَوْفِ المِزَاجِ لَوْنُهَا.

* * *

دونَكَ هذى صِفَةُ الزَّمانِ * مَشْرُوحَةً فى أَحْسَنِ التِّبْيَانِ!
وارْضَ بتَقْلِيدِى فيما قُلْتُهُ * فإنَّنِى أَدْرىٰ بما وصَفْتُهُ.

---

(١) لعله للنبات بالتعريف .

الباب الرابع

من القسم الثالث من الفن الأوّل

فى ذكر مواسم الأمم وأعيادها، وأسباب آتخاذهم لها، وما قيل فى ذلك

والذى أُورِدُه فى هذا الباب، هو مما وقفتُ عليه أثناء مطالعتى للكتب الموضوعة فيه، ونقلته منها لمّا تعذر علىّ مَنْ أتلقاه مِنْ فِيه. وضمنته أعياد المسلمين، والفُرْس والنصارىٰ، واليهود.

١ — ذكر الأعياد الإسلامية

والأعياد الإسلامية التى وردت بها الشريعة آثنان: عيد الفطر، وعيد الأضحىٰ.

والسبب فى آتخاذهما، ما رُوِى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أنه قَدِم المدينةَ، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ماهذان اليومان؟ فقالوا: كنا نلعب فيهما فى الجاهلية. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إن الله (عز وجل) قد بدّلكم خيرا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحىٰ". فأوّل ما بدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك فى سنة آثنتين من الهجرة. وفيها كان عيد الأضحىٰ.

وعيد آبتدعته الشِّيعة، وسموه عيد الغَدِير. وسبب آتخاذهم له مؤاخاة النبىّ (صلى الله عليه وسلم) علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) يوم غَدِير خُمٍّ. والغدير علىٰ ثلاثة أيام[1] من الجُحْفة بِسُرَّةِ الطَّريق. قالوا: وهذا الغدير تَصُبُّ فيه عين، وحوله شجر كثيرٌ ملتفٌّ بعضها ببعض. وبين الغدير والعين مسجدٌ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم).

واليوم الذى آبتدعوا فيه هذا العيد هو الثامن عشر من ذى الحجة، لأن المؤاخاة كانت

(١) فى صبح الأعشى (ج ٢ ص ٤٠٧) ثلاثة أميال، وفى المعجم: بينه وبين الجحفة ميلان.

فيه فى سنة عشرة من الهجرة، وهى حجة الوداع. وهم يُحْيون ليلتها بالصلاة، ويصلون فى صبيحتها ركعتين قبل الزوال. وشِعارُهم فيه لبس الجديد، وعتق الرّقاب، وبرّ الأجانب، والذبائح .

وأوّل من أحدثه معز الدّولة أبو الحسن علىّ بن بويه، على ما نذكره إن شاء الله تعالىٰ فى أخباره فى سنة آثنتين وخمسين وثلثمائة .

ولما آبتدع الشيعة هذا العيد وآتخذوه من سُنَنهم، عمل عوامُّ السُّنَّة يومَ سرورٍ نظير عيد الشيعة فى سنة تسع وثمانين وثلثمائه . وجعلوه بعد عيد الشيعة بثمانية أيام، وقالوا : هذا يوم دخول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الغار هو وأبو بكر الصدّيق (رضى الله عنه) . وأظهروا فى هذا اليوم الزينةَ، ونصبَ القِبَابِ، وإيقادَ النيران .

٢ — ذكر أعياد الفُرس

وأعياد الفُرس كثيرة جدّا . وقد صنف علىّ بن حمزة الأصفهانىّ فيها كتابا مستقلًّا ذكر فيه أعيادهم، وسبب آتخاذهم لها، وسُنَنَ ملوكهم فيها . وقد رأيتُ أن أقتصر علىٰ المشهور منها، وهى ثلاثة أعياد: النَّيْروزُ، والمَهْرَجَانُ، والسَّدَقُ .

١ — فأما النَّيْروز، فهو أعظم أعيادهم وأجَلُّها . يقال إن أول من آتخذه جمشيد أحد ملوك الفرس الأُوَل . ويقال فيه جمشاد، ومعنىٰ جم القمر، وشاد الشعاع والضياء، وسبب آتخاذهم لهذا العيد أن طهومرت لما هلك، ملك بعده جمشاد . (٦٩)
فسمى اليوم الذى ملك فيه نُوروز، أى اليوم الجديد .

ومن الفرس من يزعم أن النَّيْروزَ اليومُ الذى خلق الله (عز وجل) فيه النورَ، وأنه كان مُعظَّمَ القدر عند جمشاد . وبعضهم يزعم أنه أوّل الزمان الذى آبتدأ فيه الفلك بالدوران .

ومدّته عندهم ستة أيام، أوّلها اليوم الأوّل من شهر أفريدون ماه، الذى هو أوّل شهور سنتهم. و يسمون اليوم السادس النُّوروزَ الكبير، لأن الأكاسرة كانوا يقضُون فى الأيام الخمسة حوائج الناس ثم ينتقلون إلىٰ مجالس أُنسهم مع خواصّهم .

وحكىٰ ٱبن المُقَفَّع أنه كانَ من عادتهم فيــه أن يأتى الملِكَ من الليل رجلٌ جميلُ الوجه، قد أُرْصد لمـا يفعله. فيقف علىٰ الباب حتّٰى يُصبِح. فإذا أصبح دخل علىٰ الملك من غير ٱستئذان. فإذا رآه الملك، يقول له : من أنت؟ ومن أين أقبلتَ؟ وأين تريد؟ وما ٱسمك؟ ولأىّ شىء وردتَ؟ وما معك؟ فيقول : أنا المنصور، وٱسمى المبارك، ومن قِبَل الله أقبلتُ، والملكَ السـعيدَ أردتُ، و بالهناء(١) والسلامة وردتُ، ومعى السنة الجديدة. ثم يجلس، ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة، وفيه حنطة، وشعير، وجُلْبَانٌ، وحِمَّصٌ، وسمسم، وأرز (من كل واحد سبع سنابل وتسع حبات) وقطعــة سكر، ودينار ودرهم جديدان. فيضع الطبق بين يدى الملك. ثم تدخل عليه الهدايا. ويكون أوّل من يدخل عليه وزيره، ثم صاحب الخراج، ثم صاحب المَعُونة، ثم الناس علىٰ طبقاتهم ومراتبهم. ثم يقدَّم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب، موضوع فى سَلَّةٍ. فيأكل منه ويُطْعِمُ من حضره. ثم يقول : هذا يوم جديد، من شهر جديد، من عام جديد، من زمان جديد، يحتاج أن نجدّد فيه ما أخلق من الزمانُ، وأَحَقُّ الناس بالفضل والإحسان الرأسُ لفضله علىٰ سائر الأعضاء. ثم يخلع علىٰ وجوه دولته ويصلهم ويفرّق فيهم ما حُمِل إليه من الهدايا .

وكانت عادةُ عوامّ الفرس فيه رفعَ النـار فى ليلته، ورشَّ المـاء فى صبيحته . وفى ذلك يقول المعوج :

(١) لم نجد هذا المصدر فى القاموس [illegible] والمصدر [illegible] والتهنئة .

كيف ٱبتهاجُكَ بالنَّيْروزِ ياسَكَنِي؟ * وكُلُّ ما فيـه يَحْكِيني وأحْكِيهِ!
فنـارُه كلهيبِ النار فى كَبِدى! * وماؤه كتَــوالِى عَبْرَتِى فِيـهِ!

وقال آخر:

نَوْرَزَ النّــاسُ ونَوْرَزْ * تُ، ولكِنْ بدموعى!
وذَكَتْ نَارُهُــمُ، والنَّــارُ ما بينَ ضُلوعِى!

٢ — وأما المهرجان، فوقوعه فى السادس والعشرين من تشرين الأول من شهور السُّرْيان، وفى السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس.

وهذا الأوان وسط زمان الخريف؛ وفيه يقول بعض الشعراء:

أُحِبُّ المَهْرَجَانَ لأنَّ فِيه * سُرُورًا للملوكِ ذَوِى السَّنَاءِ،
وبَابًا للمصــيرِ إلى أَوَانٍ * تُفَتَّحُ فيه أبوابُ السَّماءِ.

وهو ستة أيام. ويسمَّى اليوم السادس المهرجان الأكبر. قال المسعودىّ: وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم، أنهم كانوا يسمون شهورهم بأسماء ملوكهم. وكان لهم ملك يسمَّى مهر، يسير فيهم بالعنف والعسف. فمات فى نصف الشهر الذى يسمونه مهرماه، فسمى ذلك اليوم مهرجان. وتفسيره "نفس مهر ذهبت" وهذه لغة الفرس الأُوَل. وزعم آخرون أن "مهر" بالفارسية حِفَاظ و"جان" الروح.

وقد نظم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ذلك، فقال:

إذا ما تَحَقَّــقَ بالمَهْــرَجَا * نِ مَنْ لَيسَ يَعْرِفُ معناهُ غَاظَا.
ومَعْنَاهُ أن غَلَبَ الفُرْسُ فِيه * فَسَمَّوهُ للروحِ حَقًّا حِفَاظَا.

ويقال إنه إنما عُمِلَ فى عهد أفريدون الملك، وأن معنى هذا الاسم "إدراك الثأر".

وسبب آتخاذهم له ،أن بيوراسف (وهو الضحاك)، ويقال له أزدهاق ذوالحَيَّتَيْنِ والأفواه الثلاثة، والأعين الستة، الدّاهى الخبيث المتمرّد، لما قتل جمشاد، وملك بعده، غيّر دين المجوسية . وجاء إبليس فى صورة خادم، فقبّل منكبيه، فنبت فيهما حيتان، فكان يُطْعِمهما أدمغة الناس . فأجحف ذلك بالرعية، فخرج رجل بأصبهان، يقال له كابى، ويقال فيه كابيان . ودعا الناس إلىٰ قتاله ، فآجتمع له خلق كثير . فشخص الضحاك لقتاله، فهاب كثرةَ جمعه وفرّ منهم. فاجتمع الناس علىٰ كابى ليملكوه (٧٠) عليهم، فأبىٰ ذلك وقال: ماأنا من أهل الملك، وأخرج صبيا من ولد جمشاد، يسمّى أفريدون وملّكه، فأطاعه الناس فيه وملّكوه عليهم .

وخرج أفريدون فى طلب الضحاك ليأخذ ثأر جدّه فظفر به، وجعل ذلك اليوم عيدا، وسماه المهرجان . ويقال إن المهرجان هو اليوم الذى عقد فيه التاج علىٰ رأس أردشير بن بابك، أوّل ملوك الفرس الساسانية .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان علىٰ النيروز:

أخَا الفُرْسِ إنّ الفُرْسَ تَعْلَمُ إنّه * لأطْيَبُ من نَيْرُوزِهَا مِهْرَجَانُهَا:
لإدبارِ أيّام يَغُمُّ هـواؤُهـا * وإقبالِ أيّامٍ يَسُـرُّ زَمَانُهـا .

وكان مذهب الفرس فيه أن يَدَّهِنَ ملوكُهم بدُهن البان تبرُّكا، وكذلك عوامهم، وأن يلبس القَصَبَ والوَشْىَ، ويتوج بتاج عليه صورة الشمس وعجلتها الدّائرة عليها، ويكون أوّل من يدخل عليه المُوبَذان بطبق فيه أُتْرُجّةٌ، وقطعة سُكَّرٍ، ونَبْق، وسَفَرْجَل، وعُنّاب، وتُفّاح، وعُنقُودُ عنب أبيض، وسبعُ طاقات آسٍ قد زَمْزم عليها .

ثم يدخل الناس علىٰ طبقاتهم بمثل ذلك .

وكان أردشير، وأنو شروان يأمران بإخراج مافى خزائنهم فى المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفُرُش، فتَتَفَرَّقُ كلُّها فى الناس علىٰ مراتبهم، ويقولان : إن الملوكَ تستغنى عن كُسوة الصيف فى الشتاء، وعن كُسوة الشتاء فى الصيف، وليس من أخلاقهم أن يَخْبؤوا كسوتهم فى خزائنهم ويساووا العامّة فى فعلها .

وزعم بعض أصحاب التاريخ أن النيروز عَمِلته الفُرْسُ قبل المهرجان بألفى سنة وخمسِمائة سنة .

٣ — وأما السَّدَقُ ، فإنه يعمل فى ليلة الحادى عشر من شهر بهمن ماه . ويسمّى هذا اليوم عندهم أبان روز، لأن لكل يوم من أيام الشهر عندهم آسما .

ويقال فى سبب آتخاذهم له : إن فراسياب لما ملك، سار إلىٰ بلاد بابِلَ وأكثر فيها الفساد، وخرَّب العمران. فخرج عليه دق بن طهماسب، وطرده عن مملكته إلىٰ بلاد التُّرك. وكان ذلك فى يوم أبان روز. فآتخذ الفُرْسُ هذا اليوم عيدا، وجعلوه ثالثا ليوم النيروز، والمهرجان .

ويقال أيضا فى سبب آتخاذهم له : إن الأب الأوّل، وهو عندهم كيومرت، لما كمل له مائة ولد، زوج الذكور بالإناث، وصنع لهم عُرْسًا أكثر فيه من إشعال النيران، فوافق ذلك الليلة المذكورة، وآستسنه الفُرْسُ بعده .

وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان، ويزيدون فى الوَلُوع بها، حتّى إنهم يلقون فيها سائر الحيوانات .

وفى ذلك يقول ٱبن حجاج من أبيات يمدح بها عضد الدّولة بن بويه :

مَوْلَاىَ يا مَنْ نَدَاهُ يَعْـدُو * فَفَاتَ سَبْقًا ولَيْس يُلْحَق .
لَيْلَتُنَـا حُسْـنُهَا عَجِيبٌ * بالقَصْفِ والعَزْفِ قَدْتَحَقَّقْ .
لِنَارِهَا فى السَّما لِسَانٌ * عن نُورضَوْءِ الصَّبَاحِ يَنْطِقْ .
والجوُّ(١) منها قد صار جَمْـرًا * والنجمُ منها قد كَادَ يُحْرِقْ .
وَدِجْلَةٌ أضْرِمَتْ حَرِيقًـا * بألْفِ نَارٍ وأَلْفِ زَوْرَقْ .
فمَـاؤُها كلّهـا حَمِـيمٌ * قَدْ فَارَ ممـا غَلَىٰ(٢) ويَقْبَـقْ .

وقال أبو القاسم المطرّز، فى سَدَق عمله السلطان ملك شاه، أشعل فيه الشموع والنيران فى السُّمَيْرِيَّات بدِجْلَةَ، وذلك فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة :

وكُـلُّ نارٍ علىٰ العُشَّاقِ مُضْرَمَةٌ * مِن نارِ قَلْبِي أو من ليلة السَّدَقِ .
نارٌ تَجَلَّتْ بها الظَّلْماءُ فَٱشْـتَبَهَتْ * بسَـدْفَة الليل فيها غُرَّةُ الفَلَقِ !
وزارَتِ الشمسُ فيها الليلَ وٱصطلحا * علىٰ الكواكب بعدالغَيْظ والحَنَقِ .
مدّتْ علىٰ الأرض بُسْطًا من جَواهِرها * ما بين مُجْتَمِـع وَارٍ ومُفْـتَرِقِ .
مثـل المَصَابيح إلا أنهـا نَزَلَتْ * مِن السماء بلا رَجْمٍ ولا حَرَقِ .
أعْجِبْ بنـارٍ ورِضْوَانٌ يُسَـعِّرُها * ومالكٌ قائم منهـا علىٰ فَـرَقِ !
فى مجلس ضَحِكت روضُ الجِنَانِ له * لمـا جلا ثَغْـرُهُ عن واضحٍ يَقَقِ .

(١) كذا فى الأصل ولعله « والجو منها يصير جمرا * والنجم منها يكاد يحرق » ليستقيم الوزن .

(٢) فى الأصول يغلى .

٣ — ذكر أعياد النصارى القبْط

وأعياد النصارى أربعة عشر عيدا: سبعة يسمونها كبارا، وسبعة يسمونها صغارا. (٧١)
فأما الكبار:

١ — فمنها عيد البِشَارة . ويعنون بها بشارة غبريال، وهو عندهم جبريل عليه السلامِ على مايزعمون أنه بشر مريم آبنة عمران بميلاد عيسى (عليهما السلام) . وهم يعملونه فى التاسع والعشرين من برمهات من شهورهم .

٢ — ومنها عيد الزيتونة . وهو عيد الشَّعانين، وتفسيره التسبيح . يعملونه فى سابع أحد من صومهم . وسُنَّتُهم فيه أن يخرجوا بِسَعَفِ النخل من الكنيسة . ويزعمون أنه يوم ركوب المسيح اليَعْفُور فى القدس، وهو الحمار، ودخوله صِهْيَوْن وهو راكب، والناس يسبحون بين يديه، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

٣ — ومنها الفِصْحُ . وهو العيد الكبير عنـدهم يقولون إن المسيح قام فيه بعد الصَّلَبُوت بثلاثة أيام .

٤ — ومنها خميس الأربعين . ويسميه الشاميون السُّلَّاق[(١)] . وهو الثانى والأربعون من الفِطْر . يزعمون أن المسـيح عليه السلام تَسَلَّق فيـه من بين تلاميذه إلى السماء من بعد القيام، ووعدهم إرسال الفارقليط وهو روح القدس .

٥ — ومنها عيد الخميس . وهو العُنْصُرة يُعمل بعد خمسين يوما من يوم القيام يقولون إن روح القدس حلَّت بالتلاميذ، وتفرقت عليهم ألسنة الناس، فتكلموا بجميع الألسنة، وتوجه كل واحد منهم إلى بلاد لسانه الذى تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح.

(١) فى الأصل السلاق . وفى القاموس [وكُرَّمَّان عيد للنصارى] وفى صبح الأعشى بغير ياء، على الصواب.

٦ — ومنها الميلاد . وهو اليوم الذى ولد فيه المسيح . يقولون إنه ولد فى يوم الاثنين فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد . وهم يوقدون فيه المصابيح بالكنائس و يزينونها . و يعمل فى التاسع والعشرين من كيهك من شهورهم .

٧ — ومنها الغطاس . و يعمل فى الحادى عشر من طوبة من شهورهم . و يقولون إن يحيىٰ بن زكريا ، و ينعتونه بالمعمدان ، غسل عيسىٰ عليه السلام فى بحيرة الأُرْدُنّ ، و يزعمون أن عيسىٰ (عليه السلام) لما خرج من الماء آتصل به روح القدس علىٰ هيئة حمامة . والنصارىٰ يغمسون أولادهم فى الماء فيه ، ووقته شديد البرد .

وأما الأعياد الصغار :

١ — فمنها الختان . و يعمل فى سادس بشونة ، يقولون إن المسيح ختن فى هذا اليوم ، وهو الثامن من الميلاد .

٢ — ومنها الأربعون . وهو عند دخول الهيكل يقولون إن سمعان الكاهن دخل بعيسىٰ (عليه السلام) مع أمه [الهيكلَ](1) و بارك عليه . و يعمل فى ثامن أمشير من شهورهم .

٣ — ومنها خميس العهد . و يعمل قبل الفِصْح بثلاثة أيام . وسُنّتهم فيه أن يأخذوا إناء و يملؤوه ماء و يزمزموا عليه ، ثم يغسل البطريك به أرجل سائر الناس . ويزعمون أن المسيح عيسىٰ (عليه السلام) فعل مثل هذا بتلاميذه فى مثل هذا اليوم ، يعلمهم التواضع ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرّقوا ، وأن يتواضع بعضهم لبعض . وعوامّ النصارىٰ يسمون هذا الخميس خميس العَدَس ، وهم يطبخون فيه العدس المقشور

(١) الزيادة من صبح الأعشى .

علىٰ ألوان، ويسميه أهل الشام خميس الأرز. ومنها خميس البيض أيضا. ويسميه أهل الأندَلُس خميس أبريل، وأبريل شهر من شهور الروم.

٤ — ومنها سبْت النُّور. وهو قبل الفِصح بيوم. يقولون إن النور يظهر علىٰ مَقْبُرة المسيح فى هذا اليوم، فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التى بالقدس. وليس كذلك، بل هو من تخييلاتٍ فعلها أكابرهم ليستميلوا بها عقول أصاغرهم. وقيل إنهم يعلقون القناديل فى بيت المذبح، ويتحيلون فى إيصال النار إليها بأن يمدّوا علىٰ سائرها شريطا من حديد فى غاية الدقة، يدهنونه بدُهْن البَلَسان ودهن الزِّنْبق. فإذا صلَّوْا، وحان وقت الزوال، فتحوا المذبح، فدخل الناس إليه، وقد أُشعلت فيه الشموع. ويتوصل بعض القوم إلىٰ أن يعلق بطرف الشريط الحديد النار فتسرى عليه، فتقد القناديل واحدا بعد واحد بنسبب الدّهن.

٥ — ومنها حدّ الحُدُود. وهو بعد الفِصْح بثمانية أيام. يعمل أوّل أحد بعد الفطر، لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم. وفيه يجددون الآلات، والأثاث، واللباس، ويأخذون فى المعاملات، والأمور الدُّنيوية.

٦ — ومنها التجلى. يقولون: إن المسيح (عليه السلام)، تجلّىٰ لتلاميذه بعد أن رُفِع، وتمنَّوْا عليه أن يُحْضِرلهم إيليا، وموسىٰ، فأحضرهما لهم فى مصلّى بيت المقدس، ثم صعد. ويعمل فى ثالث عشر مسرىٰ من شهورهم.

٧ — وعيد الصليب. وتزعم النصارىٰ أن قسطنطين بن هيلانى ٱنتقل عن ٱعتقاد اليونان إلىٰ ٱعتقاد النصرانية، وبنىٰ كنيسة قسطنطينية العظمىٰ، وسائر كنائس الشام.

(٧٢) وسبب ذلك — على ما نقله المؤرخون — أنه كان مجاورا للبُرْجان، فضاق بهم ذرعا من كثرة غاراتهم على بلاده. فهمّ أن يصانعهم ويقرر لهم عليه إتاوة فى كل عام ليكفوا عنه. فرأى ليلة فى المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صلبان، فحاربت البُرْجان فهزموهم. فلما أصبح، عمل أعلاما وصوّر فيها صلبانا، ثم قاتل بها البرجان فهزمهم.

وقيل إنه رأى فى المنام صلبانا من نور فى السماء، وقائلا يقول له: اعمل مثل هذا على رؤوس أعلامك فإنك تنتصر. فلما أصبح، أمر بعمل صلبان من ذهب على رءوس أعلامه وقاتل بها فنُصِر. فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم والدخول فى دين النصرانية، وأن يقصوا شعورهم، ويحلقوا لحاهم. وإنما فعل ذلك بهم لأن رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان من قبلُ يأمرونهم بالتعبد بدين النصرانية، فأعرضوا عنهم، ومثّلوا بهم هذه المثلة نكالا بهم. ففعلوا ذلك تأسّيا بهم.

ولما تنصر قسطنطين، خرجت أمه هيلانى إلى الشام، فبنت الكنائس، وسارت إلى بيت المقدس، فطلبت الخشبة التى صلب عليها المسيح، على ما يزعمون. وكانت مدفونة فى مزبلة. فأُخرجتْ منها، وفيها مواضع سبعة مسامير فلما حُمِلَتْ إليها، غلفتها بالذهب وحملتها إلى ابنها. واتخذت يوم رؤيتها لها عيدا.

قال المسعودىّ: وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول، ووافق ذلك سبع عشرة ليلة خلت من توت من شهور القبط. وكان من مولد عيسى إلى اليوم الذى وجدت فيه الخشبة ثلثمائة وثمان وعشرون سنة.

وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار الروم فى فنّ التاريخ، وهو فى الجزء الثالث عشر من هذا الكتاب.

٤ — ذكر أعياد اليهود

وأعياد اليهود التى نطقت بها توراتهم خمسة :

١ — منها عيد رأس السنة . ويسمونه رأس هيشا ، أى عيد رأس الشهر . وهو أوّل يوم من تشرين . ينزل عندهم منزلة عيد الأضحية عندنا . ويقولون إن الله عز وجل أمر إبراهيم بذبح إسحاق ابنه عليهما السلام فيه ، وفداه بذبح عظيم .

٢ — ومنها عيد صوماريا . ويسمّى الكبور . وهو عندهم الصوم العظيم الذى فرض عليهم . ويقتل من لم يصمه . ومدّة الصوم خمس وعشرون ساعة . يبدأ فيه قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرين . ويختم بمضىّ ساعة بعد غروبه من اليوم العاشر . ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار . وهى عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صام فيها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع عندهم فى يوم الأحد ، ولا يوم الثلاثاء ، ولا فى يوم الجمعة . ويزعمون أن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم إلا الزنا بالمحصنات ، وظلم الرجل أخاه ، وجحد ربوبية الله تعالى .

٣ — ومنها عيد المظلّة . وهو ثمانية أيام (١) ، أوّلها الخامس عشر من تشرين . وكلها أعياد . واليوم الأخير منها يسمّى عرابا (٢) ، وتفسيره شجر الخلاف . وهو أيضا حج لهم . وهم يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلال سعف النخل الأخضر ، وأغصان الزيتون ، والخلاف ، وسائر الشجر الذى لا ينتثر ورقه على الأرض . ويزعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله تعالى إياهم فى التّيه بالغمام .

(١) فى صبح الأعشى [سبعة أيام] .
(٢) فى صبح الأعشى [عرايا] .

٤ — ومنها عيد الفطير . ويسمونه الفِصْح . ويكون فى الخامس عشر من نَيْسَان . وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وينظّفون بيوتهم فيها من خبز الخمير . لأنها عندهم الأيام التى خلص الله تعالىٰ فيها بنى إسرائيل من فرعون وأغرقه؛ فخرجوا إلىٰ التيه، وجعلوا يأكلون اللحم، والخبز الفطير. وهم بذلك فرحون . وفى آخر هذه الأيام غرق فرعون .

٥ — ومنها عيد الأسابيع، وهى الأسابيع التى فرضت عليهم فيها الفرائض، وكمّل فيها الدين . ويسمّى عيد العنصرة، وعيد الخطاب . ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع . يقولون إنه اليوم الذى خاطب الله تعالىٰ فيه بنى إسرائيل من طورسيناء . وإن من جملة ما خوطبوا به العشر كلمات، وهى وصايا تتضمن أمرا ونهيا . وهو : من حجوجهم . وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع، والفطير، والمظلّة . وهم يعظمونه ويأكلون فيه القطائف ويجعلونها بدلا عن المنّ الذى أُنزل عليهم فى هذا اليوم، علىٰ ما يزعمون . واتخاذهم هذا العيد فى اليوم السادس من سيوان .

٦ — وعيد الفوز . وهو عيد أحدثوه، ويسمونه الفوريم . وذكروا فى سبب اتخاذهم له أن بختنصر لما أجلىٰ من كان ببيت المقدس من اليهود إلىٰ عراق العجم، أسكنهم مدينة جَىّ، وهى إحدىٰ مدينتى أصفهان. فلما ملك أردشير بن بابك، سماه اليهود بالعبرانية أجشادوس . وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون . ولليهود يومئذ حبر يسمّى بلغتهم مردوخى . فبلغ أردشير أن له ابنة عمّ جميلة الصورة من أحسن أهل زمانها. فطلب تزويجها منه، فأجابه إلىٰ ذلك. فتزوجها، وحظيت عنده، وصار مردوخاى قريبا منه . فأراد هيمون الوزير إصغاره حسدا له، وعزم علىٰ إهلاك طائفة اليهود التى فى جميع مملكة أردشير . فرتب مع نوّاب الملك فى سائر الأعمال

(٧٣)

أن يقتل كلُّ واحد منهم من يعلمه من اليهود. وعيّن لهم يوما وهو النصف من آذار. وإنما خص هذا اليوم دون غيره ، لأن اليهود يزعمون أن موسىٰ عليه السلام وُلد فيه ، وتوفى فيه . وأراد بذلك المبالغة فى نكايتهم ليضاعف الحزن عليهم بهلاكهم، وبموت موسىٰ (عليه السلام) .

فبلغ مردوخاى ذلك، فأرسل إلىٰ آبنة عمه يُعْلِمُها بما بلغه، ويحضها علىٰ إعمال الحيلة فى خلاصهم. فأعلمت الملك بالحال، وذكرت له أن الوزير إنما حمله علىٰ ذلك الحسد، لقرب مردوخاى منه . فأمر بقتل هيمون الوزير، وأن يكتب أمان لليهود.

فاتخذوه عيدا . واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام .

وهذا العيد عندهم عيد سرور، ولهو، وخَلَاعة، وهدايا يهديها بعضهم لبعض، ويصوّرون فيه من الورق صورة هيمون، ويملئون بطن الصورة نخالة ويلقونها فى النار حتّى تحترق .

٧ — وعيد الحنكة . وهو أيضا مما أحدثوه . وهو ثمانية أيام. أولها ليلة الخامس والعشرين من كسلا . وهم يوقدون فى الليلة الأولىٰ من لياليه علىٰ كل باب من أبوابهم سراجا؛ وفى الثانية سراجين؛ ويَضْعُف ذلك فى كل ليلة إلىٰ ثمان ليال . فيكون فى الثامنة ثمانية سُرُج .

وسبب آتخاذهم لهذا العيد، أن بعض الجبابرة تغلّب علىٰ البيت المقدّس وقتل من كان فيه من بنى إسرائيل، وآفتض أبكارهم. فوثب عليه أولاد كاهنهم، وكانوا ثمانية، فقتله أصغرهم. فطلب اليهود زيتا لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا، وزعوه علىٰ عدد مايوقدونه من السرج علىٰ أبوابهم فى كل ليلة إلىٰ ثمان ليال. فاتخذوا هذه الأيام عيدا وسموه الحنكة، وهو مشتق من التنظيف، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار شيعة الجبار.

القسم الرابع من الفن الأوّل

فى الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغُدْران

وفيه سبعة أبواب

الباب الأوّل

من هذا القسم

١ — فى مبدإ خلق الأرض

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾.

والأرض سبع، كما أن السماوات سبع. والدليل على ذلك قوله عز وجل: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

واختلف فيها هل هى سبع متطابقات بعضها فوق بعض، أو سبع متجاورات؟ فذهب قوم إلى أن الله تعالى خلق سبعَ سماوات متطابقات متعاليات، وسبعَ أرضين متطابقات متسافلات؛ وبين كل أرض وأرض، كما بين كل سماء وسماء، خمسمائة عام. وفُسر بهذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ[1] كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾. أى كانت سماء واحدة ففتقناها سبعا.

قيل: ولكل أرض أهل وسُكَّان مختلفو الصور والهيئات، ولكل أرض اسمٌ خاص.

(١) أى وأرضا واحدة [ولعله سقط من قلم الناسخ].

وذهب قوم إلىٰ أنها سبع متجاورات متفرقات لا متطابقات. فجعلوا الصين أرضا، وخراسان أرضا، والسند والهند أرضا، وفارس والجبال والعراق وجزيرة العرب أرضا. والجزيرة والشام وبلاد إرْمِينِيَة أرضا، ومصر وإفْرِيقِيَّة أرضا، وجزيرة الأندلس وما جاورها من بلاد الجلالِقة والأَنْكُبُرْدَة وسائر طوائف الروم أرضا .

ويقال: إنها كانت علىٰ ماء، والماء علىٰ صخرة. والصخرة علىٰ سَنَام ثور. والثور علىٰ كَكْم(١)، والككم علىٰ ظهر حوت، والحوت علىٰ الماء، والماء علىٰ الريح. والريح علىٰ حجاب ظلمة. والظلمة علىٰ الثرىٰ. وإلىٰ الثرىٰ انقطع علم المخلوقين .

قال الله تعالىٰ: ﴿لَهُ ما فِي السَّموات وَمَا فِي الأَرْض وما بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرىٰ﴾.

وزعم آخرون أن تحت الأرض السابعة صخرةً . وتحت الصخرة الحوت، وتحت الحوت الماء، وتحت الماء الظلمة، وتحت الظلمة الهواء، وتحت الهواء الثرىٰ .

وقد تقدّم في الباب الأوّل من هذا الكتاب أن الأرض مخلوقة من الزَّبَد . فلا فائدة في تكراره .

الباب الثاني

من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ — في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها، في الاتساع، والاستواء، والبعد، والغلظ، والصلابة، والسهولة، والحزونة، والارتفاع، والانخفاض، وغير ذلك (٧٤)

قال الثعالبي: في كتابه المترجَم "بفقه اللغة" وأسنده إلىٰ أئمة اللغة :

---

(١) كذا بالأصل ؟

إذا اتّسعت الأرض ولم يتخللها شجر أو خَمَر، فهى الفَضاءُ والبَرَازُ والبَرَاحُ، ثم الصَّحْرَاءُ والعَرَاءُ، ثم الرَّهَاءُ والجَهْرَاءُ .

فإذا كانت مستوية مع الاتّساع، فهى الخَبْتُ والجَدَدُ، ثم الصَّحْصَحُ والصَّرْدَحُ، ثم القَـاعُ والقَرْقَرُ، ثم القَرِقُ والصَّفْصَفُ .

فإذا كانت مع الاسـتواء والاتساع بعيدة الأكْنَاف والأطراف، فهى السَّهْب والخَرْقُ، ثم السَّبْسَبُ والسَّمْلَقُ والمَلَق .

فإذا كانت مع الاتّساع والاستواء والبُعْد لا ماء فيها، فهى الفَلَاةُ والمَهْمَهُ، ثم التَّنُوفَةُ والفَيْفَاءُ، ثم النَّفْنَفُ والصَّرْمَاءُ .

فإذا كانت مع هذه الصفات لايهتدىٰ فيهـا لطريق، فهى اليَهْمَاءُ والغَطْشَاء .

فإذا كانت تُضِلُّ سالكَها، فهى المُضِلَّةُ والمُتِيهَةُ .

فإذا لم يكن بها أعلام ولا معالم، فهى المَجْهَلُ والهَوْجَلُ .

فإذا لم يكن بها أثر، فهى الغُفْلُ .

فإذا كانت قَفْرَاءَ، فهى القِيُّ .

فإذا كانت تُبِيدُ سالكَها، فهى البَيْدَاءُ، والمَفَازَةُ كِنَايةٌ عنها .

فإذا لم يكن فيها شيء من النَّبْت، فهى المَرْتُ والمَلِيعُ .

فإذا لم يكن فيهـا شيء، فهى المَرَوْرَاةُ والسُّبْرُوتُ والبَلْقَعُ .

فإذا كانت الأرض غليظةً صُلْبَةً، فهى الجَبُوبُ، ثم الجَلَدُ، ثم العَزَازُ، ثم الصَّيْدَاء، ثم الجَدْجَد .

فإذا كانت صُلْبَةً يابسة من غير حصًى، فهى الكَلَدُ، ثم الجَعْجَاعُ .

فإذا كانت غليظة ذات حجارة ورمل ، فهى البُرْقَةُ والأَبْرَقُ .

فإذا كانت ذات حصًى ، فهى المَحْصَاةُ والمَحْصَبَةُ .

فإذا كانت كثيرة الحصى ، فهى الأَمْعَزُ والمَعْزَاءُ .

فإذا اشتملت عليها كلِّها حجارة سودٌ ، فهى الحَرَّةُ واللَّابَةُ .

فإذا كانت ذات حجارة كأنها السكاكينُ ، فهى الحَزِيزُ .

فإذا كانت الأرض مطمئنة ، فهى الجَوْفُ والغَائطُ ، ثم المَجْلُ والهَضْمُ .

فإذا كانت مرتفعة ، فهى النَّجْد والنَّشَزُ .

فإذا جمعت الأرض الارتفاع والصَّلابة والغلَظَ ، فهى المَتْنُ والصَّمْدُ ، ثم القُفُّ والفَدْفَدُ والقَرْدَدُ .

فإذا كان ارتفاعها مع اتّساع ، فهى اليَفَاعُ .

فإذا كان طولها فى السماء مثل البيت ، وعرض ظهرها نحو عشرة أذرع ، فهى التَّلُّ ؛ وأطول وأعرض منها الرَّبْوَةُ والرَّابِيَةُ ، ثم الأَكَمَةُ ، ثم الزُّبْيَةُ ، وهى التى لا يعلوها الماء . وبها ضُرب المثل فى قولهم : "بلغ السيل الزُّبى" ؛ ثم النَّجْوَةُ ، وهى المكان الذى تظن أنه نجاؤك ؛ ثم الصَّمَّانُ ، وهى الأرض الغليظة دون الجبل .

فإذا ارتفعت عن موضع السيل وانحدرت عن غِلَظ الجَبَل ، فهى الخَيْفُ .

فإذا كانت الأرض لينة سهلة من غير رَمْل ، فهى الرَّقَاقُ والبَرْثُ ، ثم المِيثَاءُ والدَّمِثَةُ .

فإذا كانت طيبة التربة كريمة المَنْبِت بعيدة عن الأَحْسَاء والنُّزوز ، فهى العَذَاةُ .

فإذا كانت مخيلة للنبت والخير ، فهى الأَرِيضَةُ .

فإذا كانت ظاهرة لا شجر فيها ولا شىء يختلط بها ، فهى القَرَاحُ والقِرْوَاحُ .

فإذا كانت مهيأة للزراعة ، فهى الحَقْلُ والمَشَارَةُ والدَّبْرَةُ .

[فإذا لم تهيأ للزراعة ، فهى بُورٌ] (١) .

فإذا لم يصبها المطر ، فهى الفِلُّ والجُرُزُ

فإذا كانت غير ممطورة وهى بين أرضين ممطورتين ، فهى الخَطِيطة .

فإذا كانت ذات ندًى ووَخَامة ، فهى الغَمِقَةُ .

فإذا كانت ذات سِباخ ، فهى السَّبْخَةُ .

فإذا كانت ذات وباء ، فهى الوَبِئَةُ والوَبِيئَةُ .

فإذا كانت كثيرة الشجر ، فهى الشَّجْراءُ والشَّجِرَةُ .

فإذا كانت ذات حيّات ، فهى المُحْواةُ (٢) .

فإذا كانت ذات سباع أو ذئاب ، فهى المَسْبَعَةُ والمَذْأَبَةُ .

٢ — ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته

قال الثعالبىّ رحمه الله تعالى :

الصَّعِيد ، تراب وجه الأرض .

والبَوْغَاءُ ، والدَّقْعَاءُ ، التراب الرِّخو الرقيق الذى كأنه ذَرِيرَةٌ .

والثَّرَى ، التراب النَّدِىّ : وهو كل تراب لا يصير طينا لَازِبًا إذا بُلَّ .

المُورُ ، التراب الذى تَمُور به الريح .

الهَبَاءُ ، التراب الذى تُطَيِّره الريح فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم [يلتزق لُزُوقا] (١) .

(١) الزيادة من فقه الثعالبى .

(٢) كذا ضبط فى فقه اللغة ، وفى اللسان : (وأرض مَحْياة ومَحْواة كثيرة الحيات) وهو الأولى لاطراد هذا الوزن فى مثل ذلك .

[والهَابِي : الذى دقّ وارتفع](١) .

السَّافِيَاءُ : التراب الذى يذهب فى الأرض مع الريح .

النَّبِيثَةُ : التراب الذى يُخْرَجُ من البئر عند حفرها .

الرَّاهِطَاءُ والدَّامَّاءُ : التراب الذى يُخرِجه اليربوع من جُحْرِهِ ويجمعه .

الجُرْثُومَةُ : التراب الذى يجمعه النمل عند قريته .

العَفَاءُ : التراب الذى يُعَفِّى الآثارَ . وكذلك العَفَرُ .

الرَّغَامُ : التراب المختلط بالرمل .

السَّمَادُ : التراب الذى يُسَمَّدُ به النبات . وإذا كان مع السِّرقين ، فهو الدَّمَالُ . (٧٥)

٣ — ذكر تفصيل أسماء الغبار وأوصافه

النَّقْعُ والعَكُوبُ : الغبار الذى يثور من حوافر الخيل وأخفاف الإبل .

العَجَاج : الغبار الذى تُثيره الريح .

الرَّهَجُ والقَسْطَلُ : غبار الحرب .

الخَيْضَعَةُ : غبار المَعْرَكة .

العِثْيَرُ : غبار الأقدام .

المَنِينُ : ما تقطَّع منه .

٤ — ذكر تفصيل أسماء الطين وأوصافه

قال :

إذا كان الطين حُرًّا يابسا ، فهو الصَّلْصَالُ .

فإذا كان مطبوخا ، فهو الفَخَّارُ .

---

(١) الزيادة من فقه الثعالبى .

فإذا كان عَلِكا لاصقا، فهو اللَّازِبُ .

فإذا غَيَّره المـاء وأفسده، فهو الحَمَأُ .

(وقد نطق القرآن بهذه الأسماء الأربعة) .

فإذا كان رطبا، فهو الثَّأْطَةُ والثُّرْمُطَةُ والطَّثْرَة .

فإذا كان رقيقا، فهو الرَّدَاغُ .

فإذا كان تَرْتَطِم فيه الدوابُّ، فهو الوَحَلُ . وأشدّ منه الرَّدْغَة والرَّزَغَةُ . وأشدّ منها الوَرْطَةُ تقع فيها الغنم فلا تقدِر على التخلُّص منها ؛ ثم صارت مثلا لكل شِدّة يقع فيها الإنسان .

فإذا كان حُرًّا طيبا عَلِكًا وفيه خضرة، فهو الغَضْرَاءُ .

فإذا كان مخلوطا بالتبن، فهو السَّيَاعُ .

فإذا جُعل بين اللَّبِن، فهو المِلَاطُ .

---

٥ — ذكر تفصيل أسماء الرّمال

قال :

العَدَابُ، ما ٱسترقَّ(١) من الرمل .

الحَبْلُ، ما ٱستطال منه .

اللَّبَبُ، ما ٱنحدر منه .

الحِقْفُ، ما ٱعْوَجَّ منه .

الدِّعْصُ، ما ٱستدار منه .

---

(١) فى الأصل : ما ٱشتدّ . ولكن الذى فى القاموس وفقه اللغة : ما ٱسترق .

العَقِدَةُ، ما تعقَّد منه .

العَقَنْقَلُ، ما تراكم منه .

السِّقْطُ، ما جَعَل يتقطَّع ويتصل منه .

النُّهبُورَةُ، ما أشرف منه .

التِّيهُورُ، ما اطمأنّ منه .

الشَّقِيقَة، ما انقطع وغَلُظ منه .

الكَثِيبُ والنَّقَا، ما احْدَوْدَبَ وانهال منه .

العَاقِرُ، ما لا يُنْبِت شيئا منه .

الهِدَمْلَةُ، ما كثر شجره منه .

الأَوْعَسُ، ما سُهل ولان منه .

الرَّغَامُ، ما لان منه . وليس هو الذى يسيل من اليد .

الهَيَامُ، ما لايتمالك أن يُمْسك باليد منه للينه .

الدَّكْدَاكُ، ما التبد بالأرض منه .

العَانِكُ، ما تعقَّد منه حتّى لايقدِر البعير على السير فيه .

٦ — ذكر ترتيب كمية الرمل

قال الثعـالبي :

الكثير يقال له العَقَنْقَلُ .

فإذا نقص، فهو كَثِيبٌ .

فإذا نقص، فهو عَوْكَلٌ .

فإذا نقص عنه، فهو سِقْطٌ .

فإذا نقص عنه، فهو عَدَابٌ .

فإذا نقص، فهو لَبَبٌ .

وقال فى كتابه "الغريب"(١) :

إذا كانت الرملة مجتمعة، فهى العَوْكَلَة .

فإذا انبسطت وطالت، فهى الكَثِيبُ .

فإذا انتقل الكَثِيبُ من موضع إلى آخر بالرياح وبقى منه شىء رقيق، فهو اللَّبَبُ .

فإذا نقص، فهو العَدَابُ .

٧ — ذكر تفصيل أسماء الطرق وأوصافها

قال الثعالبىّ :

المِرصاد والنَّجْدُ، الطريق الواضح؛ وكذلك الصِّرَاطُ

والجادّة والمَنْهَج واللَّقَمُ والمَحَجَّةُ . وسَطُ الطريق ومُعْظَمه .

واللَّاحِبُ، الطريق المُوَطَّأ .

المَهْيَع، الطريق الواسع .

الوَهْمُ، الطريق الذى يَرِدُ فيه الموارد .

الشَّارِعُ، الطريق الأعظم .

النَّقْبُ والشِّعْبُ، الطريق فى الجبل .

الخَلُّ، الطريق فى الرمل .

(١) ليس هذا الكتاب للثعالبى، وإنما هو كتاب "الغريب المصنف" لأبى عمرو الشيبانى؛ الموجود منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

المَخْرَفُ، الطريق فى الأشجار. ومنه الحديث: "عائدُ المريض فى مَخَارِف الجنة".

النَّيْسَبُ، الطريق المستقيم؛ وقيل إنه الطريق المستدق الواضح، كطريق النمل والحية وحمر الوحش.

والله أعلم.

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الأول

فى طول الأرض ومسافتها

ذهب المتكلمون فى ذلك أن مسافة الأرض خمسمائة عام: ثُلُثٌ عمران، وثُلُثٌ خراب، وثُلُثٌ بِحَار. وأن مقدار المعمور من الأرض مائة وعشرون سنة: تسعون منها ليأجوج ومأجوج، واثنا عشر للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة للعرب، وسبعة لسائر الأمم.

وقيل إن الدنيا سبعة أجزاء: ستة منها ليأجوج ومأجوج، وواحدٌ لسائر الناس.

وقيل إن الأرض خمسمائة عام: البحار منها ثلثمائة، ومائة خراب، ومائة عمران.

وقيل إن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ: للسودان منها اثنا عشر ألفا، وللروم ثمانية آلاف فرسخ، ولفارس ثلاثة آلاف، وللعرب ألفٌ. (٧٦)

وقال وهب بن منبه: ما العمارة من الدنيا فى الخراب إلا كفُسْطاط فى الصحراء.

وقال أردشير بن بابك: إن الأرض أربعة أجزاء: جزء منها للترك، وجزء للعرب، وجزء للفرس، وجزء للسودان.

وقيل : إن الأقاليم سبعة، والأطراف أربعة، والنواحى خمسة وأربعون، والمدائن عشرة آلاف، والرساتيق مائتا ألف وستة وخمسون ألفا .

وقال الخُوَارَزْمىّ صاحب الزيج: دور المعمور سبعة آلاف فرسخ، وهو نصف سُدُس الأرض، والجبال، والمفاوز، والبحار . والباقى خراب يَبَاب لا نباتَ فيه ولا حيوانَ .

ومثّل المعمور بصورة طائر، رأسه الصين، والجناح الأيمن الهند والسند، والجناح الأيسر الخزر، وصدره مكة والعراق والشام ومصر، وذَنَبه الغرب .

وزعم أصحاب الهيئة أن قطر الأرض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا، وأن دَوْرها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل . وذلك جميع ما أحاطت به من برّ وبحر .

وإنما علم ذلك وحرر من عبد الله المأمون، وذلك أنه لما أشكل عليه ما ذكره المتقدّمون من مقدار الأرض بعث جماعة من أهل الخِبرة بالحساب والنجوم — منهم علىّ بن عيسىٰ — إلىٰ بَرّية سِنْجَار . وتفرّقوا من هناك . فذهب بعضهم إلىٰ جهة القطب الشمالىّ، وذهب آخرون إلىٰ جهة القطب الجنوبىّ، وسار كل منهم فى جهته إلىٰ أن وصل غاية آرتفاع الشمس نصف النهار، وقد زال وتغير عن الموضع الذى آجتمعوا فيه وتفرّقوا منه . مقدار درجة واحدة . وكانوا قد ذرعوا الطريق فى ذهابهم، فنصبوا السهام، ووتدوا الأوتاد، وشدّوا الحبال . ثم رجعوا وآمتحنوا الذرع ثانية، فوجدوا مقدار درجة واحدة من السماء سامتت وجه بسيط الأرض ستة وخمسين ميلا وثلثى ميل. (والميل أربعة آلاف ذراع؛ والذراع ست قبضات؛ والقبضة أربع أصابع، والإصبع ست شعيرات، بطون بعضها إلىٰ بعض؛ والشعيرة

ست شعرات من شـعر الخيل) . فضربت هذه الأميال فى جميع درجات الفلك، وهى ثلثمائة وستون درجة،نخرج من الضرب عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل .

فحكم بأن ذلك دور الأرض .

وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخيّ : مسافة طول الأرض من أقصىٰ المشرق إلىٰ أقصىٰ المَغرِب نحو من أربعمائة مَرْحَلة،ومسافة عرضها من حيث العُمْران الذى من جهة الشمال (وهو مساكن يأجوج ومأجوج) إلىٰ حيث العمران الذى من جهة الجنوب (وهو مساكن السودان) مائتان وعشرون مرحلة؛وما بين برارى يأجوج ومأجوج والبحر المحيط فى الجنوب خراب ليس فيه عمارة .

ويقال إن مسافة ذلك خمسة آلاف فرسخ .

حكى هذه الأقوال صاحب كتاب "مباهج الفكر ومناهج العبر" رحمه الله .

البـاب الرابع

من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ — فى الأقاليم السبعة

ذهب أصحاب الزيجات إلىٰ أن كل إقليم منها كأنه بساط ممدود ، طوله من المغرب إلىٰ المشرق،وعرضه من الجنوب إلىٰ الشمال .

١ — فأما الإقليم الأوّل.فبدؤه من مشرق أرض الصين إلىٰ مدائن أبوابها. وهى الأنهار التى تدخل السفن فيها من البحر إلىٰ المدائن الجليلة ، مثل خانقو وخانفور.[١]

(١) كذا بالأصل والصواب، خانجو عن كتاب "تقويم البلدان" لأبى الفدا .

وفيه جزيرة سرنديب . ومن أرض اليمن ما كان جنوبيا من صنعاء ، مثل ظَفَارِ وحضرموت وعَدَن . وفيه من بلد النوبة دُنْقُلَة ؛ ومن بلد السودان غَانَة . ثم ينتهى إلى البحر المحيط . وعرضه من خط الاستواء إلى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة .

وذهب بعض الناس إلى أن أول المعمور من حيث يكون العرض وخط الاستواء اثنتى عشرة درجة ونصف وربع درجة ، وفيما بين هذا العرض وخط الاستواء مسكون بطوائف من السودان فى عِداد الوحوش والبهائم . وعدّ فيه بَطْلَيْمُوس من البلاد ذوات العروض ستين مدينة . وأهل هذا الإقليم سود ، وهو قليل الساكن لإفراط حرّه .

٢ — وأما الإقليم الثانى . فيبتدئ من بلاد الصين ، ويمرّ على بعض بلاد الهند الساحلية ، مثل تَانَة(١) ، وصَيْمُور ، وسَنْدَان ؛ ومن بلاد السند على المَنْصُورة ودَيْبُل ، ثم يبلغ عُمَان . ويكون فيه من أرض العرب : نَجْران ، وهَجَر ، وجَنَّابة(٢) ، ومَهَرَة ، وسَبَأ ،
(٧٧) وتَبَالَة ، والطائف ، وجُدَّة ، ومكّة ، والمدينة ، ومملكة الحبشة ، وأرض البُجة ، وأُسْوان ، وقوص ، والصعيد الأعلى ، وجنوب بلاد المغرب حتى ينتهى إلى البحر المحيط ؛ وعرضه من غاية الإقليم الأول إلى سبع وعشرين درجة واثنتى عشرة دقيقة .

وزعم بَطْلَيْمُوس أن فيه أربعمائة وخمسين مدينة . وأهله بين السمرة والسواد ، وهو كثير الذهب .

---

(١) اسم لمدينة ببلاد الهند . قال البيرونى : هى على الساحل . والنسبة إليها "تانشى" ومنها الثياب التانشية (انظر تقويم البلدان) .

(٢) فى معجم ياقوت : جنابة بلدة صغيرة من سواحل فارس ، وهى فى الإقليم الثالث . وفى "تقويم البلدان" (جنابة بلدة قد خرب غالبها ، وهى فرضة لفارس ، وضبطها ابن خلكان بفتح الجيم والمشهور الضم) .

٣ — وأما الإقليم الثالث . فمبدؤه من شرق أرض الصين ، وفيه مدينة مملكتها ، حمدان(١) ، وفيه من بلاد الهند تانش والقُنْدُهار ، ومن بلاد السند المُولْتان وقُزْدار(٢) . ثم يمر ببلاد سِجِسْتان ، وكِرْمان ، وفارس ، وأصْبَهان ، والأهواز ، والبصرة ، والكوفة ، وأرض بابل ، وبلاد الجزيرة ، والشام ، وفِلَسْطِين ، وبيت المقدس ، والقُلْزُم ، والتِّيه ، وأرض مصر ، والإسكندرية ، وبلاد بَرْقَة ، وإفْرِيقِيَّة ، وتَاهَرْت ، وبلاد طَنْجَة ، والسُّوس ، وينتهى إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية الإقليم الثانى فى العرض إلى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة .

وزعم بطليموس أن فيه تسعا وخمسين مدينة . وأهله سمر .

٤ — وأما الإقليم الرابع . فمبدؤه من أرض الصين ، ويمر على التُّبَّت والختن(٣) . ثم على جبال قِشْمِير ، ووخان(٤) ، وتل حسان ، وكَابُل ، والغور ، وهَرَاة ، وبَلْخ ، وطَخَارِسْتَان ، ويمتد إلى الرى ، وقُمّ ، وهَمَذان ، وحُلْوان(٥) ، وبغداد ، والموصل ، وأذْرَبِيجان . ويمتد على مَنْبِج ، وطَرَسُوس ، والثغور ، وأَنْطَاكِيَة ، وجزيرة قُبْرُس ، وصِقِلِّيَّة ، ثم على الزُّقاق إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية الإقليم الثالث فى العرض إلى تمة تسع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة .

---

(١) هكذا بالأصل . ولعل المراد مدينة واقعة على النهر المشهور باسم خمدان ببلاد الصين .

(٢) فى الأصول : "كورا" وليس بالسند بلد بهذا الاسم . ويترجح أن الناسخين حرفوه عن "كزدار" . ويقال فيه "قصدار" (أنظر معجم ياقوت) .

(٣) فى ياقوت : والخُتَن . . . . وبُرجان ، وبَذَخْشان . وهو الصواب .

(٤) لم نعثر على بلدة بهذا الاسم ولعلها محرفة عن "وخش" وهى كما فى معجم ياقوت : بلدة من نواحى بلخ . وفى "تقويم البلدان" : انها بلدة بما وراء النهر فى الاقليم الرابع .

(٥) أى حلوان العراق ، لا حلوان مصر .

وزعم بطليموس أن فيه مائة وثلاثين مدينة . وأهله بين السمرة والبياض .

٥ - وأما الإقليم الخامس . فمبدؤه من أرض الترك المشرفين على يأجوج ومأجوج إلى كاشغر، وبلاساغون، وفرغانة، وإسبيجاب[1]، والشاش، وأشروسنة، وسمرقند، وبخارى، وخوارزم، وبحر الخزر إلى باب الأبواب، وبرذعة، وميافارقين، ودروب الروم، وبلادهم. ثم يمتر على رومية الكبرى، وأرض الجلالقة[2]، وبلاد الأندلس؛ وينتهى إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم الرابع إلى تمام ثلاث وأربعين درجة وثماني عشرة دقيقة .

وذكر بطليموس أن فيه سبعا وتسعين مدينة . وأكثر أهله بيض .

٦ - وأما الإقليم السادس . فمبدؤه من مساكن ترك المشرق، وهم الخرخيز، والكيماك، والتغزغز، ثم على بلاد الخوز من شمال تخومها، واللان، والسرير، وأرض برجان، ثم على قسطنطينية، وأفرنجة[3]، وشمال الأندلس؛ وينتهى إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الخامس إلى تمام سبع وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة.

وزعم بطلميوس أن فيه ثلاثا وثلاثين مدينة، وهو كثير الإمداد والثلوج . وأهله بيض الأبدان، شقر الشعور.

٧ - وأما الإقليم السابع . فليس فيه كبير عمارة، وإنما هو فى المشرق غياض وجبال يأوى إليها طوائف من الترك كالمتوحشين . ويمتر على بلاد البجناك، ثم على بلاد البلغار، ثم على الروس والصقالبة، وينتهى إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية

(١) هى المشهورة أيضا بأسم : إسفيجاب .

(٢) أهل جليقية بشمال الأندلس .

(٣) أى فرنسا .

الإقليم السادس إلى تمة خمسين درجة ونصف . وفيه الأرض المحفورة، وهى وَهْدة لا يقدر أحد أن ينزل إليها، ولا أن يصعد منها من هو فيها لبعد قعرها . يسكنها أُمّة من الناس لا يُدرى مَن هم . وإنما علم أنها معمورة برؤية الدّخان فيها نهارا، والنار ليلا . يشقها نهر يجرى ، والعمارة محيطة به .

وزعم بطليموس أن فيها ثلاثا وعشرين مدينة . وأهل هذا الإقليم بيض صهب الشعور .

وما بقى من المعمور إلى نهايته إلى ثلاث وستين درجة مضاف إلى هذا الإقليم ومحسوب فيه . يسكنه طوائف من الناس، هم بالبهائم فى الخَلْق والخُلُق أشبه منهم ببنى آدم .

٢ — ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الأرض

يقال :

أحملُ من الأرض . أكتَمُ من الأرض . أصبر من الأرض . آمن من الأرض . أوثق من الأرض . أوطأ من الأرض . أحفظ من الأرض . أكثر من الرمل . أظلم من الرمل . أعطش من الرمل . أوجد من التراب .

ويقال :

قتل أرضا عالِمُها، وقتلت أرضٌ جاهلَها . رماه بين سَمْع الأرض وبَصَرها . أخذت الأرض زخارفها . أَفِقْ قبل أن يُحفَر ثَرَاك . اِبتغوا الرزق فى خَبايَا الأرض .

ومن أنصاف الأبيات :

* الأرضُ من تُربةٍ والناسُ من رجُلٍ * * وأنّى تُمطِـرُ الأرضُ السماءَ *

ومن الأبيات :

والأرضُ لا تُطعِمُ مَنْ فوقَها ٭ إلا لِكَىْ تُطْعَمَ مَنْ تُطْعِمُهْ

وقال آخر :

(٧٨) إذا الأرضُ أدّتْ رَيْعَ ما أنتَ زارِعٌ ٭ من البَذْرِ، فهى الأرضُ. ناهيكَ من أرْضِ!

وقال آخر :

ولا تَمْشِ فوقَ الأرضِ إلا تَوَاضُعًا، ٭ فكَمْ تحتَها قومٌ هُمُو منكَ أرفَعُ!

وقال آخر :

يا أرضُ كَمْ وافِدٍ أتاكِ فلَمْ ٭ يَرْجِعْ إلى أهلِهِ ولم يَؤُبِ!

٣ — ذكر شىء ممّا قيل فى وصف الأرض وتشبيهها

قال الأخطل :

وتَيْهاءَ مِحْلالٍ كأنّ نَعامَها ٭ بأرجائها القُصْوَى أباعِرُ هُمَّلُ.

تَرَى لامِعَاتِ الآلِ فيها كأنّها ٭ رجالٌ تَعَرَّى تارةً وتَسَرْبَلُ.

وجَوْزِ فَلاةٍ لا يُغَمِّضُ رَكْبُها ٭ ولا عينُ هاديها من الخوفِ تَغْفُلُ.

وكلِّ بَعيدِ الغَوْرِ لا يُهتدَى لَهُ ٭ بعِرْفانِ أعلامٍ ولا فيه مَنْهَلُ.

مَلاعِبِ جِنّانٍ كأنّ تُرابَها ٭ إذا اطّردتْ فيها الرِّياحُ تُغَرْبَلُ.

تَرَى الثعلبَ الحَوْلِىَّ فيها كأنّهُ ٭ إذا ما عَلا نَشْزًا حِصانٌ مُجَلَّلُ.

وقال ذو الرمّة :

ودَوِّيّةٍ جَرْداءَ جَدّاءَ خَيّمتْ ٭ بها هَبَواتُ الصَّيْفِ من كلِّ جانبِ.

سَبارِيتُ يَخْلُو سَمْعُ مُجتازِها بها ٭ من الصَّوتِ، إلا مِنْ صِياحِ الثعالبِ.

وقال ذو الرمة :

وهاجرةِ السَّرابِ من المَوامي * ترقَّصُ فى عساقلها الأُرومُ.
تموتُ قطا الفلاةِ بها أُوامًا * ويهلكُ فى جوانبها النَّسيمُ.
مَلِلْتُ بها المُقامَ فأرّقتني * هُمومٌ لا تنامُ ولا تُنيمُ.

وقال ضابئ البرجمي :

ودَاوِيَةٍ تِيهٍ يحارُ بها القَطا * على مَنْ علاها مِنْ ضَلُولٍ ومُهتَدى.
مُسافِهَةٍ لِلْعِيسِ نَاءٍ نِياطُها، * إذا سارَ فِيها راكِبٌ لم يُغرِّدِ.

وقال مسلم بن الوليد :

وقاطعةٍ رِجْلَ السَّبيلِ مَخُوفةٍ * كأنَّ على أرجائها حَدَّ مِبْرَدِ.
مُؤَزَّرَةٍ بالآلِ فيها كأنَّها * رِجالٌ قُعُودٌ فى مُلاءٍ مُعَمَّدِ.

وقال الصاحب بن عباد :

وتَيْهاءَ لم تُطْمَثْ بخُفٍّ وحافِرٍ * ولم يَدْرِ فيها النَّجْمُ كيفَ يَغُورُ.
مَعالِمُها أَنْ لا مَعالِمَ بينها، * وآياتُها أنَّ المَسيرَ غُرُورُ.
ولو قيلَ للغَيثِ، اسقها: ما اهتدى لها * ولو ظَلَّ مِلْءَ الأرضِ وهو جَزُورُ.
تجشَّمْتُها، واللَّيلُ وَحْفٌ جَناحُه * كأنِّيَ سِرٌّ والظَّلامُ ضَمِيرُ.

وقال الشريف الرضى :

وتَنُوفَةٍ حَصْباؤُها * خُلِقَتْ لنارِ القَيْظِ جَمْرَا.
تُبْدِى جَنادِبُها الأَنِينَ أَسًى على المُجتازِ ظُهْرَا.
وترى بها العُصْفُورَ مُتَّخِذًا وِجارَ الضَّبِّ وَكْرَا.

وقال المتنبي :

مَهَالِكُ لم يَصْحَبْ بِهَا الذِّئْبُ نَفْسَه * ولا حَمَلَتْ فِيها الغُرَابَ قَوادِمُه.

وقال ابراهيم بن خفاجة الاندلسي :

ومفازةٍ لا نَجْمَ فى ظَلْمائها * يَسْرى ولا فَلَكٌ بِها دَوّارُ.
تَتَلَهّب الشِّعْرى بِها فكأنّها * فى كَفِّ زِنْجِىٍّ الدُّجى دِينارُ.
تُرْمَى بها الغيطانُ فيها والرُّبى * آلٌ كما يَتَمَوَّجُ التَّيّارُ.
والقُطْبُ مُلْتَزِمٌ لمركَزِه بِهَا * فكأنّه فى سَاجِه مِسْمَار.
قد لقَنى فيها الظّلامُ وطَافَ بِى * ذِئْبٌ يُلِمُّ مع الدُّجى زَوّارُ.
طَرّاقُ سَاحَاتِ الدِّيَارِ مُغَاوِرٌ * خَبِثٌ لأبناء السُّرى غَدّارُ.
يَسْرى ،وقدفَضَحَ الدّجىوجْهُ الضّيا ، * فى فَرْوةٍ قَدْ مَسَّها اقْشِعْرار.
فعَشَوْت فى ظَلْمَاءَ لم يُقْدَحْ بها * إلا لمُقْلتِيه ، وبأسى نارُ.
ورَفَلْتُ فى خِلَعٍ عَلَىَّ من الدُّجى * عُقِدَتْ بها من أنْجُمٍ أزْرارُ.
واللَّيْلُ يَقْصِر خَطْوَه ، ولَرُبَّما * طالَتْ لَيالِى الرَّكْبِ وهى قِصارُ.

وقال آخر :

ومَجْهولةِ الأَعْلَامِ طامسةِ الصُّوى * إذاعَسَفَتْهاالعِيسُ بالرَّكْبِ،ضَلَّتِ.
إذا ما تَهَادَى الرَّكْبُ فى فَلَواتِها ، * أجابَتْ نِداءَ الرَّكْبِ فيها فأصْدَتِ.

وقال مسعود، أخو ذى الرمّة يصف بُعْدَ فلاة :

ومَهْمَهٍ فيها السَّرَابُ يَلْمَحُ * يَدْأَبُ فيها القَوْمُ حتّى يَطْلَحُوا. (٧٩)
ثُمَّ يَظَلُّون كأنْ لم يَبْرَحُوا * كأنّما أمْسَوْا بحيثُ أصْبَحُوا.

وقال مسلم :

تَجْرِى الرِّيَاحُ بِها مَرْضىٰ مُوَلَّهَةً * حَسْرىٰ تَلُوذُ بأطْراف الجَلَاميد.

وقال آخر :

ودَوِّيَّةٍ مِثْلِ السَّماءِ قَطَعْتُها * مُطَوَّقةٍ آفاقُها بسَمائِها.

وقال بعض الاعراب في الآل (١) :

كَفَى حَزَنًا أنِّى تَطَالَلْتُ كَىْ أرىٰ * ذُرىٰ عَلَمَىْ دَمْخٍ فما يُرِيانِ!

كأنَّهما، والآلُ يَنجابُ عنهما، * من البُعْدِ عَيْنا بُرْقُعٍ خَلَقانِ.

قال أبو هلال : وهذا من أغرب ماروى من تشبيهات القدماء .

وقال آخر :

والآل تَنْزُو بالصُّوىٰ أمْواجُه * نَزْوَ القَطَا الكُدْرِىِّ في الأشْرَاكِ.

والظِّلُّ مَقْرُونٌ بِكُلِّ مَطِيَّةٍ * مَشْىَ المِهَارِ الدُّهْمِ بين رِمَاكِ.

وقال ابن المعتز :

وما راعَنِى بالبَيْنِ إلا ظَعَائِنٌ * دَعَوْنَ بُكائِى، فاستجابَ سَوَاكِبُه.

بَدَتْ في بياض الآلِ والبُعْدُ دُونَهُ * كأسْطُرِ رَقٍّ أمْرَضَ الخَطَّ كاتِبُه.

---

(١) هو طهمان بن عمرو الدارى ، كما في ياقوت . وأورد القصيدة بتمامها، وهى ١٥ بيتا . (معجم البلدان ، مادة دمخ) .

الباب الخامس

من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ — فى الجبال

قال الله تعالىٰ : " وأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ " .

قال المفسرون : خلق الله عز وجل الأرض علىٰ الماء فمادت وتكفّأت، كما تتكفأ السفينة، فأثبتها بالجبال . ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقاً .

و روىٰ أبوحاتم فى كتاب العظمة، أن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن الله تعالىٰ لما خلق الأرض، جعلَتْ تَميد . فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت . فعجبت الملائكة من خلق الجبال، وقالت : يارب هل خلقت خلقا أشدّ من الجبال؟ قال : الحديد، قالت : فهل من خلق أشدّ من الحديد؟ قال : النار، قالت : فهل من خلق أشدّ من النار؟ قال : الماء، قالت : فهل من خلق أشدّ من الماء؟ قال : الريح، قالت : فهل من خلق أشدّ من الريح؟ قال : ٱبن آدمَ، يتصدّق بيمينه فيخفيها عن شماله" .

وعن ٱبن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال : " كان العرش علىٰ الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض . فبعث الله ريحا فعصفت الماء فأبرز عن حشفة فى موضع البيت . فدحا الأرض من تحتها فمادت فأوتدها بالجبال" .

فكان أوّل جبل وُضِعَ، جبلُ أبى قُبَيْس . وهو الجبل المطلّ علىٰ الكعبة .

وفى كنيته بأبى قبيس قولان :

أحدهما — أن آدم كناه بذلك حين ٱقتبس منه النار التى بين أيدى الناس (وقد تقدّم بيان ذلك فى الباب الرابع من القسم الثانى من هذا الفنّ فى ذكر النّيران) .

الثـانى — أنه أضيف إلىٰ رجل من جُرْهُم كان يتعبد فيه، آسمه أبو قبيس . ويقال فيه أبوقابوس،وشيخ الجبال . وكان من قبل يسمّى بالأمين .

وقال محمد بن السائب الكلبيّ : " إن الله عز وجل لمـا خلق الأرض، مادت بأهلها . فضربها بجبل السَّراة فاطمأنت " .

وهو أعظم جبال العرب وأكثرها خيرا، ويسمّى الحجـاز . وهو الذى حجز بين تهامة ونجد . فتهامة من جهته الغربية ممـا يلى البحر،ونجد من جهتـه الشرقية . وهو آخذ من قعر عدن إلىٰ أطرار الشأم(١)". ويسمّى هناك جبل لُبْنان . فإذا تجاوز اللاذقية ومرّ بالثغور، سُمِّيَ جبل اللُّكَّام . ثم يمتدّ فى بلاد الروم إلىٰ بلاد أرمينية، فيسمّى هناك حارثا وحويرثا . ثم يمتدّ إلىٰ بحر الخزر، وفيه " الباب والأبواب" .

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالىٰ : " قٓ والقُرْآنِ المَجِيدِ " إنه جبل محيط بالعالَم من زمرّدة خضراء، وإن جبال الدّنيا متفرّعة عنه .

وقال قوم : إن السماء مطبقة عليه والشمس تغرب فيه، وهو الحجاب السـاتر لهـا عن أعين الناس،فى أحد الوجوه المفسَّربها قوله تعالىٰ: "حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالحِجَابِ".

وقال قوم : إن منه إلىٰ السماء مقدار ميل،وإن الذى يُرىٰ من خضرة السماء مكتسب من لونه .

وقال ابن حوقل : جميع الجبال الموجودة فى الدّنيـا متفرّعه عن الجبل الخارج من بلاد الصين،مشرقا ذاهبا علىٰ خط مستقيم إلىٰ بلاد السودان مغرّبا .

---

(١) فى الاصـل أطبران، وهو تحريف . والتصحيح عن البكرى : أطرار الشام وفيه فى موضع آخر " أطراف بوادى الشام " ومثل هـذا فى ياقوت . وأطرار الوادى نواحيه وكذلك أطرار البلاد والطريق واحدها طر . وأطرار البلاد أطرافها . (عن تاج العروس) .

(٨٠) وقال أبو الفــرج قُدامة بن جعفر فى "كتاب الخَرَاج" : وجدت خلف خط الاستواء فى الجنوب وقبل الإقليم الأوّل جبالا تسعة : خمسةٌ منها متقاربة المقادير، أطوالهــا ما بين أربعمائة ميل إلى خمسمائة ميل؛ وجبلا طوله سُبْعُمائة ميل؛ وجبل القَمَر، وطوله ألف ميل؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، و بعضــه فى الإقليم الأول؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، و بعضه فى الإقليم الثانى .

قال : ومجموع ما عُرِف فى الأقاليم السبعة من الجبال مائةٌ وثمانيةٌ وتسعون جبلا. منها فى الإقليم الأول ســبعةَ عشرَ جبلا، وفى الإقليم الثانى تســعةٌ وعشرون جبلا، وفى الإقليم الثالث أحدٌ وثلاثون جبلا، وفى الإقليم الرابع أربعــةٌ وعشرون جبلا، وفى الإقليم الخامس تسعة وعشرون جبلا، وفى الإقليم السادس أربعة وعشرون جبلا، وفى الإقليم السابع أربعة وأربعون جبلا .

٢ — ذكر أسماء ما آرتفع من الأرض إلى أن يبلُغ الجبيل

ثم ما آرتفع عن ذلك إلى أن يبلغ الجبل العظيم، وترتيب ذلك

قال الثعالبىّ فى كتابه المترجم "بفقه اللغة" وأسنده إلى أئمتها :

أصغرُ ما آرتفَع من الأرض النَّبَكة، ثم الرابِيَــة أعلى منها، ثم الأَكَمة، ثم الزُّبْية، ثم النَّجوة، ثم الرِّيعُ، ثم القُفُّ، ثم الهَضْبة (وهى الجبــل المنبسِط على الأرض)، ثم القَرْن (وهو الجبل الصغير)، ثم الدَّكُّ[(١)] (وهو الجبل الذليل)، ثم الضِّلَع (وهو الجبل الذى ليس بالطويل)، ثم النِّيقُ (وهو الجبل الطويل)، ثم الطَّوْد، ثم الباذِخُ والشَّامِخُ، ثم الشَّاهِق، ثم المُشْمَخِرُّ، ثم الأَقْودُ والأَخْشَب، ثم الأَيْهَم، ثم القَهْب (وهو العظيم)، ثم الخُشَام .

(١) فى الأصل : الجبل الدكيك . وقد آعتمدنا ما فى القاموس وفقه اللغة أيضا .

٣ — ذكر ترتيب أبعاض الجبل

قال الثعالبيّ :

أول الجَبَل الحَضِيض، وهو القَرَار من الأرض عند أصْل الجبل .

ثم السَّفح، وهو ذيله .

ثم السَّنَد، وهو المرتفع فى أصله .

ثم الكِيحُ، وهو عَرْضه .

ثم الحُضْن، وهو ما أطاف به .

ثم الرَّيْد، وهو ناحيته المشرِفة على الهواء .

ثم العُرْعُرَة، وهى غلظه ومعظمه .

ثم الحَيْد، وهو جَنَاحه .

ثم الرَّعْن، وهو أنفه .

ثم الشَّعَفة، وهى رأسه .

وقال صاحب كتاب "الفاخر" : يقال من أسماء الجبال : العظيم منها الطَّور، والطَّوْد، والكَنِفرُ، والقَهْب، والعَمُود، والعَلَم، والأرْعَن[1]، والمُشْمَخِرّ .

والأيْهم الطويل، وهو الشامِخُ، والشاهِقُ، والباذِخُ، والباسِقُ، والأقْوَدُ .

والأخْشَب، الخَشِن .

والعِقَابُ، الصِّعاب .

والثَّنايَا، التى ليست بصَعْبة .

---

(١) كذا بالأصل . والذى فى القاموس واللسان والمخصص (الرَّعْن أنف الجبل المتقدّم أو الجبل الطويل) فما هنا من تحريف النساخ .

والهِرْشَمُّ، النَّخِر.

والخُشَام، جبل طويل ذو أَنْف.

والوَزَر، والمَلْجَأ، والقَلْعة، ما يُحَصَّن فيه.

والقَرْن، جبل صغير.

والضِّلَعُ والدُّكُّ، فيه دِقَّة وانْحِناء.

والنِّيق، الذى لا يُستطاع أن يُرْتقىٰ إليه.

وأعلىٰ الجبل قُلَّته وقُنَّته وذُؤابتُه.

وعُرْعُرَتُه، غِلَظه.

والفِنْد، القِطْعة منه.

وشَعَفُه ومَصَادُه، أعلاه.

والكِيحُ والكَاح، عُرْضه.

والرُّخُّ(١)، ناحيته المُشْرِفة علىٰ الهواء.

والحَضِيض، أسفله.

قال: وصغار الجبال، اليَفَع، والضِّرْس، والضَّرب والعنتيبة(٢)، والعُنْتُوتُ، والأَكَمة، والهَضْبة.

والذَّرِيحة، ما آنبسَط علىٰ وجه الأرض.

واللَّوْذ، حِضْن الجبل وما يُطيف به.

(١) فى الأصل: الوخ بالواو. وهو تصحيف من الناسخ. وقد صححناه آعتمادا علىٰ ما فى القاموس والمخصص.

(٢) كذا بالأصل ولم نعثر عليها فى القاموس واللسان والمخصص.

والرِّيْد والرُّيُود، نَوَاحِيه المحدّدة .

والحَيْدُ، شاخصٌ يتقدّم كالجَناح . ومثله الشُّنْعُوف .

والصَّدْع والشَّقْب، شَقٌّ فيه .

والغارُ والكَهْف، مثل البُيُوت فيه .

والقُرْدُوعة، الزاوية فيه .

واللِّهْب والنَّفْنَف والغارُ، مَهْوَاة بين جبلين .

والشُّؤُون، خُطُوط فيه .

والخَرِم، مُنقَطَع أنْفه .

والقُرْناس، شِبْه الأنْف .

والإِرَم، العَلَم فيه .

٤ — ذكر ترتيب مقادير الحجارة

قال الثعالبي :

إذا كانت صغيرة، فهي حَصَاة .

فإذا كانتْ مثـلَ الجَوْزة وصلحت للاستنجاء بها، فهي نَبَلة . وفي الحـديث : "اِتَّقُوا المَلَاعِنَ وأعِدّوا النُّبَل" . يعني عند إتيان الغائط .

فإذا كانت أعظم من الجَوْزة، فهي قُنْزُعَة .

فإذا كانت أعظم منها وصَلَحت للقَذْف، فهي مِقْذاف ورُجْمَة ومِرْداة . ويقال: إن المِرْداة، حَجَر الضبّ الذي ينصبه علامة لجحره .

فإذا كانت مِلءَ الكفّ، فهي يَهْيَرٌ .

فإذا كانت أعظم منها، فهى: فِهْر، ثم جَنْدل، ثم جَلْمَد، ثم صَخْرة، ثم قَلَعة . وهى التى تنقلِع من عُرْض الجبل . وبها سميت القَلْعة التى هى الحِصْن .

وقال صاحب كتاب "الفاخر" : من أسمائها ، الحِجَارة ؛ والجُلْمود والجَلْمَد الحجر الصُّلب .

والبِرْطِيلُ، الصَّخْرة العظيمة .

والصَّفْوانُ، الأملسُ .

والرَّضْمة، الحجر العظيم .

والأُثَان، صخرة فى مَسِيل ماء أو حافة نهر . (٨١)

والإِزَاء، التى عند مهراق الدلو .

والرُّجمة، ما تطوى به البئر .

والكَذَّانُ، الرِّخْو .

والبَرْمَع، الأبيضُ الرِّخو .

والمُدُقّ والمَدَاك والصَّلاَيَة، حجر العطار الذى يسحق عليه العطر .

والفِهْر، ما يملأ الكفَّ ويُسْحَق به العِطْر .

والمِرْداة، ما يكسر به الحجر .

والمِرْداس، ما يُرْمىٰ به فى البئر لينظر أفيها ماء أم لا . قال الشاعر:

مَنْ جَعَل العِدّ القَدِيمَ الّذِى * أنت له عِـدَّةُ أحراسِ،
إلىٰ ظَنُونٍ أنتَ من مائِهِ * منتَظِرٌ رَجْعـةَ مِرْداسِ.

والنَّشَفُ، حجر تُدْلك به الرِّجْل فى الحَمّام .

والنَّقَلُ، ما كان فى طرق الجبال .

والأُثْفِيَّة . ما يُنْصَب عليه القدر .

والقَلَّاعة ، ما يُرمىٰ به فى المِقْلاع .

والظُّرَّان ، حِجارة محدّدة يذبَح بها .

والصَّفِيح ، مارَقَّ منه وعَرُض .

واللِّخَاف ، حِجارة عِرَاض .

والفَلَك ، قِطْعة مستديرة وترتفع عما حولها .

والمُدَمْلَك ، المدوّر .

والكَلِيت ، حَجَر مستدير يسدّ به وِجَار الضَّبُع .

والبِلِّيت (١) ، التام .

وقال ابن الأعرابى : القَبِيلة ، صخرة على رأس البئر ، والعُقَابان من جنبتيها يعضدانها .

ومنها المَرْو ، وهى البِيض كالحصىٰ .

والحَضْباء ، الصغار .

والرِّضْراض ، نحوها .

والقَضِيض ، أصغر منها .

والزَّنَانير ، واحدها زُنَيْر ، أصغر ما يكون .

(١) كذا بالأصل وعبارة القاموس (والبليت كسِكِّيت لفظا ومعنى) واللسان (وبَلِّيت الرجل ازْمِيت) وهو الحليم الساكن القليل الكلام .

٥ — ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر الجبال والحجارة

ما جاء من ذلك على لفظ أفعل . يقال :

أثقلُ من ثَهْلانَ . أثقل من نَضَادٍ . أثقلُ من أُحُد . أصلَبُ من الحَجَر . أصلب من الجَنْدل . أقسى من الحجر . أصبَرُ من حجر . أيْبَسُ من صخْر . أبقىٰ من النَّقْش فى الحجر .

ويقال :

رُمِى فلان بحجره . رُدَّ الحجرَ من حيثُ جاءك . وَجِّهِ الحجرَ وِجْهةً مَا ، أى دَبِّرِ الأمر علىٰ وَجْهه . أُلقِمْه الحجر ، أى جاوِبْه بجوابٍ مُسْكت . رماه بثالثة الأثافِى . أنجدَ مَنْ رأىٰ حَضَنا (وحَضَنٌ جبل بنجد) أى من رآه لم يحتجْ أن يسأل هل بلغ نَجْدا أم لا . الليل يُوارِى حَضَنا ، أى يُخْفِى كل شىء حتّى الجبل .

ومن أنصاف الأبيات :

* كأنّه عَلَمٌ فى رأسه نارُ *   * إذا قطَعْنا عَلَمًا بَدَا عَلَمْ *

* قُومُوا ٱنظُروا كَيْفَ تَزُول الجبالْ *

(يضرب لموت الرؤساء) .

* جَنْدلتانِ ٱصْطَكَّتا ٱصْطِكاكَا *

(يضرب لقرنين يتصاولان) .

ومن الأبيات :

ولو بغىٰ جَبَلٌ يوما علىٰ جَبَلٍ، * لاَنْهَدَّ مِنْهُ أعالِيه وأسْفَلُهُ !

تَتَناثَرُ الأطوادُ وهى شَوامِخٌ * حتّى تَصيرَ مَدَاوسَ الأقدامِ .

جُدْ فَقَدْ تَنْفَجِرُ الصَّخْـ * ـرةُ بالماءِ الزُّلال .

٦ — ذكر شيء مما قيل في وصف الجبال وتشبيهها

قال السموءل بن عاديا :

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّه مَنْ نُجِيرُه * مَنِيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وهْوَ كَلِيلُ!
رَسَا أَصْلُه تحت الثَّرَىٰ وَسَمَا بِهِ * إلىٰ النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُرَامُ طَوِيلُ!

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

وأَرْعَنَ طَمَّاحِ الذُّؤابة باذخٍ * يطاوِل أعنانَ السَّماءِ بغاربِ.
يَصُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ من كُلِّ وجهةٍ * ويَزْحَمُ لَيْلًا شُهْبَهُ بالمَنَاكِبِ.
وَقُورٍ علىٰ ظهرِ الفَلَاةِ كأنَّه * طِوَالَ اللَّيالِي ناظِرٌ في العَوَاقِبِ.
يَلُوثُ عليه الغَيْمُ سُودَ عَمَائِمٍ * لَهَا مِنْ وَمِيضِ البَرْقِ حُمْرُ ذَوائِبِ.
أَصَخْتُ إليه وهْوَ أَخْرَسُ صامتٌ * فَحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرىٰ بالعَجَائِبِ.
وقال : أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلْجَأَ فاتِكٍ * ومَوْطِنَ أَوَّاهٍ ومَوْئِلَ تائِبِ!
وكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ ومُؤَوِّبٍ * وقَالَ بِسَفْحِي مِنْ مَطِيٍّ وراكِبِ!
ولَاطَمَ مِنْ نُكْبِ الرِّياحِ مَعَاطِفِي * وزاحَمَ من خُضْرِ البِحارِ جَوَانِبِي!
فَمَا كانَ إلَّا أنْ طَوَتْهُمْ يَدُ الرَّدىٰ * فطارَتْ بهم رِيحُ النَّوىٰ والنَّوائِبِ.
وما غَيَّضَ السُّلْوانُ دَمْعِي وإنَّمَا * نَزَفْتُ دُمُوعِي من فِراقِ الأَصَاحِبِ.
وأَسْمَعَنِي من وَعْظِه كلَّ عِبْرةٍ * يُتَرْجِمُها عنه لِسانُ التَّجارِبِ.
فَسَلَّى بما أَبْكَىٰ، وسَرَّى بما شَجَىٰ، * وكانَ علىٰ ليلِ السُّرىٰ خَيْرَ صاحِبِ.
وقُلْتُ وقد نَكَّبْتُ عنه مَطِيَّتِي : * سَلَامٌ فإنَّا من مُقِيمٍ وذاهِبِ!

(٨٣) وقال أيضا عفا الله عنه :

وأشرفَ طَمَّاحِ الذُّؤابة شامِخ * تَمنْطَقَ بالجَوْزاء لَيْلًا، له خَصْرُ.
وَقُورٍ على مَرِّ اللَّيالِي كأنَّما * يُصِيخُ إلى نَجْوى وفي أُذْنِه وَقْرُ.
تَمهَّدَ منه كُلُّ رُكْنٍ زَكَا به * فقَطَّبَ إطْراقًا وقد ضَحِكَ البَدْرُ.
ولَاذَ به نَسْرُ السَّماء كأنَّما * يُجَرُّ إلى وَكْرٍ به ذلك النَّسْرُ.
فلم أَدْرِ من صَمْتٍ له وسَكِينةٍ * أكَبْرَةُ سِنٍّ وَقَّرتْ منه أم كِبْرُ.

وقال أيضا يصفه نثرا من رسالة كتبها إلى بعض الرؤساء :

وكيف لى بقُرْبك ودونَك كل عَلَم باذخ، مَجَّ الليلُ عليه رُضَابَه، وصافحت النجومُ هِضَابه، قد ناء بطَرْفه، وشمخ بأنْفِه، وسال الوَقَار على عِطْفه، قد لاثَ من غَمَامه عِمَامه، وأرسل من رَبَابه ذُؤابه، تُطرِّزها البُروق الخواطف، وتهفو بها الرياح العواصف، بحيث مدّه البسيطُ بِساطا، وضُربت السماء فُسْطاطا .

الباب السادس
من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ — في ذكر البحار والجزائر

روى عن آبن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال: "لما أراد الله عز وجل أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ووصف من طولها وعرضها وسمكها، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء يترقرق لايثبت فى ضحضاح . فما يرى من التموّج والاضطراب إنما هو آرتعاده من خشية الله تعالى، ثم خلق الريح فوضع الماء على متنه، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء". وفسر بهذا قوله عز وجل: "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

٢ — ذكر بحار المعمور من الأرض

وبحار المعمور ثلاثة: أعظمها البحر المحيط، ثم بحر مانيطش[1]، ثم بحر الخزر.

فأما البحر المحيط وجزائره، ويسمّى باليونانية أوقيانوس، ويسمّى بحر الظلمات، سمّي بذلك لأن ما يتصاعد من البخار عنه لا تحلله الشمس لأنها لا تطلع عليه. فيغلظ ويتكاثف فلا يدرك البصر هيئته. ولعظم أمواجه، وتكاثف ظلمته، وغلظ مائه، وكثرة أهوائه، لم يَعلَم العالَمُ من حاله إلا بعض سواحله وجزائره القريبة من المعمور. والذي عُلم به من الجزائر ستةٌ من جهة المغربِ، تسمّى جزائر السعادات، والجزائر الخالدات.

قال أبو عبيد البكريّ في كتابه المترجم "بالمسالك والممالك": وبإزاء طنجة الجزائر المسماة باليونانية. فُرطناتُس أي السعيدة. وسميت بذلك لأن في شَعْرائها[2] وغياضها كلّها أصنافَ الفواكه الطيبة من غير غراسة ولا فلاحة، وأن أرضها تحمل الزرع مكان العشب، وأصناف الرياض بدل الشوك. وهي متفرقة متقاربة.

ويقال إن بعض المراكب عصفت عليها الريح فألقتها إلى جزيرة من هذه الجزائر، فنزل مَنْ فيها من الركاب إليها، فوجدوا فيها من أنواع أشجار الفواكه وأشجار الأفاويه وأنواع اليواقيت كل مستحسن. فحملوا منه ما أطاقوا ودخلوا به بلاد الأندلس. فسألهم ملكها من أين لهم هذا. فأخبروه بأمرهم، فجهز مراكب وسيرها، فلم يقفوا على جزيرة منها. وعدمت المراكب لعظم البحر وشدّة عصف الريح فلم يرجع منها شيء.

(١) كذا في الأصل. وفي كثير من كتب الجغرافية العربية: وهو المعروف في كتب الجغرافية عربية مثل أبي الفدا بحر أزّق، وعند الأتراك بحر آزوف.

(٢) الشعراء: الأرض ذات الشجر.

ويقال إن هذه الجزائر مسكونة بقوم هم بالوحوش أشبه منهم بالناس. وبينها وبين ساحل البحر عشرة أجزاء .

ويقال إن فى جهة المشرق مما يلى بلاد الصين ستة جزائر أخرى، تسمّى جزائر السيلى . يقال إن ساكنيها قوم من العلويين،وقعوا إليها لما هربوا من بنى أمية .

ويقال إن جزائر السيلى لم يدخلها أحد من الغرباء وطاوعته نفسه على الخروج منها لصحة هوائها ورقة مائها،وإن كان منها فى عيش قشيف .

وفى هذا البحر من الجزائر العامرة جزيرة برطانية،وهى تحاذى جزيرة الأندلس، وأهلها صُهْب الشعور،زُرْق العيون .

ومما يلى بلاد إفرانسية جزائر يعْمُرها خلق من الفرنج ، لا ينقادون لبلد ، ولا يدينون بدين .

وفيما يلى الأرض الكبيرة جزيرة ذات أبرجة، يحيط بها سبعمائة ميل وخمسون ميلا،وفيها أربع مدائن، فى كل مدينة ملك .

وجزيرة برفاغة . يحيط بها أربعة آلاف ميل، وفيها ثلاث مدائن عامرة . والداخل إليها قليل . وهى كثيرة الأنواء والأمطار . وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عندهم ، ويجعلونه فى بيت ويوقدون النار حوله حتّى يجف .

وجزيرة أنقلطرة . فيها مدائن عامرة، وجبال شاهقة، وأودية، وأرض سهلة. والشتاء بها دائم . وبين هذه الجزيرة والبر مجاز سعته آثنا عشر ميلا .

وفيه مما يلي الصقالبة جزيرتان : إحداهما جزيرة أمرنانيوس النساء، لايسكنها غير النساء فقط . وتسمى الأخرى أمرنانيوس الرجال، لايسكنها غير الرجال . وهم في كل عام يجتمعون زمان الربيع، ويتناكحون نحوا من شهر ثم يفترقون .

ويقال إن هاتين الجزيرتين لا يكاد يقع طرف أحد عليهما لكثرة الغمام، وظلمة البحر، وعظم الأمواج .

٣ — ذكر ما يتفرّع من البحر المحيط

يتفرع من البحر المحيط خليجان : أحدهما من جهة المغرب، ويسمى البحر الرومىّ . والآخر من جهة المشرق، ويسمّى البحر الصينىّ، والهندىّ، والفارسىّ، واليمنىّ، والحبشىّ، بحسب ما يمرّ عليه من البلاد .

وهما المرادان بقوله تعالى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ . أى لايبغى هذا على هذا .

والبرزخ أرض بين الفَرَما التى هى على بحر الروم، وبين مدينة القُلْزُم التى هى على بحر الحبش(١)، مسافتها ثلاثة أيام . وقيل : البرزخ إرسال ماء البحر الحلو على ماء البحر الملح، لأنه مَفيض له . فلا سبيل لأحدهما على الآخر، بل جعل الله بينهما حاجزا وهو البرزخ .

فأما البحر الرومىّ وجزائره، فإن المؤرّخين قالوا إن الإسكندر حفره وأجراه من البحر المحيط . ويقولون إن جزيرة الاندلس وبلاد البربر كانت أرضا واحدة يسكنها الإشبان والبربر . وكان بعضهم يُغير على بعض، والحرب بينهم سجال . فلما

(١) فى الأصل بحر فارس . وكان الأصوب أن يعبر باللفظ الذى اختاره لهذا المقام، وهو البحر الحبشى

ملك الإسكندر، رغب إليه الإشبان فيما يحول بينهم وبين البربر. فرأى ان يجعل بينهما خليجا من البحر يمكن به احتراس كل طائفة من الأخرى. فحفر زُقاقا طوله ثمانية عشر ميلا، وعرضه اثنا عشر ميلا. وبنى بجانبيه سكرين(١)، وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها، وجعل عليها حرّاسا يمنعون الجواز عليها من جهة البربر إلا بإذن من جعله نائبا عنه فى بلاد الإشبان. وكان قاموس البحر أعلى من أرض الزقاق، فطما وغطّى السِّكْرين والقنطرة، وساق بين يديه بلادا وطغا على أخرى. حتّى إن المسافرين فيه يخبرون أن المراكب فى بعض الأوقات يتوقف سيرها فيه مع وجود الريح. فيسبرون أمرها، فيجدون المانع لها سلوكها بين شرفات السور أو بين حائطين. فعظم طولا وعرضا، وصار بحرا(٢).

قال صاحب كتاب "مباهج الفكر ومناهج العبر": وقد زاد عرضه ستة أميال عما كان عليه فى زمن الإسكندر. فصار ثمانية عشر ميلا.

قال: وزعم السالكون فيه أنّ البحر ربما جزر فى بعض الأوقات، فترى القنطرة. قالوا: وهذا الزقاق صعب شديد متلاطم الأمواج مهول، شبيه بما جاوره من البحر المحيط.

وأهل الأندلس يقولون إن بين هذا البحر وبين البحر المحيط بحرا يسمونه بحر الأيلاية بتفخيم اللام(٣). وهو بحر عظيم الموج صعب السلوك.

---

(١) السكر (بكسر السين) هو ما سُدَّ به النهر.

(٢) هو المسمى بحر الزقاق واسمه الآن مجاز جبل طارق.

(٣) لعل المؤلف يشير إلى خليج ليون فهو مشهور بشدة التيار وبصعوبة السلوك.

ومبدأ جريه من البحر الرومى من الإقليم الرابع . فإذا خرج من الزقاق يمرّ مشرّقا فى جهة بلاد البربر وشمال المغرب الأقصى إلى أن يمر بالمغرب الأوسط ، إلى إفريقية ، إلى برقة ، إلى الإ[illegible]رية ، إلى شمال أرض التيه وأرض فِلَسْطِين . فيمر بسواحل الشام إلى أن يصل إلى السويدية التى هى فرضة أنطاكية ، وعندها محجز البحر . ومنها يعطف فيمر على العلايا وأنطالية (وهما فرضتان لبلاد الروم) ، ثم على ظهر بلاد قسطنطينية إلى أن ينتهى إلى المكان الذى منه خرج . وطوله خمسة آلاف ميل ، وقيل ستة آلاف . وعرضه مختلف : ففى موضع ثلثمائة ميل ، وفى موضع ستمائة ميل ، وفى موضع سبعمائة .

ويقال إن فيه ما يزيد على مائة وسبعين جزيرة . كانت عامرة بطوائف من الفرنج ، أخرب المسلمون أكثرها بالمغازى فى صدر الإسلام .

وأجلّ ما ملك المسلمون منها ، ثم انْتُزِع أكثره من أيديهم :

١ — جزيرة الأندلس .

٢ — وجزيرة يابسة . وهى حيال جزيرة الأندلس ، ومسافتها يومان فى يوم . وفيها مدينة صغيرة مسوّرة .

٣ — وجزيرة منرقة ، ومسافتها يومان فى نصف يوم . وفيها مدينة عامرة .

٤ — وجزيرة ميورقة . ويقال فيها مايورقة . ومسافتها يومان فى يومين ، وبها مدينة .

٥ — وجزيرة رودس[1] . وهى حيال بلاد أفرنجة[1] . ويحيط بها ثلثمائة ميل . وفيها حصنان .

---

(١) هذا الوصف لا ينطبق على جزيرة رودس ، بل على جزيرة قورسقة التى هى حيال بلاد أفرنجة أي فرنسا ، وهى تابعة لها .

(٨٤) ٦ — وجزيرة سردانية . وطولها مائتان وثمانون ميلا ، وعرضها مائة وثمانون ميلا . وفيها ثلاث مدائن كبار . وسكانها قوم من الفرنج متوحشون . وبها معدن فضة .

٧ — وجزيرة صقلية . وهى حيال إفريقية مضاهية لجزيرة الأندلس . وشكلها مثلث . يحيط بها خمسمائة ميل . كثيرة الجبال ، والحصون ، والأمصار ، والأنهار، والأشجار .

ومما فيها من المدن المشهورة علىٰ ساحل البحر :

بلرمو . وبها يكون الملك ، وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ثم آنتقل الناس منها إلىٰ الخالصة . وهى محدثة . بنيت فى أيام القائم آبن المهدى العبيدى فى سنة خمس وعشرين وثلثمائة . ثم صارت بلرمو وبقيت الخالصة ربضا لها ؛

وقطانيـة . وكانت عظيمة فأحرقها البركان الذى فى الجزيرة . فبنىٰ الأمبرطور مدينة عوضها ، وسماها غشطارة .

ومسيني . وهى علىٰ أحد أركان الجزيرة .

وسرقوسة . وهى علىٰ الركن الآخر،والبحر محيط بها من ثلاث جهاتها .

وطرابنش . وهى علىٰ الركن الثالث،والبحر محيط بها . ولها مجاز .

ومن بلاد هـذه الجزيرة البرية : والشاقة ، ومازر، وكركنت ، ونوطس، وطبرمين، وقصريانة، والنور، ورغوص، وغيطة، وغير ذلك .

وبهذه الجزيرة . (ويقال بجزيرة ملاصقة لها) بركان، وهو أطمة يخرج منها أجسام كأجسام الناس بغير رؤوس من النار، فتعلو فى الهواء ليلا ثم تسقط فى البحر، فتطفو علىٰ وجه الماء . ومنها يكون حجر المرو الذى تحكّ به الأرجل .

٧ — وجزيرة بلونس . ودورها ألف ميل . ولها مجاز إلى البر الطويل ، عرضه ستة أميال . فيها ما يزيد على خمسين مدينة ، القواعد منها خمس عشرة مدينة ، وهي مشهورة عند الفرنج .

٨ — وجزيرة مالطة . وطولها أربعة وعشرون ميلا ، وعرضها آثنا عشر . وفي وسطها مدينة واحدة .

٩ — وجزيرة قوسرة . وفيها مواضع متوحشة .

١٠ — وجزيرة إقريطش . وهي حيال برقة . طولها ثلثمائة ميل ، وعرضها مائة وثلاثون ميلا . وبها مدينتان : إحداهما تسمّى الخندق ، والأخرى تسمّى ربض الجبن . وفيها معدن ذهب .

١١ — وجزيرة قُبرُس . وهو آسم النحاس ، لأن بها معدن نحاس . يحيط بها ألف ميل وخمسمائة ميل . وفيها من المدن الجليلة ، ليمسون ، والباف بباء مفخمة ، والماغوصة . وكلها في البحر . وفي وسط الجزيرة مدينة الأفقسية . وهي القصبة . وبها يكون متولى الجزيرة .

---

٤ — ويخرج من هذا البحر خليجان

أحدهما يسمى جون البنادقة ، والآخر يسمى خليج القسطنطينية .

١ — فأما خليج البنادقة . فإنه خليج كبير متسع ليس له فُوَّهة . وإنما هو جونٌ له ركنان ، سعة ما بينهما سبعون ميلا . يحيط بهذا الجون مدن جليلة لطائفة من الفرنج تسمى البنادقة . وهي ذوات حصون وقلاع ممتنعة .

ومبدؤه من شرقى بلاد قلورية عند مدينة تسمى أُذْرَنْت (١)، ومنتهاه بلاد إيكلاية (٢). ومن هناك يعطف، وطوله ألف ميل ومائة ميل. وفيـه ست جزائر، ثلاثة منها فى ضفة، وثلاثة فى أخرى، بها مدن عامرة. وثلاثة معترضـة بين ركنيه مهملة لا ساكن بها.

٢ — وأما خليج القسطنطينية. ويسمى بحر نيطش فإن فوهتـه مقابلة لجزيرة رودس، وسعتها غلوة سهم. ويقـال إنه كان بين الشطين سلسلة طرفاها فى برجين تمنع المراكب من العبور إلا بإذن الموكل بها.

ويمر هـذا الخليج نحو مائتى ميل وخمسين ميلا إلى أن ينتهى إلى القسطنطينية فتكون فى غربيه، يحيط بجهتين منها.

وهى مدينة عظيمة مشهورة. وعرض البحر عندها أربعة أميال.

ثم يمر ستين ميلا حتى ينصب فى بحر ما نيطش. وهو بحر سوداق. وعرض فوهته هناك عشرة أميال. وفى موضع أقل، وفى موضع أكثر.

فهذا البحر الرومى وجزائره وما تفرع منه.

والله أعلم.

---

(١) فى الأصل أكذنت وهو تحريف لمدينة أذرنت قال فى نزهة المشتاق: خليج البنادقيين ومبدؤه من شرق بلاد قلوريه . . . من عند أذرنت . . . وينتهى طرفه إلى بلاد إيكلاية.

(٢) فى الأصل أنكلاية، وهو تحريف ظاهر عن إيكلاية التى ذكرها الإدريسى فى هذا الموضع.

٥ — وأما بحر الهند وجزائره

فمبدؤه من مشرق الصين فوق خط الأستواء . ويجرى إلىٰ جهة الغرب، فيجتاز ببلاد الواق،[١] وبلاد سُفالة الزنج، ثم ببلاد الزنج حتّٰى يصل إلىٰ بلاد بربرا، وهناك حجزه .

وأما الشرقىّ : فمبدؤه من لوقين ، وهى أوّل مرافىء الصين ثم بخانقو فُرْضَة الصين العظمىٰ، ثم إلىٰ سَمَنْدُور من بلاد الهند، ثم إلىٰ حارتين ، إلىٰ قندرينه،[٢] إلىٰ تانة، إلىٰ سندابور، إلىٰ بَرْوَص (ويقال بَرْوَج، وإليها ينسب القماش البَرْوَجى)، إلىٰ صَيْمُور،[٣] إلىٰ سَنْدَان، إلىٰ سوتارة، إلىٰ كنباية . (وإليها ينسب القماش الكنبايتى)، (٨٥) إلىٰ دَيْبُل (وهى أوّل مرافئ السند)، ثم إلىٰ سرون، ثم إلىٰ التِّيز[٤] من بلاد مُكْرَان، وهى أحد ركنى الخليج الفارسىّ . والركن الآخر يسمى رأس الجُمْجُمَة : وهو جبل خارج فى البحر، ومن هناك يسمى بحر اليمن، ثم يمتدّ علىٰ ظَفَارِ، ثم علىٰ الشِّحْر ساحل بلاد مَهَرَة، ثم علىٰ شُرْمَة ولَسْعا (ساحلى بلاد حضر موت)، ثم علىٰ أَبْيَن، ثم علىٰ عَدَن، ثم المَخْنَق، ثم العارة، ثم يمتدّ إلىٰ باب المندب .

(١) قال البيرونى مانصه : (فى كتاب تحقيق ما للهند ص ١٠٣ سطر ٧) جزيرة الوقواق من جملة قمير . وهو اسم لا كما تظنه العوام من أنه شجرة حملها كر . وس الناس تصيح ولكن قمير قوم ألوانهم الى البياض قصار القدود على صور الأتراك ودين الهنود مخرمى الآذان وأهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان والناس فيهم أرغب ويجلب منهم الآبنوس الأسود وهو لب شجرة تلق حواشيها فأما الملمع والشوحط والصندل الأصفر فن الزنج . اه

(٢) لعل المقصود : قنديبل (وقد ذكرها ياقوت) .

(٣) ويقال صيمون (أُنظر ياقوت) .

(٤) هى قصبة بلاد مكران بالسند .

ومن هناك يخرج خليج القُلْزُم، وطوله ثمـانية آلاف ميل، وعرضه يختلف. فى موضع ألف ميل وسبعمائة ميل، وفى موضع ألفان، وفى موضع دون ذلك.

ويقال: إن بينه وبين البحر المحيط بحرا آخر يسـمى البحر الزفتى، سمى بذلك لظلمته وسواده، وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل.

وهذا البحر — أعنى الهندى — بجملته قسمه السالكون له ستَّ قطع، وضعوا لها أسمـاء مختلفة.

١ — فالذى يمر بأرض الصين يسمى بحر صنجى(١)، ينسب لمدينة فى جزيرة من جزائره. وهو بحر كثير الأمواج مهول. فإذا كان فى أول هيـاجه ظهر فيه بالليـل أشخاص سود، طول الواحد منهم خمسة أشبار وأقلّ من ذلك. يصعدون إلى المراكب ولا يضرون أحدا. فإذا عاينهـم السُّفَّار، أيقنوا بالدّمار. وإذا قدر الله تعالى نجاتهم من هذه الشدّة، أراهم على رأس الدَّقَل طائرا أبيض كأنمـا خلق من النور، فيتباشرون به. فإذا ذهب عنهم الروع، فقدوه.

وفيه من الجزائر المعمورة:

جزيرة شريرة(٢). يحيط بها ألف ميـل ومائتا ميل. فيها مدائن كثيرة، أجلها المدينة التى تنسب إليها، ومنها يجلب الكافور.

وجزيرة صنجى. وإليها تنسب هذه القطعة. وطولها مائتا ميل، وعرضها أقلّ من ذلك. وفيها جواميس وبقر بغير أذناب.

---

(١) لعل هـذا الأسم هو و"شنجو" لمسمى واحد. وهى المعروفة عند العرب بأسم مدينـة "زيتون" وهى فُرْضَة الصين (راجع أبا الفدا).

(٢) سماها أبو الفدا: سريرة.

وجزيرة أنفوجة . يحيط بها أربعمائة ميل . عمارتها متصلة .

٢ — ويلى هذه القطعة قطعة تسمّى بحر الصّنْف . فى جزيرة من جزائره مدينة . وهو بحر خبيث كثير الأمطار والرياح الشديدة . وفى جباله معادن الذهب والرصاص ، وفيه مغاص اللؤلؤ ، وفى غياضه الخيزران . وفيه مملكة المهراج . ويشتمل على جزائر لاتحصى ، ولا يمكن المراكب أن تطوف بها فى سنة . وفيها أنواع الطيب من الكافور ، والقَرَنْفُل ، والعود ، والصَّنْدل ، والجَوْز بَوًّى ، والبَسْبَاسَة ، والكُبَابَة .

ومن جزائره المشهورة :

جزيرة الزانج . وتكسيرها سبعمائة فرسخ ، وبها يكون المهراج ، وهو اسم يطلق على كل من ملكها .

وجزيرة البركان . وهى جزيرة فيها جبل يرمى بالشرر ليلا ، وبالرعود القواصف نهارا ، وهى أحد آطام الدّنيا المشهورة .

وجزيرة قُمَار . وإليها ينسب العود القمارىّ . وبها شجر الصندل . دورها أربعة أشهر . وهى مأوى عُبَّاد الهند وعلمائهم . يسمّى ملكها قامرون .

وجزائر الرامى(١) . وهى نحو ألف جزيرة معمورة . بها الملوك . وفيها معادن الذهب ، وشجر الكافور .

وجزائر لنجبالوس . ويقال لنكبالوس . وهى كثيرة ، وأهلها سود ، مشوّهو الصور لقُرْبها من خط الاستواء . وبها معادن الحديد .

٣ — ويلى هذه القطعة قطعة تسمّى بحر لاروى ، وبحر كَلَه ، وبحر الجاوه ، وبحر فنصور . وإنما ترادفت عليه هذه الأسماء بحسب ما يمرّ عليه من البلاد والجزائر .

(١) فى الأصل الراق وفى نزهة المشتاق "الرامى" .

وهو بحر لايدرك قعره . وفيه نحو ألف جزيرة تسمّى جزائر النارجيل، لكثرته بها . وكلها عامرة بالناس. وبين الجزيرة والجزيرة الفرسخ والفرسخان. وليس يوجد فى سائر جزائر البحر ألطف صنعة من أهل جزائره فى سائر المهن. وبيوت أمواله الوَدَعُ .

ومن جزائره المشهورة مما يلى أوائل بلاد الهند :

جزيرة المـائِد . وهى جزيرة يحيط بها ألف ميل . وفيها ثلاث مدن كبار .

وجزيرة كرموه . يحيط بها ثلثمائة ميل .

وجزيرة بلى . منسوبة لمدينة من الهند على ساحله . يأتيها التجار لاجل الفلفل .

وجزائر الذئاب . وهى كثيرة . وأكبرها جزيرة ديبي . وسكانها قبائل من العرب . يحيط بها أربعمائة ميل . وفيها الموز، وقصب السكر .

وجزيرة السيلان . وطولها ستمائة ميل ، وعرضها قريب من ذلك . وفيها مدن كثيرة . وإليها ينسب العود السيلى .

وجزيرة كَلَه . وإليها ينسب البحر . وهى جزيرة خطيرة، طولها ثمانمائة ميل، وعرضها ثلثمائة ميل وخمسون ميلا . وبها من المدن فنصور . فيها شجر الكافور (وفيها العود الفاخر) وملاير، ولاروى، وكله (وإليها ينسب الذهن) . ولكل مدينة من هذه المدن خَوْر تعبره المراكب من البحر .

وجزيرة صندابولات . وطولها نحو من مائتى ميل، وعرضها نحو مائة ميل . تنسب إلى مدينة هى فيها .

وجزائر بداميان . فيها أمم سود، قِبَاح الوجوه . قامة الرجل منهم أقلّ من ذراع . ليس لهم مراكب . فإذا وقع اليهم غريق أو من يَتِيه من التجّار، أكلوه .

٤ — ويلى هذه القطعة قطعة تسمى بحر هَرْكَنْد، وفيه جزائر كثيرة. ويقال إن عدّتها ألف جزيرة وتسعمائة جزيرة. ويقع فيها العنبر الذى تكون القطعة منه مثل البيت. وسكانها أحذق الناس فى الحياكة، ينسجون القميص بكمّيه ودَخَارِيزِه قطعة واحدة. (٨٦)

وفيه من الجزائر المشهورة :

جزيرة سرنديب(١). وهى مدوّرة الشكل، يحيط بها ألف فرسخ. يشقُّها جبل الراهون. وهو الجبل الذى هبط عليه آدم (عليه السلام) من الجنة. وفى أوديتها الياقوت والماس والسُّنْبَاذَج. وطولها مائتان وستون ميلا. ومدينة هذه الجزائر العظمى تسمى أغْنا، يسكنها مسلمون، ونصارى، ويهود، ومجوس. ولكل أهل ملة من هذه الملل حاكم. لا يبغى بعضهم على بعض. وكلهم يرجع إلى ملك يسوسهم ويجمع كلمتهم. ولهذا البحر أربعة أودية تصب فى البحر تسمى الأغباب(٢).

٥ — ويلى هذه القطعة قطعة تسمى بحر اليمن. وأوّله بحر الجُمْحة، وهو بلاد مَهَرَة. معترض فى البحر فيمرّ بحاسك (وهو أوّل مرافئ اليمن)؛ ثم يمرّ بمِرْبَاط(٣) (ساحل بلاد ظَفَارِ)؛ ثم يمرّ بالشِّحْر (ساحل بلاد مَهَرَة)؛ ثم بشُرْمَة ولَسْعا (ساحلى بلاد حضرموت)؛ ثم بأَبْيَن؛ ثم بعدن؛ ثم بالمخنق؛ ثم بالعارة؛ ثم الباب بالمندب.

(١) قال البيرونى فى كتابه على الهند : سنكلديب وهى جزيرة سرنديب (ص ١٠٢) وفى أبى الفدا سنكاديب.

(٢) الأغباب واحدها غُبّ. وهو — على ما قال البيرونى — كالزاوية والعطفة يدخل من البحر إلى البر ويكون للسفن فيه مخاوف وخاصة من جهة المد والجزر. والخَوْر هو شبه الغُبّ ولكنه ليس من جهة دخول البحر وإنما هو من مجىء المياه الجارية واتصاله بالبحر ساكنا ومخاوف السفن فيه من جهة العذوبة التى لا تستقلّ بالأثقال استقلال الملوحة بها (تحقيق ما للهند ص ١٠٢).

(٣) مدينة بين حضرموت وعمان وهى الفُرضة لمدينة ظفار الواقعة على خمسة فراسخ منها.

وفيه من الجزائر المشهورة :

جزيرة سقوطرة . وطولها نحو من مائة وثمـانين ميلا ، وعرضها فى الوسط نحو خمسة عشر ميلا . وبها الصبر . يسكنها قوم من اليونان، تغلبوا علىٰ من كان فيها من الهنـد فى زمن الإسكندر . وبها عيون يقال إن الشرب منها يزيد فى العقل . ولهذا سميت فى الكتب القديمة جزيرة العقل .

ويلى هذه القطعة قطعة تسمى بحر الزنج، وبحر بربرا، ويسمى ساحله الزنجبار.

وفيه ممـا يلى بلاد اليمن جزائر منها :

جزيرة دعون[1]، وهى مدورة .

وجزيرة السود .

وجزيرة حورتان .

وجزيرة مروان . وفيها مدن يسكنها الشُّرّاق ،وهى مقابلة لبلاد مهرة.

وجزائر الديبجات . وهى كثيرة. وأهلها مفرطون فى السواد. وجميع ماعندهم أسود، حتّى قصب السكر والكافور .

وجزيرة القُمْر . وتسمى جزيرة ملاى. وطولها أربعة أشهر، وعرض الواسع منها يزيد علىٰ عشرين يوما . وهى تحاذى جزيرة سرنديب . وفيها بلاد كثيرة أجلها كيدانة، وملاى (وإليهـا تنسب الجزيرة) ودهمى ، وبليق ، وخافورا ، ودعلى ، وقُمْرية (وإليها ينسب القُمْر) . ويقال : إن بهذه الجزيرة خشبا، ينحت من الخشبة

(١) من المعلوم أن العرب يسمون شبه الجزيرة بالجزيرة . ولم أجد لهذا الأسم أثرا فيا بين يدىّ من كتب المراجعة فلعلها هى التى ذكرها ياقوت بأسم "دغوث" وقال إنها بلد بنواحى الشحر من أرض عمان أو لعلها "دغوطة" التى قال أبو الفدا انها آخر مدن سفالة وآخر العمارة فى البر المتصل .

منه شانٍ[1] يكون طوله ستين ذراعا ، يجذف علىٰ ظهره مائة وستون رجلا .

ولما ضاقت هذه الجزيرة بأهلها بنوا علىٰ الساحل محلات يسكنونها فى سفح جبل يعرف بهم . ومنها يخرج نهر النيل[2] .

---

٦ — ويخرج من هذا البحر الذى يجمع هذه القطع خليجان أحدهما بحر القلزم، والآخر بحر فارس .

١ — فأما خليج القُلزم. فخروجه من باب المَنْدَب. وهو جبل طوله اثنا عشر ميلا ، وسَعَة فوهته بمقدار أن الرجل يرىٰ صاحبه من البرّ الآخر . فاذا قارب المَنْدَب يمرّ فى جهة الشمال، بغلافقة، والأهواب (وهما ساحلا زبيد) ثم الجَرْدَة، ثم الشَّرْجَة، ثم عَثَّر (وكانت مقرّ ملك قديم) ثم بالسِّرَّيْن، وحَلْى، وعُسْفَان، والجَار (وهى فرضة المدينة) والجُحْفَة ، والصَّفْراء، والحَوْراء ، ومَدْيَن، وأَيْلَة، والطُّور ، وفَارَان، ثم القُلْزُم (وكانت مدينة مسكونة، وكذلك أيلة) . ومن القلزم ينعطف من جهة الجنوب فيمرّ بالقُصَير (وهى فرضة لقوص) ثم إلىٰ عَيْذَاب (وهى فُرْضة لبلاد البُجَّة)، ثم يمتدّ إلىٰ زَيْلع (وهى ساحل بلاد الحبشة) ويتصل ببربرا .

وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل . وعرضه فى مواضع أربعمائة ميل، ودون ذلك إلىٰ مائتى ميل إلىٰ ما دون ذلك .

وهو بحر كريه المنظر والرائحة .

---

(١) أى من السفن المعروفة بأسم الشوانى .

(٢) يخلط الجغرافيون العرب كثيرا بين هذه الجزائر المعروفة بالقُمْر (بضم فسكون) وبين الجبل المعروف بالقَمَر (بفتح فسكون) فيجعلونهما شيئا واحدا و يقولون بخروج منابع النيل من تلك الجزائر . وهذا أمر غير معقول .

وفيه فيما بين القلزم وأيلة المكان المعروف بتاران، وهو مكان يشبه دُرْدُور عُمَان. لأنه فى سفح جبل إذا وقفت الريح على دُرْدُورَته انقطعت بنصفين على شُعْبتين متقابلتين ؛ ثم يخرج من كُلّ هاتين الشعبتين ، فيثير البحر فتتبلّد السفن باختلاف الريح فلا تكاد تسلم . وهاتان الشعبتان تسميان الجبيلين ، ومقدار هذا الموضع ستة أميال، ويسمى بركة الغُرُنْدُل(١) . ويقال : إنها التى أغرق الله فرعون وقومه
(٨٧) فيها . فإذا كان للجنوب أدنى مهب، فلا يمكن سلوكه .

وفيه من الجزائر خمس عشرة جزيرة، العامر منها أربعة، وهى :

جزيرة دَهْلَك. يحيط بها نحو مائتى ميل؛ يسكنها قوم من الحبوش. مسلمون .

وجزيرة سواكن . وهى أقل من ميل فى ميل . وبينها وبين البحر الحبشى بحر قصير يخاض . وأهلها طائفة من البُجّة تسمى الخاسد وهم مسلمون، ولهم بها ملك.

وجزيرة النعمان . وبها نويس(٢) تعيش من لحوم السلاحف .

وجزيرة السامرىّ . يسكنها قوم من اليهود، سامرةٌ، فى عيش قَشِيف .

٢ — وأما خليج فارس . فإنه مثلث الشكل على هيئة القِلْع .

أحد أضلاعه من تِيزِ مُكْرَان . فيمرّ فى بلاد كَرْمان على هُرْمُز، ومن بلاد فارس على سِيرَاف ، وتوح(٣) ، ونَجِيرَم، وجَنّابة ، ودَارِين، وسِينِيز، ومَهْرُوبان؛ ومنها يُفضى

---

(١) الذى فى تقويم أبى الفداء : الغرندل باللام .

(٢) تصغير ناس .

(٣) هكذا فى الأصل وفى أبى الفدا . وأما ياقوت فقال إنها توج . (وضبطها أبو الفدا بضم التاء وسكون الواو) واتفق أبو الفدا، وياقوت على أنها هى التى تسمى أيضا توز (ولكن ياقوت يضبطها بفتح فتشديد) . والذى فى ياقوت هو الصواب كما يتضح من "لب اللباب" للسيوطى، ومن "لطائف المعارف" للثعالبى .

البحر إلىٰ عَبَّادان، ومن عبادان ينعطف الضلع الآخر فيمرّ بالخط، وهو ساحل بلاد عُمَان إلىٰ صور، وهي ساحل بلاد عمان مما يلي بلاد اليمن؛ ثم يمتدّ إلىٰ رأس الجُمْجُمَة من بلاد مَهَرَة .

والضلع الآخر يمتدّ علىٰ سطح البحر من تِيزِ مُكْرَانَ إلىٰ رأس الجُمْجُمَة .

وهذه الأضلاع غير متفاوتة فى الطول؛ فإن الضلع الذى يمتدّ علىٰ سطح البحر طوله خمسمائة ميل ، وطول الضلع الآخر من حيث يبتدئ من تِيزِ مُكْرَان إلىٰ أن ينتهى إلىٰ عَبَّادان ثم ينعطف إلىٰ أن يصل إلىٰ رأس الجُمْجُمَة، تسعمائة ميل .

وفيه مما يلى عَبَّادان مكان يعرف بالدُّرْدُور . وهو بين جبلين ، أحدهما يسمى كُسَير، والآخر عُوَير . ويضاف إليهما جبل آخر بالقرب منهما يقال فيه "وآخر ما فيه خير" لشدّة ما يرىٰ بها من الأهوال . وهى جبال سود ذاهبة فى الهواء يتكسر الماء علىٰ شُعَبها . ولا بدّ للمراكب أن تمرّ بينها، وقلّما تسلم .

وفى هذا البحر من الجزائر المشهورة علىٰ ألسنة التجار تسع ، منها أربعة عامرة ، وهى :

جزيرة خارَك . يحيط بها اثنا عشر ميلا . وهى عامرة آهلة كثيرة البساتين . وبها مغاص اللؤلؤ .

وجزيرة كِيش . وبها مغاص اللؤلؤ أيضا . وهى آهلة . وتسمى هذه الجزيرة فى عصرنا هذا "قِيس" .

وجزيرة أُوال . وهى تجاه ساحل البحرَيْن، وبينهما يوم . وبها مدينة . وأوال مدينة من مدائن البحرين .

وجزيرة لافت . وتعرف بجزيرة بنى كاوان(١) . وطولها أثنان وخمسون ميلا ، وعرضها تسعة أميال . وهى آهلة .

وهاتان الجزيرتان معدودتان فى بلاد جُور من أعمال فارس .

ويقال أيضا إنه يخرج من البحر المحيط خليج ثالث فى شمال الصقالبة ، ويمتدّ قرب بلد بلغار المسلمين ، ويسمى بحر أدريك ، منسوب إلىٰ أمّة على ساحله فى جهة الشمال ، ثم ينحرف نحو المشرق ، وبين ساحله وبين أقصىٰ بلاد الترك أرضون وجبال مجهولة خربة .

فهذا البحر المحيط وما يتفرّع منه .

٧ — وأما بحر مانيطش(٢)

ويسمى البحر الأسود وبحر سوداق . وهى مدينة على ساحله . هى فرضة لبلاد القفجاق مما يلى القسطنطينية . وعليه أيضا للقفجاق مدينة عظيمة تسمى قِرِم(٣) ،

(١) ويسميها الإدريسى : ابن كاوان ، وغيره يسميها : بركاوان .

(٢) جرى المؤلف علىٰ تعريف هذا البحر بأنه المعروف بالبحر الاسود . والحقيقة أن بحر نيطش هو المعروف الآن بالبحر الأسود . وأما بحر مانيطش فهو المعروف ببحر آزاق وبحر آزوف . ومما يجب التنبيه عليه أن كثيرا من كتّاب العرب يخلطون بين هذين البحرين . ولذلك قال المسعودىّ : "فبحر نيطش وبحر مانطش يجب أن يكونا بحرا واحدا ، وإن تضايق البحر فى بعض المواضع بينهما أو صار بين المائين كالخليج . وليست تسمية ما آتسع منه وكثر ماؤه بمانطش . وما ضاق منه وقل ماؤه بنيطش ينبغى أن تجمعهما فى اسم مانطش أو نيطش . فإذا عبّرنا فى بعض المواضع فى مبسوط هذا الكتاب فقلنا "مانطش" أو "نيطش" فإنما نريد به هذا المعنى فيما آتسع من البحر وضاق". (من مروج الذهب ، ص ٥٨) .

(٣) وبها سميت شبه الجزيرة الموجودة فى البحر الأسود وهى شبه جزيرة القرم .

مقصودة من كل الجهات . وبها علماء، وفقهاء، ورؤساء . وهي محدثة . مُصِّرَتْ فيما بين الثلاثين والأربعين وستمائة للهجرة النبوية . ويسمى هـذا البحر أيضا بحر الروس، لجزائر فيه يسكنها أمة تسمى الروس، نصارىٰ . وهو بحر ضخم كثير الأخوار والتروش(١) والجبال الجرش . وطوله من الشمال إلىٰ الجنوب ألف ميل وثلثمائة، وعرضه مختلف . ففي موضع ستمائة ميل، وفي موضع ثلثمائة ميل . والناس مختلفون فيه . فمنهم من يقول إنه بحر مستقل بنفسه ، يخرج منه خليج القسطنطينية ويصب في بحر الروم أو هو مغيض لخليج القسطنطينية . وأكثرهم علىٰ أنه بحر مستقل بنفسه لطوله وعرضه وكثرة جزائره . وبعضهم يقول إنه خليج يخرج من البحر المحيط علىٰ ظهر بلاد الصقالبة، ويحيط به بلاد البطلمية، وبلاد الغامانية، وبلاد الأزكشية، وبلاد الشركسية، وبلاد العلان(٢) والعنكر والناشقرد .

وفيه ست جزائر عامرة، وهي كثيرة المدن والقرىٰ، يسكنها الروس .

---

٨ — وأما بحر الخزر

وهو بحر جرجان وطبرستان والديلم . وذلك بحسب ما يمر عليه من البلاد . وهو — علىٰ ماحكاه ابن حوقل — مدور الشكل، ليس له اتصال ببحر آخر .

---

(١) في الاصل التروس . ولكن الإدريسي يستعمل لفظة "التروش" بالشين المعجمة . ومعناها الشُّعَب أي الصخور التي تكون تحت سطح الماء قليلا فتتكسر السفن وتتحطم إذا اصطدمت بها .

(٢) العلان ترك تنصروا وهم خلق كثير وقلعتهم إحدى قلاع العالم تتعمم بالسحاب (عن أبي الفدا) و بلادهم في أرض قفجاق أو قفقاسية وهم المشهورون في كتب العرب أيضا باسم اللان .

قال : ولو أن إنسانا طاف به، لانتهى إلى الموضع الذى ابتدأ منه، لا يقطعه عن ذلك إلا نهرٌ يصب فيه (١) .

وفى شرقىّ هـذا البحر بعض بلاد الديلم، و بلاد طبرستان، وجُرجان، و بعض (٨٨) المسافة التى بين جرجان وخوارزم؛ وغربيه بلاد أرّان، و بلاد الخزر، و بعض مفازة الغزية (٢)؛ وشماليه مفازة الطُّغْزغُزية ؛ وجنوبيه الجيل (٣)، والديلم . وطوله ثمانمائة ميل، وعرضه ستمائة ميل .

وقال صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق": طوله من جهة الخزر إلى عين الهم ألف ميل (٤)، وعرضه من ناحية جرجان إلى مصب نهر إتل ستمائة ميل (٥)، وخمسون ميلا وهو يقطع عرضا من طبرستان إلى مدينة باب الأبواب فى أسبوع بالريح الطيبة، وفيه أربع جزائر، وهى :

جزيرة سياكوه (٦) . وهى تجاه آبسكون، فرضة جرجان . يسكنها طائفة من الترك . يصاد بها البزاة البيض .

وجزيرة سهلان . وطولها نحو مائة ميل، وعرضها نحو خمسين ميلا .

---

(١) هذا ملخص العبارة التى أوردها ابن حوقل (وانظر كتابه ص ١٣) .

(٢) فى الأصل : الغزنة . والتصحيح عن أبى الفدا .

(٣) فى الأصل : الختل (وهو تحريف ظاهر من النساخ) .

(٤) هكذا فى مقدمة الإدريسى (فى جميع النسخ) ولكنه عند كلامه على الجزء السابع من الإقليم الخامس نص على أن طول هذا البحر ٨٠٠ ميل وأن عرضه ٦٠٠ ميل (وهذا هو الذى نقله عنه أبو الفدا)، ثم عاد الادريسى فقال ان طوله ٩٠٠ ميل .

(٥) فى الأصل مائة ميل [والتصحيح عن الإدريسى] .

(٦) فى الاصل : بساه كوه . (والتصحيح عن أبى الفدا) .

وجزيرة البركان[1]. وهى أطمة عظيمة تظهر منها نار فى الهواء، كأشمخ ما يكون من الجبال . ترىٰ من نحو مائة فرسخ من البر .

وجزيرة تجاه باب الأبواب . كثيرة المروج والأنهار . وهـذا البحر يقال إنه كثير التنانين .

وقد ٱختلف فيها . فمن الناس من يقول إنهـا دواب تعظم فى قعر البحر فتؤذى ما به من دواب، فيبعث الله عز وجل عليها السحاب والملائكة فتخرجها من البحر وتقلبها فى أرض يأجوج ومأجوج، فتكون طعاما لهم . وهذا ممـا يحكى عن ٱبن عباس رضى الله عنهما . ومنهم من رأىٰ أنهـا ريح سوداء تكون فى قعر البحر فتظهر إلىٰ النسيم وتلحق بالسحاب، كالزَّوْبعة التى تثور من الأرض وتستدير ثم تطول فى الهواء . فيتوهم الناس أنها حيّات سود .

وسائر البحار تَمُـدّ وتَجْزُرُ، خلا هذا البحر .

ويقـال إن علة المدّ والجزر تكون عن وضع المَلَك الموكل بقاموس البحر عقبه فى أقصىٰ بحر الصين، فيفور فيكون منـه المدّ، ثم يرفعه فيكون من رفعه الجزر . (ومنهم من روىٰ مكان العقب الإبهام) .

ومنهم من قال إن العلة فيه غير هذا كله .

والله أعلم !

(١) هى شبه الجزيرة المعروفة الآن باسم "بشرون" . وبها مدينة باكو المشهورة وهـذه المدينة سماها أبو الفدا "باكوى" وسماها المسعودى "باكه" وقال ان بها معدن النفط الأبيض (أى البترول) ثم قال وفى هذه النفاطة أَطَمَةٌ، وهى عين من عيون النار لاتهدأ علىٰ سائر الأوقات تتضرم الصعداء . فهذا هو الذى عناه النويرى باسم "البركان" .

ذكر مافى المعمور من البحيرات المالحة المشهورة
وما بها من العجائب

وفى المعمور بحيرات مالحة :

فالذى آشتهر منها :

§ بحيرة خُوَارَزْم . وشكلها مثلث كالقِلْع ، وليس فى المعمور بحيرة أعظم منها . يحيط بها أربعمائة فرسخ . يصبُّ فيها نهرا سيحون وجيحون ، اللذان فى أرض الهياطلة ، وغيرُهما من الأنهار العظيمة الجارية فى بلاد الترك . وهى مع ذلك لا تزيد ولا تعذُب .

وزعم صاحب كتاب " نزهة المشتاق إلىٰ آختراق الآفاق " أن فى هذه البحيرة حيوانا يظهر علىٰ سطحها فى صورة الإنسان يتكلم ثلاث كلمات أو أربعا ، بلغة لا تُفْهَم ثم يغوص . وظهوره عندهم يدل علىٰ موت مَلِك من ملوك ذلك الحين .

§ ومنها بحيرة الطِّرِّيخ[(١)] : لسمك صغير يصاد منها ويحمل إلىٰ سائر بلاد أرمينيَةَ وأذْرَبيجان . وطولها أربع مراحلَ ، وعرضها مرحلة . يُجْمَع من أطرافها البُورَق . والسمكُ يوجد بها فى زمان مخصوص ، يأتيها فى نهر يصب إليها ، ويكثر حتّى يصاد بالأيدى . فإذا آنقضىٰ ذلك الزمان ، لا يوجد منه شىء آلبتة .

---

(١) وآسمها فى كتب الجغرافية العربية بحيرة أرْجيش ، وهذا السمك الذى سميت به ، كما فى "القاموس" سمك صغار تعالج بالملح وتؤكل . وقد عرَّفنا آبن حوقل أنه صغير مقدار الشبر يملح و يحمل الى الجزيرة والموصل والرقة وحران وحلب وسائر الثغور .

§وفى بلاد أذربيجـان بحيرة كَبُوذَانْ[١] . وكَبُوذان قرية فى جزيرة، يسكنها ملّاحو المراكب التى يُرْكَب فيها من هـذه البحيرة . وطول هـذه البحيرة نحو ثلاثة أيام، وعرضها كذلك . وفيها جزائر : منها جزيرة فيها قلعة حصينة تسمّى تلا . ولا يكون بهذه البحيرة حيوان ألبتةَ ، لأن ماءها منتن ردىء .

§وفى بلاد البَحرينِ بُحَيرة . وبها وبالبحر الكبير سميت أرض هَجَر: "البحرين".

§وفى الشام بأرض الغَوْر بحيرة زُغَر، وتسمّى المُنتِنةَ والميتة . لأنها لا يعيش بها حيوان ولا يتكوّن فيها شىء مما يتكوّن فى المياه الجارية والراكدة من الحيوانات. وطولها ستون ميلا، وعرضها آثنا عشر ميلا .

ويقال إنهـا ديار قوم لوط التى خَسَفهم الله بها . ويقال إنها كانت خمس مُدُن، أسماؤها : "ضيعه"، و"ضعوه"، و"عمره"، و"دوما"، و"سذوم" . وكانت سذوم أكبرها وأعظمها .

ويصُبّ فى هذه البحيرة نهر الأُرْدُنّ وغيرُه من الأنهار الصغار والسيول من بلاد الكَرَك وغيرها، فلا تزيد . ويقال إن لها مَنْفَـذا إلىٰ بحر القُلْزم. وبساحلها الشرقىّ إلىٰ حدّ أَرِيحا معدِنُ الكبريت الأبيض، يُحْفَر عليه ويُخْرَج . ويتكوّن فى هذه البحيرة شىء علىٰ شكل البقر، ويطفو علىٰ وجهها ويتفقع، فيجمع منه شىء أسود يسمونه "الحُمَّر" وينقل إلىٰ قلعة الكَرَك يدّخر بها ، يدخل فى النِّفط .

---

(١) هى التى ذكرها أبوالفدا باسم "بحيرة تلا" و ياقوت بآسم "بحيرة أُرْمِيَة" . وقد ذكر أن فى وسطها جبلا يقال له "كبوذان" وجزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك يسكنها ملّاحو سفن هـذا البحر (معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨) .

§ وفى أعمال مصر بحيرة تِنِّيس، مقدارها إقلاع يوم فى [عرض][(١)] نصف يوم. يكون ماؤها فى أكثر السنة ملحا من دخول ماء البحر الرومىّ إليها، فإذا مدّ النيلُ صبَّ فيها فتحلو فإذا جَزَرَ مَلُحت.

(٨٩) ويقال: إنه كان فى مكانها بَرٌّ مسلوك تغلّب عليه البحر فى ليلة واحدة، فما كانت أرضه مستفِلة غرِق، وما كانت أرضه عالية مثل تِنِّيس وتُونَةَ بقى.

وفى وسط هذه البحيرة جزيرة صغيرة تسمى سِنْجار، يسكنها قوم صيادون.

وقال إبراهيم بن وصيف شاه فى "كتاب العجائب الكبير": إن بحيرة تِنِّيس كانت أجِنَّةً وكروما ومنازلَ ومنتزَهات، وكانت مقسومة بين مَلِكين من ولد أَتْرِيبَ بن مصر، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا، فأنفق المؤمن ماله فى وجوه البِرّ حتّى باع حصته من أخيه وفرّق مالها أيضا، فأصلحها أخوه وزاد فيها غُرُوسا وفجّر فيها أنهارا وبنىٰ فيها بنيانا، واحتاج أخوه إلىٰ ما فى يده فكان يمنعُه ويفتخر عليه بما فى يده من المال والأجِنَّة، فخاطبه أخوه فى بعض الأيام فسطا عليه، وقال: أنا أكْثَرُ مِنْكَ مالا وولدا وخيرا، فقال له أخوه: فما أراك شاكرا لله تعالىٰ علىٰ ما رزقك، ويوشك أن ينزِع ذلك منك. ويقال: إنه دعا عليه فغرّق ماء البحر ما كان له فى ليلة واحدة.

وقيل: إن هذين اللذان ذكرهما الله تعالىٰ فى كتابه العزيز، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ الآيات، والله تعالى أعلم.

وبالقرب من الإسكندرية بحيرة، طولها إقلاع يوم وعرضها كذلك، يدخل إليها الماء من بحر الروم من مكان الأُشْتُوم، ويخرج منها إلىٰ بحيرة أخرىٰ دونها

(١) الزيادة من "معجم ياقوت".

فى خليج عليه مدينتان، إحداهما تسمى الحدية، والأخرى تسمى أتلو[1] كثيرة المقات والنخل، وكلاهما فى الرمل . ويصب فى البحيرة خليج من النيل يسمى "الحافر" طوله نصف يوم إقلاعا، وهو كثير الطير والسمك والعُشب .

§ وفى بلاد إفريقية بحيرة بَنْزَرْت ماؤها مِلْح، وطولها ستة عشر ميلا، وعرضها ثمانية أميال . وعلى عشرة أميال منها بحيرة ماؤها عذب تسمى بحيرة متّيجة[1] . فإذا جاء الشتاء وكثُرت السيول، غاضت بحيرة بنْزَرْت، وفاضت بحيرة متّيجة حتى تملأها ستة شهور فلا يحلو ماؤها ؛ فإذا انقضى زمن الشتاء وجاء الصيف، غاضت بحيرة متّيجة، وفاضت بحيرة بنْزَرْت فلا يملُح ماؤها . ويصاد فى هذه البحيرة فى كل شهرين من شهور السنة نوعٌ من السمك لا يخالطه غيره؛ وأهل الناحية يعرفون دخول الشهور بتغيُّر السمك فيها .

§ وحكى صاحب كتاب "مَبَاهج الفِكَر ومَنَاهج العبر" : أن بتخوم بلاد أرمينِيَةَ بحيرة يكون فيها الماء والسمك والطير ستةَ أشهر كواملَ، ثم تجف فلا يرى فيها ماء ولا سمك ولا طير سبع سنين، فإذا كانت السنة الثامنة ظهر ذلك فيها ستة أشهر ثم ينقطع . وهذا دأبُها مدى الزمان .

§ وبخِلاط بحيرة لا يرى فيها سمك ولا ضِفْدَع ولا سَرَطان عشرةَ أشهر من السنة، ثم يظهر ذلك كله فى الشهرين الباقيين .

---

(١) كذا بالأصل وفى معجم ياقوت "أتكو" بلدة قرية من نواحى مصر قرب رشيد .

(١) وزنها فى القاموس بسكّينة .

§ وبقرية من ناحية بَجِهير[(١)] من بلاد خراسان بحيرةٌ، ما غُمِس فيها شيءٌ إلا ذاب: حديدًا كان أو خشبا .

§ وكذلك بركة النَّطْرون التى بأرض مصر ما وقع فيهـا شيء إلا صار نَطْرونا حتّى العظم والحجارة .

ذكر ما يتمثل به ممـا فيه ذكر البحر

(ما جاء من ذلك على لفظ أفعل)

يقـال : أعْمَقُ من البحر . أندىٰ من البحر .

ويقال : حدِّث عن البَحْر ولا حَرَجَ .

ويقال : جاء بالطِّمِّ والرِّمِّ . والطِّم البحر، والرِّم البر .

ومن أنصاف الأبيات :

* وهل يملِكُ البحرُ أن لا يَفِيضَا ؟ * * ومَنْ وردَ البحرَ ٱستقَلَّ السَّواقِيَا ! *

* أنا الغريق، فما خوفى من البلل ؟ *

ومن الأبيات :

هو البحرُ إلا أنّه عَذْبُ مَوْرِدٍ، * وذا عجبٌ أنَّ العُذُوبةَ فى البَحْرِ !

وقال ٱبن الرومىّ :

كالبَحْرِ يَرْسُبُ فيـــه لُؤْلُؤُه * سُــفلًا، وتَعْلُو فوقَهُ جِيَفُهْ .

---

(١) فى الأصل "بجهير" وهى على ما قال ياقوت مدينـة بنواحى بلخ . فلذلك أظن أن ذلك الأسم محرف عن "بَجَـدِيه" التى قال ياقوت إنها من نواحى خراسان وهو الصقع الذى أشار إليه المؤلف . نعم إن ياقوت لم يذكر هذه البحيرة عند كلامه على كل من المدينتين ولكن المسعودىّ نص على أن بجهير من أرض خراسان (ج ٢ ص ١٥ طبع أوروبا) .

ومثله قول الآخر :

كمثلِ البَحْرِ يَغْرَقُ فيه حَىٌّ، * ولا ينفَكُّ تطفُو فيه جيفَهْ.

وقال آبن الرومىّ :

ألا فَٱرْجُهُ وَٱخْشَــهُ إنه * هو البحرُ: فيه الغنىٰ والغَرَق!

وقال أبو نُوَاس :

مَنْ قاسَ غيرَكُمُ بِكُمْ، * قاس الثِّمَادَ إلىٰ البُحُور!

وقال آخر :

إذا كنتُ قُرْبَ البَحْرِ مالِى مَخْلَصٌ * إليه، فما يُغْنِى ٱقْتِرابِى من البحر!

وقال آخر :

كالبحر يَقْذِفُ للقَرِيبِ جَواهِرًا * منه، ويُرْسِــلُ للبَعيد سَحائبـا.

ذكر شىء مما قيل فى وصف البحر وتشبيهه

قال آبن رشيق عفا الله عنه :

البحرُ مُرُّ المَذَاقِ صَعْبٌ * لاجُعِلَتْ حاجتِى إلَيْـه.
أليس ماءً ونحنُ طِينٌ ؟ * فمـا عسىٰ صَبْرُنا عليه؟

(٩٠) وقال آبن حمديس :

لا أركبُ البحرَ، أخشىٰ * عَلَىَّ منــه المَعَاطِبْ!
طِينٌ أنَا وهو ماءٌ، * والطِّينُ فى المـاء ذائبْ.

وقال آخر :

وزاخِرٍ ليس له صَــوْلَةٌ * إلّا إذا ما هَبَّتِ الرِّيحُ.
فهُو إذا ما سكنَتْ ساكِنٌ * كأنمـا الرِّيحِ له رُوحُ.

وقال أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت :

تناهىٰ البحرُ فى عَرْضٍ وطُولٍ، * وليس له علىٰ التحقيقِ كُنْـهُ.
وأعْجَبُ كلّما شاهدتُ فيـه * سلامَتَنا علىٰ الأهوال مِنْـهُ.
فحسبي أنْ أَراهُ من بَعيـدٍ * وأهرُبُ فوق ظَهْرِ الأرض عنْهُ.

ومما وصف به البحر والسفن

قول بشر بن أبي خازم :

أُطَاعِنُ صَـفَّهم ولقد أَرَانِي * علىٰ زَوْرَاء تسـجُد للرِّياحِ.
إِذَا ٱعترضَتْ براكبها خليجا، * تَذَكَّر ما عليه من جُنَـاحِ.
ونحنُ علىٰ جوانِبِهـا قعودٌ، * نَغُضُّ الطَّرْف كالإبل القِمَاحِ.

وقال آبن تولو من أبيات :

تحثُّ بِنَـا فيـه قِلَاصٌ كأنهـا * وِعَالٌ، تبدّتْ من جِبالٍ شـواهِقِ.
لهـا كافِلَا ماءٍ وريحٍ كِلَاهُمـا * يعلِّمُها فى الجَرْيِ سـبْقَ السَّوابِقِ.
إذا آنحدَرَتْ، فالمـاءُ الطفُ قائدٍ، * وإنْ صَعِدتْ، فالريحُ أعسَفُ سائقِ.

وقال السلامىّ :

ومَيْدانٍ تَجُـول به خُيُولٌ * تقـودُ الدَّارِعِينَ ولا تُقَـاد.
ركِبتُ به إلىٰ اللَّذَّاتِ طِرْفًا * له جِسْمٌ، وليس له فُـؤادُ!
جرىٰ فظننْتُ أنّ الأرض وَجْهٌ، * ودِجلَةَ ناظِـرٌ، وهو السَّـوَاد.

وقال محمد بن هانئ :

مُعَطَّفةُ الأعنـاقِ نَحْـوَ مُتُونِهـا * كما نَبَّهتْ أيْدى الحُـواةِ الأفَاعِيَـا.

إذا أعملوا فيها المجاذيف سُرْعةً، * ترى عَقْربا منها على الماء ماشيا.
إذا ما وردْنَ الماءَ شـوْقا لبرْده، * صدرْنَ ـ ولم يَشْربْنَ ـ غرْثى صَوَاديا.

وقال الرستمى :

لم تزَلْ مُشْفقين مُذْ قيل: سارَتْ * بك دُهْمٌ قليلةُ الأوْضاح.
أصلُها البرُّ وهي ساكنةٌ في الْبحر سُكْنى إقامة لا بَرَاح.
هِيَ في الماءِ وهي صِفْرٌ من الما * ءِ سوى نَضْحِ مَوْجها النَّضّاح.
فإذا أُوقِرَتْ، فذاتُ وَقارٍ؛ * وإذا أُخْلِيتْ، فذاتُ جِماح.
وتَرَاها في اللُّجّ ذاتَ جناحيْنِ وإن لم تكنْ بِذات جَناح.
مِنْ مَطَايا لا يَنْتَعِلْن ولا يَسْـ * أمْنَ سَيْرَ البُكُورِ بعدَ الرَّواح.
مُنْشَآتٌ من الجَوَارِى اللّواتى * لَسْنَ من صَنْعة الجَوَارى المِلاح.
والداتٌ مُوَلَّداتٌ بلا حِلِّ نِكاحٍ ولا حَرامِ سِفَاح.
لا مِنَ البيضِ بل من السُّودِ ألْوا * نًا وذاتِ الألْواحِ والأرْواح.
طائراتٌ مع الرِّياح، وطَوْرًا * كاسِراتٌ بالجَرْى حَدَّ الرِّيَاح.
سائراتٌ لا يَشْتكِينَ سُرَى اللّيـ * ـلِ ولا يرتقِبْنَ ضَوْءَ الصَّباح.
ساكِناتٌ بلا خُضُوعِ سُكُونٍ، * جامحاتٌ بلا غَرامِ جِماح.
لا يَخَفْنَ الغِمارَ يُقْذَفْن فيها، * ويَخَفْنَ المُرُورَ بالضَّحْضاح.
إنْ صَدَمْنَ الحصى عَطِبْنَ ولا يعطَبْنَ إمَّا صَدَمْنَ حَدَّ الرِّماح.
(٩١) ما رأى الناسُ من قصورٍ على الما * ءِ سِوَاها يَسِيرُ سَيْرَ القِداح.
يتَسَبْسَبْنَ كالأساوِدِ في الخِفّة لا في معادة الأشْباح.
فإذا ما تقابَلَتْ،قلت : ذَوْدٌ * من كِباش تقابلَتْ للنِّطاح.

شُرْعُها البِيضُ كالغمامات فى الصَّيْـــ * ـــف صِحَاحًا منها وغَـــيْرَ صِحَاحِ .
كم مُــدِلٍّ بالجاه والمالِ فيها، * وبه حاجـــةٌ إلى المَــلَّاحِ!
قائدٍ جُنْــدَه لهــمْ أدواتٌ * نَفْعُها ثَمَّ فـوقَ نفعِ السِّــلَاحِ .
فإذا البحـــرُ صالَ، صالُوا عليها * بِمَــواضٍ تَمْضِى بغَــيْرِ جِراحِ .
يُكْثِرُون الصِّــياحَ حتَّى كأنَّ السُّــ * ـفْنَ تَجْرى من خَوْف ذاكَ الصِّياحِ .

ومما وصفت به البحار والسفن نثرا

قال أبو عمرو صاحب الصلاة القرطبىّ يصف شانِيًا(1) سافر فيه :

«فارقتُ مولاىَ حين أخذتُ للسَّفر عُدَّة الحَزْم، وشَدَدتُ عُقدة العزم، وآنتظمتُ مع السَّفْر فى سلك، وركبنا على آسم الله ظهرَ الفُلْك؛ فى شانٍ عظيم الشان، أحدقَتْ به النُّطُقُ إحداقَ الحَيَازِم، وأمسكَتْه إمساكَ الأَبَازِم؛ ثم نُتُبِّع خَلَلُه فسُدّ، ورِخْوه فشُدّ؛ حذرًا على ألواحه من الإنخاع، وآتصلتْ بعَرَانِيسه آتصالَ الجلود بالأضلاع؛ ثم جُلِيتْ جِلْبابا من القار، وضُمِّخ فى المتنَيْنِ والفَقَار. فامتاز بأغرب مِيسَم، وعاد كالغُراب الأَعْصم(2)؛ قد حَسُن منه المَخبر، وكأنّ الكافور قد قُرِن فيه بالعَنْبر. له من التماسيح أجنابُها، ومن الخَطاطيف أذنابُها؛ وآستقلّت رجله بفِراشها، آستقلالَ السِّهام برِيَاشها؛ وقد مدّ قِلْعيه ذراعيــه متلقيا من وَفْد الرياح مصافحه، ومستهديا منها منافحه. تقلّد الحكم عليها إشْتِيَامٌ(3) ذو تيقظ وآستبصار، وآستدلالٍ على الأعماق

(١) الشانى آسم لنوع من السفن التجارية والحربية عند المسلمين وجمعه شوانى .
(٢) أى الأبيض الجناحين (عن تاج العروس) .
(٣) الإشتيام هو رئيس الملّاحين، لفظ أعجمىّ أخذه العرب (راجع الجواليقى)

والأقصار، يستدلُّ باختلاف المياه إذا جَرىٰ، ويهتدى بالنجوم إذا سرىٰ، قد جعل السماء مِرآة ينظُر فيها ، ويحـذَر من دجْنٍ يوُافيها ، فإذا أصدأها ٱلظلامُ بحَنَادِسه ، وصقلها ٱلضياء بمَدَاوسه ، يسبح اللهَ فى مَصْبَحه ومُمْساه ، ويُبَسْمِل فى مجْراه ومَرْساه ، ويذكر ربًّا يحفَظُه ولا ينساه . قد ٱتخذ فيه موُاتِيَـه ، من أنجد النَّواتِيه ، مشمِّرين الأثواب ، مدَبِّرين بالصواب ، يفهَمُون عنه بالإيماء ، و يتصرَّفون له تصرُّف الأفعال للأسماء ، و يترنَّمون عند الجَذْب والدَّفْع ، والحَطّ والرفْع : بهَيْنَمةٍ تبعثهم علىٰ النَّشَاط . والجَمَام (١) ، وتؤدِّيهم فى عملهم بالتمام . فخرجنا ونَفْحُ الريح نَسِيم ، و وجه البحر وَسِيم ، وراحةُ الرِّيح تُصافِحُ عُبَابه مُصافَحَة الخِلّ ، وتطوِى جَنَـاحه طَىَّ السِّجل ، وتجول من لُجَجه أبرادا ، وتَصُوغُ من حُبُكه أزرادا : كأنما ترسُم فى أديمٍ رَقْشا ، أو تفتح فى فُصوصٍ نَقْشا . فلما توسطنا ثَبَج البَحْر ، وصرنا منه بين السَّحْر والنَّحر ، صَحت الريح من سُكْرِها ، وطارت من وَكْرِها ، فسمعنا من دَوِىّ البحر زئيرا ، ومن حبال الشانى صَفِيرا ، و رأيناه يُزْبِد و يضطرب ، كأنَّه بكأس الجنوب قد شَرِب ، وٱستقبلنا منـه وجهٌ باسر ، وطارت من أمواجه عِقْبانٌ كواسِر ، يضْطَرِب و يصْطَفق ، و يختلف ولايتَّفِق ، كأن الجوّ يأخُذُ بنواصِيها ، و يجْذِبها من أقاصيها ، والشانى تلعب به أكُفُّ الموج ، ويَفْحَص منها بكلكله فوجًا بعـد فَوْج ، ويجوب منها ما بين أنْجاد وأَغْوار ، وخنادقَ وأسوار ، والبحرُ تحتَنا كأرض تميد بأهلها ، وتتزلزل بوعْرِها وسَهْلِها ، ونحن قُعودٌ ، دُودٌ علىٰ عُود ، قد نبَتْ بنا من القَلَق أمكنَتُنا ، وخَرِستْ من الفَرَق ألسنُتُنا ، والرَّشّ يكتَنِفُنا من كل جانب ، ويَسِيلُ من أثوابنـا سيلَ المَذَانِب . فشمِمْنا رِيحَ الموت ، وظنَنَّا التلفَ والفَوْت ، و بقينا فى هَمٍّ ناصب ، وعذابٍ واصب ، حتَّى ٱنتهينا

(١) ذهاب الإعياء والتعب .

إلى كَنَف الجَوْن، وصرنا منه فى كِنّ وصَوْن ؛ وهدأ من البحر ما آستشرى، وتنادَيْنا بالبُشرى؛ ووطِئْنا من الأرض جدَدًا، ولبسنا أثواب الحياة جُدُدا ! ... ... "

ومن رسالة لأبى عامر بن شهيد الأندلسىّ عفا الله عنه

(٩٣) جاء منها :

"... وكان جَوازه، أيده الله علىٰ بحر ساكن، قد ذل بعد آستصعابه، وسَهُل بعد أن رأىٰ الشامخ من هِضابه، وصار حيُّه ميّتا، وهديره صَمْتا، وجِبالُه لا ترىٰ بها عِوَجًا ولا أَمْتا، وضَعُف بعد تعاطيه، وعَقَدَ السِّلْمَ بين موجه وشاطِيه . فعبرَ آمِناً من لهَوَاته، متملّكا لصَهواته ؛ علىٰ جواد يقطَع البحر سَبْحا ، ويكاد يسبِق الريحَ لَمْحا ؛ لا يحمل لِجامًا ولا سَرْجا، ولا يعرف غير اللُّجّة سَرْجا ؛ فلله هو من جواد، له جسمٌ وليس له فُؤاد؛ يخترِق الهواء ولا يَرْهبُه، ويركض فى الماء ولا يَشْرَبُه ! ... ... "

ومن رسالة للأُستاذ آبن العميد فى مثل ذلك

جاء منها :

"... وكأن العشاريات وقد رُدِّيتْ بالقار، وحُلِّيت باللُّجَين والنُّضار، عرائسُ منشورةُ الذوائب، مخضوبة الحواجب، موشحةُ المَناكِب، مقلَّدة الترائب، متوَّجة المَفارق، مكلَّلة العواتِق، فِضّية الحُلَل والقَراطق؛ أو طواويس أَبْرَزَتْ رقابها ، ونشرت أجنحتها وأذنابَها؛ وكأنها إذا جدّتْ فى اللَّحاق، وتنافست فى السِّباق ؛ نوافِرُ نَعام، أوحوافلُ أنعام؛ أو عقاربُ شالت بالإبَر، أودُهْمُ الخيل واضحة الحجول والغُرر ؛ وكأن المجاديف طير تنفُض خوافيها، أو حبائبُ تعانِقُ حبائب بأيديها ... ... "

البـاب السابع

من القسم الرابع من الفن الأول

فى العيون والأنهـار والغُدْران

وما وُصفت به البرك والدواليبُ والنّواعِير والجَداوِل

قال الله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾. قال المفسرون : هو المطر . ومعنىٰ سَلَكه أدخله فى الأرض ، وجعله عيونا ومسالكَ ومجارِيَ كالعُروق فى الجسَد .

قال أبو الفرج، قدامةُ بن جعفر: مجموع ما فى المعمور من الأنهار فى الأقاليم السبعة مائة نهر وأربعة وثمانون نهرا، منها :

فى الإقليم الأول ثلاثة وعشرون نهرا؛ وفى الإقليم الثانى تسعة وعشرون نهرا؛ وفى الإقليم الثالث ستة وعشرون نهرا ؛ وفى الاقليم الرابع أربعة وعشرون نهرا ؛ وفى الإقليم الخامس ثمانية وعشرون نهرا؛ وفى الإقليم السادس ستة وعشرون نهرا؛ وفى الإقليم السابع ثمانية وعشرون نهرا .

ثم قال : وفى هذه الأنهار ماجَرَيانه من المشرق إلىٰ المغرب، كنهر نَهاوَنْد ونهر سِجِسْتان ؛ وماجَرَيانه من الشمال إلىٰ الجنوب كدِجْلة ؛ وماجَرَيانه من الجنوب إلىٰ الشمال ، كنهر النِّيل ونهر مِهْران؛ وماجَرَيانه مركَّب من هذه الجهات ، كنهر الفراتُ وجَيْحُون ونهر الكُرِّ .

وسنذكر المشهور منها .

فأما نهـــر النيـــل

§ فزعم قُدامة بن جعفر أن ٱنبعاثَه من جبل القمر وراء خطِّ الاستواء، من عين تجرى منها عشرة أنهار، كلُّ خمسة منها تنصب إلىٰ بَطِيحة . ثم يخرج من كل بطيحة نهران . وتجرى الأنهـار الأربعة إلىٰ بَطِيحة كبيرة فى الإقليم الأوّل . ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل .

§ وقال صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلىٰ ٱختراق الآفاق" : « إن هذه البحيرة تسمّٰى بحيرة كُورَى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها، متوحِّشُون : يأكلون من وقع إليهم من الناس . ومن هذه البحيرة يخرج نهر غانَةَ، ونهر الحبشة؛ فإذا خرج النِّيـل منها يشق بلاد كُورَى ثم بلاد نته (طائفة من السودان أيضا، وهم بين كانم والنُّوبة)، فإذا بلغ دُنْقُلة (مدينة النوبة) عَطَف من غربيها إلىٰ المغرب، وٱنحدر الى الإقليم الثانى، فيكون علىٰ شطّيه عمارة النُّوبة . وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرىٰ . ثم يشرِّق إلىٰ الجَنَادل، وإليهـا تنتهى مراكب النوبة ٱنحدارا، ومراكب الصعيد إقلاعا . وهناك أحجار مضرسة لا مُرورَ للمراكب عليها إلا فى إبّان زيادة النيل .
(٩٣) ثم يأخذ علىٰ الشَّمال فيكون علىٰ شرقيّه مدينة أُسْـوان من بلاد الصعيد الأعلىٰ؛ ثم يمر بين جبلين هما يكتنفان لأعمال مصرَ، أحدهما شرقىّ والآخر غربىّ حتّى يأتى مدينة مصر (١) فتكون فى شرقيه . فإذا تجاوزها بمسافة يوم، ٱنقسم قسمين : أحدهما يمر حتّى يصب فى بحر الروم عند مدينة دمْياط، ويسمّٰى بحر الشرق؛ والآخر — وهو عمود النيل ومعظمه — يمر إلىٰ أن يصب فى بحر الروم أيضا عند مدينة رَشِيد، ويسمّٰى بحر الغرب .

(١) يشير إلىٰ الفسطاط، أى مصر العتيقة فى عرفنا الآن .

§ قالوا : وتكون مسافة النيل من منبعه إلىٰ أن يصب فى رشيد سَبْعمائةٍ فرسخ وثمانيةً وأربعين فرسخا . وقيل إنه يجرى فى الخراب أربعةَ أشهر، وفى بلاد السودان شهرين، وفى بلاد الإسلام شهرا . »

§ وروىٰ البخارى فى "صحيحه" عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) فى حديث المعراج، قال: "ثم رُفِعتُ إلىٰ سِدْرة المنتهىٰ، وإذا نَبْقُهَا مثل قِلال هَجَر، وإذا ورَقُها مثلُ آذانِ الفِيلَة . (قال : هذه سدرة المنتهىٰ) وإذا أربعةُ أنهار نهرانِ باطنانِ، ونهرانِ ظاهرانِ، فقلتُ: ما هذا يا جبريلُ ؟ قال: أمّا الباطنانِ، فنهران فى الجنة؛ وأمّا الظاهران، فالنيلُ والفُراتُ" . وليس فى الأرض نهر يزيد حين تنقص الأنهار وتغيض، غيره . وذلك أن زيادته تكون فى القيظ الشديد فى شمس السَّرطان والأسد والسنُبُلة .

§ وقد حكى فى فضائل مصر أن الأنهار تمدّه بمائها، وذلك عن أمر الله تعالىٰ .

وقال قوم : إن زيادته من ثلوج يُذيبها الصيفُ علىٰ حسب مَدَدها، كثيرة كانت أو قليلة؛ وفى مَدَده ٱختلاف كثير .

§ وكان منتهىٰ زيادته قديما ستة عشر ذراعا، والذراع أربعة وعشرون إصبعا، بمقياس مصر . فان زاد عن ذلك ذراعا واحدا، زاد فى الخراج مائة ألف دينار : لما يُرْوى من الأراضى العالية .

والغاية القصوىٰ فى الزيادة ثمانية عشر ذراعا فى مقياس مصر[1] . فإذا انتهىٰ إلىٰ هذا الحدّ، كان فى الصعيد الأعلىٰ آثنين وعشرين ذراعا : لآرتفاع البِقاع التى يمرّ عليها .

فإذا ٱنتهت زيادتُه، فتحت خُلْجانات وترع تخترقُ المياه فيها يمينًا وشمالا إلىٰ البلاد البعيدة عن مجرىٰ النيل .

§ وللنيل ثمان خُلْجانات . وهى : خليج الإسكندرية ، وخليج دِمياط ، وخَليج مَنْف ، وخليج المَنْهىٰ (حفره يوسفُ الصدّيق عليه السلام) ، وخليج أُشْموم طَنّاح ، وخليج سَرْدُوس (حفره هامانُ لفرعونَ) ، وخليج سَخَا ، وخليجٌ حفره عَمْرو بن العاص ، يجرى إلىٰ أن يصُبَّ فى السِّباخ .

§ ويحصل لأهل مصر إذا وفىٰ النيلُ ستة عشر ذراعا — وهى قانون الرىّ — فَرَحٌ عظيم : بحيث إن السلطان يركَبُ فى خواصّ دولته وأكابر الأمراء فى الحَرَاريق إلىٰ المِقْياس ، ويمدّ فيه سماطا يأكل منه الخواصّ والعوامّ ، ويَخْلَع علىٰ القَيَّاس ، ويَصله بصلة مقرّرةٍ له فى كلِّ سنة .

§ وقد ذكر بعض المفسرين "للكتاب العزيز" أن يوم "وفاء النيل" هو اليوم الذى وَعَد فيه فرعون موسىٰ بالاجتماع ، وهو قوله تعالى إخبارا عن فرعون ﴿ قالَ موْعِدُكُمْ يومُ الزِّينَـةِ وأنْ يُحْشَر النَّـاسُ ضُحًى ﴾ . والعـادة جارية أن ٱجتماع الناس للتخليق فى هذا الوقت .

ومتىٰ قصَّر النيل عن هذا المقدار ، غلَتِ الأسعارُ .

وهو إذا ٱبتدأ فى زيادته يكون مخضَرًّا ، ثم محمَرًّا ، ثم كَدِرا .

وإذا ٱنتهى فى الزيادة غشّى الأرض ، وتصير القرىٰ فوقَ الرَّوابى فلا يُتوصَّل إليها إلا فى المراكب أو علىٰ الجسور الممتدّة التى تُنفَق عليها الأموال الكثيرة وتتخذ لحفظ الماء .

فإذا آنتهى رىّ مكان وأخذ حدّه ، قُطِع جَسْر ذلك المكان من مكان معروف (يعرفه خَوَلة البلاد ومشايخها) ترْوىٰ منه الجهة التي تليها مع ماتجمع فيها من الماء المختص بها . ولولا إتقان هذه الجسور وحفر الترع لَقلّ الآنتفاع بالنيل .

§ وقد حكى أنه كان يُرْصَد لعمارة الجسور فى كل سنة ثلثُ الخَرَاج لعنايتهم بها : لما يترتب عليها من المصالح، ويحصُل بها من النفع فى رىّ البلاد .

§ وقد وصف بعض الشعراء، النيل فى طلوعه وهُبُوطه ، فقال :

واهًا لهذا النِّيلِ ، أىُّ عَجيبةٍ * بِكْرٍ بمثـل حديثِها لا يُسْمَعُ!
يَلْقىٰ الثرىٰ فى العامِ وهو مسَلِّم * حتى إذا ما مُـلَّ عادَ يُوَدِّعُ .
مستَقْبَلٌ مثلَ الهلال، فدهْرُه * أبدا يَزِيد كما يَزِيد ويَرْجِـعُ .

وللشعراء فيه أوصاف وتشبيهات، نذكرها بعدُ إن شاء الله تعالىٰ فى موضعها .

§ وهذا النهر مخالف فى جريه لسائر الأنهار، لأنه يجرِى ممـا يَلِي الجنوب مستقبل (٩٤)
الشمال . وكذلك نهر مِهْرانَ بالسِّند، ونهر الأُرُنْط ، وهو نهر حِمْص وحَمَاةَ، ويسمّى العاصىَ لمخالفته للأنهار فى جريها . وماعداها من الأنهار جريُها من الشمال إلىٰ الجَنُوب: لآرتفاع الشمال عن الجنوب وكثرة مياهه .

وهو أخفُّ المياه وأحلاها وأعمُّها نفعا وأكثَرُها خراجا .

§ وقد حُكى أنه جُبِي فى أيام كيقاوش (أحد ملوك القبط الأُوَل) مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار، وجباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار، وجباه عمرو بن العاص آثنىْ عشرَ ألف ألف دينار، ثم رَذُل إلىٰ أن جُبِىَ أيام القائد جوهر (مَوْلىٰ المعزّ العُبيدىّ) ثلاثةَ آلاف ألف ومائتىْ ألف دينار .

وسبب تقهقره أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان يُنْفَق فى حفر تُرعه وإتقان جسوره وإزالة ماهو شاغل للأرض عن الزراعة كالقَصَب والحَلْفاء .

وحكى ٱبن لَهِيعة أن المرتَّبين لذلك كانوا مائة ألف وعشرين ألف رجل : سبعُون ألفا للصعيد، وخمسون ألفا للوجه البحرىّ .

وحكى ٱبنُ زولاق أن أحمد بن المدبر لما وَلِىَ الخراج بمصر، كشَف أرضها فوجد غامرها أكثَرَ من عامرها، فقال : والله لو عَمَرها السلطان، لوفَتْ له بخراج الدنيا .

§ وقيل إنها مُسِحَتْ أيامَ هشام بن عبدالملك، فكان ما يركبه الماء العامر والغامر مائةَ ألفِ ألف فدان. والفدان أربعمائة قصبة، والقصبة عشرة أذرع .

وٱعتبر أحمد بن المدبر مايصلح للزراعة بمصر فى وقت ولايته، فوجده أربعة وعشرينَ ألف ألف فدان. والباقى ٱستَبْحَر وتَلِف .

وٱعتبر مدّة الحَرْث فوجدها ستين يوما. والحراث يحرُث خمسين فدانا، فكانت محتاجة إلى أربعمائة ألف وثمانين ألف حرّاث .

وأما الفــــرات

فهو أحد الرافدين، ويقال الوافِدين، والآخر دجلة ، سميا بذلك لأنهما يجريان فى جانبى بغداد : دجلة من شرقيها ، والفرات من غربيها : يأتى إليها من دجلة من واسط ، والبصرة ، والأُبُلّة ، والأهواز، وفارس، وعُمَان، واليمامة، والبحرين، وسائر بلاد الهند، والسند، والصين؛ ويأتى إليها من الفرات من الموْصِل، وأَذْرَبِيجان، وأرْمينِيَة، والجزيرة، والثغور، والشام، ومصر، والمغرب؛ وقد تقدّم ذكرنا لحديث البخارى أنه يجرى من تحت سدرة المنتهى[1] .

وأما مبتدأ جريه الذى يعرفه الناس، فمن مدينة قاليقَلَا من نهر يسمّى أودَخش، ويجرى مقدار أربعمائة وخمسين ميلا مغرّبا، ثم يخرج من جهة الجنوب حتّى يمرّ بين ثغرَىْ مَلَطْية، وسُمَيساط، ثم إلىٰ جَسْر مَنْبِج، ثم يعطف ويأخذ جهةَ الجنوب حتّى يصل إلىٰ بالِس ويمر بنَصيبين، والرَّقة، وقَرْقِيسيا، والرَّحْبة، فيلْتحف علىٰ عانات، ثم يمتد حتّى يمر بهيت والأنبار . فإذا جاوزها آنقسم قسمين : قسم يأخذ نحو الجنوب قليلا وهو المسمّى بالعَلْقم، ينتهى إلىٰ بلاد سورا وقصر آبن هبيرة والكوفة والحِلّة، إلىٰ البَطيحة التى بين البصرة وواسط، والقسم الآخر يسمّى نهر عيسىٰ، منسوب لعيسىٰ بن علىّ بن عبد الله بن عباس، وهو ينتهى إلىٰ بغداد، ويمر حتّى يصبّ فى دجلة .

قال المسعودىّ : وقد كان الأكثر من ماء الفُرَات ينتهى إلىٰ بلاد الحيرة، ثم يتجاوزُها ويصب فى البحر الفارسىّ، وكان البحر يوم ذاك فى الموضع المعروف بالنَّجَف فى هذا الوقت، وكانت مراكب الهند والصين ترد علىٰ ملوك الحِيرة فيه .

قال : والموضع الذى كان يجرى فيه بيّن إلىٰ زمَن وضعى هذا الكتاب، يعنى "كتاب مروج الذهب" وهو فى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، ويعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة القادسية .

وطول الفُرات من حيثُ يخرُج عند ملَطْية إلىٰ أن يأتى ما يأتى منه إلىٰ بغداد ستّمائةِ فرسخ وثلاثةٌ وعشرون فرسخا، وفى شطّه مُدُن فى جزائر تعدّ من أعمال الفُرات، وهى الريسة، والناوُوسة، والقَصْر، والحَديثة، وعانات، والدّاليةُ .

وأما نهـــــر دجلة

ويســمى السلامة ، وبه سميت بغداد دار الســلام على أحد القولين ، والثانى السلام على الخلفاء فيها .

وهــذا النهر فارز بين العِراق والجزيرة، وانبعاثه من أعين بجبــال آمد ، ويصب إليه نهران يخرجان من أَرْزَن الروم ومَيَّا فَارِقِين وعيون أخرىٰ من جبال السلسلة ، (٩٥) فيمرّ ببلد ، ثم بالموصل فيصب فيه نهر الخابور الخارج من بلاد أرمينيــة بين بلاد سورا وقبر سابور ؛ ويصب فيه الزاب الأكبر الخارج من بلاد أذربيجان علىٰ فرسخ من الحديثــة . ويسمى المجنون لحدّته وشدّة جريه ،ثم تمرّ دِجلة فيصب فيها الزاب الأوسط، ومخرجه من الفرات ويجرى بين إِرْبِل ودَقُوقاء، ويصب فى دِجلة أيضا الزاب الأصغر، ومخرجه أيضا من الفرات .

وهذه الزوابى الثلاثة أنبطها زاب بن طِهماسب : أحد ملوك الفرس الأول،ثم تمرّ دِجلة بتَكْرِيتَ إلىٰ أن تجاوز سامَرًّا قليلا فيقع فيها نهر عيسىٰ ويمرّ حتّى يشقّ بغداد. فاذا تجاوزها صب فيه نهرٌ يخرُج من بلاد أرمينيَةَ يسمّى تامَرًّا بعد أن يمرّ بناصلو ثم ببَاجِسْرَا فيسمّى النهروان، ويشق مدينةً تعرف به،ثم تمرّ دجلة بجَرْجَرَايَا والنُّعمانية ثم بواسِط، ثم إلىٰ البطائح، ثم تخرج منها فتمرّ بالبصرة وتجرى حتّى تنتهى إلىٰ عَبّادان، وعندها تصبُّ فى البحر الفارسىّ .

وما يمرّ من دجلة بالبصرة يملُح إذا مدّ البحرُ فلايُشرب منه ألبتة، ويحلو إذا جَزَر. فأهل البصرة ينتظرون بالاستقاء منه الجَزْر، وهو يمدّ بكرةً ويجْزِر عِشاء .

وكانت المراكب التى ترد من الهند والصين تدخُل فى دِجلة من بحر فارس إلىٰ مدينة المَدَاين ، فاتفق أن آنبثَق فى أسافل كَسْكر بَثْقٌ عظيم علىٰ عهد قُباذ بن فيروز فأهمل حتّٰى طغىٰ ماؤه وغَرّق عماراتٍ وضياعا فصارتْ بطائح .

ويسمّٰى هذا البَثق دِجلة العَوْراء لتحوّل المـاء عنه . وصار بين دِجلة الآن ودِجلة العوراء مسافة بعيدة تسمّٰى بطن جُوخىٰ ، وهو من حدّ فارس من أعمال واسط إلىٰ نحو السُّوس من أعمال خُوزِستان .

ويقـال إن كسرىٰ أنفق أموالا عظيمة علىٰ أن يحوّل المـاء إليها فأعياه ذلك . ورامه خالد بن عبد الله القَسْرى فعجَز عنه .

§ ومقدار مسافة جَرْيِ نهر دِجلة إلىٰ أن يصب فى البحر الفارسى ثلثمائة فرسخ ؛ ومقـدار البطائح ثلاثون فرسخا طولا وعرضا . وهى تفيض فى كثير من الأوقات حتى يخشىٰ علىٰ بغداد الغرق .

وأما نهـــر سِجِسْتان

§ ويسمّى الهِنْدمَنْد[١] ، فيقال إن منوچهر بن أيراج[٢] بن أفريدون أَنبطه .

§ وهو يجرى من عيون فى بلاد الهند ويمرّ ببلد الغُور ، فإذا تجاوزها ، مرّ من أعالى سِجِستان علىٰ برُخّج ، ثم علىٰ بُسْط[٣] ، ثم علىٰ دونج[٤] فتتفرّع منه أنهـار تجرى فى شوارعها . ثم يمرّ عمود النهر حتّٰى يصب فى بحيرة زَرَة .

(١) وسماه المسعودى "الهرمند" فى كتاب "التنبيه والإشراف" .
(٢) فى المسعودى "أيران" وقال : إن أيران تسميه الفرس أيراج .
(٣) هى المشهورة بأسم "بست" . ومنها أبو الفتح البستىّ الشاعر المعروف .
(٤) لم أعثر على هذا الأسم فيما بيدى من كتب الجغرافيـة العربية ، ولعلها هى نفس المدينة التى ذكرها ياقوت وغيره بأسم "زرنج" وقال إنها قصبة سجستان .

§ وطول هذا النهر من حيث يبتدئ إلىٰ نهايته مائة فرسخ .

وزعم قوم أنه يخرج من نهر الكَنْك .

وأما نهر مِهْران

§ وهو نهر السند(١)، فهو يشبه نِيلَ مصر فى زيادته ونَقْصه واصناف حيوانه وما يتفرّع منه من الخُلْجان .

§ وهو يستمدّ من أربعة أنهر : نهران يجريان من السند، ونهر من ناحية كابُل، ونهر من بلاد قِشْمير . وتجتمع فتكون نهرا واحدا، ويجرى حتّى ينتهى إلىٰ الدور فيمرّ بها، ومن ثم يسمّى نهر مِهْران ، ثم يمرّ بالمُولْتان، ثم بالمنصورة، ثم يجرى إلىٰ دَيْبُل . فإذا تجاوزها صب فى بحر الهند علىٰ ستة أميال منها .

§ وطوله ألف فرسخ .

وأما نهر جَيْحون(٢)

ويسمّى بالفارسية "به روذ" وهو "نهر بلخ(٣)" .

§ وآنبعاثه من بحيرة فى بلاد التُّبَّتِ، مقدارها طولا وعرضا أربعون ميلا، تجتمع من أنهار الخُتَّل .

---

(١) لا يزال آسم "مهران" علما يطلقه بعض الهنود إلىٰ الآن علىٰ القسم الأسفل من نهر السند .

(٢) فى الأصل "جيحان" . وهو خطأ لأن جيحان نهر آخر فى آسيا الصغرى و يعرف بنهر المصيصة و يصب فى بحر الشام . أنظر ياقوت وآبن رسته فى "التنبيه والإشراف" .

(٣) ويسمى أيضا نهر كالف علىٰ مارواه المسعودى بآسم قلعة حصينة ، قال ياقوت إنها قائمة علىٰ طرفه شبيهة بالمدينة بينها و بين بلخ ثمانية عشر فرسخا .

فإذا خرج منها مر بوخّان فيسمّى نهر جرياب (١) ، ويجرى من المشرق إلى المغرب إلىٰ أعلىٰ حدود بَلْخ . ثم يعطف إلىٰ ناحية الشمال إلىٰ أن يصير إلىٰ التِّرْمِذ، ثم منها إلىٰ زَمّ وآمُل من بلاد خُراسان . ثم يجرى إلىٰ أن يمرّ ببلاد خُوارَزْم فيشُق قصَبَتها .

فإذا تجاوزها تشعَّب منه أنهار وخُلجان يمينا وشمالا، تصُب إلىٰ مستنقَعات وبطائح يصاد فيها السمك .

ثم تخرج منها مياه تجتمع وتصير عمودا واحدا ، تجرى مقدارَ أربعة وعشرين فرسخا، ثم تصب فى بحيرة خوارزم .

§ ويكون مقدار جريه من مبدئه إلىٰ نهايته ثلثمائة وخمسين فرسخا. وقيل : أربعمائة . وساحله يسمّى الرُّوذَبار (٢) .

ويقال إنه يخرج منه خليج يأخذ سَمْتَ المغرب حتّى يقرب من كَرْمان، ثم يمضى حتّى يصبَّ فى بحر فارس .

§ ونهر جَيْحون ربما جَمَد فى الشتاء حتّى تعبر عليه القفول . قالوا : ويبتدئ جمودُه من ناحية خوارزم .

وأما نهر سَيْحُون

ويسمّى نهر الشَّاش، وهو فارزٌ بين بلاد الهياطلة وبلاد تُرْكستان .

§ قال ابن حوقل : مبتدؤُه من أنهار تجتمع فى حدود بلاد التُّرك [والإسلام] ، فتصير عمودا واحدا وتجرى حتّى تظهر فى حدود أوزْكَنْد من بلاد فَرْغانة فتصب فيه

(١) فى الأصول "جواب" والتصحيح عن الاصطخرى وابن حوقل .

(٢) قال ياقوت : كأن معناه بالفارسية "موضع النهر" . ثم نقل عن السمعانىّ أن الروذبار لفظة لمواضع عند الأنهار الكبيرة فى بلاد متفرّقة . ثم ذكر روذبار بلخ ثم قال وبالشاش أيضا قرية يقال لها روذبار من وراء جيحون . [ولعل المراد هنا بلاد النهر أى نهر جيحون كما قالوا زنجبار أى بلاد الزنج] .

فيعظم و يكثر ماؤه، ثم يمتدّ إلىٰ فاراب. فإذا تجاوزها يجرى فى بريّة فيكون على جانبيه الأتراك الغُزّيّة، ويمرّ إلىٰ أن يصب فى نهر جَيْحون (١) .

وبين موقعه فى النهر وبين بُحيرة خوارزم عشرة أيام .

وأما نهــــر الكَنْك (٢)

وهو نهر تعظِّمه الهند، فينبعث من بلاد قِشْمير ويجرى فى أعالى بلاد الهند .

§ وهم يزعمون أنه من الجنة فيعظِّمونه غاية التعظيم .

§ ومن عجائبــه أنه إذا ألقى فيه شىء من القاذورات ، أظلم جَوُّه ورجَفَتْ أرجاؤه وكثُرت الأمطارُ والرياحُ والصواعقُ . (٩٦)

§ وقد وصفه العُتْبىّ فى ""التاريخ اليمينى"" فقال :

""وهذا النهر الذى يتواصف الهنود قدرَه وشرفَه، فيرون من عين الخلد التى فى السماء مُغتَرَفه؛ إذا أُحرق منهــم ميت ذَرّوه فيه بعظامه ، فيظنون أنّ ذلك طُهْر لآثامه ؛ وربما أتاه الناسك من المكان البعيد فيُغْرِق نفســه فيه، يرىٰ أنَّ هذا الفعل يُنْجيه . والهنود يُفْرِطون فى تعظيمه حتّى إنــ الرجل منهم إذا أراد الفوز، أحرق نفْسَه وألقى رماده فيــه، أو يأتى إلىٰ النهر (وهناك شجر القَنَا فى غاية الأرتفاع، وقوم هناك بأيديهم سيوف مسلولة وخناجر) فيرْبِط نفسه فى طَرَف قناة، ثم يحزُّ رأسَه بيــده

---

(١) آختصر المؤلف كلام آبن حوقل آختصــارا خفيفا (وانظر كلام آبن حوقل فى كتابه "" المســالك والممالك"" ص ٣٩٢ — ٣٩٣) .

(٢) قال أبو الفدا إنــ آسمه الهنــدى : كانكو وسماه المسعودى "" جَنْجَس "" فى كتاب "" التنبيه والإشراف"" .

فيبقَ الرأس معلقا فى طَرَف القنــاة وتسقط الجثةُ، أو يلق نفسَه من شاهق علىٰ تلك السيوف والخناجر فيتقطع، ومنهم من يلقِي نفسه فى النهر فيَغْرق ” .

وأما نهــــر الكُـر

فهو نهر بأرض أرمينِيَة .

§ وآنبعاثه من بلاد اللّان، فيمرّ ببلاد الأبخازَ(١) حتّى يأتى ثغر تَفْليس فيشقُّه ويجرى فى بلاد الساوَرْدية(٢). ثم يخرج بأرض بَرْذَعَة، ويجرى إلىٰ بَرْزَنج فيصب فيه نهر الرَّسّ.

§ وهذا النهر هو المذكور فى القرآن العزيز فى قوله تعالىٰ ﴿ وأصحابُ الرس(٣) ﴾ علىٰ ما ذهب إليــه بعض المفسرين . فإذا صب فيه هذا النهر، صارا نهرا واحدا يصب فى بحر الخَزَر .

§ ونهر الرَّسّ يخرج من أقاصى بلاد الروم، علىٰ ما زعم المسعودى .

وأما نهــــر إتِل

§ وهو نهر عظيم، فهو نهر الخَزَر .

§ ويمرّ جانبه الشرقىّ علىٰ ناحية خَرْخِيز، ويجرى ما بين الكيماكية والغُزِّية . ثم يمتدّ غربًا علىٰ ظهر بُلْغار(٤) وبُرطاس والخَزَر . ثم ينقسم قسمين : أحدهما إلىٰ مدينة إتل

(١) فى الأصل ”الأبحار“ . والأصوب ”الابخاز“ وهو أسم لجهة من بلاد أرمينيه (وقد ذكر الابخاز كل من الإصطخرى وأبن حوقل والمقدسى وأبن خرداذبة والمسعودى) .

(٢) جيل من الأرمن يسميهم العرب أيضا ” السياوردية “ و يصفونهم بأنهم ” أهل العبث والفساد والتلصص (عن حاشية فى ص ١٩٢ من ”مسالك الممالك“ للإصطخرى) .

(٣) فى الاصل ”كذب أصحاب الرس المرسلين “ وهو غير نظم القرآن ، فتنبه .

(٤) مدينة كانت على نهر الإتل ببلاد الروسيا . ومنها خرج البلغار الى البلاد المعروفة الآن بأسمهم .

يشقّها بنصفين ويجرى إلىٰ أن يصب فى بحر الخَزَر، ويجرى الآخر فيمرّ ببلد الرُّوس حتّى يصب فى بحرهم وهو بحر سُوداق .

§ ويقال إنه يتشعب منه نَيِّف وتسعون نهرا ، وإذا وقع فى البحر، يجرى فيه مسيرة يومين ثم يغلب عليه .

§ وقيل إنه يجمُدُ فى الشتاء، ويتبين لونه فى لون البحر .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما فى المعمور
من الأنهار والعيون التى يُتَعجَّب منهـا

قال صاحب "مباهج الفكر ومناهج العبر" فى كتابه :

«وذكر المعتَنُون بتدوين العجائب فى كتبهم التى وضـعوها لذلك أن فى المعمور أنهارا وعيونا يُتعجَّب منها إذا أُخْبِرعنها . فذكروا منها نهر الـكَنْك (وقد تقدم ذكره) وأن بأرض الهند مكانا يعرف بعقبة عَوْرك فيه عين ماء لا تقبل نَجَسا ولا قَذَرا ، وإن أُلقِى فيهـا شىء من ذلك، آكفهرَّت السماء وهبَّت الريح وكثر الرعد والـبرق والمطر . فلا تزال كذلك إلىٰ أن يُخْرَج منها ما طُرِح فيها .

«وذكروا أن فى ناحيـة الباميَان عينا تسمّى دِيوَاش تفور من الأرض كغَلَيان القِدر، متىٰ بصق فيها إنسان أو رمىٰ فيها شيئا من القاذورات، آزداد غَلَيانها وفَوَرانها وفاضت . فربمـا أدركَتْ من جعل ذلك فيها فغرّقته .

«وبناحية الباميان أيضا عين تجرى مِن جبل فى بعض الأحيان . فإذا خرج ماؤها، صار حجرا أبيض .

«وبقرية من أعمال فارس كَهْف بين جبال شاهقة فيه حُفْرة بقدر الصَّحْفة، يقطُر فيها من أعلىٰ الكهف ماء: إن شَرب منه واحد لا يفضل عنه منه شيء، وإن شرب منه ألف عَمَّهم وأرواهم.

«وبناحية أردشير جرد[1] عين يجرى منها ماء حلو يُشرَب لشَفْية الجوف. فمن شرب منه قَدَحا أقامه مرة، وإن زاد فعلى قدر الزيادة.

«وبداريَن من أعمال فارس نهر ماؤه شَرُوب. إذا غُطّت فيه الثيابُ خَضَّرها.

«وفى بعض رساتيق هَمَذان عيون متىٰ خرج منها المـاء تحَجَّر.

«وبنواحيها أيضا ماء يخرُج من تحت قلعة ويجرى فى جَداولَ إلىٰ بعض الرساتيق. فما تشبّث منه فى صَـدْع أو شقٍّ صار حجرا صَلْدا، وإذا صُبَّ فى خَزَفة وأقام فيها ثلاثة أيام ثم كُسِرت، وجد فى جوفها أخرىٰ قد تحجرت من المـاء.

«وبناحية تَفْليس عين تنبعُ، فإذا خرج منها المـاء صار حَيَّات.

«وبأرض القُذْموس من حصون الدَّعْوة بربَضها حَمَّام يجرى إليها المـاء من عين هناك. فإذا كان فى أوّل شهر تَمُّوز ينبُع فى الحَـمّام حَيَّات فى طول شبرين أوّلا، ثم فى طول شبر، وتكثر. ولا توجد فى غير الحمام. فإذا انقضىٰ شهر تَمُّـوزَ، عُدمت تلك الحيَّات، فلا توجد إلىٰ العام القابل.

«وبأرض أرمينَيَة واد لا يقدر أحد ينظر إليه ولا يقف عليـه ولا يُدْرىٰ ما هو. إذا وضعت القدر علىٰ ضَفَّته غلتْ ونَضِج ما فيها. وفيها واد عليه الأَرْحَاء والبساتينُ. ماؤه حامض، فإذا نزل فى الإناء، عَذُب وحَلا.

(١) فى معجم ياقوت "أَرْدَشير خُرَّه" مضبوطا بالعبارة.

«وبالمَرَاغة عيون اذا خرج ماؤها لَمْ يلبثْ إلا قليلا حتى يتحجّر . فمنه تُفْرَش دورهم .

«وبنواحى أَرْزَن الروم ماء يستقىٰ فيستحجِر ويصير مِلْحا .

«وأكثرُ مياه بلاد اليمن تستحيل شَبًّا .

«وبنواحى واحات من أعمال مصر عيون مياهها ألوانٌ مختلفة : من الحُمْرة والصُّفْرة والخُضْرة . تسيل إلىٰ مستنقَعَات ، فتكون مِلْحا بحسب ألوانها .

«وفى هذه الناحية عيون يطبخ بمائها بدلًا عن الخَلّ .

«وبنواحى أُسْوان من الصعيد الأعلىٰ مستنقعاتٌ منها النِّفط .

«وكذلك بتَكْرِيت من أرض العراق .

«وبأرض كَتَامة(١) من بلد إفريقيَّة عينٌ تسمّى عينَ الأوْقاتِ . تجرى فى أوقات الصلوات الخمس . فإذا حضَرَ جُنُبٌ أو آمرأة حائضٌ ، لاتَبِضُّ بشىء من المـاء . و إذا آتّهم رجلان ، أتتْ بالمـاء للصادق وشحّتْ علىٰ الكاذب .

«وببلد إفريقية أيضا عينٌ تنبُع بالمِداد ، يكتُب به أهل تلك الناحية .

«وبطَرَطُوشَة من بلاد الأنْدَلُس واد يجرى رملا .

قال : وذكر بعض أصحـاب المجاميع أنه كان بمدينـة طَحَا من كُورة الأُشْمونين من صـعيد مصر بئر فيها ماء مَعِين يُشْرب منها طولَ أيام السنة فيكون المـاء كسائر المياه ، حتّى إذا كان أوّلُ يوم من برمودة من شهور القبط فمن شَرِب من ذلك المـاء

---

(١) فى الأصل : "كامة" وهو غلط من الناسخ ، لأن "كتامة" قبيلة من البربر منتشرة فيما بين برقة الى أرض الجزائر .

يومئذ خدمتْه الطبيعة مقدار ما شَرِب . فاذا كان وقتُ الزوال طاد المـاء إلىٰ حالته الاولىٰ، ثم لا يفعل كذلك إلا فى مثل ذلك اليوم من العام القابل .

وقال : إنه كان بمدينـة الأُشْمونَيْنِ كنيسة تعرف ببُوجُرج إلىٰ جانبها بئر لانداوةَ فيها ولا بَلَلَ فى سائرأيام السـنة، فاذا كان اليوم العاشرمن طوبة من شهور القبط تمتلئ تلك البئر ماءً شَرُوبا . فلا يبقىٰ أحد من نصارىٰ ذلك البلد إلا ويأخذ من ذلك المـاء للتبرُّك به . حتّٰى إذا كان عند الزوال، غاض المـاء فلا يبقىٰ فى البئر منه شيء ويجِفُّ لوقته .

«وبأرض مَرْمَنِيثا من عمل حصن الأكراد عين تسمّٰى الفَوّارة . تكون فى غالب الأوقات بينها وبين وجه الأرض تقديرُ ثلاثة أذرع . وتفور فى بعض الأيام ويخرج منها ماءٌ يدير أرحيةَ الطواحين ويسقِى البساتينَ فيستمرّ كذلك بعضَ يوم ثم يغور . ويتكرر ذلك فى الاسبوع مرتين وثلاثة .

«وبقلعة بعْلَبك من الشام بئر تعرَف ببئر الرحمة لايُرىٰ فيها الماء إلا إذا حُوصرت . فإنها عند ذلك تمتلئ حتّٰى تفيض . فإذا زال الحِصار جَفّتْ» .

ذكر ما يتمثل به ممـا فيه ذكر المـاء

(ما جاء من ذلك علىٰ لفظ افعل)

الأمثـال :

يقـال :

أسْرَعُ من المـاء إلىٰ قَرَاره .

أرَقُّ من المـاء .

أحمقُ من لاعِقِ المـاء .

أحمقُ من القابض على الماءِ .

أصفى من ماء المَفاصِل .

أعذَبُ من ماء المَفَاصل .

أجرى من الماء .

أعذَبُ من ماء الحَشْرَج .

أعذَبُ من ماء البارِق .

ألطفُ من الماء .

أوجدُ من الماء .

ويقال :

أنْ تَرِدِ الماءَ بماءٍ أكيَسُ .

ماءٌ ولا كصَدَّاء .

قد بَلَغ الماء الزُّبى .

ويقال :

فلان يرقُم على الماء . (إذا كان حاذقا) .

نَأْطَةٌ مُدَّتْ بماء . (للأمر يزداد فسادا) .

ليس الرِّىُّ فى التَّشَاف . (فى ذم الاستقصاء) .

الماءُ إذا طال مكثُه، ظهر خبثُه، وإذا سكَنَ مَتْنه، تحرّك نَتْنه .

الكَدَر من رأس العَيْن .

إذا عَذُبتِ العُيون، طابَتِ الأنهار .

هذا غَيض من فَيض، وبَرَضٌ من عدّ . (أى قليل من كثير) .

ومن أنصاف الابيات :

* والمرءُ يَشْرَق بالزُّلال البـارِد ! * * كذلك غَمْرُ الماءِ يُرْوِى ويُغْرِق ! *

* والمَشْرَبُ العَذْبُ كثير الزِّحام ! * * مَوَاقِع الماءِ من ذي الغُلّةِ الصادِي ! *

* وكيف يَعَافُ الرَّنْقَ مَنْ كان صادِيا ؟ *

ومن الابيات :

يا سَرْحةَ الماءِ قد سُدّتْ مَوَارِدُه * أمَا إليك سَبِيلٌ غيرُ مسـدود ؟

لحـائمٍ حامَ حتّى لا حِيـام به * مُحَلَّإٍ عن طريق المـاء مَصْدُود !

وقال آخر :

أيَجُوزُ أخْذُ المـاءِ من * متلَهِّبِ الأحشاءِ صادِي ؟

وقال آخر :

أرى ماءً وبِي عطَشٌ شديدٌ ، * ولكن لا سـبِيلَ إلى الوُرُود !

وقال آخر :

مَنْ غُصّ داوى بشُرب الماء غُصّتَه ، * فكيف يَصْنَعُ من قد غُصّ بالماءِ ؟

وقال آخر :

وما كُنتَ إلّا المـاءَ جئنا لشُرْبه ، * فلمّـا وردْناه إذا المـاءُ جامد !

وقال آخر :

وفي نَظْرة الصادى إلى الماء حَسْرةٌ ، * إذا كان ممنوعًا سَبِيلَ المَـوارِد !

وقال آخر : (٩٨)

وإنّي للمـاءِ المخالِط للقَـذَى * إذا كَثُرتْ وُرّادُه ، لَعَيُوفُ !

وقال آخر :

سأقنع بالثِّمادِ، لعلّ دهرًا * يَسُوقُ الماءَ من حُرٍّ كريم!

وقال آخر :

ومَنْ يأمنِ الدنيا يكُنْ مثلَ قابضٍ * على الماء، خانته فُروجُ الأصابِعِ.

وقال آخر :

وإنّى وإشرافى عليك بهمّتى * لكالمبتغى زُبْدًا من الماء بالمخض.

وقال آخر :

فقُلْ فى مَكْرَعٍ عَذْبٍ، * وقد وافاهُ عَطْشانُ!

وقال آخر :

وكيف الصَّبْرُ عنك، وأىُّ صَبْرٍ * لظمآنٍ عن الماءِ الزُّلَالِ؟

وقال آخر :

وإنَّ الماءَ فى العِيدانِ يَجْرِى، * ورُبَّمَا تغـيَّر فى الحُلُوق!

وقال آخر :

إذا أنا عاتَبْتُ المَلُولَ فإنَّما * أخُطُّ بأقلامٍ على الماءِ أحْرُفا!

وقال آخر :

والماء ليس عجيبًا أنّ أعذَبَهُ * يفنى، ويمتدّ عُمْرُ الآجِنِ الأَسِنِ.

وقال آخر :

المالُ يُكْسِبُ أهلَه، مالم يفضْ * فى الراغبين إليه، سُوءَ ثناءِ.
كالماء تأسنُ بِئرُه إلا إذا * خَبَطَ السُّقاةُ جِمامَه بِدِلاءِ.

ذكر شىء مما قيل فى وصف الماء وتشبيهه

§ فأما ما ٱختص به نهر النيل من الوصف .

فمن ذلك قول ٱبن النَّقِيب :

كأنَّ النِّيـلَ ذُو فَهْمٍ ولُبٍّ * لمـا يَبْدُو لِعَيْنِ الناس مِنه .
فَيأْتِى حِينَ حاجَتِهم إليه ، * ويَمْضِى حِينَ يَسْتَغْنُون عنه !

وقال تَمِيم بن المعزّ العُبَيدىّ :

يَوْمٌ لنـا بالنِّيـــل مُخْتَصَرُ * ولِكُلِّ يومِ مَسَرَّةٍ قِصَـــرُ .
والسُّفْن تَجْرى كالخُيُول بنا * صُعُدًا ، وجيْشُ الماءِ مُنْحَدِرُ .
فكأنّمـا أمواجُه عُكَنٌ * وكأنّمـا داراتُه سُـــرَرُ .

§ ومن رسالة للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى قال :

وأما النيل فقد ملأ البِقَاع ، وٱنتقل من الإصبع إلى الذِّراع . فكأنّمـا غار على الأرض فغَطَّاها ، وغارَ عليها فاستَبْعدها وما تخَطَّاها . فمـا يوجد بمصر قاطِعُ طريق سواه ، ولا مرغوبٌ مرهوبٌ إلا إيَّاه .

وأما ما ٱختصت به دجلة من الوصف .

قال التنوخىّ :

وكأنّ دِجْلَةَ إذ تغَمَّض موجُها * مَلِكٌ يُعَظَّم ، خِيفــةً ويُبَجَّلُ .
عذُبَتْ ، فما أَدْرِى أماءٌ ماؤها * عند المَذَاقةِ أم رَحِيقٌ سَلْسَلُ ؟
وكأنّهـا ياقوتةٌ أو أعْيُنٌ * زُرْق يُلاءَم بَيْنها ويُوصَــلُ .
ولهـا بمَدٍّ بعـد جَزْرٍ ذاهبٍ * جَيْشانِ : يُدْبِر ذا ، وهذا يُقْبِلُ .

وقال محمد بن عبد الله السلامىّ، شاعر "اليتيمة":

وميدانٍ تجُولُ به خيولٌ * تقُود الدّارعين(١) ولا تُقادُ.
رَكِبْتُ به إلى اللّذات طِرفًا * له جسمٌ وليس له فؤادُ.
جرى فظَنَنْتُ أن الأرضَ وجهٌ * ودجلةَ ناظرٌ وهو السّوادُ.

وقال الصنوبرىّ:

فلمّا تعالى البدرُ واشتدّ ضَوْءُه * بدجْلةَ فى تَشْرين بالطُّول والعَرض
وقد قابل المَاءَ المفضّض نُورُه * وبعضُ نجوم الليل يُطْفِى سَنا بعض،
توهّم ذُو العين البَصيرة أنه * يرى ظاهرَ الأفلاك فى باطن الأرض.

ومما وصفت به الأنهار

قال الصنوبرى:

والعَوجانُ الذى كَلفتُ به * قد سُوّى الحُسْنُ فيه مُذْ عوّجْ.
ما أخطأ الأيْمَ فى تعوُّجه * شيئًا إذا ما استقام أو عرّجْ.
تُدرّجُ الريحُ متنَه فترى * جَوْشَنَ ماء عليه قد دُرّجْ.
إن أعنقتْ بالجنوب أعنَق فى * لُطْف، وإن هَمْلَجتْ به هَمْلَجْ.
من أيْنَ طافتْ شمسُ النهار به * حسِبْتَ شمسا من جوْفه تخْرُجْ.

وقال أبو فراس:

والماءُ يَفصِل بين زَهــر الرّوض فى الشّطّين فصْلا.
كبِساطِ وشْى جرّدتْ * أيْدى القِيان عليه نَصْلا.

(١) أنظر قبل هذا ص ٢٥٦ فى وصف البحر والسفن. وكتب فى بعض الأصول عند هذا الموضع لفظة "مكرر".

وقال الناجم:

أُنظُرْ إلى الرّوض الّذي * فَحُسْنُه للعين قُرّهْ!
فكأنّ خُضرتَه السما * ءُ، ونَهْرُه فيه المَجَرّهْ.

وقال عبد الله بن المعتزّ:

وترى الرّياحَ إذا مَسَحْنَ غَدِيرَه * وصَفَيْنَه وَنَقَيْنَ كُلَّ قذاةِ،
ما إنْ يزالُ عليه ظَبْيٌ كارِعٌ * كتَطَلُّعِ الحَسْناءِ في المِرْآةِ.

ومثله قول الآخر:

وغَديرٍ رقّتْ حواشِيه حتى * بانَ في قَعْره الذي كان ساخَا.
وكأنّ الطُّيورَ إذ ورَدَتْه * من صَفاءٍ بِه، تَزُقُّ فِراخَا.

وقال آخر:

والنَّهرُ مُكْتَسٍ غِلالةَ فِضّةٍ، * فإذا جَرَى سَيْلٌ، فثوبُ نُضَارِ.
وإذا ٱستقام، رأيتَ صفحةَ مُنْصُلٍ[1]، * وإذا ٱستدارَ، رأيتَ عِطْفَ سِوَارِ.

وقال أبو مَرْوان بن أبي الخصال:

النَّهرُ قد رَقّتْ غلالةُ خَصْرِه * وعليه من صِبغ الأصيلِ طِرَازُ.
تترقرقُ الأمواجُ فيه كأنّها * عُكَنُ الخُصُورِ تهُزُّها الأعْجازُ.

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي:

لله نَهْرٌ سالَ في بَطْحاءِ * أشهى وُرُودًا من لَمَى الحَسْناءِ!
وغدَتْ تَحُفُّ به الغُصونُ كأنّها * هُدُبٌ تَحُفُّ بمُقْلةٍ زَرْقاءِ.
والرّيحُ تعبَثُ بالغُصون وقد جَرَى * ذَهَبُ الأصيلِ على لُجَيْنِ الماءِ!

(١) المنصل (بضم فسكون فضم) هو السيف.

وقال أبو القاسم بن العطار :

مَرَرْنا بشاطِى النهرينَ حدائقٍ * بها حَدَقُ الأزهار تستوقفُ الحَدَقْ .
وقد نَسَجتْ كَفُّ النَّسيم مُفاضةً * عليه، وما غيرُ الحُبَابِ لها حَلَقْ !

وقال محمد بن سهل البلخى، شاعر «الذخيرة» :

راقَنَا النهرُ صَفَاءً * بعدَ تكديرِ صَفائِهْ .
كان مثلَ السيفِ مُدْمًى * فجَلَوْهُ من دِمَائِهْ .
أو كمثلِ الوَرْدِ غَضًّا * فهو اليومَ كمائِهْ .

وقال القاضى التنوخى، شاعر «اليتيمة» :

أحْبِبْ إلىّ بنهرِ مَعْقِلٍ الذى * فيه لقلبِى من هُمُومى مَعْقِلُ !
عَذْبٌ إذا ما عَبَّ فيه ناهِلٌ * فكأنَّه من ريقِ حِبٍّ يَنْهَلُ .
متسلسلٌ فكأنَّه لصَفائِه * دمعٌ بخدَّىْ كاعِبٍ يتسلسلُ .
فإذا الرِّياحُ جَرَيْنَ فوقَ مُتُونِه * فكأنَّها دِرْعٌ جلاه الصَّيْقَلُ !

وقال مؤيد الدين الطُّغْرائى فى الغدير :

عُجْنا إلىٰ الجَزْعِ الذى مدّ فِى * أرجائِهِ الغَيْمُ بِساطَ الزَّهَرْ .
حَوْلَ غَديرٍ ماؤُه المنتمِى * إلىٰ بنَاتِ المُزْنِ يَشْكُو الحَصَرْ .
لو لاذَهُ(١) الرِّيحُ سَمُومًا به * لانقلبَتْ وهى نَسيمُ السَّحَرْ .
حَصْباؤُه دُرٌّ ورَضْراضُه * سُحالةُ العَسْجِدِ حَوْلَ الدُّرَرْ .
وقد كَسَتْه الرِّيحُ من نَسْجِها * دِرْعًا به يلْقىٰ نِبالَ المَطَرْ .

(١) كذا بالأصل . وفى ديوانه : "لو لاذت الريح الخ" وهو الصواب .

وألبستهُ الشَّمسُ من صِبْغِها * نُورًا به يَخْطِفُ نُورَ البصَرْ.
كأنَّها المِرْآةُ مَجْلُوَّةٌ * علىٰ بِساطٍ أخْضَرٍ قد نُشِرْ.

وقال أيضا :

مِلْنا إلىٰ النَّشْرِ الذي تَرْتَقِي * إليه أنْفاسُ الصبا عاطِرَهْ.
حَوْلَ غَدِيرٍ ماؤُه دارِعٌ * والأرضُ من رِقَّتِه حاسِرَهْ.
والشمسُ إن حاذته رأْدَ الضُّحىٰ * حَسْناءُ في مِرْآتها ناظِرَهْ.
والشُّهْب إن حاذته جُنْحَ الدُّجىٰ * تَسْبَحُ في لُجَّتِه الزاخِرَهْ.
قد رُكِّبَ الخَضْراءُ فيه، فمِنْ * حَصْبائِه أنْجُمُها زاهِرَهْ.
يَخْضَرُّ(١) إن مرت بأرجائه * لَفْحُ سَمُومٍ في لَظىٰ هاجِرَهْ.
أُنْمُوذَجُ الماءِ الذي جاءنا الـ * ـوعدُ بأن نُسْقاه في الآخِرَهْ!

ومما وصفت به البرك

قال البحتريّ عفا الله عنه :

يامَنْ رأىٰ البِرْكَةَ الحَسْناءَ رؤيتَها * والآنساتِ التي لاحَتْ مَغانِيها!
ما بالُ دِجْلَةَ كالغَيْرَىٰ تُنافِسُها * في الحُسْنِ طَوْرًا، وأطْوارًا تُباهِيها؟
كأنَّ جِنَّ سُلَيْمانَ الذين وَلَوْا * إبْداعَها فأدَقُّوا في مَعانِيها.
فلو تَمُرُّ بها بِلْقِيسُ عن عُرُضٍ، * قالتْ: هي الصَّرْحُ تمثيلًا وتَشْبِيها.
تَنْصَبُّ فيها وُفُودُ الماءِ مُعْجِلَةً * كالخَيْلِ خارجةً من حَبْلِ مُجْرِيها.
كأنَّما الفِضَّةُ البيضاءُ سائلةٌ * من السبائك تَجْرِي في مَجارِيها.

(١) في الأصل "يخضر" وفي ديوانه (الموجود منه نسخة مخطوطة «بدار الكتب المصرية») "يحضر" ولا معنى لهما . ولعل الصواب "يَخصَر" من الخَصَر، وهو شدّة البرد كما يرتضيه السياق .

إذا عَلَتْها الصَّبا أبدَتْ لها حُبُكًا * مثلَ الجواشنِ مَصْقُولًا حَوَاشِيها .
إذا النُّجوم تراءتْ في جَوَانبها * ليلًا، حَسِبْتَ سَماءً رُكِّبَتْ فيها .
لا يبْلُغ السَّمَكُ المحصُور غايَتَها * لبُعْدِ ما بينَ قاصِيهَا ودانِيهَا .
يَعُمْن فيها بأوساطٍ مجنَّحةٍ * كالطيرِ تنقَضُّ في جَوٍّ خَوَافيها .
كأنها حين لجَّتْ في تدفُّقها * يَدُ الخليفةِ لمَّا سالَ وَاديها !

وقال ٱبن طباطبا :

كَمْ ليلةٍ ساهَرْتُ أنجمَها لَدىٰ * عَرَصات أرضٍ ماؤها كسمائِها .
قد سُيِّرَتْ فيها النجُومُ كأنَّما * فَلَكُ السماءِ يَدُور في أرجائِها .
أحْسنْ بها بحرًا إذا ٱلتبَسَ الدُّجىٰ، * كانتْ نجومُ الليل من حَصْبائِها !
تَرْنُو إلىٰ الجَوْزاء وهي غَرِيقةٌ * تَبْغِي النَّجاءَ، ولاتَ حِينَ نَجائِها !
تَطْفُو وتَرْسُب في ٱصطفاقِ مِياهِها * لا مُستعانَ لها سِوىٰ أسمائِها .
والبَدْر يَخْفِق وَسْطَها فكأنَّهُ * قَلْبٌ لها قد ريعَ في أحْشائِها .

وقال عبد الجبار بن حَمْدِيس، يصف بركة يجرى إليها الماء من شاذَرْوان من أفواهِ طيور وزَرَافات وأُسود، من أبيات :

والماءُ منه سَبائكٌ من فِضَّةٍ * ذابَت علىٰ دُولَابِ شَاذَرْوان !
فكأنَّما سَيْفٌ هُناك مشَطَّبٌ * ألقَتْه يومَ الرَّوعِ كفُّ جَبَانِ !
كم شاخِصٍ فيه يُطِيل تعَجُّبًا * من دَوْحة نبَتَتْ من العقْيانِ !
عَجبًا لها تَسقِي هُناك يَنائعًا * يَنَعَتْ من الثَّمرات والأغصانِ !
خُصَّت بطائرةٍ علىٰ فَنَنٍ لها * حَسُنَتْ، فأُفْرِدَ حسنُها من ثانِي !

قُسُّ الطيورِ الساجعاتِ بلاغةً * وفَصاحةً من مَنطِق وبَيَان.
فإذا أُتيحَ لها الكلامُ تكلّمتْ * بخَرِير ماء دائمِ الهَمَلانِ.
وكأنّ صانِعَها ٱستبدّ بصنْعةٍ * فخَر الجمادُ بها علىٰ الحَيَوانِ!
أَوفَتْ علىٰ حَوْضٍ لها فكأنَّما * منها إلىٰ العَجَب العُجَاب رَوان.
وكأنّها ظنّتْ حلاوةَ مائِها * شَهْدًا، فذاقَتْه بكُلِّ لِسان.
وزَرَافة في الجوّ من أنبوبِها * ماءٌ يُريكَ الجَرْيَ في الطَّيَران.
مَرْكُوزة كالرُّمح حيثُ ترىٰ له * من طَعْنه الحَلَقَ ٱنعطافَ سنَان.
وكأنّما ترمِي السماءَ ببُنْدُقٍ * مُستَنْبِطٍ من لُؤلؤ وجُمَان!
لو عادَ ذاكَ الماءُ نِفْطا، أحرقت * في الجوّ منه قَميصَ كلِّ عَنان.
في بِرْكةٍ قامتْ علىٰ حافاتِها * أُسْدٌ تَذِلُّ لعزّة السُّلطان!
نَزَعتْ إلىٰ ظُلْم النفوس نُفوسُها، * فلذلك ٱنتُزِعتْ من الأبْدان.
وكأنّما الحيّاتُ من أفواهِها * يَطرحْنَ أنفسَهنّ في غُدْران.
وكأنّما الحيتانُ إذ لم تَخْشَها، * أخذَتْ من المَنْصُور عَهْدَ أمان!

وقال آخر:

ولقد رأيتُ، وما رأيتُ كبِركة * في الحُسْنِ ذاتِ تدفُّق وخَرِير!
عَقدتْ لها أيدِي المِياهِ قَناطِرًا * من جَوْهرٍ في لُجّةٍ من نُور!

وقال عليّ بن الجهم، يصف فوّارة:

وفَوّارةٍ ثارُها في السَّماءِ، * فليستْ تُقَصِّر عن ثارِها! (١٠١)
تَرَاها اذا صَعِدت في السَّماءِ * تعودُ الينا بأخبارِها.
تَرُدُّ علىٰ المُزْن ما أنزَلتْ * علىٰ الأرضِ من صَوْبِ مِدْرارِها!

وقال ابن حجاج فيها :

عَلِمتُ فى دارِكَ فَوّارةً ، * غرّقَتِ الأفقَ بها الأنجُا!
فاضَ علىٰ نَجْمِ السما ماؤُها ، * فأصبحَتْ أرضُك تَسْقِى السما!

وقال تميم بن المعزّ العبيدىّ :

وقاذفةٍ بالماء فى وَسْطِ بِركةٍ * قد التحفَتْ ظِلّاً من الأيْكِ سَجْسَجَا.
إذا أينَعتْ بالماء سَلّتْه مُنْصُلا * وعاد عليها ذلك النَّصْلُ هَوْدَجا.
تُحاوِلُ إدراكَ النجومِ بقَذْفِها ، * كأنّ لها قَلْبًا علىٰ الجوّ مُحْرَجا!

ومما وصفت به الدواليب والنواعير

قال أبو حفص بن وَضّاح :

لله دُولابٌ يَطُوفُ بسَلْسَلٍ * فى رَوْضةٍ قد أينعتْ أفنانا!
قد طارحَتْ فيه الحَمائمُ شَجْوَها * بنحيبها ، وتُرَجِّعُ الألحانا.
فكأنّه دَنِفٌ يطُوفُ بمَعْهَدٍ ، * يَبْكِى ويسْأل فيه عمّن بانا.
ضاقتْ مَجارِى طَرْفِه عن دَمْعِه ، * فتفتّحتْ أضلاعُه أجْفانا!

وقال الموفقّ ، رحمه الله :

ناعورةٌ تُحسَبُ من صَوْتِها * مُتَيَّما يَشْكُو إلىٰ زائِرِ.
كأنّما كِيزانُها عُصْبةٌ * رُمُوا بصَرْفِ الزّمَنِ الواتِرِ.
قد مُنِعُوا أن يلتقُوا فٱغتدَوْا * أوّلُهم يبكِى علىٰ الآخِرِ!

وقال آخر :

وناعورةٍ قد ضاعفَتْ بنُواحِها * نُواحى ، وأجْرتْ مُقْلَتِىّ دُمُوعُها!
وقد ضَعُفتْ مما تئِنّ ، وقد غدَتْ * من الضَّعْفِ والشَّكْوىٰ تَعُدّ ضُلوعُها!

وقال آبن مُنيرٍ الطرابلسي :

لِنَـواعِيرِها على المـاءِ ألحـا * نٌ تَهيجُ الشَّجا لِقَلْبِ المَشُوق.
فَهْي مِثْلُ الأفلاكِ شَكْلًا وفعلًا، * قُسِمَتْ قَسْمَ جاهـلٍ بالحُقُوق:
بين عالٍ، سامٍ، يُنَكِّسُه الحَظ * ويَعْلـو بسـافـلٍ مَرْزُوق.

وقال أبو الفرج الوأواء :

وكريمـةٍ سقَت الرياضَ بِدَرِّها، * فَغَدَتْ تَنُوبُ عن السَّحاب الهامِع.
بِلِبـاسِ محْزونٍ، ودَمْعة عاشِقٍ، * وحَنِينِ مُشْـتاقٍ، وأنَّةِ جازع.
فكأنَّها فَلَكٌ يَدُورُ، وعُلْوُهُ * يَرْمِي القَـرَار بكلِّ نَجْـم طالِـع.

وقال الصنوبري :

فلَكٌ من الدُّولابِ فيـه كَوَاكِبٌ * من مائه تَنْقضُّ ساعة تَطْلُع.
متلوِّنُ الأصْوات: يَخْفِضُ صَوْتَه * بِغِنـائِهِ، طَـوْرًا وطَوْرًا يرْفَعُ.

ومما وصفت به نثرا

من رسالة للشيخ ضياء الدين القرطبي إلىٰ بعض إخوانه يستَدْعي منه ثلاثة أسهم ومَلِّيات . جاء منها :

”...والحاجةُ داعيةٌ إلىٰ ثلاثةِ أسهم، كأنها هَقْعةُ الأنجم ؛ ممتدّةٍ آمتـداد الرُّمْح ، مقوَّمةٍ تقويم القِدْح ؛ غيرِ مشعَّثةِ الأطراف ، ولا معَقَّدة الأعطاف ؛ ولا مسوّسة الأجْواف ؛ تُحاسِن الغُصُون بقَوامها ، والقُدودَ بتمامها ؛ وتخالفُ هَيْنَها مِلْءَ خُصُورِها ، وتُساوِي [بين] هَوادِيها وصُـدُورِها ؛ معتَدِلة القُدود ، ناعمةِ الخُدود ؛

مع مَلِّيات أخذَتِ النارُ منها مأْخَذَها فاسودّت ، وتطاوَلَتْ عليها مُدّةُ الجَفافِ فاشتدّتْ ، وترامَتْ بها مدّةُ القِدَم ، كأنها فى حيِّز العَدَم ، صِلابِ المَكاسر ، غلاظ المآزِر ، تُشْبِه أخلاقَه (١) فى هيجاء السِّلم ، وتحكِي صَلابةَ آرائه فى نَفاذ الرأْى ومَضاء العزْم ، تَكْظِم علىٰ الماء بغَيْظها ، فتجود علىٰ الأرض بفَيْضها ، تمدّ يد أيْدها فى ٱقتضاء إرادتها ، وتطلُع طلوعَ الأنجم فى فَلَك إدارتها ، وتُعانق أخَواتها معانقةَ
(١٠٢) التشييع ، فآخِرُ التسليم أوّلُ التوديع ، علىٰ أنها تُؤذن بحقائق الآعتبار ، وتجرى جَرْىَ الفلك المُدَار فى قناة الأعمار :

تَمُـرُّ كأنفاس الفتىٰ فى حَيَاتِهِ * وتَسْعىٰ كسَعْيِ المرء أثناءَ عُمْرِه .
يُفارِقُ خلٌّ خِلَّه ، وهو سائرٌ * علىٰ مثل حال الخِلّ فى إثْرِ سَيْرِه .
ويُعْلِمُه التّدوارُ ، لو يَعْقل الفتىٰ * بأن مُرورَ العُمْر فيه كَمَرِّه .
فمَنْ أدرَكَتْ أفكارُه سِرَّ أمْرِها ، * فقد أدْرَكَتْ أفكارُه سِرَّ أمْرِه .
ومَنْ فاته ، الإدْراكُ أدْرَكه الرَّدىٰ : * إذا جُرِّعَتْ أنفاسُه كأسَ مُرِّه . "

ومما وصفت به الجداول

قال ٱبن المعتز عفا الله عنه :

علىٰ جَدْولٍ رَيَّانَ ، لا يقبَلُ القَذىٰ : * كأنّ سواقِيه مُتونُ المَبارِد .

وقال الناجم :

أحاطَتْ أزاهيرُ الرَّبيع سوِيّةً * سِماطَيْنِ مُصْطَفِّين ، تستَنْبِتُ المَرْعىٰ .
علىٰ جَدْولٍ رَيَّانَ كالسَّهم مُرْسَلا ، * أو الصارِمِ المسْلُول ، أو حَيّةٍ تَسْعىٰ .

(١) أى أخلاق المرسل إليه .

وقال المفجّع :

علىٰ جَدْولٍ رَيَّانَ ينْسابُ مَتْنُـه * صَقيلًا، كمَتْنِ السيف وافىٰ مجرَّدا.
إذا الرِّيح ناغَتْه، تحلَّق وجْهُــه * دُرُوعا بِضاءً، أو تحزَّز مِــبْرَدا.

وقال آبن الرومىّ :

علىٰ حِفَافَىْ جَدْولٍ مَسْجُورِ * أبيضَ مِثْلِ المُهْرَق المَنْشُورِ.
أومثل متْنِ المُنْصُل المَشْهُور * يَنْسابُ مثلَ الحيَّة المَذْعُورِ.

وقال ذو الرمّة :

فما آنْشَقَّ ضَوءُ الصُّبْح حتّىٰ تبيَّنَتْ * جَدَاوِلُ: أمثالُ السُّيُوفِ القَواطِعِ.

وحيث آنتهينا من ذكر المياه إلىٰ هذه الغاية فلنذكر عباد المـاء .

ذكـر عُبَّاد المـاء(١)

وعُبَّاد المـاء طائفةٌ من الهند يُسمَّوْن الجَلَهكِيَّة(٢)، يزعُمون أن المـاء مَلَك ، ومعه ملائكة، وأنه أصلُ كل شيء، وبه كلُّ ولادة ونمو ونُشُوء وبقاء وطَهارة وعمارة ، وما من عمل فى الدنيا إلا ويحتاج إلىٰ المـاء .

§ فإذا أراد الرجل منهم عبادتَه، تجرّد وستَر عورتَه . ثم دخل المـاء حتى يصل إلىٰ وسـطه ، فيقيم ساعتين وأكثرَ . ويأخذ ما أمكنه من الرِّياحين فيُقَطِّعها صغارا ويُلْقِى فى المـاء بعضَها بعد بعض ، وهو يُسبِّح ويقرأ . وإذا أراد الآنصراف، حرّك المـاء بيـده . ثم أخذ منـه فنقَّط علىٰ رأسـه ووجهه وسائر جسده . ثم يسـجُدُ وينصرف .

(١) هذه العبارة كلها منقولة عن كتاب "الملل والنحل" للشهرستانى .
(٢) فى الأصل : المهكنية . [وهو تصحيف وصوابه من الشهرستانى] .

القسم الخامس من الفن الأوّل

فى طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمَبانى القديمة، والمَعَاقل، وما وُصِفت به القصورُ والمنازل

وفيه خمســـة أبواب

البــاب الأوّل

من هذا القسم

(فى طبائع البلاد، وأخلاق سُكّانهـا)

§رُوِى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل كعبَ الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سُكّانها، فقال: إن الله تعالىٰ لمـا خلق الأشياءَ، جعل كل شىء لشىء. فقال العقل: أنا لاحقٌ بالشام، فقالت الفِتنةُ: وأنا معك. وقال الخِصْب: أنا لاحق بمصر، فقال الذُّلُّ: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحقٌ بالبادية، فقالت الصِّحّة: وأنا معك.

§وقال محمد بن حبيب: لَمَّا خلق الله تعالىٰ الخلق، خلق معهم عشرة أخلاق: الايمـان، والحياء، والنجدة، والفتنة، والكبر، والنفاق، والغنى، والفقر، والذل، والشقاء. فقال الإيمان: أنا لاحق باليمن، فقال الحياء: وأنا معك. وقالت النجدة: أنا لاحقة بالشأم، فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الكبر: أنا لاحق بالعِراق، فقال النِّفاق: وأنا معك. وقال الغِنىٰ: أنا لاحق بمصر، فقال الذلُّ: وأنا معك. وقال الفقر: أنا لاحق بالبادية، فقال الشقاء: وأنا معك.

§وحكى عن الحجاج انه قال : لما تبوّأتِ الأشياءُ منازلَها، قال الطاعون : أنا نازلٌ بالشأم، فقالت الطاعة : وأنا معك . وقال النِّفاق : أنا نازلٌ بالعراق، فقالت النعمة : وأنا معك . وقال الشقاء : أنا نازل بالبادية، فقال الصبْر : وأنا معك .

نوع آخر منـــــه

§رُوِيَ عن عبد الله بن عباس (رضى الله تعالىٰ عنهما) أنه قال : إن الله تعالىٰ خلق البَرَكة عشرة أجزاء : فتسعةٌ منها فى قريش، وواحد فى سائر الناس . وجعل الكرم عشرة أجزاء : فتســعة منها فى العَرَب، وواحد فى سائر الناس . وجعل الغَيْرة عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الأكراد، وواحدٌ فى سائر الناس . وجعل المكر عشرة أجزاء : فتسعة منها فى القِبْط، وواحد فى سائر الناس . وجعل الجفاء عشرةَ أجزاء : فتسعة منها فى البَرْبَرِ، وواحد فى سائر الناس . وجعل النَّجابة عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الرُّوم، وواحد فى سائر النـاس . وجعل الصناعة عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الصين، وواحد فى سائر النـاس . وجعل الشهوةَ عشرة أجزاء : فتسعة منها فى النِّساء، وواحد فى سائر النـاس . وجعل العمل عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الأنبيـاء، وواحد فى سائر النـاس . وجعل الحسَدَ عشرة أجزاء : فتسعة منها فى اليهود، وواحد فى سائر الناس . (١٠٣)

§ويقـال : قُسِم الحقد عشرة أجزاء : فتســعة منها فى العرب، وواحد فى ســائر الناس . وقُسِم البخل عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الفرس، وواحد فى سائر الناس . وقسم الكِبْر عشرة أجزاء : فتســعة منها فى الروم، وواحد فى سائر النـاس . وقسم

الطَّرَب عشرة أجزاء : فتسعة منها فى السُّودان ، وواحد فى سائر الناس . وقسم الشَّبَق عشرة أجزاء : فتسعة منها فى اليهود، وواحد فى سائر الناس .

§ ويقال : أربعة لا تعرف فى أربعة : السَّخاء فى الروم، والوَفَاء فى التُّرك ، والشجاعة فى القِبْط ، والغَمّ فى الزَّنْج .

نوع آخر منه

§ حُكى عن الحجاج أنه سأل أيوب بن القِرِّيَّة عن طبائع أهل البلاد ، فقال : أهل الحجاز أسرعُ الناس إلى فتنة وأعجزُهم عنها، رجالها جُفاة، ونساؤها كُساة عراةٌ . وأهل اليمن أهلُ سَمْع وطاعه، ولزومِ الجماعه . وأهل عُمَان عرب استَنْبَطُوا . وأهل البحرين نَبَطٌ آستَعْرَبوا . وأهل اليمامة أهلُ جَفاء، وآختلافِ آراء . وأهل فارس أهلُ بأسٍ شديد، وعِزٍّ عَتِيد . وأهل العراق أبحثُ الناس عن صغيره، وأضيَعُهم لكبيره . وأهل الجزيرة أشجع فُرْسان ، وأقتلُ للأقران . وأهل الشام أطوعُهم لمخلوق وأعصاهم لخالق . وأهل مصر عبيدٌ لمن غَلَب ؛ أكيسُ الناس صغارا ، وأجهلُهم كِبارا .

وحكى عن أبى عثمان "عمرو بن بحر الجاحظ" أنه قال: كنا نُعلَّم فى المكتب كما نُعلَّم القرآن : احذروا حماقةَ أهل بُخارى، وغلَّ أهل مَرْو، وشَغَب أهل نَيْسابور، وحسد أهل هَرَاةَ، وحِقْد أهل سِجِسْتان .

§ وقال أبو حامد القاضى : أعيانى أن أرى خُراسانيًّا ذكيًّا، وطبريا رَزِينا، وهَمَذانيا لبيبا، وبَصْريًّا ركيكا، وكُوفيًّا رئيسا، وبغداديًّا سخيًّا، ومَوْصليًّا لَطيفا، وشاميًّا خَفيفا، وحجازيا منافقا، وبَدَويًّا ظريفا .

§ وقال بختيشوع : تسعة لا تخلو من تسعة : قُمِّىٌّ من رُعونة، ويمانى من جنون، وواسطىٌ من غفلة، وبصرىٌ من جَدَل، وكوفىٌ من كَذِب، وسَوَادىٌ من جَهْل، وبغدادىٌ من مَخْرَقة، وخوزىٌ من لؤم، وطبرىٌ (١) من زَرَق .

§ وقيل : جاوَرَ أهلُ الشام الرومَ، فأخذوا عنهم اللؤم وقلةَ الغيرة . وجاور أهلُ الكوفة أهلَ السواد، فأخذوا عنهم السَّخاء والغيرة . وجاور أهلُ البصرة الخُوزَ، فأخذوا عنهم الزنا وقلة الوفاء .

§ ويقال : إن القدماء ٱعتبروا البلاد وما ٱمتاز به بعضُها عن بعض من الطبائع، فوجدوا أخصبَ بقاع الدنيا ثمانيةَ مواضع : أَرْمِينِيَة، وأَذْرَبِيجان، وماهْ دِينَوَر، وماهْ نَهَاوند، وكَرْمان، وأَصْبهان، وقُومَس، وطَبَرِسْتان .

§ ووجدوا أخف بقاع الدنيا ماءً، ماءَ ثمانية مواضع : دِجلة، والفرات، وزَنْدرُود أصبهَان، وماء سوران، وماء هَفيجَان، وماء جُندَيْسابُور، وماء بَلْخ، وماء سَمَرْقَنْد . (وغفلوا عن نيل مصر، ولعله أحقُّها بهذه الخصوصية من سائر المياه) .

§ ووجدوا أوبأ بقاع الدنيا ستة مواضع : النُّوبَنْدَجان، وسابُورخُوَاسْت، وجُرْجان، وحُلْوان (٢)، وبَرْذَعه، وزَنْجان . (وغفلوا عن شَيْزَر) .

§ ووجدوا أعقل أهل البلاد تسعة : أهل أصبهان، والحِيرة، والمداين، وماهْ دِينَوَر، وإصْطَخْر، ونَيْسابور، والرَّىّ، وطَبَرِسْتان، ونَشَوَى (وهى نَقْجَوان) .

§ ووجدوا أسرىٰ أهلِ بقاع الدنيا أهلَ سبعة مواضع : طوسفون (وهى المداين)، وبلاشون (وهى حُلْوان (٢))، وماسَبَذان، ونَهاوند، والرَّىّ، وأصبهَان، ونَيسابور .

---

(١) من أهل طبرستان . وأما النسبة الى طبرية الشام فطَبَرانىّ .

(٢) أى حلوان العراق، لا حلوان مصر .

§ ووجدوا أهل بقاع الدنيا أهل عشرة مواضع : ماسَبَذان(١) ، ومِهْرِجانْقَذَق(٢) ، وسُورَسْتان ، والرّيّ ، والرُّويان ، وأذْرَبيجان ، والمَوْصِل ، وأرمينِيَة ، وشَهْرَزُور ، والصّامَغان .

§ ووجدوا البخل فى أهل ثمانِ بقاع : مَرْو ، وإصطَخْر ، ودارَابْجِرد ، وخُوزستان ، وماسَبَذان ، ودَبِيل ، وماه دينور ، وحُلْوان .

§ ووجدوا أسفل أهل بقاع الأرض أربعة : أهل السِّدْجان(٣) ، وبادَرَايا ، وماكَسَايَا ، وخُوزستان .

§ ووجدوا أقل أهل الأرض نظرا فى العواقب أهلَ سبعة مواضع : طَبَرِسْتان ، وأرمينِيَة ، وقُومس ، وكِرْمان ، وكُوسان ، ومُكْران ، وشَهْرَزُور .

* * *

§ ويقال : إنه وفد رجل من عجم خُراسان علىٰ كِسْرىٰ ، فقال له : أخبرنى مَنْ أحسنُ أهل خُراسان لقاءً ؟ قال : أهل بُخارى . قال : فمن أوسَعُهم بَذْلا للخُبْز والمِلْح ؟ قال : أهل جُوزْجان . قال : فمن أحسنُهم ضِيافةً ؟ قال : أهل سَمَرْقند . قال : فمن أدقُّهم نظرا وتقديرا ؟ قال : أهل مَرْو . قال : فمن أسوأُهم طاعة ؟ قال :

(١) فى بعض النسخ "آهل" بالمدّ .

(٢) هذا الأسم يتركب من ثلاث كلمات : مهر (أى الشمس ، المحبة ، الشفقة) ؛ جان (أى النفس ، الروح) ؛ قذق (وقد يضم أوله ولعله اسم رجل) . فيكون معناه : محبة أو شمس نفس قذق . وهى كورة حسنة من نواحى بلاد الجبل (عن ياقوت) .

(٣) كذا فى الأصل ولم يذكرها ياقوت . وإنما ذكر "السيرجان" ، مدينة بين كرمان وفارس . فلعلها مصحفة عنها .

أهل خُوارَزْم . قال : فمن أخبثهم طَوِيَّة ؟ قال : أهل مَرْو الروذ، إن رضى بذلك أهل أَبِيورد . قال : فمن أسقطهم عقلا ؟ قال : أهل طُوس، إن رضىَ بذلك أهل نَسَا . قال: فمن أكثرهم شَغَبا وجَدَلا ؟ قال : أهل سَرَخْس، إن رضى بذلك أهل قُوهِسْتان . قال : فمن أضعفهم وأخبثهم ؟ قال : أهل نَيْسابور . قال : فمن أقلّهم غيرةً على النساء؟ قال : أهل هَراةَ .

الباب الثانى

من القسم الخامس من الفن الأوّل

فى خصائص البلاد

ولنبـدأ من ذلك بمكةَ ويثرِب، وأُعْرِب عما أنقله من فضلهما ولا أُغْرِب ؛ وأَصِلُه بذكر البيتِ المقدّس والمسجد الأقصى، ولا أشترط الاستيعابَ لأن فضائلها لا تحصى .

فأما مكة (شرّفها الله تعالى وعظمها)

ففضائلها مشهورة بَيِّنة . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَـاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ . وقال الله تعالى : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ .

قال بعض المفسرين : "أمْنا" من النار . وقيل : كان يأمَنُ من الطلب مَنْ أحدث حَدَثا ولجأ إليه فى الجاهلية .

وحكى القـاضى عياض فى "كتاب الشـفا" أنه حُدِّث أن قوما أتوا سَـعْدون الخَوْلانى بالمُنَسْتِير، وأعلموه أن كُتَامَةَ قتلوا رجلا وأضرموا عليه النارَ طولَ الليل، فلم

تعمل فيه وبقِىَ أبيضَ البَدن، فقال : لعله حَجَّ ثلاثَ حِجَج ؟ قالوا : نعم . قال : حُدِّثتُ أن "من حَجَّ حَجَّة أدّىٰ فرضَه، ومن حَجَّ ثانية دايَنَ ربَّه، ومن حَجَّ ثلاثَ حِجَجٍ حَرّم اللهُ شَعَرَه وبَشَره علىٰ النار" .

ولما نظر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ الكعبة قال: "مَرْحبًا بِكِ من بَيْتٍ، ماأعْظَمَكِ وأعْظَمَ حُرْمَتَكِ ! ". وجاء فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : "ما مِنْ أحدٍ يَدْعو اللهَ عند الرُّكْن الأسْودِ(١) إلا ٱستَجابَ له" . وكذلك عند الركن .

وعنه صلى الله عليه وسلم : "مَنْ صَلّى خَلْفَ المَقَامِ ركعتيْنِ، غُفرله ماتَقَدّم من ذَنْبه وما تأخّر وحُشِر يومَ القيامة مع الآمِنِينَ" .

ذكر ما كانت الكعبة عليه فوق الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض

قال أبو الوليد الأزرقىّ بسند يرفعه إلىٰ كعب الأحبار أنه قال : كانت الكعبة غُثَاء علىٰ الماء قبل أن يخلُق الله عز وجل السماوات والأرضينَ بأربعين سنةً . ومنها دُحِيَتِ الأرضُ .

وقال يرفعه إلىٰ مجاهد : خلق الله تعالىٰ هذا البيتَ قبل أن يخلُق شيئا من الأرضينَ .

وعنه يرفعه إلىٰ ٱبن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما كان العَرْش علىٰ الماء قبل أن يخلُق الله السماوات والأرضَ بعث الله ريحًا فصفّقت الماء فأبرزَتْ عن حَشَفة فى موضع البيت كأنها قُبّة . فدحا الله عز وجل الأرضَ من تحتها فمادَتْ ثم مادَتْ . فأوْتَدها الله تعالىٰ بالجبال، فكان أوّلَ جبل وضع فيها أبُو قُبَيْس، فلذلك سميت مكةُ أمّ القُرىٰ

(١) كذا فى جميع النسخ ولعله "الركن اليمانى" .

وعنه يرفعه إلىٰ مجاهد أنه قال : لقد خلق الله عز وجل موضعَ هذا البيت قبل أن يخلُق شيئا من الأرض بألفَىْ سنة ، وإن قواعده لفى الأرض السابعة السُّفْلىٰ .

ذكر بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام ، ومبـــدإ الطواف

قال أبو الوليد الأزرقىّ ، يرفعه إلىٰ علىّ بن الحسين رضى الله عنهما إنه أتاه سائل يسأله ، فقال له : عَمَّ تسألُ ؟ فقال : أسألك عن بَدْء الطواف بهذا البيت لِمَ كان ؟ وأنّى كان ؟ وحيث كان ؟ وكيف كان بالحجر ؟ فقال له : نعم ، من أينَ أنتَ ؟ فقال : من أهل الشام . فقال : أين مَسْكَنُك ؟ قال : فى بيت المقدس . قال : فهل قرأت الكتَابين ؟ (يعنى التوراة والإنجيل) . قال له الرجل : نعم . فقال له : ياأخا أهل الشام آحفَظْ ، ولا تروِينَّ عَنِّى إلا حقا :

أمّا بَدْء هــذا الطواف بهــذا البيت ، فإنّ الله تعالىٰ قال للملائكة : ﴿إِنِّى جاعِل فى الأَرضِ خَلِيفَةً﴾ ، قالت الملائكة : أى رَبِّ ، أخَليفة من غيرنا : ممن يُفْسِد فيها ويَسْفِك الدماء ، و يتحاسدُون ، و يتباغَضُون ، و يتنــازَعُون ؟ أىْ رَبِّ ، آجعل ذلك الخليفةَ منا ، فنحن لا نُفْسِــد فيها ، ولا نَسْــفِك الدماء ، ولا نتباغَضُ ، ولا نتحاسَدُ ، (١٠٥) ولا نتباغىٰ ؛ ونحن نُسَبِّح بحمدك ونقدّس لك ، ونُطِيعك ولا نَعْصِيك . قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿إِنِّى أعلم مالا تَعْلَمُون﴾ . قال : فظنَّت الملائكة أن ماقالوه ردٌّ علىٰ ربهم عز وجل وأنه قد غَضِب من قولهم ، فلاذُوا بالعرش ، ورفعُوا رءُوسهم ، وأشاروا بالأصابع يتضرَّعون ويبكُون إشفاقا لغَضَبه . فطافوا بالعرش ثلاثَ ساعاتٍ . فنظر الله عز وجل إليهم ، فنزلت الرحمةُ عليهم ، فوضع اللهُ سبحانه تحت العرش بيتًا علىٰ أربع

أساطِينَ من زَبَرْجَد، وغَشَّاه بياقوتة حمراءَ وسمّى البيت الضُراحَ . ثم قال للملائكة : طُوفُوا بهذا البيت، ودَعُوا العرش، فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش، وصار أهونَ عليهم، وهو البيتُ المعمور الذى ذكره الله عز وجل : يدخُلُه كلَّ يوم وليلة سبعُون ألفَ ملَك لا يعُودون فيه أبدا . ثم إن الله سبحانه بعث ملائكة فقال : ابنُوا لى بيتًا فى الأرض بمثاله وقَدْرِه . فأمر الله سبحانه مَنْ فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمورِ .

فقال الرجل : صَدَقْتَ يا آبنَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، هكذا كان .

ذكر زيارة الملائكة البيت الحرام

قال الأزرقىّ ، يرفعه إلى آبن عباس رضى الله عنهما : إن جبريل عليه السلام وقَفَ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه عِصابةٌ حمراءُ قد علاها الغُبارُ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : ماهذا الغبارُ الذى أرىٰ علىٰ عِصابتك، أيُّها الرُّوح الأمينُ؟ قال : إنى زرتُ البيتَ فازدحمت الملائكةُ على الركن، وهذا الغبار الذى ترىٰ ممـا تُثِير بأجْنِحَتِها .

وقال، ورفعه إلىٰ لَيث بن معاذ رضى الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هــذا البيتُ خامسُ خمسةَ عشر بيتا، سبعةٌ منها فى السماء إلىٰ العرش ، وسبعةٌ منها إلىٰ تخوم الأرض السُّفْلىٰ، وأعلاها الذى يلى العرشَ : البيتُ المعمور. لكل بيت منها حَرَم كحَرَم هذا البيت . لو سقط منها بيتٌ، لسقط بعضها علىٰ بعض إلىٰ تخوم الأرض السُّفْلىٰ، ولكل بيتٍ من أهل السماء ومن أهل الأرض من يَعْمُره، كما يُعْمَر هذا البيتُ .

ذكر هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، وبنيانه الكعبة المشرفة وحجه وطوافه بالبيت

قال الأزرقىّ، يرفعه إلىٰ آبن عباس رضى الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام إلىٰ الأرض من الجنة، كان رأسُه فى السماء ورِجْلاه فى الأرض. وهو مثل الفَلَك من رِعْدته. قال: فطأطأ الله عز وجل منه إلىٰ الأرض ستين ذراعا، فقال: يارب مالى لا أسمعُ أصوات الملائكة ولاحِسَّهم؟ قال: خطيئتُك يا آدم، ولكن آذهب فابْنِ لى بيتا تَطُف به وآذكُرْنى حوله كنحو مارأيتَ الملائكة تصنعُ حولَ عرشى، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطّى، فطُوِيتْ له الأرض وقُبِضت له المَفاوِزُ، فصارت كل مفازة يمرُّ بها خَطوةً، وقبض له ما كان فيها من مَخَاضٍ أو بحر فجعله خَطْوة، ولم يقع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عُمْرانا وبَرَكةً حتّى آنتهىٰ إلىٰ مكة. فبنىٰ البيت الحرام. وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أسٍّ ثابت فى الأرض السُّفلىٰ فقذفت الملائكة فيه الصخرَ، ما يُطيق الصخرةَ منها ثلاثون رجلا. وإنه بناه من خمسة أَجْبُل: من لُبْنانَ، وطُورزَيْتا، وطُورِسِينَا، والجُودى، وحِراء(١)، حتّى آستوىٰ علىٰ وجه الأرض.

قال آبن عباس رضى الله عنهما: فكان أوّلَ من أسس البيتَ وصلّى فيه وطاف به، آدمَ عليه السلام. حتّى بعث الله سبحانه الطُّوفانَ، فدَرَس موضعُ البيت فى الطُّوفان. حتّى بعث الله تبارك وتعالىٰ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فرفعا قواعدَه وأعلامَه. ثم بنَتْه قريش بعد ذلك. وهو بحذاء البيت المعمور، لو سقط، ما سَقَط إلا عليه.

(١) فى النسخ "حبرى". والتصحيح من حاشية الجمل على الجلالين، فقد نقل أثر آبن عباس.

وقال أبو الوليد أيضا، ورفعه إلىٰ وهب بن منبّه : إن الله تبارك وتعالىٰ لما تاب علىٰ آدم عليه السلام، أمره أن يسيرَ إلىٰ مكة. فَطوىٰ له الأرضَ وقَبضَ له المفاوزَ، فصارت كلُّ مفازة يمرُّ بها خَطْوة، وقبض له ما كان فيها من مَخَاض ماء أو بحر فجعله له خَطْوة. فلم يضع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عُمْرانا وبَرَكَةً حتّى انتهىٰ إلىٰ مكة. وكان قبل ذلك قد اشتدّ بكاؤه وحُزْنه لما كان فيه من عظم المصيبة، حتّى إن كانت الملائكة لَتحزَن لحُزْنه ولَتبْكِى لبُكائه. فعزّاه الله عز وجل بخيمة من خيام الجنة، ووضعها له بمكة فى موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة. وتلك الخيمةُ (١٠٦) ياقوتة حمراءُ من ياقوت الجنة : فيها ثلاثة قناديلَ من ذهبٍ من تِبْر الجنة، فيها نُور يتلَهَّب من نُور الجنة. ونزّل معها الرُّكنَ، وهو يومئذ ياقوتةٌ بيضاء من رَبَض الجنة. وكان كُرْسيًّا لآدم عليه السلام، يجلس عليه. فلما صار آدم بمكة، حرسها الله تعالىٰ، حرسه الله تعالىٰ وحرس تلك الخيمة بالملائكة. كانوا يحرُسُونها ويذُودون عنها ساكنَ الأرض، وساكنوها يومئذ الجنُّ والشياطين، فلا ينبغى لهم أن ينظُروا إلىٰ شىء من الجنة، لأنه مَنْ نظر إلىٰ شىء من الجنة وجبت له. والأرض يومئذ طاهرة نَقِيَّة لم تَنْجُس ولم يُسْفك فيها الدمُ، ولم تُعْمل فيها الخطايا. فلذلك جعلها الله عز وجل مسكن الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا فى السماء يُسَبِّحُون اللَّيْلَ والنَّهارَ، لَا يَفْتُرُونَ. وكان وقوفهم علىٰ أعلام الحَرَم صَفًّا واحدا مستديرين بالحرم كلِّه : الحِلُّ من خلفهم، والحَرَمُ كله من أمامهم. ولا يجوزهم جنىٌّ ولا شيطان. ومن أجل مُقام الملائكة، حُرِّم الحرم حتّى اليوم. ووضعت أعلامٌ حيث كان مقامُ الملائكة. وحرم الله علىٰ حوّاء دخولَ الحرمِ والنظرَ إلىٰ خيمة آدم من أجل خطيئتها التى أخطأتْ فى الجنة. فلم تنظر إلىٰ شىء من ذلك حتّى قُبضت. وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها ليُلِمَّ بها

للولد، خرج من الحرم كله حتّى يلقاها. فلم تزل خيمةُ آدمَ مكانها حتّى قبض الله آدم عليه السلام ورفعها اللهُ. وبنىٰ بنو آدم بها من بعدها مكانا: بيتا بالطّين والحجارة. فلم يزل معمورا، يَعْمرُونه ومَنْ بعدهم حتّى كان زمنُ نوح عليه السلام. فنَسَفه الغَرَق وخَفِى مكانهُ. فلما بعث الله تعالىٰ إبراهيم عليه السلام طلب الأساسَ، فلما وصل إليه ظلّل الله مكان البيت بغمامة. فكانت حِفَافَ البيت الأوّل، ثم لم تزل راكزة علىٰ حِفَافه تُظل إبراهيم عليه السلام وتَهْديه مكانَ القواعد حتّى رفع الله القواعد قامةً. ثم آنكشفت الغمامة، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وإذ بَوّأْنا لإبْراهِيمَ مَكَانَ البَيْتِ﴾ أى الغمامةَ التى ركزت علىٰ الحِفَاف لتَهْدِيَهُ مكانَ القواعد.

وعن وهب بن منبه أنه قال: قرأتُ فى كتاب من الكتب الأُوَل، ذُكر فيه أمرُ الكعبة، فوجدتُ فيه أن ليس من مَلَك من الملائكة بعثه الله تعالىٰ إلىٰ الأرض إلا أمَرَه بزيارة البيت. فينقَضُّ من عند العرش مُحْرِما ملبِّيا، حتّى يستلِمَ الحجر. ثم يطوفُ بالبيت سبعا ويركَعُ فى جوفه ركعتين، ثم يَصعَد.

وقال الأزرقىّ، يرفعه إلىٰ آبن عباس رضى الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض، أهبطه إلىٰ موضع البيت الحرام. وهو مثل الفَلَك من رِعْدته. ثم أنزل عليه الحجَرَ الأسودَ يعنى الركنَ، وهو يتلألأُ من شدّة بياضه. فأخذه آدم صلى الله عليه وسلم فضمّه إليه أُنْسًا به. ثم أنزلَتْ عليه العصىٰ فقيل له: تخَطَّ يا آدم، فتخطّى، فإذا هو بأرض الهند والسند. فمكَثَ هنالك ما شاء الله، ثم آستوحش إلىٰ الركن فقيل له: آحْجُجْ، قال فحج فلقيَتْه الملائكة فقالوا: بَرّ حجُّك يا آدمُ، لقد حَجَجْنا هذا البيت قبلك بألفَىْ عام.

قال : وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه كعب الأحبار فقال : اخبِرْنى عن البيت الحرام . فقال كعب : أنزله الله من السماء ياقوتةً مجوّفةً مع آدم ، فقال له : يا آدم إن هذا بيتى أنزلتُه معك ، يُطَاف حوله كما يُطَاف حولَ عَرْشى ، و يصلَّى حوله كما يصلَّى حول عرشى . ونزلتْ معه الملائكة فرفعوا قواعِدَه من حجارة ثم وضع البيت عليه . فكان آدم يطوف حوله كما يُطاف حول العرش ، ويصلِّى عنده كما يصلَّى عند العرش . فلما أغرق الله تعالىٰ قومَ نوح ، رفعه إلى السماء وبقيت قواعدُه .

وقال وهب بن منبه : كان البيت الذى بوّأه الله تعالىٰ لآدم عليـه السلام يومئذ من ياقوت الجنة . وكان من ياقوتةٍ حمراء تلتَهِب ، لها بابانِ : أحدُهما شرقىّ والآخر غربىّ . وكان فيه قناديلُ من نُور آنيتها ذهبٌ من تِبْر الجنة . وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض . والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ ياقوتة بيضاء . والله أعلم .

ذكر فضل البيت الحرام ، والحَرَم

قال أبو الوليد ، يرفعه عن وهب بن منبه أنه قال : إن آدم لمـا أُهْبِط إلى الأرض آستوْحش فيها لِـمَـا رأىٰ من سَعَتِها ولم ير فيها أحدا غيره ، فقال : يارب ، أما لأرضك هذه من عامر يسبِّحك فيها و يقدّس لك غيرى ؟ قال : إنى سأجعَلُ فيها من ذُرِّيتك مَنْ يسبِّح بحمدى ويقدّس لى ، وسأجعل فيها بيوتا تُرفَع لذكرى و يسبِّحُنى فيها خلقى ، وسأُبوِّئك فيها بيتـا أختاره لنفسى ، وأخصُّه بكرامتى ، وأوثِره علىٰ بيوت الأرض كلها بآسمى ، فأسمِّيه بيتى ، وأُنطِعُه[1] بعظمتى ، وأحوزه بحرماتى ، وأجعله أحق بيوت الأرض

(١) أنطعه : بسط له النطع بالكسر ، بساط من أديم (تفسير بهامش الأصل) . وفى بعض النسخ "وأطفه" بالفاء".

كلها وأولاها بذكرى، وأضعه فى البقعة التى آخترت لنسى، فإنى آخترت مكانه يوم (١٠٧) خلقتُ السماواتِ والأرضَ، وقبل ذلك قد كان بعيني: فهو صفوتى من البيوت، ولستُ أسكُنه، وليس ينبغى لى أن أسكُنَ البيوتَ، ولا ينبغى لها أن تَسَعَنِي، ولكن على كرسى الكبرياء والجبروت، وهو الذى استقَلّ بعزتى، وعليـه وضعتُ عظمتِي وجلالى، وهنالك آستقر قَرَارى، ثم هو بعدُ ضعيف عنّى لولا قُوّتى، ثم أنا بعـد ذلك ملءُ كل شىء، وفوق كلّ شىء، ومحيط بكلّ شىء، وأمامَ كلّ شىء، وخلف كلّ شىء، وليس ينبغى لشىء أن يعلم علمى ولا يقْدِر قدرتى، ولا يبلُغ كُنْه شانى. أجعل ذلك البيت لك ولمن بعدك حَرَما وأمْنا، أُحَرِّم بحرماته ما فوقه وما تحته وما حوله. فمن حرّمه بحرمتى فقد عظَّم حُرُماتى، ومن أحلّه فقد أباح حُرُماتى، ومن أمَّن أهلَه فقد آستوجب بذلك أمانى، ومَنْ أخافهم أخفرنى فى ذمتى، ومن عظَّم شأنَه عَظُم فى عينى، ومن تهاوَنَ به صَغُر فى عينى، ولكل مَلِك حيازةُ ما حواليه مما حواليه، وبطنُ مكةَ خِيرتى وحيزتى، وجيرانُ بيتى وعُمَّارها وزوّارها، وفْدى وأضيافى فى كنفى وأفْنِيتى، ضامنون على ذمتى وجِوارى، فأجعله أوّل بيتٍ وُضِع للناس، وأعمُرُه بأهل السماء وأهل الأرض: يأتونه أفواجا شُعْثا غُبْرا على كل ضامر يأتين من كلِّ فجٍّ عميق، يَعُجُّون بالتكبير عجيجا، ويَرُجُّون بالتلبية رَجيجا، وينتحبون بالبكاء نَحيبا. فمن آعتمره لا يريد غيره، فقد زارنى ووَفَد إلىّ ونزل بى، ومَنْ نزل بى، فحقيق علىّ أن أُتحفه بكرامتى، وحقّ على الكريم أن يُكرِم وفده وأضيافه، وأن يُسْعِف كل واحد منهم بحاجته. تَعمُره يا آدم ما كنت حيا، ثم تعمُره من بعدك الأممُ والقرونُ والأنبياء: أمةٌ بعد أمة، وقرنٌ بعد قرن، ونبىٌّ بعد نبىّ، حتّى ينتهى ذلك إلى نبىٍّ من ولدك وهو خاتَم النبيين، فأجعلَه من عُمَّاره وسُكَّانه وحُمَاته، ووُلاته وسُقاته، يكون أمينى عليه ما كان حيا. فإذا آنقلب إلىّ،

وجدنى قد ذَخَرت له من أجره وفضـيلته ما يتمكن به القربةَ منى والوسـيلةَ إلىّ، وأفضلَ المنازل فى دار المقام . وأجعل آسمَ ذلك البيت وذِكْره وشرفَه ومجدَه وثناءه ومَكْرُمته لنبىٍّ من ولدك يكون قبل هذا النبي وهو أبوه يقال له إبراهيم، أرفع له قواعده، وأقضِى على يديه عمارتَه، وأُنبِط له سِـقايته، وأُريه حِلَّه وحَرَمه ومَوَاقفـه، وأُعلمه مشاعره ومناسكه، وأجعله أُمةً واحدة قانتا لى، قائما بأمرى، داعيا إلىٰ سبيلى؛ أَجْتبيه وأَهْديه إلىٰ صراط مسـتقيم؛ أبتليه فيَصْبِر، وأُعافيه فيشكر، وينذرُ لى فيفى؛ ويَعِدنى فيُنْجِز، أستجيب له فى ولده وذرّيته من بعده وأُشَفِّعه فيهم، وأجعلهم أهل ذلك البيت ووُلَاته وحُمَاته وسُقَاته وخُدّامه وخُزَّانه وحُجَّابه حتّى يبتدعوا ويغيروا؛ فإذا فعلوا ذلك فأنا الله أقدر القادرين علىٰ أن أستبدل مَنْ أشاء بمن أشاء. أجعـل إبراهيم إمام أهلِ ذلك البيت وأهل تلك الشريعـة، يأتمُّ به مَنْ حضر تلك المواطن من جميع الإنس والجن؛ يطـئون فيها آثاره، ويتبعون فيها سُنَّته، ويقتدون فيها بهَدْيه. فمن فعل ذلك منهم أوفىٰ نذره، وآستكمل نُسُكه؛ ومن لم يفعل ذلك منهم ضيَّع نسكه، وأخطأ بُغْيتَه . فمن سأل عنى يومئذ فى تلك المواطن : أين أنا؟ فأنا مع الشُّعْثِ الغُبْر المُوفين بنـذورهم، المستكملين مناسكهم، المبتهلين إلىٰ ربهـم الذى يعلم ما يبـدون وما يكتمون. وليس هذا الخلق ولا هذا الأمر الذى قصصت عليك شأنه؛ يا آدم، بزائدى فى ملكى ولا عَظَمتى ولا سلطانى ولا شيءٍ مما عندى إلا كما زادتْ قطرةٌ من رَشَاش وقعتْ فى سبعة أبحر تمدها من بعدها سبعةُ أبحر لا تحصىٰ، بل القطرة أزيد فى البحر من هذا الأمر فى شيء ممـا عندى. ولو لم أخلُقْه لم ينتقص شيء من مُلْكى ولا عظمتى ولا مما عندى من الغَناء والسَّعة، إلا كما نقصت الأرضَ ذرّةٌ وقعت من جميع ترابها وجبالها وحصاها ورمالها وأشجارها، بل الذرّة أنقص للأرض من هـذا الأمر لو لم أخلقه . ليس مما عندى ويعدّ هذا مثلا للعزيز الحكيم .

ذكر ما جاء فى طواف سفينة نوح عليه السلام بالبيت

قال أبو الوليد الأزرقى، ورفعه إلى آبن عباس رضى الله عنهما أنه قال: كان مع نوح عليه السلام فى السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم، وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوما، وإن الله جل ثناؤه وجّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما، ثم وجهها إلى الجُودِىّ فاستقرت عليه.

وقال عن مجاهد: كان موضع الكعبة قد خَفِىَ ودَرَس زمنَ الغرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام. فكان موضعه أكمةً حمراءَ مدورة، لا تعلوها السيول. غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعُه. وكان يأتيه المظلوم والمبعود من أقطار الأرض، ويدعو عِنْده المكروب. فقلَّ مَنْ دعا هنالك، إلا آستجيب له. وكان الناس يحجُّون إلى مكة، إلى موضع البيت، حتّى بوّأ الله تعالى مكانه لإبراهيم عليه السلام. فلم يزل منذ أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض معظما محرما تتناسخه الأمم والملل أمةٌ بعد أمة، وملّةٌ بعد ملة. قال: وكانت الملائكة تحجُّه قبل آدم عليه السلام.

ذكر ما جاء من تخير إبراهيم عليه السلام موضع البيت

قال عثمان بن ساج: بلغنا (والله أعلم) أن إبراهيم خليل الله عليه السلام عُرِج به إلى السماء فنظر إلى الأرض، مشارِقها ومغاربِها، فاختار موضع الكعبة. فقالت له الملائكة: ياخليل الرحمن آخترتَ حرَمَ الله فى الأرض، قال: فبناه من حجارةِ سبعة أجبُل (و يقولون خمسة). وكانت الملائكة تأتى بالحجارة إلى إبراهيم عليه السلام من تلك الجبال.

ذكر حج إبراهيم عليه السلام وإذنه بالحج
وحج الأنبياء بعده وطوافهم

قال أبو الوليد عن محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيمُ خليلُ الرحمن من بناء البيت الحرام، جاءه جبريل عليه السلام فقال : طُفْ به سبعا، فطاف به سَبْعا، هو وإسماعيل. يستلمان الأركانَ كلَّها فى كل طواف، فلما أكملا سبعا، صلَّيا خلف المقام ركعتين. قال : فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها : الصَّفا والمَرْوة ومِنًى ومُزْدلِفة وعرفةَ. فلما دخل منًى وهبط من العقبة، مُثِّل له إبليس عند جَمْرة العقبة، فقال له جبريل : آرمه، فرماه بسبع حصيات. فغاب عنه؛ ثم برَزَله عند الجمرة الوسطىٰ، فقال له جبريل : آرمه، فرماه إبراهيم بسبع حصيات، فغاب عنه؛ ثم برزله عند الجمرة السفلىٰ، فقال له جبريل : آرمه، فرماه بسبع حصيات مثل حصىٰ الخَذْف، فغاب عنه إبليس؛ ثم مضىٰ إبراهيم فى حجه وجبريل يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتّى آنتهىٰ إلىٰ عرفة. فلما آنتهىٰ إليها، قال له جبريل : أعَرَفْتَ مناسِكَكَ؟ قال : نعم، قال : فسميت عرفات بذلك. قال : ثم أُمِر إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّن فى الناس بالحج، فقال إبراهيم : يا ربِّ وما يبلُغُ صوتِى؟ قال الله جل ثناؤه : أذِّن، وعلىَّ البلاغُ، قال : فعَلَا إبراهيم على المقام فأشرف به حتّى صار أرفع الجبال وأطولها فجُمعت له الأرض يومئذ : سهلُها، وجبلُها، وبرُّها، وبحرُها، وإنسها، وجِنُّها حتّى أسمعهم جميعا. فأدخل إصبعيه فى أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وبدأ بشق اليمين فقال : "أيها الناس كُتِب عليكم الحجُّ إلىٰ البيت العتيق، فأجيبوا ربكم" فأجابوه من تحت التخوم السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلىٰ منقَطَع التراب من أقطار الأرض كلها :

(لَبَّيكَ، اللهمَّ لَبَّيْك) . قال : وكانت الحجارة على ماهى اليوم، إلا أن الله عز وجل أراد أن يجعل المقام آية . فكان أثرُ قدميه فى المقام آية إلى اليوم . قال : أفلا تراهم اليوم يقولون : (لبيك، اللهم لبيك) . فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم . وأثر قدمَىْ إبراهيم فى المقام آية . وذلك قوله تعالى : ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ .

قال ابن إسحاق : و بلغنى أن آدم عليه السلام كان استلم الأركان كلها قبل إبراهيم، وحجّه إسحاقُ وسارةُ من الشام . قال : وكان إبراهيم يحجُّه كل سنة على البُرَاق . قال : وحَجَّتْ بعد ذلك الأنبياء والأمم .

وعن مجاهد، قال : حج إبراهيم و إسماعيل، ماشيين .

وعن عبد الله بن ضمرة السلولى : مابين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبيا، جاءوا حُجّاجا فقُبِروا هنالك .

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان النبيُّ من الأنبياءِ إذا هلكَتْ أمَّتُه لحق بمكة فتعبّد بها النبيُّ ومن معهُ حتّى يموت . فمات بها : نوح، وهود، وصالح، وشعيب . وقبورهم بين زمزم والحِجْر .

وعن مجاهد : حج موسى النبيّ عليه السلام على جمل أحْمَرَ . فمرّ بالرَّوْحاء عليه عباءتان قَطَوانِيَّتان متَّزِرٌ بإحداهما، مرتدٍ بالأخرى . (١٠٩) فطاف بالبيت ثم سعى بين الصفا والمروة . فبينما هو يلبِّى بين الصفا والمروة، إذ سمع صوتا من السماء يقول : (لَبَّيك عبدى، أنا مَعَك) قال : فخرّ موسى ساجدا .

وعن عُروة بن الزبير رضى الله عنهما قال: بلغنى أن البيتَ وُضع لآدم يطوف به ويعبد الله عنده، وأنَّ نوحا قد حَجَّه وجاءه وعظمه قبل الغرق . فلما أصاب البيتَ ما أصاب الأرض من الغرق فكان ربوةً حمراء معروفا مكانه؛ فبعث الله هودا إلىٰ عاد، فتشاغل بأمر قومه حتّى هلك، ولم يحجّه. ثم بعث الله تعالىٰ صالحا إلىٰ ثمود، فتشاغل بهم حتّى هلك، ولم يحجّه. ثم بوّأه الله تعالىٰ لإبراهيم عليه السلام فحجَّه وأعلم مناسكه ودعا إلىٰ زيارته . ثم لم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم، إلا حجه .

وعن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لقد سَلَك فَجَّ الرَّوْحاء سبعون نبيا، حُجَّاجًا: عليهم لباسُ الصُّوف. مُخَطِّمى إبلهم بحبال اللِّيف. ولقد صلّى فى مسجد الخَيْف سبعون نبيًّا .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لقد مَرَّ بفَجِّ الرَّوْحاء (أو لقد مَرَّ بهـذا الفَجِّ) سبعون نبيا علىٰ نُوقٍ حُمْرٍ خُطُمها الليفُ. لَبُوسُهم العباء وتلبيتهم شتّى . فمنهم يونس بن متّى . فكان يونس يقول : (لَبَّيْك فرّاجَ الكُرَب، لبَّيْك)؛ وكان موسىٰ يقول: (لَبَّيْك، أنا عبدُك لديْك، لبَّيْك) قال : وتلبية عيسىٰ: (لبَّيْك، أنا عبدك ٱبن أَمَتِك بنتِ عبديك، لَبَّيْك)" .

وعن عطاء بن السائب أن إبراهيم رأىٰ رجلا يطوف بالبيت فأنكره ، فسأله : ممن أنتَ؟ فقال : من أصحاب ذى القَرْنَيْن، قال : وأيْنَ هو؟ قال : هو بالأبطح. فتلقَّاه إبراهيم عليه السلام فاعتنقه ، فقال لذى القرنين : ألا تركب؟ قال : ما كنتُ لأركَبَ، وهذا يمشى، فحجّ ماشيا .

ذكر ماجاء من مسئلة إبراهيم عليه السلام الأمْنَ والرزقَ لأهل مكة والكتبِ التي وجد فيها تعظيم الحرم

قال أبو الوليد الأزرقىّ، يرفعه إلى محمد بن كعب القُرَظى أنه قال: دعا إبراهيم عليه السلام للؤمنين، وترك الكُفّار لم يدعُ لهم بشىء، فقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ .

وقال عثمان بن ساج: وأخبرنى محمد بن السائب الكلبىّ قال: قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ . فاستجاب الله عز وجل له فجعله بلدا آمنا وآمن فيه الخائفَ ورزقَ أهلَه من الثمرات، تُحمَل إليهم من الآفاق .

وقال مجاهد: جعل الله هذا البلد آمنا، لا يخاف فيه مَن دخله .

وقال سعيد بن السائب بن يَسَار: لما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة أن يرزق أهلها من الثمرات، نقل الله أرضَ الطائف من الشام فوضعها هنالك: رزقا للحرم .

وروى عن محمد بن المنكدر، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: لما وضع الله الحرم نقل له الطائفَ من الشام .

وعن الزُّهْرىّ أنّ الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف، لدعوة إبراهيم خليل الله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَه من الثمرات﴾ .

وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما، قال: جاء إبراهيم يطالع إسماعيل عليهما السلام فوجده غائبا، ووجد ٱمرأته الآخرة، وهى السيدة بنتُ مُضاض بن عمرو الجُرْهُمى . فوقف وسلم فردّت عليه السلام وٱستنزلته وعَرَضت عليه الطعامَ والشراب،

فقال : ما طعامُكم وشرابكم ؟ قالت : اللحم والماءُ ، قال : هل من حَبٍّ أو غيره من الطعام ؟ قالت : لا ، قال : بارك الله لكم فى اللحم والماء .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو وَجَدَ عندها يومئذ حَبًّا لدعا لهم بالبَرَكة فيه ، فكانت تكون أرضا ذاتَ زرع" .

وعن سعيد بن جُبَيْر مثله ، وزاد فيه : "ولا يخلُو أحدٌ على اللحم والماء فى غير مكةَ إلا وَجع بَطْنُه ، وإن خلا عليهما بمكة لم يجد لذلك أذى" .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "وُجِد فى المقام كتاب فيه " هذا بيت الله الحرامُ بمكة ، توكَّل اللهُ برزق أهله من ثلاث سُبُل ، مباركٌ لأهله فى اللحم واللبن " .

ووجد فى حَجَر فى الحِجْر كتابٌ من خِلْقة الحجر "أنا الله ذو بَكّة الحرام صُغْتها يوم صُغْت الشمس والقمرَ وحَفَفتها بسبعة أملاك حُنَفاء لا تزول حتّى يزول أَخْشَباها مبارك لأهلها فى اللحم والماء" .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما هدموا البيت وبلغوا أساس إبراهيم عليه السلام وجدوا فى حجر من الأساس كتابًا ، فدعَوْا له رجلا من أهل اليمن ، وآخرَ من الرُّهبان ، فإذا فيه : " أنا الله ذو بكة حرَّمتها يوم خلقت السمواتِ والأرضَ والشمسَ والقمرَ ويوم صُغْت هذين الجبلين وحفَفْتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها فى الماء واللبن" .

وعن مجاهد رضى الله عنه قال : وجد فى بعض الزبور "أنا الله ذو بكّة جعلتُها بين هذين الجبلين وصغتها يوم صغت الشمس والقمر وحَفَفْتها بسبعة أملاك حنفاء

وجعلت رزق أهلها من ثلاث سُبُل فليس يوتا[1] أهل مكة إلا من ثلاثة طرق أعلى الوادى وأسفله وكُدًى وباركت لأهلها فى اللحم والماء".

ذكر أسماء الكعبة ومكة

عن ابن أبى نجيح قال : إنما سُمِّيت "الكعبة" لأنها مُكَعَّبة على خِلْقة الكَعْب . قال : وكان الناس يبنُون بيوتهم مدوّرة تعظيما للكعبة . فأوّل من بنى بيتا مربّعا حُمَيد بن زُهَير، فقالت قريش : "رَبَّع حميدُ بنُ زُهَيْر بيتا، إمّا حياةً وإمّا موتا" .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما، قال : إنما سمِّيت "بكة" لأنه يجتمع فيها الرجالُ والنساء جميعا . وقالوا : "بَكَّة" موضع البيت، ومكّة القرية .

وقال ابن أبى أنيسة : "بَكَّةُ" موضع البيت، ومكة هو الحرمُ كلُّه .

وكان ابن جريج يقول : إنما سميت "بكة" لتباكّ الناس بأقدامهم قدّامَ الكعبة .

ويقال : إنما سميت "بكة" لأنها تَبُكُّ أعناقَ الجبابرة .

وعن الزهرى : أنه بلغه إنما سمِّى " البيتَ العتيقَ " من أن الله تعالى أعتقه من الجبابرة .

وعن مجاهد والسدّى : إنما سمى " البيت العتيقَ" الكعبةُ، أعتقها الله من الجبابرة؛ فلا يَتجبَّرون فيه إذا طافوا . وكان البيت يدعى "قادسا" ويدعى "بادرا" ويدعى "القرية القديمة" ويدعى "البيت العتيق" .

وعن مجاهد قال : من أسمائها " مكّة " و " بكّة " و " أُمّ رُحْم " و " أمّ القُرى " و " صَلاَح " و " كُوثى " و " الباسّة " .

(١) فى الأصل "بيوت" . وفى بعض النسخ كما فى الصلب بدون نقط . ولعل الصواب يؤتى .

وعن ابن أبى نجيح قال : بلغنى أن أسماء مكة "مكةُ" ، و "بكةُ" ، و "أم رُحْم" ، و"أم القُرىٰ" : و"الباسَّةُ"، و"البيتُ العتيقُ"، و"الحاطمةُ": (تحطِم من يستخفُّ بها) ، و" الناسَّة "(تنُسُّهم ، أى تخرجهم إخراجا إذا غشَموا وظلموا) .

ذكر ما جاء فى فضل الركن الأسود

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ليس فى الأرض من الجنة إلا الرُّكْن الأسود والمقام، فإنهما جوهرتانِ من جواهر الجنة ؛ ولولا ما مَسَّهما من أهل الشِّرك ما مسَّهما ذُو عاهة إلا شفاه الله عز وجل .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه قال فى الرُّكْن الأسود: لولا ما مَسَّه من أنجاس الجاهلية وأرجاسهم. ما مَسَّه ذو عاهة إلا بَرَأ . وقال : نزل الركن، وإنه لأشدّ بياضا من الفِضَّة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها، وهى تطوف معه بالكعبة حين استَلَم الركنَ:"لولا ما طُبع علىٰ هذا الحجر، يا عائشةُ، من أرجاس الجاهلية وأنجاسها، إذَنْ لاَستُشْفِىَ به من كل عاهة، وإذن لألفِى كهيئته يوم أنزله الله، وليعيدنه الله إلىٰ ما خلقه أوّل مرة، وإنه لياقوتة بيضاءُ من يواقيت الجنة، ولكنَّ الله غيره بمعصية العاصين، وستر زِينتَه عن الظَّلَمة والأَثَمة لأنهم لا ينبغى لهم أن ينظروا إلىٰ شىء كان بدؤه من الجنة" .

وعنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:"إن الله يبعثُ الركنَ الأسودَ، وله عينان يبصر بهما، ولِسان ينَطِق به : يشهد لمن استلمه بحق" .

وعنه رضى الله عنه : الركن يمينُ الله فى الأرض : يصافِحُ بها عباده كما يصافح أحدُكُم أخاه .

وعن أبى سعيد الخُدرىّ رضى الله عنه قال : خرجْنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلىٰ مكة . فلما دخلْنا الطوافَ، قام عند الحجر وقال : والله إنى لأعلم أنك حَجَرٌ لا تضرُّ ولا تنفَع، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبِّلك، ماقبَّلتك. ثم قبَّله ومضىٰ فى الطواف فقال له علىّ رضى الله عنه : بل يا أمير المؤمنين هو يضرّ وينفع، قال : وبِمَ قلتَ ذلك؟ قال : بكتاب الله، قال : وأين ذلك من كتاب الله؟ قال : قال الله عز وجل : ﴿ وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ علىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بلىٰ شَهِدْنا ﴾ . فلما خلق الله تعالىٰ آدم مسح ظهره وأخرج ذرّيته من صلبه فقرّرهم أنه الربُّ وهم العبيد، ثم كتب ميثاقهم فى رَقٍّ، وكان هذا الحجر له عينانِ ولسانٌ، فقال له : ٱفتح فاك ، فألقمه ذلك الرَّقّ وجعله فى هذا الموضع ، وقال : تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيشَ فى قوم لستَ فيهم، يا أبا الحسن .

وعن عِكْرِمة : أنّ الحجر الأسود يمينُ الله فى الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح الركنَ فقد بايع اللهَ ورسولَه .

وعن مجاهد : يأتى الركنُ والمَقَام يوم القيامة، كلُّ واحد منهما مثل أبى قُبَيس : يشهدان لمن وافاهما بالموافاة .

والله أعلم .

ذكر ما جاء فى فضل آستلام الركن الأسود، واليمانى

(١١١) عن عطاء بن السائب أن عبيد بن عمير قال لآبن عمر رضى الله عنهما : إنى أراك تُزاحم علىٰ هذين الركنين، فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إنَّ آستلامَهُما يحُطُّ الخطايا حَطًّا ".

وسئل رضى الله عنه، فقيل له : إنا نراك تفعل خِصالا أربعا لا يفعلُها الناسُ : نراك لا تستلم من الأركان إلا الحجرَ والركن اليمانِىَ، ونراك لا تلبَس من النِّعال إلا السِّبْتية، ونراك تصَفِّر شعرك وقد يصبُغ الناس بالحنَّاء، ونراك لاتُحرم حتّى تستوى بك راحلتك وتَوَجَّهَ . فقال عبد الله : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلُ ذلك .

وعن آبن عمر رضى الله تعالىٰ عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يَدَعُ الركنَ الأسود والركن اليمانِىَ أن يستلمهما فى كل طواف أتىٰ عليهما . قال : كان لا يَدَعُهما فى كل طواف طاف بهما حتّى يستلمَهما. لقد زاحم علىٰ الركن مرةً فى شدّة الزحام حتّى رُعِف، فخرج فغسل عنه ثم رجع . فعاد يزاحم فلم يصل إليه حتّى رُعِف الثانية، فخرج فغسل عنه ثم رجع . فما تركه حتّى آستلم .

وعن نافع قال : لقد رأيت آبن عمر رضى الله عنهما، زاحم مرةً على الركن اليَمَانى حتّى انبهر فتنحّى فجلس فى ناحية الطواف حتّى آستراح، ثم عاد فلم يَدَعْهُ حتّى آستلمه. قالوا : وليس هذا واجبا على الناس، ولكنه كان يحب أن يصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر ما جاء فى فضل الطواف بالكعبة

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ طافَ بالبَيْتِ، كتَبَ اللهُ له بكُلِّ خَطْوة حسنةً ومحا عنه سيِّئةً".

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا خَرجَ المْرءُ يُرِيدُ الطَّوافَ بالبيْتِ، أقبلَ يُرِيد الرحمةَ . فإذا دَخَله غمَرْته . ثم لا يرفَعُ قدَما ولا يَضعُ قدَماً إلا كتَبَ اللهُ له بكلِّ قَدَم خمْسَمِائة حسنةٍ، وحَطَّ عنه خمْسَمِائةِ سيئةٍ (أو قال خطيئةٍ) ، ورُفِعت له خَمْسُمِائة درجةٍ . فإذا فَرَغ من طوافه فصلّى ركعتين دُبُرالمَقامِ، خرج من ذنوبه كيومَ ولَدَتْه أمّه، وكُتِب له أجْرُ عِتْق عشرِ رقابٍ من ولد إسماعيل ، وآستقبله مَلَكٌ على الركن فقال له : آستأنِف العمل فيما بقِىَ فقد كُفِيت ما مضىٰ ، وشُفِّع فى سبعين من أهل بيته" .

وعن حَسَّان بن عطية : أن الله خلق لهذا البيت عشرين ومائة رحمة يُنزِلُها فى كل يوم ، فستُّون منها للطائفين، وأربعون للمصلِّين ، وعشرُون للناظرين. قال حسان : فنظَرْنا فإذا هى كلها للطائفين هو يطوف ويصلى ويَنْظُر .

ذكر ما جاء فى فضل زمزم

عن وهب بن منَبِّه أنه قال فى زمزم : والذى نفسى بيده، إنهــا لفى كتاب الله مَضْنُونة ، وإنها لفى كتاب الله بَرَّة، وإنهــا لفى كتاب الله شَرابُ الأبرار، وإنها لفى كتاب الله طعامُ طُعْم وشفاءُ سُقْم .

وعن آبن خُثَيم قال : قَدِم علينا وهب بن منبه مكةَ فاشتكىٰ ، فجئناه نعوده، فإذا عنده من ماء زمزمَ. قال : فقلنا له : لوآستعذبْتَ، فإن هذا ماء فيه غِلَظ؟ قال : ما أريد

أن أشرب حتّى أخرج منها غيْرَه، والذى نفس وهب بيده ، إنها لفى كتاب الله زمزم لا تُنْزَف ولا تُذَم ، وإنهـا لفى كتاب الله بَرَّة شراب الأبرار ، وإنها لفى كتاب الله مَضْنونة، وإنها لفى كتاب الله طَعامٌ من طُعْمٍ وشفاءٌ من سُقْمٍ ،والذى نفس وهب بيده لايعمدُ أحد إليها فيشربُ منها حتّى يتضلع إلا نزعَتْ منه داءً أو أحدَثَتْ له شفاءً .

وعن كعب أنه قال لزمزم : إنا نجدها مضنونةً ضَنَّ بها لكم، وإن أول مَنْ سُقىَ ماءَها إسماعيلُ عليه السلام، طعامٌ من طُعْمٍ، وشفاءٌ من سُقْمٍ .

وعن مجاهد قال : ماءُ زمزمَ لمـا شُرِب له، إن شربته تريد به شفاءً شفاك الله. وإن شربته لظمإٍ أرواك الله، وإن شربته لجُوع أشبعك الله ، وهى هَزْمةُ جبريل عليه السلام بعَقِبه .

وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "التضَلُّع من ماءِ زمزمَ براءةٌ من النِّفاق".

وعن الضحاك بن مزاحِم أنه قال : بلغنى أنَّ التضلع من ماء زمزم براءةٌ من النفاق، وأن ماءها يَذْهَبُ بالصُّدَاع، وأن التطلُّع فيها يجلو البصر، وأنه سيأتى عليها زمان تكون أعذبَ من النيـل والفرات . قال : قال لنا الخزاعىّ : وقد رأينا ذلك فى سـنة إحدى أو ٱثنتين وثمـانين ومائتين، وذلك أنه أصاب مكةَ أمطارٌ كثـيرة وسال واديها فى سـنة تسع وسبعين، وسنة ثمـانين ومائتين ، فكثُر ماء زمزم وٱرتفع حتّى قارب رأسَها، فلم يكن بينه وبين شَفتِها العليا إلا سبعُ أذرع أونحوها.
(١١٣) وعذُبت حتّى كان ماؤها أعذبَ ميـاه مكة التى يشربها أهلها . وإنا رأيناها أعذبَ من مياه العيون .

وعن الضحاك بن مزاحم أيضا أن الله عز وجل يرفع المياه العِذَابَ قبل يوم القيامة غير زمزَم، وتغور المياه العَذْبة غيرَ زمزم .

ذكر ما جاء من آتساع مِنًى أيام الحج ولِمَ سميت مِنًى

§ عن أبى الطُّفَيـل، قال : سمعت آبن عباس رضى الله عنهـما يُسْأَل عن منًى، ويقـال له : عجبًا لضيقه فى غير أيام الحج ! فقال آبن عباس : إن منًى يتسع بأهله كما يتسع الرحم للولد .

§ وعن ابن عباس ، قال : إنمـا سميت منًى منًى لأن جبريل حين أراد أن يفارق آدم، قال له . تمنَّ ، قال : أتمنَّى الجنة ، فسميت منًى لتمنى آدم .

وقيل : إنمـا سميت منًى لِمَنْيِ(١) الدماء بها .

ذكر ما جاء فى فضائل مقبرة مكة

§ عن آبن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال : "نِعْمَ المقْبُرةُ هذه !" (لمقبرة أهل مكة) .

وعن محمد بن عبد الله بن صيفىّ أنه قال : من قُبِر فى هذه المقبرة، بُعِث آمنا يوم القيامة (يعنى مقبرة مكة) .

ذكر شىء من خصائص مكة

§ من خصائصها أن الذئب فيها يروّع الظبى و يعارضه و يصيده . فإذا دخل الحَرَم، كَفَّ عنه .

---

(١) المَنْيُ هو إراقة الدماء .

§ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمامٌ إلا إن كان عليلا ؛ وأن عادة الطير إذا حاذت الكعبة أن تفترق فرقتين ولا تعلُوَها . والله أعلم .

وأما المدينة المشرفة
على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

§ففضائلها أوسعُ من أن أحصرَها ، وأعظم من أن أسبُرَها . ناهيك بها من بلد آختاره الله تعالى لرسوله ، ونص على فضله فى محكم تنزيله ، قال الله عز وجل : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ .

§وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سُئل : أىّ مسجد هو ؟ فقال : مسجدى هذا ، وهو قول آبن المسيَّب وزيد بن ثابت وآبن عمر رضى الله تعالى عنهم ، وبه أخذ مالكٌ رحمه الله . وقال آبن عباس : هو مسجد قباءٍ .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صلاةٌ فى مسجِدى هذا خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سِواه، إلا المسجدَ الحَرَامَ".

قال القاضى عياض رحمه الله : إختلف الناس فى معنى هذا الآستثناء على اختلافهم فى المفاضلة بين مكة والمدينة . فذهب مالك أن الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أفضلُ من الصلاة فى سائر المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام، فان الصلاة فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم أفضلُ من الصلاة فيه بدون الألف . وآحتج مالك وأشهبُ وآبن نافع وجماعةُ أصحابه بما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه "صلاة فى المسجد الحرام خيرٌ من مائة صلاة فيما سواه" فتأتى

فضيلة مسجد الرسول عليه بتسعمائة وعلى غيره بألف. وهذا مبنيّ على تفضيل المدينة على مكة، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين.

§ وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة. وهو قول عطاء وآبن وهب وآبن حبيب، من أصحاب مالك. وحكاه الباجى عن الشافعى.

§ قال القاضى أبو الوليد الباجى: الذى يقتضيه الحديث مخالفة حكم مكة لسائر المساجد، ولا يعلم منه حكمها مع المدينة.

§ قال القاضى عياض: ولا خلاف أن موضع قبر النبي صلى الله عليه وسلم أفضلُ بقاع الأرض.

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ما بين بَيتِي ومِنْبَرِى روضةٌ من رِيَاض الجنة". قالوا: هذا يحتمل معنيين، (أحدهما). أنه موجب لذلك وأن الدعاء والصلاة فيه تستحق ذلك من الثواب كما قيل: "الجنةُ تحتَ ظِلال السُّيوف". (والثانى) أن تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون فى الجنة بعينها. قاله الداوديّ.

§ وروى آبن عمر وجماعةٌ من الصحابة رضى الله عنهم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال فى المدينة: "لا يَصْبِر على لأْوائها وشدّتها أحدٌ، إلا كنتُ له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة".

§ وقال صلى الله عليه وسلم فيمن تحمّل عن المدينة: "والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يعلَمُون". وقال: "إنما المَدينةُ كالكِيرِ: تَنْفِى خَبَثَها وتَنْصَع طِيبَها".

§ وقال: "لا يخرجُ أحدٌ من المدينة رغبةً عنها إلا أبدلها اللهُ خيرًا منه".

§ وعنه صلّى الله عليه وسلم: "مَنْ مات فى أحد الحرمين حاجًّا أو معتَمِرا، بعثه اللهُ يومَ القيامة لا حِسابَ عليه ولا عَذَاب". وفى طريق آخر: "بُعث من الآمنين يومَ القيامة".

§ وعن ٱبن عمر رضى الله عنهما: "مَنِ ٱستطاع أن يموتَ بالمدينة، فليمُتْ بها فإنّى أشفَعُ لمن يموتُ بها".

§ وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم طَلَع له أُحُدٌ

(١١٣) فقال: "هذا جبَلٌ يحبُّنا ونحبُّه. اللهم إنَّ إبراهيم حَرَّم مكة، وأنا أُحَرِّم مابين لابَتَيْها".

§ وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كما حَبَّبْتَ إلينا مكةَ أو أشدَّ، وٱنقل حُمَّاها إلى الجُحْفة، اللهم بارِكْ لنا فى صاعنا ومُدِّنا". ودعا النبيّ صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة فقال: "اللهم بارِكْ لهم فى مكيالهم، و بارك لهم فى صاعهم ومُدِّهم".

§ وقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ زار قَبْرِى، وجبَتْ له شفاعَتِى".

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ زارنِى فى المدينةِ مُحْتَسِبا، كان فى جِوَارِى وكنتُ له شَفِيعا يومَ القيامة".

§ وكان مالك رحمه الله لا يركب فى المدينة دابّةً، و يقول: أستحْيِى من اللهِ أنْ أطأَ تُربةً فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافِرِ دابّةٍ.

وروى أنه وَهَب للشافعىّ كُرَاعا كثيرا، فقال له الشافعىّ: أَمْسِك منها دابّة. فأجابه بمثل هذا الجواب.

§ وحكى القاضى عياض فى "كتاب الشفاء" قال: حُدِّث أن أبا الفضل الجوهرىّ لَمّا ورد المدينة زائرا وقَرُب منها، ترجّل ومشى باكيا منشدا:

ولَمّا رأينا رَسْمَ مَنْ لم يَدَعْ لنا * فُؤاداً لِعرفانِ الرُّسُوم ولا لُبّا،
نَزَلْنا عنِ الأكوارِ نَمْشى، كرامةً * لِمَنْ بانَ عنــه أن نُلِمَّ به رَكْبا.

قال : وحكى بعض المريدين أنه لمـا أشرف على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنشأ يقول متمثلا :

رُفِع الحِجـابُ لنا فَلاحَ لناظِرٍ * قَمَـــرٌ تَقَطَّعُ دونَه الأوهامُ.
وإذا المَطِىّ بنا بَلَغْنَ محمّدًا، * فظُهورُهُنّ على الرِّجال حَرامُ.
قرَّبْننا من خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الثَّرى، * فلهـا علَيْنا حُرمـــةٌ وذِمامُ.

§وأفتى مالك رحمه الله فيمن قال "تربة المدينة رديّة" بضرب ثلاثين دِرّة، وأمر بحبسه؛ وكان له قَدْر. وقال : "ما أحْوجَه إلى ضَرب عُنُقه، تربةٌ دفن فيها النبىّ صلى الله عليه وسلم، يزعُمُ أنها غير طَيِّبة ! ".

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى المدينة : "مَنْ أحدَثَ فيها حَدَثا أو آوىٰ مُحْدِثا، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين. لا يَقبل الله منه صَرْفا ولا عَدْلا ".

ذكر شيء من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها
على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

§من خصائصها، أن العِطْر والبَخُور يوجد لما فيها من الضَّوع والرائحةِ الطيّبة أضعافَ ما يوجَد فى سائر البلاد؛ ولهـا فى قصبتها فَغْمة طيِّبة ورائحة عَطِرة، وإن لم يكن فيها شيء من الطيب ألبتةَ. ولهذا سميت "طَيْبة" و"طابَة" .

قال الشاعر :

ماذَا عَلىٰ مَنْ شَمَّ تُربةَ أحمَـدٍ * أن لا يَشَمَّ مَدىٰ الزمان غَوَالِيَا؟

وهذا البيت ينسب لفاطمةَ الزهراء رضى الله عنها .

§ومن أسمائها "طَيْبة" "وطابة" و"يَثْرِب" و"المدينةُ" و"الدارُ" .

§قال القاضى عياض رحمه الله : وجَديرٌ بمواطن عَمَرت بالوحْى والتنزيل، وتردّدَ بها جبريلُ وميكائيلُ، وعَرَجت منها الملائكةُ والرُّوح، وضَجَّت عَرَصاتها بالتقديس والتسبيح، وآشتملَتْ تربتُها علىٰ جَسَـد سيد البَشَر، وآنتَشَر عنها من دين الله وسنة رسوله ما آنتَشَر، مَدَارسُ آيات، ومَسَاجدُ جماعاتٍ وصلوات، ومشاهدُ الفضل والخيرات، ومعاهدُ البراهين والمعجزات، ومناسكُ الدين، ومَشَاعر المسلمين؛ ومواقفُ سيد المرسلين، ومتبوَّأ خاتَم النبيين؛ حيث آنفجرت النبوة، وأَيْن فاض عبابُها، ومواطن مَهْبَط الرسالة، وأوّلُ أرضٍ مسَّ جلدَ المصطفى ترابُهـا : أن تُعَظَّم عَرَصاتها، وتُتَنَسَّم نفحاتها، وتُقَبَّل ربُوعُها وجدراتها .

وقال :

يا دارَ خيرِ المرسَلِين ومَنْ بِهِ * هُـدِىَ الأَنامُ وخُصَّ بالآياتِ.
عندِى لأجْلِك لَوْعةٌ وصَبابَةٌ * وتَشَـوُّقٌ متوقّدُ الجَمَـرات.
وعلَىَّ عهدٌ إن ملأتُ محَاجِرى * من تِلْكُمُ الجُدُرات والعَرَصاتِ،
لأُعَفِّرَنَّ مَصُونَ شَيْبِى بيْنَهـا * من كَثْرة التقبِيلِ والرَّشَـفَاتِ.
لولا العَوَادِى والأَعَادِى، زُرْتُها * أبدًا ولو سَحْبًا علىٰ الوَجَنـاتِ.
لكن سَأُهْدِى من حَفيل تَحِيّتِى * لِقَطِين تِلْكَ الدارِ والحُجُراتِ.

أذكى من المِسك المُفَتّق نفحةً * تغشاه بالآصال والبُكُرات. (١١٤)
وتخُصُّه بزواكِي الصَّلواتِ * ونوامِي التسليم والبَرَكات.

وأما البيت المقدّس، والمسجد الأقصى

فالبيت المقدّس أحدُ القبلتين، والمسجد الأقصى ثالثُ الحرمين. إليه تُشَدّ الرِّحال، ويكثُرُ النزولُ والارتحال؛ وفي الأرض المقدّسة تُحشَر الخلائق ليوم العَرض، ويبسُط الله تعالى الصخرةَ الشريفة حتّى تكونَ كعرض السماء والأرض؛ وتجتمع الناس هناك لفصل الحساب، ويُضْرب بينهم بسورٍ له باب، باطنُه فيه الرحمةُ وظاهرُه من قِبَله العذاب.

ولنبدأ بذكر الأرض المقدّسة

§ قال الله عز وجل إخبارا عن موسى عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ ٱدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ ٱللهُ لَكُمْ﴾. قال الزجاج: والمقدّسة المطهّرة.

وقيل للسَّطْل "القَدَس" لأنه يتطهَّر منه. وسمى بيت المَقْدس لأنه يتطهّر فيه من الذنوب. وقيل: سماها مقدّسة لأنها طُهِّرت من الشرك وجعلت مسكنا للأنبياء والمؤمنين.

§ وقد اختلف في الأرض المقدّسة ما هي؟

فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها أريحا.

وقال السُّدّي: أَريحا هي أرض بيت المَقْدِس. وقال مجاهد: هي الطُّور وما حوله. وقال الضحاك: هي إيلياء و بيت المَقْدس. وقال الكلبي: دِمَشْق وفِلَسطين و بعض الأُرْدُنّ. وقال قتادة: هي الشام كلها.

وقال عبد الله بن عمر : والحرم محرَّمٌ مِقداره من السماوات والأرض ، و بيت المقدس مقدّسٌ مقداره من السماوات والأرض .

§ وقال آبن قتيبة . وقرأت فى مناجاة موسىٰ عليه السلام أنه قال : اللهمّ إنك آخترتَ من الأنعام الضائنةَ ، ومن الطير الحمامةَ ، ومن البُيوت مكةَ و إيلياءَ ، ومن إيلياءَ بيتَ المقدس .

§ وقال الله تعالىٰ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصىٰ الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَه ﴾ .

والمسجد الأقصىٰ بيتُ المقدِس : سُمّى أقصىٰ لأنه أبعد المساجد التى تزار . وقيل : لبعد المسافة بين المسجدين . وقوله عز وجل "الذى باركنا حوله" قيل : بالماء والأنهار والأشجار والثمار . وقال مجاهد : سماه مباركا لأنه مقرّ الأنبياء ، وفيه مَهْبَط الملائكة والوحى ، وهو الصخرة ، ومنه يُحشَر الناس يوم القيامة .

§ وقال تعالىٰ : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ .

قال الثعلبىّ فى تفسيره : قال كعب الأحبار وقتادةُ وآبنُ زيد وعبدُ الرحمن بن غنم : «التِّينُ مسجدُ دمشقَ ، والزيتونُ بيتُ المقدس» . وقال الضحاك : «هما مسجدان بالشام» . وقال محمد بن كعب : «التينُ مسجد أصحابِ الكهف ، والزيتون مسجدُ إيلياءَ» . ومجازه علىٰ هذا التأويل : مَنَابِت التينِ والزيتونِ .

وروىٰ عطية عن آبن عباس : « التينُ مسجدُ نوح عليه السلام الذى بنى على الجُودى ، والزيتون بيت المَقْدس» .

وروى نهشل عن الضحاك : "التين المسجد الحرامُ، والزيتونُ المسجدُ الأقصى"، قال : "وطورِ سينينَ، يعني جبل موسى عليه السلام" .

قال عكرمة : "السِّينينُ الحسن بلغة الحبشة" . وعنه : كل جبل يُنْبِتُ فهو سِينِينُ .

وقال مجاهد : "الطُّور الجبل، وسينين المبارك" .

وقال قتادة : "المُبارك الحَسَنُ" .

وقال مقاتل: "كل جبل فيه شجر فهو سينين، وسيناءُ وهو بلغة النَّبَط" .

وقال الكلبيّ: "يعنى الجبل المُشْجِر" .

§ وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : "أربعة أجبال مقدّسة بين يدَيِ الله تعالى: طُور تِينَا، وطور زَيْتا، وطور سِينَا، وطور تِيمانا .

فاما طور تِينا : فدمشق .

وأما طور زَيْتا : فبيت المقدِس .

وأما طور سِينا : فهو الذى كان عليه موسى عليه السلام .

وأما طور تِيمانا : فمكّةُ .

§ والبلد الأمين مكة بلا خلاف" .

§ ومسجد بيت المقدس أحدُ المساجد الثلاثة التى لا تشدّ الرحال إلا إليها، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما ورد فى الصحيح: "لا تُشَدّ الرِّحالُ إلّا إلى ثلاثةِ مساجِدَ : المسجدُ الحرام، ومسجدى هذا، والمسجدُ الأقصى" .

وفى الصحيح أيضا "أن موسى عليه السلام، لما حضرتْه الوفاةُ سأل اللهَ تعالى أن يدنيه من الأرض المقدّسة رميةً بحَجَر" .

وكانت عمارة مسجد البيت المقدّس بأمر الله عز وجل لنبيه داود عليه السلام أن يعْمُره ثم لم يقدّر له عمارتُه وقدّر الله تعالىٰ ذلك علىٰ يدى سليمان بن داود عليهما السلام ، فهو الذى عمره . وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالىٰ مبينا فى الفن الخامس فى التاريخ .

§ وقد وردت آثارٌ وأحاديثُ فى فضل بيت المقدس ، وفضل زيارته ، وثوابِ الصلاة فيه ، ومضاعفةِ الحسنات والسيئات فيه ، وفضلِ السكنىٰ فيه ، والإقامةِ به ، والوفاة فيه ، وما به من قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومحراب داود ، وعين سُلْوانَ ، وما ورد فى أن الحشر منه ، وما ورد فى فضل الصخرة والصلاة إلىٰ جانبها ، وما ورد من أن الله عز وجل عَرَج بنبيه من بيت المقدس إلىٰ السماء ، وثواب الإهلال من بيت المقدس ، وما ورد من أن الكعبة تزور الصخرةَ يوم القيامة .

وسنذكر من ذلك طرفا تقف عليه إن شاء الله تعالىٰ ونحذف أسانيد الأحاديث الواردة فيه رغبةً فى الآختصار فنقول . وبالله التوفيق :

أما فضل بيت المقدس

§ فقد ورد عن الزهرىّ أنه قال : لم يبعثِ اللهُ عز وجل نبيا ، إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس . وقد صلّى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته سبعة عشر شهرا ، كما روى فى الصحيحين ، حتّى أنزل الله عز وجل علىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ .

وتحويلُ القبلة أوّلُ ما نُسِخ من أمور الشرع . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلّون بمكة إلى الكعبة . فلما هاجر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، أمره الله تعالىٰ أن يصلِّى نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقربَ إلىٰ تصديق اليهود إيّاه إذا صلّى إلىٰ قبلتهم مع ما يجدون من تعيينه فى التوراة .

هذا قول عامة المفسرين، علىٰ ما حكاه الثعلبىّ عنهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : قال الله تعالىٰ لنبيه صلّى الله عليه وسلم : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هؤُلاءِ يَهُودُ يستقْبِلونَ بيتًا من بُيُوتِ اللهِ". فاستقبله النبىّ صلى الله عليه وسلم . قالوا جميعا : فصلى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه نحو بيت المقدس سبعةَ عشرَ شهرا، وكانت الأنصار قد صلّتْ قِبَل بيت المقدس ستين يوما ، قبل قدوم النبىّ صلى الله عليه وسلم .

وكانت الكعبة أحب القبلتين إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

§ وآختلفوا فى السبب الذى كان عليه الصلاة والسلام من أجله يكره قبلة بيت المقدس ويهوىٰ قبلةَ الكعبة .

فقال آبن عباس رضى الله عنهما : لأنها كانت قبلةَ أبيه إبراهيم عليهما السلام .

وقال مجاهد : من أجل أن اليهود قالوا : يخالفنا محمد فى ديننا، ويتّبع قبلتنا !

وقال مقاتل بن حَيّان : لما أُمِر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى نحوَ بيت المقدس ، قالت اليهود : يزعم محمد أنه نبي ، وما نراه أحدَثَ فى نبوّته شيئا ! أليس يصلى إلىٰ قبلتنا و يستنّ بسنتنا ؟ فإن كانت هذه نبوّةً . فنحن أقدمُ وأوفرُ نصيبا .

فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فشق عليه و زاده شوقا إلىٰ الكعبة .

وقال آبن زيد : لما آستقبل النبيّ صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، بلغه أن اليهود تقول : والله ما درىٰ محمد وأصحابُه أين قبلتهم حتّى هديناهم ، قالوا جميعا : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : وَدِدتُ أن الله صَرَفنى عن قبلة اليهود إلىٰ غيرها، فإنى أُبغِضهم وأُبغِض موافقتهم ، فقال جبريل: إنما أناعبدٌ مثلُك، ليس لى من الأمر شىءٌ، فسَلْ ربَّك، فعرج جبريل. وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلىٰ السماء رجاء أن يَنزِلَ جبريل بما يُحِبُّ من أمر القبلة. فأنزل الله عز وجل : ﴿قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ الآية .

فلما صُرِفَت القبلة إلىٰ الكعبة قال مشركو مكة : قد تردّد علىٰ محمد أمره، وآشتاق إلىٰ مولده ومولد آبائه ، وقد توجه نحو قبلتهم وهو راجع إلىٰ دينكم عاجلا ، وتكلم اليهود والمنافقون فى تحويلها . فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

§وروى عن كعب أنه قال : إن الله عز وجل ينظر إلىٰ بيت المقدس كل يوم مرتين .

وأما فضل زيارته، وفضل الصلاة فيه

§فقد روى عن مكحول أنه قال : مَنْ زار بيت المقدس شوقًا إليه، دخل الجنة و زاره جميع الأنبياء فى الجنة وغَبَطُوه بمنزلته من الله تعالىٰ؛ وأيُّما رُفْقَةٍ خرجوا يريدون بيت المقدس، شيَّعهم عشرةُ آلاف من الملائكة : يستغفرون لهم و يصلُّون عليهم،

ولهم مثل أعمالهم اذا آنتهوا إلىٰ بيت المقدس ، ولهم بكل يوم يقيمون فيه صلاةُ سبعين مَلَكا ؛ ومَن دخل بيت المقدِس طاهرا من الكبائر، تلقاه الله بمائة رحمة ، ما منها رحمة إلا ولو قسمت علىٰ جميع الخلائق لوَسِعتهم ؛ ومن صلّٰى فى بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما بـ"فاتحة الكتاب" و"قل هو الله أحد" خرج من ذنوبه كيومَ ولدَتْه أمه ، وكان له بكل شعرة علىٰ جسده حسنةٌ؛ ومَن صلى فى بيت المقدس أربعَ ركعات ، مرّ علىٰ الصراط كالبرْق وأُعْطِىَ أمانا من الفزع الأكبر يوم القيامة ؛ ومَن صلى فى بيت المقدس (١٢) ستّ ركعات ، أُعطِىَ مائةَ دعوة مستجابة ، أدناها براءةٌ من النار ، ووجبت له الجنةُ ؛ ومَن صلّٰى فى بيت المقدس ثمانَ ركعات ، كان رفيق إبراهيم خليل الرحمن ؛ ومَنْ صلّٰى فى بيت المقدس عشرَ ركعات ، كان رفيق داود وسليمان فى الجنة ؛ ومَن آستغفر للمؤمنين والمؤمناتِ فى بيت المقدس ثلاثَ مرات ، كان له مثلُ حسناتهم ، ودخل علىٰ كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرةً ، وغُفِر له ذنوبُه كلُّها .

§ وروى عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ صلّٰى ببيتِ المقدِس خمسَ صلوات نافلةً ، كلُّ صلاة أربعُ ركعات يقرأ فى الخمس صلوات عشرةَ آلافِ مرةٍ ﴿قل هو الله أحدٌ﴾ ، فقد آشترىٰ نفسَه من الله عز وجلّ ؛ ليس للنار عليه سلطانٌ" .

وعنه أيضا ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاةُ الرجلِ فى بيته بصلاةٍ واحدةٍ ، وصلاتُه فى مسجدِ القبائل بستٍّ وعشرين ، وصلاتُه فى المسجد الذى يُجمع فيه بخمسمائةِ صلاةٍ ، وصلاتُه فى المسجد الأقصىٰ بخمسينَ ألفَ صلاةٍ ، وصلاتُه فى المسجد الحرام بمائةِ ألفِ صلاةٍ" .

وعن مكحول أن ميمونة رضى الله عنها سألتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن بيتِ المقدس قال : "نِعمَ المَسْكنُ بيتُ المقدِس ! ومَنْ صلى فيه صلاةً بألف صلاة فيما سواه . قالت : فمن لم يُطِق ذلك؟ قال : يُهدِى له زَيْتاً"[1]

§ وعن مكحول عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، قال : لا يسمَع أهلُ السماء من كلام بنى آدمَ شيئًا غير أذانِ مؤذِّنِ بيت المقدِس .

وأما ما ورد في بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه

فقد روى عن نافع، قال : قال ٱبن عمر رضى الله عنهما ، ونحن فى بيت المقدس : يا نافعُ، ٱخرُج بنا من هذا البيت، فإن السيئاتِ تُضاعف فيه كما تُضاعف الحسناتُ .

وقال جرير بن عثمان وصفوان بن عمرو : الحسنة فى بيت المقدس بألف ، والسيئة بألف .

وأما فضل السكنى فيه والإقامةِ والوفاةِ به

§ فقد روى عن ذى الأصابع أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيتَ يارسولَ الله إن ٱبتُلينا بالبقاء بعدكَ ، فأين تأمرنا؟ قال : "عليكَ ببيت المقْدِس ، لعلَّ الله يرزقُك ذرّية تغدُو إليه وترُوح " .

(١) يظهر أن بعض الكلمات قد سقطت فى هذا الموضع . ولذلك رأيت إيراد الحديث بلفظ آخر عن آبن الفقيه الهمذانى فى كتابه "مختصر كتاب البلدان" المطبوع فى ليدن سنة ١٣٠٢ هـ (سنة ١٨٨٥ م) وهذا نصه : "قالت ميمونة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قلتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أفتِنا عن بيت المقدس ، قال : نعم المصلى هو أرض المحشر وأرض المنشر ، إيتوه فصلوا فيه فإن الصلاة فيه كألف صلاة . قلت بأبى وأمى أنت من لم يطق أن يأتيه . قال فليهدِ إليه زيتا يسرج فيه ، فإنه من أهدى إليه ، كان كمن صلى فيه " .

§ وعن أبى أُمامة الباهلىّ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تزالُ طائفةٌ من أُمتى ظاهرين على الحقّ، لعدوّهم قاهِرِين، لا يضرُّهم مَنْ خالفهم، حتّى يأتيهم أمر الله عز وجل وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله، وأينَ هُمْ؟ قال: ببيت المقدِس وأكناف بيت المقدس".

§ وعن عطاء، قال: لاتقوم الساعةُ حتّى يسوق الله عز وجل خيارَ عباده إلى بيت المقدس وإلى الأرض المقدّسة، فيُسكِنَهم إيَّاها.

§ وعن كعب، قال: قال الله عز وجل لبيت المقدس: أنتَ جنتى وقُدْسى وصفوتى من بلادى، مَنْ سكنَكَ فبرحمة منى، ومَنْ خرج منك فبسخط منى عليه.

§ وعن وهب بن منبه، قال: أهل بيت المقدس جِيرانُ الله، وحقٌّ على الله عز وجل أن لا يعذِّب جيرانَه، ومن دُفِن فى بيت المقدس نجا من فتنة القبر وضِيقه.

§ وعن كعب، قال: اليومُ فى بيت المقدس كألفِ يوم، والشهر فيه كألف شهر، والسنةُ فيه كألف سنة، ومَنْ مات فيه فكأنما مات فى السماء، ومَنْ مات حوله فكأنما مات فيه.

وعن خالد بن مَعْدان قال: سمعت كعبا يقول: مقبورُ بيتِ المقدس لايعذَّب.

وأما ما به من قبور الأنبياء ومحراب داود وعين سُلْوان

§ ففى الأرض المقدّسة قبرُ إبراهيم الخليل، وإسحاقَ، ويعقوبَ، ويوسفَ عليهم السلام.

§ وفى الصحيح أن موسى عليه السلام لما حضرَتْه الوفاةُ سأل الله عز وجل أن يُدْنِيَه من الأرض المقدّسة، رمية حَجَرٍ.

§ وروى الحافظ أبو بكر الخطيب بسنده عن بِشْر بن بكر عن أمّ عبد الله عن ابنها أنه قال : من أتى بيت المقدس، فليأت محراب داود، فليصلّ فيه، ويَسْبَح فى عين سلوان فإنها من الجنة .

§ وبسنده إلى سعيد بن عبد العزيز، قال : كان فى زمانِ بنى إسرائيل فى بيت
(١١٧) المقدس عند عَيْن سُلْوان عينٌ . وكانت المرأة إذا قُذِفت ، أتَوْا بها فشربت منها فإن كانت بريئة لم تضرّها، وإن كانت نَطِفةً ماتت. فلما حملَتْ مريمُ حملوها، فشربتْ منها فلم تزدَدْ إلا خيرا . فدعت الله أن لايفضَح بها آمرأةً مؤمنة . فغارت العينُ .

وأما ما ورد
فى أن الحشر من البيت المقدس

§ فقد روى عن أبى ذرّ رضى الله عنه أنه قال : قلت يارسول الله "أخبِرْنا عن بيتِ المقدس . قال : أرضُ المحشَر والمنْشَر. اِيتوه فصلُّوا فيه وليأتِينّ على بيت المقدس (١) !ولبَسْطةُ قوس أو مَسْحةُ قوس فى بيت المقدس أومن حيثُ يُرى بيت المقدس خيرٌ من كذا وكذا" .

§ وعن كعب قال : العَرْض والحساب من بيت المقدس .

---

(١) بياض فى الأصل بمقدار كلمة . وقد روى آبن فضل الله العمرى فى "مسالك الأبصار" المطبوع بدار الكتب المصرية (ج ١ ص ١٣٦) حديثا تقرب ألفاظه جدا من هذا الحديث ان لم يكونا حديثا واحدا . فلأجل تكملة النقص الموجود فى نسخ النويرى فى هذا الموضع نورد ما رواه آبن فضل الله وهو : وعن أبى ذر قال : قيل يا رسول الله صلاة فى البيت المقدس أفضل ، أم صلاة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : صلاة فى مسجدى هذا أفضل من أربع صلوات فيه . ولنعم المصلى هو أرض المحشر والمنشر! وليأتين على الناس زمان ، وَلَبَسْطَةُ قَوْسٍ من حيث يُرى بيت المقدس ، أفضلُ وخيرٌ من الدنيا جميعا .

§وعن قتادة فى قوله تعالىٰ ﴿ يَوْمَ يُنَادِى الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال: من صخرة بيت المقدس .

§وعن يزيد بن جابر " يَوْمَ يُنَادى الْمُنَادِ منْ مَكَانٍ قَرِيبٍ" قال : يقف إسرافيل علىٰ صخرة بيت المقدس فينفُخ فى الصُّور فيقول : أيَّتها العظامُ النَّخِرة ، والجلود المتمزِّقة ، والأشعار المتقطِّعة ؛ إن الله تعالىٰ أمرك أن تجتمعى للحساب .

§وقال المفسرون فى قوله تعالىٰ ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِى الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ هو أن إسرافيل يقف علىٰ صخرة بيت المقدس فينادى : " يأيها الناس ، هَلُمُّوا إلىٰ الحساب، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء، وهذه هى النفخة الأخيرة . "

والمكان القريب صخرة بيت المقدس .

§قال كعب ومقاتل : هى أقرب إلىٰ السماء بثمانيةَ عشرَ ميلا . وقال ٱبن السائب: باثنَىْ عشرَ ميلا .

§وعن ٱبن عمر رضى الله عنهما فى قوله تعالىٰ ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ قال : هو حائط بيت المقدس الشرقىُّ الذى من ورائه وادٍ يقال له وادى جهنم، ومن دونه بابٌ يقال له باب الرحمة .

وأما ما ورد
فى فضل الصخرة، والصلاة إلى جانبها

§فقد روى عن أنس بن مالك، قال : إن الجنة لتَحِنّ شوقًا إلىٰ بيت المقدس، وإن بيت المقدس من جنة الفردوس، وهى سُرَّة[1] الأرض .

(١) أى الصخرة .

§ وعن أبى إدريس الخولانىّ : قال : يحوّل الله صخرةَ بيت المقدس مَرْجانةً بيضاء كعرض السماء والأرض، ثم يَنْصِبُ عليها عرشَه، ثم يقضى بين عباده : يصيرون منها إلى الجنة و إلى النار .

§ وعن أبى العالية فى قوله تعالى ﴿ إلى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ قال : من بركتها أن كلّ ماءٍ عَذْبٍ يخرج من أصل صخرة بيت المقدس .

§ وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : "الأنهارُ كلُّها والسَّحابُ والبِحارُ والرياحُ من تحتِ صخرةِ بيتِ المقْدِس" .

§ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : صخرةُ بيت المقدس من صخور الجنة .

§ قال الزجاج : يقال إنها فى وَسَط الأرض .

§ وعن كعب قال : مَنْ أتى بيتَ المقدس فصلّى عن يمين الصخرة وشمالها ، ودعا عند موضع السِّلْسِلة ، وتصدّق بما قلّ أو كثُر، استُجيب دعاؤه، وكشف الله حُزْنه ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدتْه أمه ؛ و إن سأل الله الزيادة أعطاه إياها .

وأما ما ورد

فى أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس إلى السماء

فقد روى الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد الواسطى الخطيب رحمه الله بسنده إلى سوادة بن عطاء الحضرمىّ ، قال : نجد فى الكتاب مكتوبا أن الله عز وجل لمّا أن خلق الأرضَ وشاء أن يعرُج إلى السماء وهى دُخَانٌ ، استشرف لذلك الجبالُ أيُّها يكون ذلك عليه؟ وخشَعتْ صخرةُ بيت المقدس تواضُعًا لله عز وجل ، فشكر اللهُ لها ذلك وجعل المعراج عنها . وكان عليها ما شاء الله أن

يكون . قال: فمدّ الجبار يديه حتّى كانتا حيث يشاء أن تكونا، ثم قال : «هذه جنتى غربًا، وهذه نارى شرقا، وهـذا موضع ميزانى طَرَف الجبـل . وأنا الله ديّانُ يوم الدِّين» وكان معراجه إلى السماء عن الصخرة .

وروى أيضا بسنده إلى هانئ بن عبد الرحمن ، ورُدَيح بن عطية عن إبراهيم ابن أبى عبلة أحسبه كذا قال: وسئل عبادةُ بن الصامت ورافع بن خَديج وكانا عقبيين بدريين ، فقيل لهما : أرأيتما ما يقول الناسُ فى هذه الصخرة أحقًّا هو فنأخذ به ، أم هو شىء أصله من أهل الكتاب فندَعُه؟ فقال كلاهما : سبحانَ الله! ومَنْ يشكُّ (١١٨) فى أمرها . إن الله عز وجل لما آستوى إلى السماء، قال لصخرة بيت المقدس : «هذا مَقامى وموضعُ عرشى يوم القيامة، ومَحْشَرُ عبادى . وهـذا موضع نارى عن يسارِها وفيه أنصِبُ ميزانى أمامَها. وأنا الله ديّانُ يوم الدِّين» ثم آستوى إلى عِلِّيين .

وروى أيضا بسنده عن كعب ، قال : إن فى التوراة أنه يقول لصخرة بيت المقدس « أنت عرشى الأدنى ومنكِ آرتفعتُ إلى السماء، ومن تحتك بسطتُ الأرضَ وكلُّ ما يسيل من ذِرْوة الجبال من تحتِك؛ مَن مات فيك فكأنما مات فى السماء، ومن مات حولك فكأنما مات فيك، لا تنقضى الأيامُ والليالى حتّى أرسل عليك نارا من السماء فتأكلَ آثارَ أكُفّ بنى آدم وأقدامِهم منك . وأرسِلَ عليك ماءً من تحت العرش فأغسلَك حتّى أتركك كالمرآة، وأضربَ عليك سُورا من غمامٍ غِلَظُهُ آثنا عشر ميلا ، وسِياجًا من نار، وأجعل عليكِ قبةً جَبَلْتها بيدى ، وأُنزل فيك روحى وملائكتى يُسبِّحون لى فيك؛ لا يدخلكِ أحد من ولد آدم إلى يوم القيامة؛ فمن يرى ضوء تلك القبة من بعيد، يقول: طوبى لوجه يخِرّ فيك لله ساجدا، وأضرب عليك حائطا من نار،

وسياجا من الغَمَام، وخمسةَ حيطان من ياقوت ودرّ و زبَرْجَد، أنت البَيْدَر، و إليك المحشَر، ومنك المَنْشَر» .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن محمد بن الجوزىّ رحمه الله فى ذلك حديثين، ثم تكلم عليهما وضعّف رُواتهما .

أما أحدهما، فقال : أخبرنا المبارك بن أحمد، قال : أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد، قال : أنبأنا أبومحمد عبد العزيز بن أحمد بن عمر النّصيبى، قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن صالح بن عمر المقرى، قال : حدثنا عيسى بن عبيد الله، قال : حدّثنا على آبن جعفر الرازى، قال : حدّثنا العباس بن أحمد بن عبد الله، قال : حدّثنا عبد الله آبن عمر المقدسى، قال : حدّثنا بكر بن زياد الباهلىّ، عن عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة، عن زرارة بن أوْفى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما أُسْرِى بى إلى بيت المقدس مَرّ بى جبريلُ عليه السلام إلى قبر إبراهيم، فقال : آنزل، فصلِّ هاهنا ركعتين، هاهنا قبر أبيك إبراهيم . ثم مَرّ بى ببيتِ لحم، فقال : آنزل، صلِّ هاهنا ركعتين، فإن هاهنا وُلِد أخوك عيسى . ثم أتى بى إلى الصخرة فقال : من هاهنا عَرَج ربك إلى السماء" .

قال الحافظ أبو حاتم بن حِبّان : هـذا حديث لا يشك عوامُّ أصحاب الحديث أنه موضوع . وكان بكر بن زياد يضع الحديث على الثقات .

وأما الحديث الثانى، فرواه بسنده إلى إبراهيم بن أعين، عن رَدِيح بن عطية بن النعمان، عن عبدالله بن بسر الخمصىّ، عن كعب الأحبار، قال : يقول الله عز وجل

لبيت المقدس : أنت عرشى الذى منك آرتفعت إلى السماء، ومنك بسطْتُ الأرضَ، ومن تحتك جعلت كل ماءٍ عذبٍ يطلُع فى رءوس الجبال .

قال أبو حاتم الرازىّ : إبراهيم بن أعين مُنْكَرُ الحديث .

هذا ما ورد فى هذا الفصل وقد نبهنا على ما فيه من المآخذ والله أعلم .

وأما ثواب الإهلال من بيت المقدس

فقد روى عن أم سلمة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ورضى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ أهَلَّ مِن بيتِ المقدسِ، غُفِرله ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر" .

قال سالم : وأهلَّ آبن عمر رضى الله عنهما من بيت المقدس بعُمْرة .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ أحرَمَ منْ بَيْتِ المَقْدِس، قَدِم مكةَ مغفوراً له" .

وأما ما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة

فقد روى عن كعب الأحبار قال : لا تقوم الساعة حتّى يزور البيتُ الحرامُ بيتَ المقدس، فينقادان جميعا إلى الجنة وفيهما أهلوهما .

وروى عن خالد بن مَعْدان قال : يحشر الله الكعبةَ إلى الصخرة زَفًّا إليها زَفًّا، متعلقين بجميع من حج إليهما، تقول الصخرة مرحبا : بالزائرة والمزور إليها .

هـذا ما آتفق إيراده فى فضائل البيت المقدّس، وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخباره طرفا آخر وهو فى الباب الثانى، من القسم الثالث، من الفن الخامس فى التاريخ عند ذكرنا لأخبار سليمان بن داود عليهما السلام، فنذكر خلاف ذلك .

وأما اليمن وما يختص به

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الإيمانُ يمانٍ، والحكمة يمانيةٌ".

وقال الجاحظ : من خصائص اليمن السيوفُ، والبرودُ، والقُرود .

(١١٩) ويقال : ان السيف متى قُلِع بالهند وطبع باليمن، فناهيكَ به !

وقال الأصمعىّ : أربعة ملأتِ الدنيا ولا تكون إلا باليمن، وهى الوَرْس، والكُنْدُر، والخَضَض، والعَقِيق .

وأما الشام وما يختص به

فمن ذلك أن الشام موطِن الأنبياء عليهم السلام، ومعدِن الزُّهّاد والعُبّاد .

وحُكى أن الابدالَ السبعين بأرض الشام، بجبل لُكَام وجبل لُبْنان .

ومن خصائص الشام :

مسجد دمشقَ

الذى ما عُمِر على وجه الأرض مثلُه وكانت عمارته فى سنة ست وثمانين، عمَّره الوليد بن عبد الملك . ووقع الحريق فيه فى سنة إحدى وستين وأربعمائة، فَدَثرت محاسنُه وزال ماكان فيه من الأعمال النفيسة .

وعن قتادة، قال : أقسم الله تعالى بمساجدَ أربعة، قال : "والتِّينِ" وهو مسجد دمشق، "والزَّيتون" وهو بيت المقدس، "وطُورِ سِينينَ" وهو حيث كلم الله موسى، "وهذا البَلَدِ الأمِينِ" وهو مكة .

وقال محمد بن شعيب : سمعتُ غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التينَ مسجدُ دمشق، وأنهم قد أدركوا فيه شجرا من تينٍ قبل أن يَبْنِيَهُ الوليد .

وعن هشام بن عبد الملك قال : لما أَمَر الوليد ببناء مسجد دمشق ، وجدوا في الحائط القبليّ من المسجد لَوْحا فيه نقش فأتوا به الوليد، فبعث إلى الروم والعبرانيين وغيرهم، فلم يستخرجوه. فدُلَّ على وهب بن منبِّه فبعث إليه، فلما قدم أخبره بموضع ذلك اللوح فإذا الحائط الذى وجد فيه بناء هودٍ عليه السلام .

وعن زيد بن واقد قال : وكَّلنى الوليد على العمال فى بناء جامع دمشق، فوجدنا فيه مَغَارةً فعرّفْنا الوليد ذلك . فلما كان الليل وافى، وبين يديه الشَّمَع، فنزل فإذا هى كنيسة لطيفة: ثلاثة أذرع فى ثلاثة أذرع، وإذا فيها صُندوق، ففُتح فإذا فيه سَفَطٌ، وفى السَّفَط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، مكتوب عليه: "هذا رأس يحيى بن زكريا". فأمر الوليد، فرُدّ إلى مكانه، وقال : اجعلوا العمود الذى فوقه مغيّرا من الاعمدة ، فجعلوا عليه عمودا مُسَفَّط الرأس . وكانت البشرة والشعر على رأسه لم يتغير .

وقال أبو زُرعة : مسجد دمشق خَطَّه أبو عبيدة بنُ الجرّاح، وكذلك مسجد حِمْص . وقيل : لما قدم المهديّ يريد بيت المقدس ، دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعريّ كاتبه، فقال : يا أبا عبد الله سبقَنا بنو أمية بثلاثٍ، قال : وما هنّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : بهذا البيت (يعنى المسجد) لا أعلم على وجه الأرض مثلَه ، وبنُبْل الموالى فإن لهم موالِيَ ليس لنا مثلهم، وبعُمَر بن عبدالعزيز، لا يكون والله فينا مثله أبدا ! ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة ، فقال : يا أبا عبد الله وهذه رابعة .

وحكى عمرو بن مهاجر الأنصاريّ قال : حَسَبوا ما أُنْفق على الكرمة التى فى قبلة مسجد دمشق ، فإذا هو سبعون ألف دينار .

وقال أبو قصىّ : أُنْفق فى عمارة مسجد دمشق أربعمائة صُندوق ، كل صُندوق أربعةَ عشَر ألفَ دينار .

وقال بعض شعراء المُحْدَثين فى وصفه :

دمَشْقُ قد شاع ذِكْرُ جامعها * وما حَــوَتْه رُبى مَرابِعِهـا .
بديعــةُ المُدْنِ فى الكمال لِمَـا * يُدْرِكُه الطَّرْفُ من بَدائعِهـا .
طَيِّبـــةٌ أرضُها مبـارَكَةٌ * باليُمْن والسَّــعد أخْذُ طالِعها .
جامعُها جامعُ المحاسن قَدْ * فاقتْ به المُدْنَ فى جَوامِعهـا .
تُذْكَر فى فَضْــلِه ورِفْعتِـه * أخبارُ صِدقٍ راقت لسامِعها .
قدكان قبلَ الحَرِيق مَدْهشةً * فغَــــيَّرته نارُ بلاقِعِهـا .
فأذهبَتْ بالحـــريق بهجَتَه * فليس يُرْجى إيابُ راجعهـا .
إذا تفكَّرتَ فى الفُصوص وما * فيها ، تيقَّنْتَ حذْقَ واضعها .
أشجارُها لا تزالُ مثمـرةً * لا تَرْهَبُ الريحَ فى مَدافِعهـا .
كأنَّها من زُمُرُّدٍ غُرِستْ * فى أرض تِبْرٍ يُغشَى بفاقِعِهـا .
فيهـا ثِمـارٌ تخالُهـا يَنَعَتْ * وليس يُخْشى فسادُ يانِعِهـا . (١٢٠)
تُقْطَف باللحظ لا بجـارحة الأيْدى ولا تُجْتَـــنَى لبائعِهـا .
وتحتَهـا من رُخامه قِطعٌ * لا قطَعَ اللهُ كَفَّ قاطِعِهـا .
أحكَمَ ترخيمَها المرخِّم قــد * بانَ عليهـا إحكامُ صانِعِها .

وإنْ تفكّرتَ فى قناطِرِه * وسَقْفه ، بانَ حذْق رافعها .
وان تبيّنْتَ حُسْنَ قُبّتِه * تحيَّرَ اللُّبُّ فى أضالِعِها .
تخترقُ الريحُ فى مخارِمها * عَصْفًا فتقوى على زَعازعها .
وأرْضُه بالرُّخام قد فُرِشَتْ * ينْفسِحُ الطَّرْف فى مواضِعِها .
مجالِسُ العِلْم فيه مونَقةٌ * يَنْشرِحُ الصدْرُ فى مجامِعِها .
وكلُّ بابٍ عليه مِطْهرةٌ * قد أمِنَ الناسُ دفْعَ مانِعِها .
يرتفِقُ الخلْقُ من مَرافِقِها * ولا يُصَدُّونَ عن مَنافِعِها .
ولا تزالُ المِياهُ جاريةً * فيها لما شُقَّ من مَشارِعِها .
وسوقُها لا تزالُ آهِلةً * يزدَحِمُ الناسُ فى شَوارِعِها .
لِما يَشاءُون من فواكِهِها * وما يُريدون من بَضائعها .
كأنَّها جَنَّةٌ معجَّلةٌ * فى الأرض ، لولا سُرى بخائعها .
دامتْ برَغْم العِدا مُسَلَّمةً * وحاطَها اللهُ من قوارِعِها .

وقال عبد الله بن سلام : بالشام من قبور الأنبياء ألفا قبر وسبعمائة قبر ، وقبرُ موسى بدمشق ، ودمشق معقِل الناس فى آخر الزمان .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مَنْ أراد أن ينظر إلى الموضع الذى قال الله عز وجل فيه ﴿ وآوَيْناهُمَا إلىَ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرارٍ ومَعِينٍ ﴾ فليأت النَّيْرب الأعلى بدمشق بين النهرين ، وليَصْعد الغارَ فى جبل قاسِيُونَ ، فلْيُصَلِّ فيه فإنه بيتُ عيسى وأمّه . ومن أراد أن ينظر إلى إرَمَ ، فليأت نهرا فى دمشق يقال له بَرَدَى . ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التى فيها مريمُ بنتُ عمران والحواريُّونَ . فليأت مقبرةَ الفراديس .

ومن خصائصها التُّفَّاح الذى يضرَبُ به المثل فى الحسن والطِّيب. وكان يحمل منه إلى الخلفاء فى كل سنة ثلاثون ألف تفاحة .

وبها الغُوطةُ، وهى أحد متنزَّهات الدنيا الأربعة . وهى أجلُّها .

وسنذكر وصفها فى باب الرياض إن شاء الله تعالى .

وأما مصرُ وما يختصّ بها من الفضائل

فمن فضلها أن الله عز وجل ذكرها فى كتابه العزيز فى أربعة وعشرين موضعا . منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلّت عليه القرائن والتفاسير .

فأما صريح اللفظ ، فقوله تعالى : ﴿ إِهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن يوسف عليه السلام : ﴿ أُدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ .

وأما ما دلت عليه القرائن ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ . قال ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ووهب بن منبه وغيرهم : هى مصر .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ . يعنى مصر .

(١٣١) وقوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ . يعنى قوم فرعون ، وأن بنى إسرائيل ورثوا أرض مصر .

وقوله عز وجل : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن فرعون : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن قوم فرعون : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ . يعنى أرض مصر .

وقوله عز وجل مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن بنى إسرائيل : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ . يعنى أرض مصر .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن ابن يعقوب : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾. يعنى أرض مصر.

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وذكر ابن عباس مصر، فقال : سميت مصر بالأرض كلها فى عشرة مواضع من القرآن . والله تعالى أعلم .

§ وأما ما ورد فيها من الحديث النبوى صلوات الله وسلامه على قائله

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ بَعْدِى مِصْرُ، فاسْتَوْصُوا بِقِبْطِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُم ذِمَّةً وَرَحِمًا"

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا فتح اللهُ عليكم مصرَ فاتَّخِذُوا بها جُنْدًا كَثِيفًا، فذَلك الجندُ خَيْرُ أجنادِ الأرضِ" فقال أبو بكر رضى الله عنه : ولِمَ يارَسُولَ الله ؟ فقال : "لأنهم وأزواجَهُم فى رِبَاط إلى يوم القيامة" .

وعنه صلى الله عليه وسلم، وذكر مصر : "ما كادَهُمْ أحدٌ إلا كَفَاهُمُ اللهُ مَؤُونَتَه" .

وتكررت الأحاديث فى فضلها .

وقال عبد الله بن عمرو : وأهلُ مصرَ أكرمُ الأعاجم كلِّها، وأسمحُهم يدا، وأفضَلُهم عُنصرا، وأقربُهم رَحِمًا بالعرب عامةً وبقريش خاصَّةً .

وقال أيضا : لمـا خلق الله عز وجل آدم، مثّـل له الدنيا : شرقَها ، وغَرْبها، وسَهْلَها ، وجبلها، وأنهارها، وبحارها، وبناءها، وخرابها ، ومَن يسكنها من الأمم، ومَن يملكها من الملوك . فلما رأى مصر، رآها أرضًا سهلةً ذات نهرجار، مادّتُه من الجنة ، تنحدر فيه البركة، ورأى جبلا من جبالها مكسوّا نورا لا يخلو من نظر الربّ عز وجل إليه بالرحمة . فى سفحه أشجار مثمرة ، فروعها فى الجنة تسقى بماء الرحمة. فدعا آدمُ فى النيـل بالبركة . ودعا فى أرض مصرَ بالرحمة والبر والتقوى ، وبارك على نيلها وجَبَلها سبع مرات . وقال : «يا أيها الجبل المرحوم ، سفحُك جنة وتربتك مِسْكةٌ تدفن فيها عرائس الجنة ، أرض حافظة مطبقة رحيمة . لا خَلَتْكِ يا مصر بركةٌ ، ولا زال بك حفظ ، ولا زال منك مُلْك وعِزّ ، يا أرضَ مصر فيـكِ الخباء والكُنوز ، ولك البِر والثَّروة ، سال نهرُكِ عَسَلا . كثَّرَ الله زرعَكِ ، ودَرّ ضرعُكِ، وزكَا نباتُكِ، وعظُمت بركتُكِ وخَصُبت، ولا زال فيـك يامصر خيرٌ ما لم تتجبَّرِى وتتكبَّرِى أو تخونِى، فإذا فعلت ذلك ، عراكِ شرّ ، ثم تغوّر خيرك» .

فكان آدم أوّلَ من دعا لهـا بالخِصْب والرحمة والرأفة والبركة .

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : دعا نوح عليه السلام لابن ابنه بيصر ابن حام وهو أبو مصر، فقال : اللهم إنه قد أجاب دَعْوتِى ، فبارِكْ فيه وفى ذرّيته وأسكِنْه الأرضَ الطيبةَ المباركَةَ التى هى أمُّ البلاد .

قال عبد الله بن عمرو : لمـا قسّم نوح عليه السلام الأرضَ بين ولده، جعل لحام (٣٢)
مصر وسواحلَها والمغربَ وشاطئَ النيل . فلمـا دخل بيصر بن حام وبلغ العريشَ،

قال : «اللهم إن كانت هذه الارضُ التى وعدتّنا على لسان نبيك نوح عليه السـلام وجعلتها لنا منزلا فاصرف عنا و باها، وطَيِّب لنا ثَرَاها، وٱجمع ماها، وأنبت كلاها، و بارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك، إنك على كل شيء قدير، و إنك لا تخلف الميعاد» وجعلها بيصر لابنـه مصر وسمـاها به . والقبط ولد مصر بن بيصر بن حام ابن نوح .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبار مصر و بنيه عند ذكرنا لملوك مصر، وهو فى الفن الخامس فى التاريخ .

وعن كعب الأحبار : لولا رَغْبتِي فى بيت المقدِس لمـا سكنْتُ إلا مصر. فقيل له : ولم؟ فقال : لأنها معافاةٌ من الفِتَن ومن أرادها بسوء كَبَّه الله على وجهه، وهو بلد مبارَكٌ لأهله فيه .

وقال أبو بَصْرة الغفارى : سلطان مصر سلطان الأرض كلِّها .

قال : وفى التوراة مكتوب: مصرُ خزائنُ الأرض كلِّها، فمن أرادها بسوء قصمه الله تعالى .

وقال عمرو بن العاص : ولايةُ مصر جامعةٌ، تعدِل الخلافةَ .

وقال أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز، قاضى العراق : سألت أحمد بن المدبِّر عن مصر فقال : كشفتها فوجدتُ غامرَها أضعاف عامرِها. ولو عَمَرَها السلطان ، لوفَتْ له بخراج الدنيا .

ذكر مَن وُلد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن كان بها منهم

ولد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جماعةٌ، منهم: موسى، وهرونُ، ويُوشَعُ بن نون، ودانيالُ، وأرْمِيَا، ولُقمانُ، وعيسى بن مريم. ولدته أمّه بأهناس، وبها النخلة التى ذكرها الله تعالى لمريم على أحد الأقوال.

ولما سار عيسى إلى الشام أخذ على سَفْح المقطم ماشيا، عليه جبةُ صوف مربوط الوسط بشَرِيط، وأمه تمشى خَلْفَه، فالتفت إليها وقال: يا أمّاه، هذه مقبرة أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما مَن كان بها منهم، فكان: إبراهيم الخليلُ، وإسماعيلُ، ويعقوبُ، ويوسفُ عليهم السلام، وآثنا عشر سِبْطا.

ذكر مَن كان بها من الصدّيقين والصدّيقات رضى الله عنهم

كان بها من الصدّيقين مؤمِن آل فرعون الذى ذكره الله عز وجل فى القرآن.

وقيل: إنه آبن لفرعون لصُلْبه. آمن بموسى ولَحِق به وجعله الله نبيا وآيةً.

وكان بها وزراءُ فرعونَ الذين وصفهم الله تعالى وفضّلهم على قوم نمرود حين قالوا: "أرجئه وأخاه" وقال وزراء النمرود: "آقتلوه أو حَرِّقوه".

وأخرجتْ مصر السحرةَ الذين أحضرهم فرعونُ لموسى. وكانت عدّتهم مائتى ألف وآثنين وثلاثين ألفا وقيل أكثر من ذلك، آمنوا كلُّهم فى ساعة واحدة. ولم نعلم ممن آمن فى ساعة واحدة مثلَ هذا العدد.

ومن فضائل مصر ونُبْل أهلها أنهم لم يُفْتَنوا بعبادة العجل .

وكان بها من الصدّيقات آسيةُ بنتُ مزاحم امرأة فرعون، وأم إسحاقَ، ومريمُ ابنةُ عمران، وماشطةُ بنتُ فرعون، التى مشطها فرعون بأمشاط الكَتَّان لمـا آمنت بموسى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "شَمِمتُ ليلة أُسْرِى بى فى الجنة رائحةً ما شَمَمْت أطيبَ منها ، فقلت : يا جبريل ما هـذا ؟ فقال : هـذا رائحة ماشطة بنتِ فِرْعون" .

ذكر مَن صاهر أهل مصر من الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام

منهـــم :

إبراهيم الخليل عليه السلام، تزوج بهاجرَ أمّ إسماعيل .

ويوسفَ الصدّيق ، تزوج بنت صـاحب عين شمس. وتزوج زليخا بعد أن عجزت وعميت . دعا الله لهـا فردّها الله إلى حالتها الأولى، ورُزق منها الولد .

وتسرّى سـيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمـارِيَةَ القِبْطية التى أهداها له المقوقِس، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى السيرة النبوية .

ذكر مَن أظهرته مصر من الحكماء

(الذين عَمَروا الدنيا بكلامهم وحكَمهم وتدبيرهم، وأظهروا ماخفىَ من العلوم)[1]

قال الحسن بن إبراهيم، صاحب تاريخ مصر :

(١) بعض الحكماء المذكورين فى هـذا الفصل ليسوا من أهل مصر بل وفدوا عليها وأقاموا بها مدة قليلة أو كثيرة .

منهم : ذو القرنين ، وهو الإسكندر[(١)] من قرية يقال لها لُوبِيَةُ[(٢)] . وهو الذى قتل دَارَا بْنَ دَارَا . وسيأتى خبره إن شاء الله تعالى فى التاريخ فى ذكر ملوك اليونان .

[١٢٣] ومنهم : هرمس، وهو المثلث بالنعمة : نبىّ، وحكيم، ومَلِك : وهو الذى صير الرصاصَ ذهبا، وبنى الهرمين الكبيرين على أحد الأقوال . وقيل : هو إدريس عليه السلام .

ومنهم تلميذاه : أغاثاذيمون و فيثاغورس، ولهما من العلوم الموروثة صناعةُ الكيمياء، والنجوم، والسحر، وعلم النارنجيات . والطلسمات ، والبرابى، وأسرار الطبيعة .

ومنهم أوسلا و سيزوارس و بندقليس، أصحاب الكَهَانة والزَّجْر .

ومنهم سقراط ، صاحب الحِكمة، والكلام على البارئ جل ذكره، وهو صاحب البلاغة .

ومنهم أفلاطون، صاحب السِّياسة، والنواميس . والكلامِ على المُدُن والملوك.

ومنهم بطليموس، صاحب الرَّصَد . والمِساحة . والحِساب ، وهو صاحب كتاب المجِسْطى من كتب الأفلاك . وحركة الشمس، والقمر، والكواكب المتحيرة والثابتة، وصورة فَلَك البروج . وله صفة الأمم الذين يَعْمُرون الأرض، وكتاب الثمرة فى علم النجوم وتسطيح الكُرَة .

(١) هو الاسكندر الأكبر بن فيلبوس وهو ليس من مصر وإنما غزاها بجيوشه وأسس فيها مدينة الاسكندرية التى صارت بعده مدينة العلم والحكمة .

(٢) هذا اللفظ محرف عن "بلا" وهى احدى مدن اغريقية، وفيها كانت ولادة الاسكندر الاكبر.

ومنهم أرسطاطاليس، صاحب المنطق، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، والكون والفساد، والسماء والعالم، وسمع الكيان والسمع الطبيعى، ورسالة نَبْت الذهب، قالوا : وليعقوب بن إسحاق الكِندىّ نحو ألف كتاب مستخرجة من كتب أرسطاطاليس .

ومنهم أراطُس، صاحب البيضة ذات الثمانية والأربعين صورة فى تشكيل صورة الفلك، والألف كوكب، واثنان وعشرون كوكبا من الكواكب الثابتة، والزيج .

ومنهم أنطوليوس[(١)]، صاحب الفِلاحة .

ومنهم إبرخس، صاحب الرصد والآلة المعروفة بذاتِ الحلق .

ومنهم ثاون، صاحب الزيج المنسوب إليه .

ومنهم أُسْطَفِنْس، و دُرُوثِيُوس، و والنس، أصحاب كتب أحكام النجوم، وعنهم انتشر ذلك .

ومنهم إيرُن، صاحب الهندسة والمقادير، وكتاب جر الأثقال، والحيل الروحانية، وعمل البنَاكِيم والآلات لقياس الساعات .

ومنهم فيلون البزُنْطِى، وله عمل الدواليب والأرحية والحركات بالحيل اللطيفة .

ومنهم أرشميدس، صاحب الحيل والهندسة والمَرَايا المحرقة وعمل المَجَانيق ورمى الحصون، والحيل على الجيوش والعساكر برًّا وبحرًا .

(١) ورد هذا الاسم فى الاصل هكذا : "أفطيونس" وليس هناك رجل بهذا الاسم . وإنما المشهور بكتابه فى الفلاحة هو "انطوليوس الأفريقى" . وقد ذكره ابن العوام فى كتاب الفلاحة الأندلسية، ونقل عنه .

ومنهم ماريه و قلبطره، أصحاب الطِّلَّسْمَات، والخواص للطبائع .

ومنهم أبلونيوس، وله كتاب المخروطات وقطع الخطوط .

ومنهم ثيودوسيُس، وهو صاحب كتاب الأ كر .

ومنهم ذيوفنطس، وله كتاب الحساب .

ومنهم أوطوقيُس، وله كتاب الكرة والأسطوانة .

ومنهم المشاءون(١)، أصحاب الرواق .

و بمصر من العلوم التى عَمَرت بها الدنيا علمُ الطب اليونانى، وعلمُ النجوم، وعلمُ المساحة، وعلم الهندسة، وعلمُ الكيمياء، وغير ذلك و بها الطلسمات العشرة .

و بادى(٢) الاسكندرانى صاحب الزيج .

والذين نشروا الطب وشرحوه جالينوس، صاحب الطب، تعلمه بمصر، ومن كتبها أَخَذ .

ومنهم ديسقريد : صاحب الحشائش، و ديوچانس، و اركاغانس، و أُرِبَاسيوس، و فريقونوس، و روفس، هؤلاء أصحاب الطب اليونانى .

فهؤلاء حكماء الأرض وعلماؤهم الذين ورثوا الحكمة، من مصر خرجوا، و بها وُلدوا، ومنها انتشرت علومُهم فى الأرض .

قال الحسن بن إبراهيم : وكانت مصر يسير إليها فى الزمن الأوّل طلبةُ العلم وأصحابُ العلم الدقيق لتكون أذهانهم على الزيادة وقوة الذكاء ودقة الفطنة . والله تعالى أعلم .

(١) فى الأصل : "المساتير" . ولعله يشير إلى أتباع ارسطو الذين يسميهم العرب "المشائين" .

(٢) لعل هذا الاسم محرف عن "ثاون" الذى سبقت الاشارة اليه .

ومن فضائل مصر

أنها تَمير الحرمين الشريفين ، ولولا مصرُ لما أمكن أهلَ الحرمين وأعمالها المقامُ بهما ، ولَمّا توصل إليهما من يَرِد من أقطار الأرض .

ومنها أنها فُرْضة الدنيا ، يحمل من خيرها إلى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين ، وإلى جُدّة ، وإلى عُمَان ، وإلى الهند ، وإلى الصين ، وصنعاء ، وعَدَن ، والشَّحْر ، والسِّند ، وجزائر البحر .

ومن جهة تِنِّيس ، ودِمْياط ، والفَرَما فُرْضة بلد الروم ، وأقاصى الأفرنجه ، وقبرس ، وسائر سواحل الشام ، والثغور إلى حدود العراق .

ومن جهة الإسكندرية فُرضة أَقْرِيطِش ، وصِقِلِّيَّة ، وبلد الروم ، والمغرب كلّه إلى طَنْجة ، ومغرب الشمس .

ومن جهة الصعيد فرضة بلد النُّوبة ، والبُجة ، والحَبَشة ، والحجاز ، واليمن .

وفيها من ثغور الرِّباط : البَرَلُّس ، ورَشِيد ، والإسكندريةُ ، ورباط ذات الحمام ، (١٢٤) ورباط البُحَيرة ، ورباط إخْنا ، ورباط دمْياط ، وشَطَا ، وتِنِّيس ، والأُشْتوم ، والفرَمَا ، والورّاده ، والعَرِيش ، والشَّجَرتين ، ورباط الحَرَس . وجهة الحَبَشة ، والبُجة . ورباط أُسْوان على النُّوبة . ورباط الواحات على البَرْبر والسُّودان . ورباط قُوص .

وبها من المساجد والمشاهد والآثار الصالحة ، مالم يكن فى غيرها . ولو آستقصينا ذلك ، لطال به الشرح وآنبسط القول .

وقال سعيد بن عقبة : كنتُ بحضرة المأمون حتّى قال ، وهو فى قبة الهواء : لعن الله فِرعونَ حين يقول ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ فلو رأى العراقَ ! . فقلت :

يا أمير المؤمنين لا تقل هـذا فإن الله عز وجل قال ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ . فما ظنُّك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله، هذا بقيّتُه؟ .

قال : ثم قلت : لقد بلغني أن أرضًا لم تكن أعظم من مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها . وكانت الأنهار بقناطِرَ وجسورٍ وتقديرٍ حتَّى إن الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم : يحبسونه متى شاءوا، ويرسلونه متى شاءوا . وكانت البساتين بحافَتَيِ النيل من أوّله إلى آخره، ما بين أُسوان إلى رُسيد إلى الشام متصلةً لا تنقطع . ولقد كانت الأَمَة تضع المِكْتَل على رأسها فيمتلئُ مما يسقُط من الشجَر. وكانت المرأة تخرج حاسرةً لا تحتاج إلى خِمَار لكثرة الشجر .

ومن فضائلها النيل، وقد تقدّم ذكره في باب الأنهار .

ومن عجائبها الهرمان وسيأتي ذكرهما في باب المباني القديمة إن شاء الله تعالى .

ومن عجائبها أن أهلها مستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور، استغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا .

وفيها ما ليس في غيرها، وهو حيوان السَّقَنْقُور، والنِّمس . ولولاه لأكلت الثعابين أهلَها، وهو لها كقنافذ سِجِسْتانَ لأهلها .

وفيها سمك يسمَّى الرَّعَّاد . وهو سمك إذا أمسكه إنسان أو أمسك ما يتصل به من خيط الصِّنارة أو الشبكة التي يقع فيها، ٱرتعدَتْ يدُه .

والحَطَبُ السَّنْط الذى لو وُقِد منه يوما وجُمِع ما وُجد من رَمَاده كان ملْءَ كفٍّ . وهو صُلْب العُود، سريعُ الوُقُود، بطِيءُ الخُمود . ويقال : إنه الآبنوس، وإنما البُقْعة قَصَّرت عن الكِيَان فجاء أحمرَ شديدَ الحمرة .

ودُهْنُ البَلَسان . والأَفْيُون، وهو عُصارة الخَشْخاش . وكان بها اللَّبَخ، وهو ثمر فى قَدْر اللوز الأخضر إلا أن المأكول منه الظاهرُ . ورأيته أنا بها وأكلت منه سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

وبها الأُتْرُجُّ الأبلق .

وبها من المعادن : مَعْدِن الزُّمُرُّذ، ومعدِن النِّفْط، والشَّبّ، والبِرَام، والرُّخَام .

وقيل : إن بها سائر المعادن كلِّها .

وأهلها يأكلون صَيْد بحر الرُّوم وبحر فارس[(١)] طريًّا .

وفى كل شهر من شهور القبط صِنْف من المأكول والمَشْروب والمَشْموم، يوجد فيه دون غيره . فيقال: رُطَب توت، ورُمَّان بابه، ومَوْز هاتُور، وسَمَك كيهك، وماء طُوبة، وخُروف أمشير، ولَبَن برمهات، ووَرْد برموده، ونَبِق بشنس، وتين بشونة، وعسل أبيب، وعنب مسرى .

ومنها أن صيفها خَرِيفٌ ، وشتاءها ربيعٌ، وما يقطَعُه الحر والبرد فى سائر البلاد من الفواكه يوجد فيها فى الحر والبرد : لأنها فى الإقليم الثالث والرابع. فسلمت من حرّ الأوّل والثانى، وبَرْد السادس والسابع[(٢)] .

ويقال : لو لم يكن من فضل مصر إلا أنها تغنى فى الصيف عن الخيش والثلج وبطون الأرض ، وفى الشتاء عن الوَقودُ والفراء .

(١) يشير إلى البحر الأحمر المتصل بالخليج الفارسى بواسطة بحر الهند .

(٢) قارن ذلك بما ورد فى المقريزى (طبع بولاق ج ١ ص ٢٨) .

ومما وصفت به

أن صعيدها حِجَازىّ . حَرّه كحر الحجاز ينبت النخلَ والدَّوم (وهو شجر المُقْل)، والعُشَر، والقَرَظ، والإهْلِيلَجَ، والفُلْفُل، والخِيارَ شَنْبَرَ . وأسفل أرضها شامىٌّ: يمطر كمطر الشام، وتقع فيه الثلوج، ويُنْبت التينَ والزيتونَ والعنبَ والجوزَ واللّوز والفستُق وسائر الفواكه، والبقول والرياحين .

وهى ما بين أربع صفات: فضة بَيْضاء، أو مِسْكة سوداء، أو زبَرْجَدة خضراء، أو ذَهَبة صفراء . وذلك أن النيل يعمُّ أرضها فتصير كالفضة البيضاء، ثم ينضُبُ عنها فتصير مِسكة سَوْداء، ثم تُزْرَع فتصير زبرجدةً خضراء، ثم تَسْتَحْصِد فتصير ذهبة صفراء[1] .

وحكى آبن زولاق فى "فضائل مصر" أن أميرها موسى بن عيسى [الهاشمى][2] وقف بالمَيْدان عند بِرْكة الحبش . فالتفت يمينا وشمالا، وقال لمن كان معه : أتَرَوْن ما أرى؟ قالوا: وما يَرى الأمير؟ قال : أرى عجبا ما فى الدنيا مثله ! فقالوا : يقول الأميرُ! فقال: أرى مَيْدان رِهان، وحِيطان نخلٍ، وبُستانَ شجر، ومنازلَ سكنى، وذروة جبل، وجَبَّانةَ أموات . ونهرا عَجَّاجا، وأرضَ زرعٍ، ومراعِىَ ماشية، ومَرَاتع خيل، وساحل بحر، [وصائد نهر] وقانصَ وحش، وصائدَ سمكٍ، ومَلّاح (١٢٥) سفينة، وحادِىَ إبل، ومفازَةَ رمل، وسَهْلا، وجَبَلا ! فهذه ثمانية عشر متنزَّها فى أقل من ميل فى ميل .

(١) قارن ذلك بما ورد فى المقريزى (طبع بولاق ج ١ ص ٢٦) .

(٢) هو والى مصر فى أيام الرشيد سنة ١٧٥ هجرية . والزيادة عن المقريزى (طبع بولاق ج ٢ ص ١٥٣) .

وأين هذه الأوصاف من وصف الواصف لقصر أنَس بالبصرة حيث يقول :

زُرْ وادِيَ القَصْرِ نِعْمَ القَصْرُ والوادِى ! * لا بُدّ من زَوْرةٍ من غير ميعادِ .
زُرْهُ فليس لهُ شىءٌ يشاكله * من مَنْزِلٍ حاضِرٍ إن شئتَ أو بادِى .
تَرى به السُّفُن والظُّلْمانَ حاضرةً * والضبَّ والنونَ والمَلَّاح والحادِى .

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسىّ، يصف جبل الرَّصَد مثل ما وُصف به قصر أنَس :

يا نُزْهةَ الرَّصَدِ المصرىّ قدجمعت * من كلِّ شىءٍ[(١)] حَلَا فى جانب الوادى .
فذا غَدِيرٌ، وذا رَوْضٌ، وذا جَبَلٌ : * فالضَّبُّ والنُّون والمَلَّاح والحادى .

فهذه نبذة من فضائل مصر. ولولا الرغبة فى الآختصار، لكانت فضائلها تكون كتابا مفردا .

وأما جزيرة الأَنْدَلُس

فقد آقتصرتُ فى وصفها على رسالة وصفها آبن حزم فيها، فقال :

"...أرضها شاميَّة فى طِيبها، تِهاميَّة فى آعتدالها وآستوائها، أهْوازية فى عِظَم خَراجها وجِبايتها، عَدَنيَّة فى منافع سواحلها، صِينيَّة فى مَعادِنها، هِنْدية فى عِطْرها وطِيبها وذَكائها . وأهْلها عرب فى الأنساب والعِزَّة والأَنَفَة، وفصاحة الألْسُن، وطِيب النُّفوس، وإباءِ الضيم، وقلّة آحتمال الذل والإهانة، والنَّزاهة عن الخُضُوع؛ هِنْديُّون فى فرط عنايتهم بالعلوم وحُبِّهم لها؛ بغدادِيُّون فى ظَرْفهم ونظافتهم، ورِقَّة أخلاقهم

(١) هــذه رواية المقريزىّ . أما الاصل فقد ورد فيه الشطر الأول غير موافق فى الوزن للبقية هكذا :

يا نزهة الرصد التى قد نزهت * عن كل شىء الخ

ونَبَاهتهم ، ولطافة أذهانهم ، وحدّة أفكارهم ؛ نَبَطِيُّون في آستنباط المياه ، ومُعَاناتهم للفِراسة ، وتركيب الشجر والفِلاحة ؛ صِينيُّون في إتقان الصنائع العلمية ، وإحكام المِهَن الصورية ؛ تُركيُّون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها ، والنظر في مهمّاتها » .

قال إبراهيم بن خفاجة ، يصفها :

إنّ للجنّـةِ بالأندَلُس * مجتَلى عينٍ وريّا نَفَسِ!
فَسنا صُبْحتها من شَنَبٍ * ودُجى ليلتها من لَعَسٍ.

وقد أظهرت الأندلُس جماعةً من الفضلاء والأعيان والأكابر ، ذكرهم ابن بسّام في كتابه المترجم "بالذخيرة ، في محاسن أهل الجزيرة" . وذكرهم الفتح بن خاقان في كتابه "المطمح" و "قلائد العقيان" وغيرهما .

وسنذكر إن شاء الله تعالى حال الأندلس وآبتداء عمارتها وملوكها عند ذكرنا فتحها ، وهو في الباب الخامس من القسم الأوّل من الفن الخامس في التاريخ من اخبار الدولة الأموية في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مَرْوان في سنة ٩٢ من الهجرة .

وأما البَصْرة وما آختصت به

فمن خصائصها أن للغِرْبان بها ضربا من العَجَب . وذلك أنها تقع إليها بالخريف حتّى تكون الأرض بها سوداء ، وتقع على كل نخلة أُصْرم ثمرها ، ولا تقع على ما لم تُصرَم ، ولو بقي عليها عِذْق واحد .

ومن عجائبها أيضا ، أن التمر يكون مصبوباً في بيادره ، فلا يقع عليه شيءٌ من الذُّباب لا في الليل ولا في النهار .

وأهل البصرة يتخذون المِظَلَّات على التمر والعجوة خوفًا عليها من الخُفَّاش . ومن عادة الذباب الفِرار من الشمس إلى الظلّ، فلا يوجد فى تلك الظلال شيء منه ٱلبتة . فيتوهمُ المتوهِّم أن هاتين الحالتين من طِلَّسْم، له من الخاصية ما يمنع الغِرْبان والذباب. وليس كذلك، وإنما هو من حماية الله ووقايته .

ووصف خالد بن صفوان البصرة، فقال: منابِتها قَصَب، وأنهارها عَجَب، وسماؤها رُطَب، وأرضها ذَهَب .

وفى الكوفة عدم الوفاء .

وأما بغداد وما ٱختصت به

فإنه يقال : إنها جنةُ الأرض، ومجتَمَع الرافدَيْنِ : دجلةَ والفُرات، وواسطةُ الدنيا، ومدينةُ السلام، وقبة الإسلام، لأنها غُرَّة البلاد، ودارُ السلام والخِلافة، ومجمع الطَّرائف والطيبات، ومعدِن المحاسن واللطائف، وبها أرباب النِّهايات فى كل فن، وآحاد الدهر فى كل نوع .

وكان أبو إسحاق الزجَّاج يقول : بغدادُ حاضرةُ الدنيا، وما عداها باديةٌ .

وكان أبو الفضل بن العميد اذا طرأ عليه أحد وأراد ٱمتحانَ عقلِه سأله عن بغداد . فان فَطن لفضائلها وخواصِّها، جعل ذلك مقدّمةَ فضله وعنوانَ عقله . (١٣٦)

وقال ٱبن زُرَيق الكوفىّ، الكاتب :

سَافَرْتُ أبغِى لبَغْدادٍ وساكِنِها * مِثلا، فحاوَلْت شَيْئا دُونَه الياسُ.
هيهاتَ ! بغدادُ الدنيا بأجمعها * عندى، وسُكَّانُ بغدادٍ همُ الناسُ.

وقال آخر :

سقى اللهُ بَغْدادَ من جنـة * غدَتْ للوَرى نُزْهة الأنفُس.
على أنَّها مُنْيةُ المُوسِرين، * ولكنَّها حَسْرةُ المُفْلِس.

وأما الأهواز وما ٱختصت به

فقال أبو عثمان " عمرو بن بحر الجاحظ " : إن قَصَبة الأهواز مخصوصة بالحمَّى الدائمة اللازمة، حتَّى إنها ليست إلى الغريب بأسرَعَ منها إلى القريب .

وقال إبراهيم بن العباس عن مَشْيَخة من أهلها عن القوابل بها : إنهن ربما قَبِلن الطِّفْل المولود بها فيجِدْنَه محموما ، ولا تكاد تُوجَد بها وجنةٌ حمراء لصبيّ ولا صبية ، ولا دمٌ ظاهر .

ومن عجائب خصائصها : أن جميع أصناف الطِّيب تستحيلُ رائحتُه فيها جدّا ، حتَّى لا تكاد توجد له رائحةٌ . وذلك من كثرة الرُّطوبات ، وغلَظ الهواء، والأبخرة الفاسدة . (وهذا موجود بأنطاكِيَة والقُسْطنطينيَّة) . ويقال : إن الخيل لا تنْزُو بها ولا تصْهَل ، وإنها تعتلف الحشيش دون التبن ؛ لما يلحقها من الرَّبْو ، لنداوة البلد وعفونته .

وأما فارس وما ٱختصت به

فمن خصائصها : ماء الورد الذى لا يُوجَد مثله فى سائر البلاد طيبا ، والجُورِى الموصوف من أحد بِلادها يُجْلبَ إلى أقاصى البلاد، ويُضرَب به المثل .

ولشيرازَ من بلاد فارس فَغْمة طيبة ليست فيما عداها من بلاد فارس .

وأما أصفَهَان وما آختصت به

فهى موصوفة بصحة الهواء، وجَوْدة التُّربة، وعُذُوبة المــاء .

وحُكى أن الحجاجَ ولّى بعض خواصّه أصفَهَان، فقال له : قد وَلَّيتك بلدةً حَجَرُها الكُحْل، وذُبابُها النَّحل، وحشيشُها الزَّعْفران .

ومن خصائص الرَّىّ : بُرودُها موصوفة كبُرود اليَمَن، وتسمَّى العَدَنِيَّات تشبيها لهــا ببرودِ عَدَن . وفيها الثياب المنيِّرة .

قالوا : واللص الحاذق ينسب إلى الرَّىّ .

وأما جُرْجان وما آختصت به

فهى سُهْلِيَّة جَبلِية ، برِّية بحرِيَّة . وأهلها يَعُدّون زيادةً على مائة نوع من أنواع الرياحين، والبُقُول، والحشائش الصَّحْراوية، والثمـارِ والحبوب السُّهْليــة التى هى مبذولة بها للفُقراء والغُرَباء .

ومن خصائصها : العُنَّاب الذى لا يكون فى سائرالبلاد مثلُه ، ويقال : هى بغداد الصُّغرى، إلا أنها وبِيَّةٌ، مختلفة الهواء فى اليوم الواحد، قَتَّالة للغرباء، كثيرة الأنداء.

ويقال : جُرْجان مقْبُرة أهل خُرَاسان .

وفى بعض الكتب القديمة أن بخراسان بلدة يقال لها جرجان، يُسَاق إليها قصار الأعمار من الناس.

وكان أبو تراب النيسابورىّ يقول : لمــا قُسمت البــلادُ بين الملائكة، وقعَتْ جُرجانُ فى قسم أبى يحيى (يعنى مَلَك الموت) .

وأما نيسابور وما اختصت به

فحكى عن عمرو بن الليث الصَّفَّار أنه كان يقول : كيف لا أقاتِلُ عن بَلْدة حشيشها الرِّيباس، وتُرابها النُّقْل، وحَجَرها الفيروزج. أراد بقوله : "تُرابها النُّقْل" طينَ الأكل الذى لا يوجَد مثله فى الأرض، ويحمل منها إلى أقاصى البلاد وأدانيها، ويُتحف به الملوك. قالوا : وربما بيع الرِّطل منه بدينار . قال المأمون يصفه :

جُدْ لِى من النُّقْل، فذاكَ الذِى * منه خُلِقْنا وإليه نَصِيرْ.
ذاكَ الذى يُحْسَب فى مثله * أحجارَ كافورٍ عليها عبيرْ.

قالوا : والفَيْروزَج لا يكون إلا فى نَيْسابور، وربما بلغت قيمة الفَصّ منه — الذى إذا أربى وزنه على مثقال، وجمع الخضرة والاستدارة، وصَبَرَ على النار، وامتنع على المِبْرد، ولم يتغير بالماء الحارّ — مائتى دينار .

ويقال إن له خاصية فى تقوية القلب بالنظر إليه، كما أن للياقوت خاصيّة فى مَسَرَّة النفس .

ولما دخلها إسمعيل بن أحمد السامانىُّ، مِلكُ ماوراءَ النهر وخُراسان، استحسنها واستطابها، وقال : ياخا من بلدة جليلة، لو لم يكن لها عيبان ! كان ينبغى أن تكون مياهُها التى فى باطن الأرض على ظاهرها، وأن تكون مسالحها(1) التى على ظهرها فى بطنها .

ومن خصائصها الثياب النيسابورية الرِّقاق .

وأهلها لا يكرِمون الغريب . قال المرادى :

لا تنزِلَنَّ بنَيْسابورَ مغتربًا * إلَّا وحَبْلُك موصولٌ بسُلْطانِ.
أوْلَا، فلا أدبٌ يُغْنى ولا حَسَبٌ * يُجدِى ولا حُرمةٌ تُرْعَى لإنسانِ.

(1) فى الاصل "مشايخها" .

وقال أيضا فيها :

قال المُــرادِىّ قولًا غيرَ متَّهَــمٍ، * والنُّصحُ ما كان من ذى اللُّبِّ مقبولُ :
لا تنزِلَنَّ بنَيْسابورَ مُغْـترِبًا، * إن الغريبَ بنَيْسابُورَ مَخْـذولُ.

وأما طُوس وما آختصت به ١٣٧

فمن خصائصها السَّبَج الذى لا يكون إلا بهـا ، ومنها يُنْقَـل إلى الآفاق . والحجر الأبيض الذى تتخذ منه القُدُور .

ويقال : إن الله عز وجل ألَانَ لأهلها الحجارةَ كما ألَان لداود الحديدَ، حتّى إنهم يتخذُون منها ما يتخذ غيرهُم من الزُّجاج من سائر الأوانى .

وأما بَلْخ وما آختصت به

فيقال : هى من أقدم البلاد وأخصّها بالملوك، وهى شبيهة بالعِراق، وخُراسان، والهند . وإليها ينسَبُ جَيْحون، فيقال : نهر بلخ .

وكان سعيد بن الحسن يقول : العَيْش فى الصيف ببَلْخ كتَصْحِيفها [1] .

ومن خصائصها البخاتىّ [2] والنَّيْلُوفر .

---

(١) أى مثل ثلج .

(٢) فى الأصل : النجادى . [وهو تحريف لاشك فيه] . "والبخاتى" هى نوع من النياق آشتهرت بها هذه المدينة . قال آبن حوقل الرحالة البغدادىّ الشهير فى كتابه "المسالك والممالك" (ص٣٢٨ ، ٣٢٩) ما نصـــه :

"ويرتفع من بلخ وأعمالها فى نفسها النوق المتقدمة على ما فى جنسها وتعرف بالبخاتى ولا نظير لها من جنسها فى جميع الأرض . وبها الأترج والنيلوفر وقصب السكر وما لا يكون الا بالبلدان الحارة الا أنه لانخيل بها" .

وأما بُسْت وما ٱختصت به

فيقال : إن هواءها كهواء العِراق. وماءَها كماء الفُرات. ومن خصائصها الإجّاص الذى لا يوجد مثله فى غيرها . ويقال : إن مَنْ مات ببُسْت مغفورًا له فقد ٱنتقل من جَنَّة إلى جنّة .

وأما غَزْنة وما ٱختصت به

فهى موصوفة بصحة الهواء، وجودة التُّربة، وعُذوبة المـاء. وهى جَبَلية شَمَالية؛ ومن خصائصها أن الأعمار بها طويلة ، والأمراضَ قليلة . قالوا : وهى أرضٌ تنبت الذهبَ، ولا تولد الحياتِ والعقاربَ والحشرات المؤذية . ومنها خرج الأجِلّاء الأنجاد من الرجال .

وقال أبو سـعيد منصور زعيم جرجان : لم أر بلدة فى الصـيف أطيب ، وفى الربيع أشـبه، ومن الحشرات أنظف من غَزْنة . ثم قال : إن قلّة ثِمـارها من منافعها، لأن كثرة الثمـار مقترِنةٌ بكثرة الأمراض . وقد وصفها صاحب كتاب "لطائف المعارف" فقال :

واهًا لغَـزْنةَ إذ غَدَتْ * للمُلْكِ والإسـلامِ دارَا .
من كَعْبةٍ قد أصبحَتْ * للمَجْدِ والعَلْيـا مَـدَارا .
فى صَدْرها الملكُ الّذى * قُطْبُ السُّعود عليه دَارَا .

وقال أيضا فيها :

يا دارَ مُلْك ترى كُلَّ الجمال بها * وأسعد الدهر تَبْدُو من جَوانِبها .
كأنمـا جَنَّة الفِرْدوس قد نزلَتْ * بأرض غَزْنةَ تعجيلًا لصاحِبِها .

وأما سِجِستان وما آختصت به

فيقال فيها : ماؤها وَشَل، وثَمَرُهَا دَقَل، ولِصُّها بَطَل .

ومما تختص به الطاسات وجلاجل البُزَاة، والطبولُ المَوْكبية، والفُرُش الدِّيباج .

وأما الهند وما آختصت به

فيقال : الهند بحرها دُرّ ، وجبلُها ياقوت ، وشجرُها عُود، وورَقُها عطْر .

وعُود الهند يذكر مع أمّهات الطيب .

وفى الهند الفِيل ، والكَرْكَدَّن، والبَبْر. والطاوُوس، والبَبْغاء .

وفيــه الياقوتُ الأحمر، والصَّنْدل الأبيضُ، والعاجُ، وأصناف العِطر، والثياب المُخْمَلة وغيرها، واللّانِس(١)، والأقمشة .

وأما الصين وما آختصَّ به

فإن العرب تقول لكل طُرْفة من الأوانى : صينيَّة كائنةً ما كانت : لآختصاص الصين بالطَّرائف .

وأهلُ الصــين خُصُّوا بصناعة الطُّرَف ، والمُلَح ، وخَرْط التمــاثيل ، والإبداع فى عمــل النُّقُوش والتصاوير، حتَّى إن مصوّرهم يصوّر الإنسان فلا يغادر شيئا إلا الرُّوح، ثم لا يرضى بذلك حتَّى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخَجِل، وبين المتبسِّم والمستغرب، وبين ضَحِك المسرور والهازئ. ويركِّب صُورة فى صورة .

وفيه مناديل الغَمَر التى إذا آتَّسخت وأُلقيت فى النار، نَقَّيت ولم تحترق .

(١) كذا بالأصل ولعلها محرفة عن القلانس .

وفيه الحديد . وربما آشترِى بأضعاف وزنه فضةً .

وفيه السِّنجاب الفارحانىّ الذى هو من أنفَس الأوبار . وفيه اللُّبُود الجياد .

قال الجاحظ فى كتاب "النظر فى التجارة" : إن خير اللُّبُود الصينية، ثم المغربية الحُمْر، ثم الطالَقَانيَّة البِيض .

وأما سَمَرْقَنْد وما آختصت به

قال قُتَيبة بن مسلم، لمـا أشرف على سمرقند لأصحابه : شَبِّهوها ، فلم يأتوا فيهـا بشىء، فقال : كأنها السماء فى الخُضْرة، وكأن قصورَها النجومُ الزاهرة، وكأن أنهارَها المَجَرّة . فاستحسنوا هذا التشبيه .

ومن خصائصها : الكَوَاغدُ التى عطَّلتْ قراطيس مصر، والجلودَ التى كان الأوائل يكتُبون عليها، لأنها أحسَنُ وأنعمُ وأرفَقُ وأرقُّ . ولا تكون إلا بها وبالصين .

ومن خصائصها : الثياب الوَذَارية، والنشادر، والزِّئبَق، والبُنْدُق .

وأما بلاد التُّرك وما آختصت به

يقال : إنها توازن بلاد الهند فى كثرة الخصائص .

وفيها المِسْك والسِّنجاب والسُّمور والقاقُم والفَنَك والثَّعالب السُّود والأرانب البيض وغير ذلك . وفيها البُزاة البيضُ والخيل .

وتَثْبُتُ من بلاد الترك خاصيةٌ : أنه من أقام بها آعتراه سُرور لايدرِى ما سببُه، ولا يزال متبسما ضاحكا ؛ وأن الميت إذا مات فيها لا يدخُل على أهله كبيرُ حزن كما يلحق غيرهم عند موت محبوب .

وأما خُوَارَزْم وما آختصّتْ به

(١٢٨)

فانها تقارب بلاد الترك، بل تنافسها فى الخصائص والمتاجر.

ومن خصائصها البِطيخ الذى يقال له "النارَنْج" يقال إنه أحْلى البطاطيخ وأطيبُها. وكان يحمل منها إلى المأمون وإلى الواثق فى قوالب الرصاص، معبّأة فى الثلج. فكانت تُقوّم الواحدة منه — إذا سلمت ووصلت — بسبعمائة درهم. والله أعلم.

ذكر الخصائص التى تجرى مجرى الطِّلَّسْمات

منها:

مدينة "خَبِيص" من مُدُن كَرْمان. لا يُمطِر المطر فيها داخلَ السور أبدا حتّى إن الرجل يُخْرِج يده من سورها إلى خارجها، فتبتلُّ يدُه ولا يبتلُّ ساعده.

وبقرية من قُرى كَرْمان أيضا "حصن عادى" ليس فيه فأر. وإذا دخل إليه فأر، مات.

ومدينة "حمص" لا يُوجَدُ فيها عَقرب. وإذا نُثِر ترابُها على ظهر عَقْرب، ماتت. وكذلك قلعة أعزاز(١) من أعمال حلب. ويقال إنه لا يدخل مدينتها حيّة. ومتى نُثِر عليها من ترابها، ماتت لوقتها. ولا يوجد فيها بَعُوضٌ ألبتةَ. وإن الرجل متى أخرج يده من السور، وقع عليها؛ فإذا أدخل يده، طار عنها.

و"بمصر"(٢) أن التماسيح إذا ساقها الماءُ إليها وحاذَتْها، آنقلبت على ظهرها. فإذا بَعُدت عنها، لا تضر أحدا. بخلاف ماهى فى بلاد الصعيد، فإنها تفترس جميع ماتظْفَر به من الحيوان حتّى الخيل. ولا يقوى على قتالها إلا الجاموس.

ومدينة "سِجِلْماسة" لا يوجد فيها ذُباب ألبتةَ.

(١) كذا ذكرها أيضا فى التقويم بالهمزة. وفى المعجم "عزاز" بدونها.
(٢) يعنى مصر العتيقة أى الفسطاط.

ذكر خصائص البلاد فى أشياء مختلفة

(وهى العلم، والعمل، والجواهر، والملابس، والأوبار، والفُرُش، والمراكب، والحيواناتُ ذواتُ السموم، والحَلْوى، والثمار، والرياحين، والخَلْق، والأخلاق، والأمراض، والآثار العُلْوية)

أما خصائصها العلميــة والعملية، فيقال : حُكماء اليونان، وأطباء جُنْدَيْسَابور، وصاغة حَرّان، وحاكَةُ اليمن، وكُتّاب السَّوَاد .

ومن خصائصها فى الجواهر، يقــال : فَيْروزَج نَيْسابور، وياقوت سَرَنْدِيب، ولؤلؤ عُمَان، وزبرجَدُ مِصْر، وعَقِيق اليمن، وجَزْع ظَفَارِ، وبجادىّ بلخ، ومَرْجانُ إفرِيقيَّـــة .

ومن خصائصها فى الملابس، يقال : بُرُود اليمن، ووَشْىُ صنعاء، ورَيْط الشام، وقَصَب مصر، ودِيباج الرُّوم، وقَزّ السُّوس، وحَرِير الصين، وأَكْسِية فارس، وحُلَل أصْبَهان، وسَقْلاطُون بغداد، وعَمَــائم الأُبُلَّة، ومَنيَّر الرىّ، ومُلْحَم مَرْو، وتِكَك أرمينيَة، ومَنَادِيل الدَّامَغان، وجَوَارِب قَزْوِين .

ومن خصائصها فى الأوبار، يقــال : سنجاب خِرْخِيز، وسَمُّور بُلْغار، وثعالب الخَزَر، وفَنَك كاشْغر، وحَوَاصِل هَرَاة[1]، وقاقُم تغزغز .

(١) ورد هــذا اللفظ فى كثير من كتب العرب بمعنى الجلود السنية التى يتدفأ بها أهــل الترف والنعيم فقد ذكر الهمذانى (ص ٢٣٥) الفنك والسمور والقاقم والحواصل والوَشَق والدَّلَق الخ . وذكره ابن البيطار فقال : «أنه طائر يكون بمصر كثيرا يعرف بالكُىْ (بضم الكاف وإسكان اليـاء المنقوطة باثنتين من أسفل) ... ... ولباسه يصلح للشباب وذوى الأمزاج الحارة ومن يغلب عليه الصفراء» . وذكر السيوطى فى الجزء الثانى من "حسن المحاضرة" لطائف مصر وأورد من جملتها الحوصل (بغير ألف فى النسخة المطبوعة طبع حجر بمصر، ص ١٧٦) حيث قال ما نصه : «وطير الحوصل يعمل من جلده الخفاف الناعمة والفرا الأبيض الذى يقوم مقام الفنك فى لينه ورقته» .

ومن خصائصها فى الفرش، يقال : بُسُط أرمينِيَة، وزَلَالُّ قالِيقَلَا، ومَطَارحُ مَيْسان، وحُصُر بغداد[1] .

ومن خصائصها فى المراكب ، يقال : عِتَاق البادية ، ونَجَائب الحجاز . وبَراذِين طَخَارستان، وحَمِير مصر، وبِغَال بَرْذَعة .

ومن خصائصها فى الحيوانات ذوات السموم، يقال : أفاعى سِجِسْتان، وحَيَّات أصْفَهان ، وثَعابِينُ مصر ، وعَقَارِب شَهْرَزُور ، وجَرَّارات الأحواز ، وبَرَاغِيث أرمِينِيَة ، وفأر أَرْزَن ، ونَمل مَيَّا فارِقِين ، وذُبابُ تل قَاقَانَ[2] ، واقداح[3] تلد .

ومن خصائصها فى الحلواء، يقال : سُكَّر الأهواز، وعَسَل أصفَهَان ، وفانيذ ماكسان[4] ودِبْس أَرَّجان .

---

(١) لعله مصحف عن "حصر عبادان" لأن النويرى طنــا يتكلم عن الحصر العبادانية فى مواضع كثيرة جدا من خطه . وكذلك السيوطى قال فى لطائف مصر: «وبها من الحصر العبدانى ومن سائر أصناف الحصر ما لا يوجد فى غيرها» . وقال المقدسى ص ١١٨ «إن أكثر أهل عبادان صناع الحصر من الحلفاء» وكانت هذه الحصر غاية من الجمال حتى كان أهل مصر يقلدونها كما رأينا من عبارة السيوطى .

(٢) مفرده "قدح" وقال فى القاموس : «والقدح والقادح أكال يقع فى الشجر والأسنان ... والقادحة الدودة» . وقال ابن البيطار فى كلامه على "التربد" نوع من النبات ما نصه : «والتربد اذا طال به الزمان عمل فيه القادح كما يعمل فى الخشب ... ... تراه مثقبا كأنه ثقب برأس ابرة» . ثم قال فى بقية الكلام ما نصه : «لا يجب أن يستعمل منه (أى التربد) إلا ... ... السليم من السوس» .

(٣) هكذا فى الأصل . وربما كان محرفا عن "بَلَد" المدينة المشهورة فى العراق .

(٤) كذا بالأصل وصوابه "مَاسَكَان" وقد أوردها ياقوت فقال «إنها بلد مشهور بالنواحى المجاورة لمُكران وراء سجستان» ثم قال «ولا يوجد الفانيذ بغير مكان إلا ههنا الموضع ... وإليه ينسب الفانيذ الماسكانى» .

ومن خصائصها فى الثمار ، يقال : رُطَب العراق ، وتمر كَرْمان ، وعُنَّاب جُرْجان ، وإجَّاص بُسْت ، وسَفَرْجَل نيسابور ، وتُفَّاح الشام ، ومِشْمِش طوس ، وكُمَّثرى نَهَاوَنْد ، وأُتْرُجّ طبرستان ، ونارَنْج البصرة ، وتِين حُلْوان ، وعنَب بغداد ، وقِشْمش هراة ، ومَوْز اليمن ، وجَوْز الهند ، وبِطِّيخ خُوارَزْم ، وباقِلاء الكوفة .

ومن خصائصها فى الرياحين ، يقال : نَرْجس جُرْجان ، ووَرْد جُور ، ونَيْلُوفر السِّيروان ، ومنثور بَغداد ، وزَعْفران قُم ، وشاهسْفَرم سمرقند .

ومن خصائصها فى الخَلْق والأخلاق ، يقال : شُقْرة الروم ، وسَوَاد الزَّنْج ، وغِلَظ الترك ، وجَفَاء الجيل ، ودَمَامة الصِّين ، وقِصَر يأجوج .

ومن خصائصها فى الأمراض ، يقال : طواعينُ الشام ، وطِحَال البحرين ، ودَمَاميل الجزيرة ، وحُمّى خيبَر ، وجُنُون حمص ، وعَرَق اليمن ، ووَبَاء مصر ، وبِرْسام العراق ، والنارُ الفارسية ، وقُرُوح بَلْخ .

ومن خصائصها فى الآثار العلوية ، يقال : شِتَاء أرمينِيَة ، ومَصيف عُمَان ، وصواعق تِهَامه ، وزَلازِلُ دَبِيل . (١٢٩)

وقال الجاحظ فى "كتاب الأمصار" : الصناعة بالبصرة ، والفَصَاحة بالكوفة ، والتَّخْنيث ببغداد ، والطُّرْمذَة بسمرقند ، والغَيّ بالرَّيّ ، والجَفَاء بنَيْسابور ، والحُسْن بهَرَاة ، والمُروءة ببلخ ، والبُخْل بمرو ، والعجائب بمصر .

وحكى عن عمرو بن عامر مُزَيْقِيا ، أنه قال لقومه لما تحقق كونَ سيلِ العَرِم : من كان ذا شاءٍ وبَعير وجملٍ غير شَرُود ، فليلحق بالشِّعب من كُوفان ، فلحقتْ به

هَمْدان ؛ ومَن كان ذا سِياسة وصَبْرٍ على أزَمات الدهر فليلحَق ببطن مَرٍّ ، فلحقت به خُزاعة . ومَن كان يريد الراسخات فى الوَحْل ، المُطعِمات فى المَحْل ، فليلحَقْ بيَثْرِب ذاتِ النخل ، فلحقت بها بنو قَيْلَةَ ، وهم الأوس والخَزْرَج ؛ ومن كان يريد الخَمر والخَمير والأمر والتأمير فليلحق ببُصْرى وسَدِير (وهى من أرض الشام) ، فلحقَتْ به غَسَّان ؛ ومَن كان يريد الثياب الرِّقاق ، والخُيول العِتاق ، والذَّهَب والأوراق ، فليلحَقْ بالعراق . فلحقت به لَخْم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب الثالث

من القسم الخامس من الفن الأوّل

(فى المبانى القديمة)

والمبانى القديمة كثيرة ، فلنذكر منها ما عَظُم خَطَره ، وشاع فى الآفاق ذِكْره .

ذكر أوّل بناء وضع على وجه الأرض

قيل : أوّل ما بنى على وجه الأرض "الصَّرْح" ويسمّى "المِجْدل" بناه النُّمرود الأكبَرُ ابن كُوش بن حام بن نوح ، بكُوثى رَبَّى من أرض بابل . قيل : وبها إلى هذا العصر من أثره كالجبال . وكان طوله فى الهواء خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع . وكان مبنيا بالحجارة والرَّصاص والكِلْس والشَّمَع واللَّبان . بناه ليمنعه وقومَه من بأس الله عز وجل . وكان قد كفر وطغى وادّعى الألوهية ، فأرسل الله تعالى

إليه جبريل، فضرب به بخافقةِ جناحه فهدمه . وهام مَن كان حوله على وجهه ، وقد تبلبلت ألسِنَتُهم من الدَّهَش والذُّعْر، فكانت عنه هـذه اللغاتُ التى يتكلم بها سائرُ الأمم. وهى آثنتان وسبعون لغةً، وسميت تلك الأرض التى كان بها بابِلَ .

ذكر خبر إرَمَ ذاتِ العماد

وهى التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ .

وكان سبب عمارتها أن شدّادَ بن عاد بن إرَم لما سَمِع وصفَ الجنة سوّلتْ له نفسه أن يبنى مثلها . فبنى مدينة بين حَضْرَمَوْتَ وصنعاءَ، طُولها آثنا عشر فرسخا، وعرضُها مثلُ ذلك . وأحاط بها سورا آرتفاعه خمسمائة ذراع، غشّاه بصفائح الفضة المموّهةِ بالذهب، فلا يُدركه البصر إذا أشرقتْ عليه الشمسُ. وبنى داخلها مائةَ ألف قصر (بعَدَد رؤساء أهل مملكته) من الذهب والفِضَّة، وكذلك جُذُوع سُقُوفها وأعمدتُها . وأجرى فى وسطها نهرا صَفَّح أرضه بالذهب ، وجعل على حافتيه أنواعَ الجواهر واليواقيت بدلًا من الحصباء وألقى فيه المسْك والعنبرَ بدلا من الحَمْأة . وفرّع منه جداول إلى تلك القُصور والمنازل . وغَرَس على شُطوطها من الأشجار ما كان لزَهَره عَرْفٌ طيِّبٌ ورائحةٌ ذكيّة .

زعموا أنه أقام فى بنائها ثلثمائة سنة ، فلما تمَّ بناؤها، زاد فى طغيانه وخرج من حضرموت إليها ليسكُنَها . فلما أشرف عليها جاءته صَيْحة من السماء فأهلكَتْه هو وجنوده .

و يروى أن عبد الله بنَ قِلابة خرج فى طلب إبل له ندَّتْ فوقع عليها، فحمل ماقدَر عليه ، فبلغ معاويةَ خبرُه، فاستحضره وسأله فقصَّ عليه قصته . فبعث معاويةُ إلى كعب الأحبار، فقال: هى إرمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك: أحمرُ قصير، على حاجبه خالٌ ، وعلى عِقبــه خال، يخرج فى طلب إبل له ندَّتْ . ثم آلتفت فرأى آبن قلابة فقال : هذا والله ذاك الرجُلُ .

وزعم الأخباريون أنه كان بها أربعمائة ألف وأربعون ألف عمود ، ولهذا سميت ذات العماد . وقد ذهب قوم إلى أنها دمشق .

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر إرم ذات العماد بما هو أبسط من هذا عند ذكرنا لخبر شَديد وشَــدّاد، آبنى عاد ؛ وهو فى الباب الخامس من القسم الأوّل، من الفن الخامس فى التاريخ، وذلك فى السِّفر الحادى عشر من هــذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك . والله تعالى أعلم .

ذكر خبر سدّ يأجوج ومأجوج

هو فى الإقليم السادس فى آخر الجزء التاسع من تجزئة عشرة أجزاء .

(١٣٠) قال[(١)] صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى آختراق الآفاق" إن الواثق بالله لمـا رأى فى المنــام كأنّ السّدّ الذى بناه ذو القرنين مفتوح، أحضر سَلَّاما الترجمان وقال له :

---

(١) ان ابن خرداذبة هو أوّل من روى خبر هذه البعثة العلمية عن نفس رئيسها ثم آستملاه منه من الكتاب الذى كان كتبه فى هذا المعنى للخليفة الواثق بالله (انظر المسالك والممالك طبع ليدن سنة ١٣٠٦ هـ - ســنة ١٨٨٩ م من صفحة ١٦٢ - ١٧٠) . وعن آبن خرداذبة نقل جميع المؤلفين الذين جاءوا بعــده مثل الإدريسى وآبن رسته وآبن الفقيه الهمذانى والمقدسى . وقد نقل النويرى عن الإدريسى . وكلهم قد يزيد و ينقص بعض الكلمات أو يبدلها بغيرها .

آذهب فانظر إلى هذا السد وجئنى بخبره وحاله وما هو عليه ، ثم أمر له بأصحاب يسيرون معه، عددهم خمسون رجلا ، ووصله بخمسة آلاف دينار، وأعطاه ديته عشرة آلاف درهم ، وأمر أن يعطى كل واحد من أصحابه الخمسين ألف درهم ورزق سنة، وأمر لهم بمائة بغل تحمل الماء والزاد . قال سلام الترجمان : فشخصنا من سامرا بكتاب الواثق إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية بالنظر إلى تنفيذنا من هناك، فكتب لنا كتابا إلى ملك السرير وأنفذنا إليه ، فلما وردنا عليه ، أشخصنا إلى ملك اللان . فلما وصلنا إليه، أشخصنا إلى صاحب فيلان شاه.(١) فلما وردنا عليه [أرسلنا الى ملك الخزر وهو] آختار لنا خمسة أدلاء يدلون على الطريق . فسرنا من عنده سبعة وعشرين يوما فى تخوم بلاد بسجرت إلى أن وصلنا إلى أرض سوداء طويلة ممتدة كريهة الرائحة، فشققناها فى عشرة أيام . وكنا قد تزودنا لقطعها أشياء نشمها خوفا من أذى روائحها الكريهة . ثم آنفصلنا عنها . فسرنا مدة شهر فى بلاد خراب قد درست ابنيتها ولم يبق منها إلا رسوم يستدل بها عليها . فسألنا من معنا عن تلك المدن ، فأخبرونا أنها المدن التى كان يأجوج ومأجوج يغزونها ويخربونها . ثم سرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذى فى شعبة السد وذلك فى ستة أيام . وفى تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية . وهناك مدينة يدعى ملكها خاقان بن أدكش ، وأهلها مسلمون لهم مساجد ومكاتب . فسألونا من أين أقبلنا، فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين الواثق بالله ، فعجبوا منا ومن قولنا "أمير المؤمنين" ثم سألونا عن أمير المؤمنين : أشيخ هو أم شاب ؟ فقلنا : شاب، فعجبوا أيضا . ثم قالوا : وأين يكون ؟ قلنا : هو بالعراق بمدينة سر من رأى . فعجبوا أيضا

(١) فى الأصل : "قيلاه شاه" . والتصويب عن آبن خرداذبة .

من ذلك، وقالوا : ما سمعنا هذا قطُّ . فسألناهم عن إسلامهم من أين وصلهم ومَنْ علّمه لهم ؟ فقالوا : وصل إلينا منذ أعوام كثيرة رجل راكب على دابة طويلة العُنق طويلة اليديْن والرجلين ، لها فى موضع صلبها حَدَبة ، (فعلمنا أنهم يصفون الجمل) قالوا : فنزل بنا وكلمنا بكلام فهمناه ، ثم علَّمنا شرائع الإسلام فقبلناها ، وعلمنا أيضا القرآن ومعانيَه فتعلمناه وحفظناه . قال سلام : ثم خرجنا بعد هـذا إلى السدّ لنُبصره ، فسرنا عن المدينة نحوا من فرسخين ، فوصلنا السدّ . فإذا جبل مقطوع بوادٍ عرضه مائة وخمسون ذراعا ، وله فى وسط هذا الفِناء باب من حديد طوله خمسون ذراعا قد آكتنفه عِضادتان ، عرض كل عِضادة منهما خمسة وعشرون ذراعا . والظاهر من تحتها عشرة أذرع خارج الباب . وكله مبنىّ بلَبِن الحديد مغيب بالنُّحاس . وآرتفاع العضادتين خمسون ذراعا ، وعلى أعلى العضادتين دَرَوَنْد حديد ، طوله مائة وعشرون ذراعا . والدَّرَوَنْد للعتبة العليا ، وقد ركب منها على كل واحدة من العضادتين مقدار عشرة أذرع . ومن فوق الدَّرَوَنْد بنيانٌ متصل بلبن الحديد المغيب بالنحاس إلى رأس الجبل . وآرتفاعه مدّ البصر . وفوقه شُرَّافات حديد . فى طَرَف كل شُرَّافة قرنتان تَنْثَنِي أطراف كل واحدة منهما على الأخرى(١) ، وللباب مصراعان مُغْلَقان ، عرض كل مِصْراع خمسون ذراعا فى ثِخَن خمسة أذرع . وقائمتاهما فى دوّارة على قدر الدروند . وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع فى غِلَظ ذراع فى الآستدارة . وآرتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعا . وفوق القفل بخمسة أذرع غَلَقٌ طوله أكثر من طول القُفْل ،

(١) هـذه رواية ابن خرداذبة . وفى الأصـل « قرنان مثنى الأطراف بعضها الى بعض » . ورواية المقدسى : «قرنان يثنى كل واحد الى صاحبه» .

وعلى الغَلَق مِفتاح طوله ذراع ونصف . وله اثنتا عشرة دنداجة[1] ، كل دنداجة منها كأغلظ ما يكون من دساتج[2] الهواوين ، مُعلَّق كل واحد منها بسلسلة على قدر حلقة المنجنيق[3] . وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع بسط مائة ذراع سوى ماتحت العضادتين ، الظاهر منها خمسة أذرع . وكلها مكالة بالذراع السوادى . ورئيس ذلك الحصن يركب فى كل جمعة مع عشرة فوارس ، مع كل فارس إرزبَّة حديد ، كل إرزبَّة خمسةُ أمنان . فيضرب القفل بتلك الإرزبَّات فى كل يوم ثلاث مرات ليسمع من خلف الباب . فيعلم أنَّ هناك حفظةً ، وليعلمِ هؤلاء أن يأجوج ومأجوج لم يحدثوا فى الباب حدَثا . وإذا ضرب أصحابُ الإرزبَّات القفل ، وضعوا آذانهم ليسمعوا ما وراء الباب ، فيسمعون من ورائه دوِيًّا يدلُّ على أن خلفه بشرا . وبالقرب من هذا الموضع حصن يكون عشرة [فراسخ] فى عشرة [فراسخ] . ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتى ذراع فى مائتى ذراع ، وبين هذين الحصنين عينُ ماءٍ عذبةٍ ، فى أحد الحصنين آلةُ البناء التى بُنِى بها السدّ من قُدور الحديد ومَغارف الحديد ، والقدور فوق دِيكْدانات[4]
على كل دِيكْدان أربع قدور مثل قدور الصابون . وهناك أيضا بقايا من لَبِن الحديد (١٣١)

(١) هذه رواية الإدريسى . والذى فى ابن خرداذبة "دندانكة" وهى كلمة فارسية معناها "سن" والمراد أسنان المفتاح .

(٢) الدستج كلمة فارسية معناها "يد الهاون" أى المِدَقّ الذى تُدَق به الأشياء فى الهاون .

(٣) فى ابن خرداذبة ما يفيد أن المفتاح وحده هو المعلق فى السلسلة وهذا نص روايته : « معلق فى سلسلة ملحومة بالباب طولها ثمانى أذرع فى استدارة أربعة أشبار والحلقة التى فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق» وهى رواية معقولة أكثر مما ورد فى المتن لان المفتاح فقط هو الذى يصح تعليقه دون القفل والغلق .

(٤) كلمة فارسية يقابلها عند العرب "الأثافى" .

التى بُنى بها السدّ وقد آلتصق بعضها ببعض من الصدإ، وطول اللَّبِنة ذراع ونصفٌ فى آرتفاع شبر .

قال سلام الترجمان : وقد سألْنا من خاطبناه من أهل تلك الجهات هل رَأَوا أحدا من يأجوج ومأجوج قطُّ ، فأخبرونا أنهم رأَوْا منهم [مرّة] عددا فوق شُرُفات الردم، فهبّتْ عليهم ريح عاصفة، فرمت منهم ثلاثةً إلى ناحيتنا (١) . وكان مقدار الرجل منهم شبرين ونصفا .

قال سلام : فكتبت هذه الصفاتِ كلَّها، ثم آنصرفنا مع الأدِلّاء من تلك الحصون، فأخذوا بنا على ناحيــة خُراسان . فسرنا إلى مدينة بختان، إلى غُرْيان، إلى مدينة برساخان، إلى انطرار، إلى سمرقند، فوصلنا إلى عبــد الله بن طاهر، ثم وصلنا إلى الرىّ، ثم رجعنا إلى سرّ من رأى بعد خروجنا عنها . فكان مغيبنا فى سفرنا ثمانية وعشرين شهرا .

قال : فهذا جميع ما حدّث به سلام .

وقال الشيخ أبو عبــد الله محمد بن أحمد القرطبىّ فى تفسيره : إن آرتفاع الســدّ مائتا ذراع وخمسون ذراعا . قال : وروى فى طوله ما بين طرفى الجبلين مائةُ فرسخ، وفى عرضه خمسون ذراعا . نقله عن وهب بن منبه .

وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخبار الســدّ وكيفية بنائه وطوله وعرضه، وغير ذلك مما هو متعلق به عند ذكرنا لأخبار ذى القرنين . فتأمّله هناك، وهو فى الباب

(١) فى ابن خرداذبه : «فهبت ريح سوداء فألقتهم الى جانبهم» أى الى الجهة التى ظهر منها أولئك الناس، وهو المعقول، لانه عقب بأن طول الرجل كان شبرين ونصفا، ومعنى ذلك فى رأى العين من هذا العلو فتنبه .

الأوّل من القسم الرابع من الفن الخامس فى التاريخ، وهو فى السفر الثانى عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا .

ذكر مبانى الفُرْس المشهورة

ومبانى الفرس كثيرة : قديمة وحديثة .

فمن قديمها "سَدُّ اللَّبِن" . بناه قُبَاذ بن فيروز، وقيل إن الذى بناه آبنه كسرى آبن قباذ بن فيروز . كذا ورد فى التاريخ .

وهذا السدّ من أرض شَرْوانَ إلى بلاد اللّان ، و بينهما مائة فرسخ ، بين شعاب جبل القَبْق . وهو جبل عظيم قد آشتمل على آثنتين وسبعين أمّة ، لكل أمّة لسان وملك ، لا يعرف بعضهم بعضا لكثرة غياضه وأشجاره ؛ وفيه عيون وأنهار ؛ وتقدير مسافته طولا وعرضا نحوُ شهرين .

ومبدأ السُّور من جوف بحر الخَزَر على مقدار مسافة ميل مارّا إلى البرّ، ثم يمرّ إلى أن يتصل بقلعة طبر شروان . وهو مبنىّ بالصخر والحديد والرَّصاص . بناه على زِقَاق البقر المنفوخة ، فكان كلما آرتفع البناء نزلت تلك الزِّقاقُ إلى أن آستقرّتْ فى قعر البحر، فغاصتِ الرجالُ بالخناجر فشقُّوها فتمكن البناء . وجعل بين كل ثلاثة أميال من السور وأقل وأكثر بابا من الحديد على حسب الطريق التى تجعل من أجله ، و بنى عليه حصنا وأسكن فيه مَنْ يحفظ ذلك الباب ويحرسه .

وزعم المؤرّخون أن سبب بنائه لهـذا السور أن الخَزَر كانت تُغير على بلد فارس إلى أن تبلغ هَمَذان والموصل، فحجزهم بهذا السور .

ومن مبانى الفرس إيوان كسرى

زعم المسعودىّ أن سابُورَ ذا الأكتاف بناه فى نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع فى عرض خمسين ذراعا فى ٱرتفاع مائة ذراع ، وطول كل شُرْفة منه خمسة عشر ذراعا .

ولمـا ملك المسلمون المداين ، أحرق ستر هـذا الإيوان فأخرجوا منه مائة ألف دينار ذهبا .

ولمـا بنى المنصور بغداد، أحب أن ينْقُضَه ويبنيها به، فاستشار خالد بن برمَك فى ذلك فنهاه، وقال : "هو آية للإسلام، ومن رآه علم أن الذى بناه لا يُزِيل ملكه إلا نبىّ والمُؤونة على نقضه أكثر من الآرتفاق به". فقال له : "أبيتَ إلا ميلا إلى العجم " فَهُدِمت منه ثلمةٌ . فبلغت النفقةُ عليها مالا كثيرا ، فأمسك المنصور عن هدمه، فقال له خالد : "أنا الآن، يا أمير المؤمنين، أشير بهدْمه لئلا يتحدّث الناس بعجزك عن هَدْم ما بناه غيرك" فلم يفعل .

وحكى مثل هـذه القصة أنهـا وقعتْ ليحيى بن خالد مع الرشيد ، وهو إذ ذاك فى ٱعتقاله . وكان الرشيد بلغه أن تحته كنزا فأراد هَدْمه وٱستشار يحيي فأشار عليه بمثل هذا .

ومن عجيب ما يحكى من تقلب الأحوال أن بعض شُرُفاته هُدمت وجُعِلت فى أساس سور بغداد .

وقال ٱبن الأثير فى تاريخـه إن الإيوان باقٍ إلى الآن . (وكان يوم ذاك فى سنة (١٣٢)
خمس وعشرين وستمائة)، والله أعلم .

ومن المبانى القديمة الحَضْر

وكان حِصْنا حصينا مبنيًّا بالرُّخام، يسكنه ملوك الضَّيازن. وهو بين دِجْلة والفرات، بحيال تكريت .

ويقال إن بانيه الساطِرُون . وذُكِر أن قصر ملكه قائمٌ إلى وقتنا هذا فى وسط المدينة، وفى وسطه هيكلٌ مربَّع مبنىّ بالصخر، وفيه صور دقيقة المعانى .

حكى أن سابورَ الجنودِ حاصره أربع سنين فلم يقدر عليه . واتفق أن بنت ملكه وهى النضرة بنت الضَّيْزَن (١) حاضت، فأُخْرِجت من القصر إلى رَبَضه لأجل ذلك . فرأت سابورَ، وكان جميل الصورة، فعشِقته . فأرسلت إليه تقول : إن ملَّكْتُك الحصن فما تجعل لى؟ قال : حَكَّمتك . قالت : تتزوجُ بى . فأجابها إلى ذلك، فقالت له : خُذْ حمامة ورقاء مطوّقةً، فاخْضِب رجليها بدم حيض جاريةٍ بكر زرقاءَ، وأرسِلْها . فإنها تقع على سور البلد فيقع لوقته . وكان ذلك حلَّ طِلَّسْمٍ له . ففعل ذلك، فوقع السُّور ودخل سابور الحصن وقتل مِلكَه وأصحابَه واصطفى ابنته لنفسه . فلما كانت ليلةُ دخولها عليه، لم تزل متململة قَلِقة طول ليلتها، فالتمس سابورُ ما الذى قلِقَتْ من أجله، فاذا ورقةُ آسٍ قد لِصقتْ بعُكْنة من عُكَنها، فقال لها : ما كان أبُوكِ يغْذُوكِ؟ فقالت : الزُّبد والمُخ وشُهد أبكار النحل والخمر، فقال لها : أنا أحقُّ منكِ بثار أبيكِ، ثم أمر رجلا أن يركب فرسا جَمُوحا وأن يربِطَ غدائرها فى ذَنَبه و يركُضَ به . ففعل ذلك، فتقطَّعت .

---

(١) فى ياقوت : "النضيرة" .

وهذا الحصن قد آختُلِف فى موضعه. فقيل: بجبال تَكْرِيت بين دَجْلة والفرات. وقيل: بالجزيرة. ويقال إنه كان حاجزا بين الرُّوم والفُرس، وملكَتْه الزَّبَّاء بنت مليح[(١)] وآسمها فارعة.

وفيه يقول عدىّ بن زيد العِبَادىّ من قصيدة:

وأخو الحَضْر إذ بَنَاه وإذ دِجْـ * ـلةُ تُجْبَى إليـه والخابُورُ

شادَهُ مَرْمَرًا وكَلَّـله كِلْـ * ـسًا فللطَّـيْر فى ذُراه وُكُورُ

لم يَهَبْه ريب المنون فباد الْـ * ـمُلْك عنه فبابُه مهجُورُ

ومن المبانى القديمة القَلِيس

وهى كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح، ملك ايمن بصنعاء. ونقل إليها الرخام المجزَّع والملوَّن، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بِلْقِيس. وكان أراد أن يرفع بناءها حتّى يشرِف منها على بحر عدن. فلما أهلكه الله تعالى وفرّق ملكه، أقفر ما حول هذه الكنيسة، وكثُرت حولها السِّباع والحَشَرات. وبقيت إلى زمن السَّفَّاح فذُكر له أمرها، فبعث إليها من خرّبها وأخذ ما كان فيها. حكى ذلك السهيلى فى "الروض الأنف".

وحكى أن كيفية بناء هذه الكنيسة أنه كان لها بابٌ من نحاس طولُه عشرة أذرع وعَرْضه أربعة أذرع، يدخل منه إلى بيتٍ طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا، مسقَّف بالساج المنقوش، مسمَّر بمسامير الذهب والفِضَّة. ثم يُدْخَل من البيت إلى إيوانٍ معقود طوله أربعون ذراعا، عن يمينه ويساره عُقود مزخْرَفة.

(١) كذا فى الأصل "بنت فريع". وذكر فى تاج العروس فى مادة زبب أنها بنت عمرو بن الظرب وأن آسمها بارعة أو ميسون أو نابلة. فتنبه.

ثم يُدخَل من الإيوان إلى قبّة، ثلاثون ذراعا فى ثلاثين ذراعا، جُدُرها مموّهة بالذهب والفضة. وفى صدر القُبّة مِنبر من الآبنوس المرصّع بالعاج، المصفّح بالذهب والفضة. ولما تم بناؤها، خرج رجلٌ من بنى كنانة فقعد فيها ليْلا (أى أحدث)، فأغضب أبرهةَ ذلك، فحلف ليهدِمنّ الكعبةَ، فخرج بجيشٍ كثيفٍ من الحبشة، فكان من أمره ما قصه الله تعالى فى كتابه العزيز فى سورة النمل: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وذُكر لى أن الذى خرّبها العباسُ بن الربيع بن عبد الله العامرىّ، عامل المنصور على اليمن.

ومن المبانى المشهورة قنطرة صَنْجَة

وهى من مبانى الروم على نهر عظيم يسمّى بهذا الاسم، يصُبّ فى الفُرات، لا يمكن خوضه: لأن قراره رمل سائل متى وطئه الإنسان برجله سال. وهو ما بين حِصن منصور وكَيْسوم من ديار بكر.

وهذه القنطرة طاقٌ واحد، ما بين جُدْرانها مائةُ خطوة. وهى مبنية بحجارة مهندَمة، طول الحجر منها عشرة أذرع فى ارتفاع خمسة أذرع.

ومن المبانى القديمة ملْعبا بعلبك

وهما كبير وصغير.

فالكبير، يُحكى أنه من بناء سُليمان بن داود عليهما السلام. وهو مبنىّ على عَمَد شاهقة. وحجارتُه منها ما هو عشرة أذرع وأكثر.

(١٣٣) والمَلْعَب الصغير تهدّم أكثره، وبقى منه حائط طوله عشرون ذراعا وآرتفاعه كذلك. ليس فيه إلا سبعة أحجار: واحد من أسفله، وحجران فوقه، وأربعة أحجار فوقهما.

ويقال إنه البيت الذى كان فيه الصنم الذى كان يدعى "بعلا".

ذكر مبانى العرب المشهورة

وهى غُمْدان، وحصن تَيْما، والخوَرْنَق، والسَّدِير، والغَرِيَّان.

قال الجاحظ: أحبّت العرب أن تشارك الفرس فى البناء وتنفرِد بالشعر، فبنَوْا: غُمْدان، وكعبة نجْران، وحِصن مارِد، والأبْلَق الفردَ.

فأما غُمْدان

فكان بصنعاء. زعم بعض المؤرّخين أن بانيــه حام بن نوح. وزعم آخرون أن بيوراسب بناه على آسم الزُّهَرة.

وقال آبن هشام إن الذى أسسه يَعْرُب بن قَحْطان، وأكمله بعده وائلُ بنُ حِمْير آبن سبإ بن يعرب. وخرّبه عثمانُ بن عَفّان، رضى الله عنه.

وقيل فى صــفته إنه كان مُرَبَّعا، أحدُ أركانه مبنىّ بالرخام الأبيض، والثانى بالرُّخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع بالرُّخام الأحمر. وفيه سبعة سُقُوف طِباقًا، ما بين السَّقْف والآخر خمسون ذراعا. وعلى كل ركن تِمْثالُ أسدٍ من نُحاس، إذا هبّت الريح دخلت من دُبُرِه وخرجت مِنْ فيه، فيسمعُ لها صوت كزَئير الأسد.

وقال آبن الكلبىّ: كان على كل ركن من أركان غُمْدان مكتوب "اسلَمْ غُمدانُ، مُعاديك مقتولٌ بسيف العُدْوانْ".

ويقال : إن سليمان بن داود عليهما السلام أمر الشياطينَ أن يبنُوا لِبلْقِيس أربعة قصور : غُمْدان، وصِرْواح، وبَيْنُون، وسَلْحِين . وكلُّها باليمن .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال : لا يستقيمُ أمر العرَب ما دام فيها غُمْدانها . وهذا القول هو الذى حضَّ عثمان على هدمه .

ويقال إن آثاره باقية إلى عصرنا هذا، وإنه تلٌّ عالٍ مطلٌّ على صنعاء .

وأما حصن تَيْمـاءَ

فهو الأبلَقُ الفَرْد . سُمّى بالأبلق الفرد لأنه كان مبنيا بحجارة مختلفة الألوان وهو بأرض تَيْمـاء .

بناه السَمَوْءل بن عاديا اليهودىّ . ويقال إنه من بناء سليمان بن داود عليه السلام .

وبه تضرب العربُ المَثَل فى المَنَعة والحَصَانة . وفيه يقول الشاعر :

طَلَبَ الأبلَقَ العَقُوقَ فلمَّا ✻ لم يَنَلْهُ فرام بَيْضَ الأَنُوقِ .

وقصدت الزَّبَّاءُ هذا الحصن وحِصْنَ مارِدٍ فلم تقدر عليهما . فقالت : "تمرَّدَ ماردٌ وعَزَّ الأبلَقُ" .

ومارد حصن كان بدُومَة الجَنْدل، مبنىّ بحجارةٍ سود . ويقال إنه أيضا من بناء السموءل بن عاديا، اليهودىّ .

وأما الخَوَرْنَق والسَّدير

فكان الخورنق على ثلاثة أميال من الحِيرة، والسَّدِير فى برِّيةٍ بالقُرْب منها .

بناهما النعمان بن آمرئ القيس، وهو النعمان الأكبر . ويقال فى سبب بنائه لهما : ان يَزْدَجُرْد بن سابور كان لا يَعيش له ولد، فسأل عن مكانٍ صحيح الهواء، فذكر له

ظَهْرُ الحيرة . فدفع آبنــه بهْرام جُور إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق . فبناه على نهر سنداد فى عشرين سنة . بناه له رجل يسمّى سِنِمّار .

فلما فرغ من بنائه، عَجِب النُّعمانُ من حسن بنائه وإتقانه، فأمر أن يلقى سِنِمّار من أعلاه حتّى لا يبنِيَ مثله لأحد . ويقال إنه إنمــا فعل ذلك به لأنه لمــا أعجبه، شَكَره على عمله ووَصَله . فقال : لو علمتُ أن الملك يحسن إلىّ هــذا الإحسان، لبنيتُ له بناء يَدُور مع الشمس كيفما دارت ؛ فقــال له النعمان : وإنك لتقدِر على أن تبنِيَ أفضل منه، ولم تبنه ؟ فأمر به، فطُرِح من أعلاه .

وقيل : بل قال : أنا أعرف فيه حجرا متى أُخذ من موضعه، تداعى البناء . فخاف النعمان إن هو لم يُنْصِفه فى أجرته فعل ذلك . فقتله .

والعرب تضرب المثل بفعل النُّعمان مع سِنِمَّار فى المكافأة على الفعل الحَسَن بالقبيح، فيقال : جازاه مُجَازاة سِنِمَّار .

وفيه يقول بعض الشعراء :

جَزانِى جَزَاه اللهُ شَــرَّ جَزَائه * جَزَاءَ سِنِمَّارٍ، وما كانَ ذَا ذَنْب.

سوى رفعِه البُنْيانَ عِشْرينَ حِجّةً * يُعَلِّ عليــه بالقَرَامِيدِ والسَّكْبِ.

والخَوَرْنَق تعريب خُورنَقاه[1]، وهو الموضع الذى يؤكَل فيه ويشرَب . والسَّدِير تعريب سادل أى قُبَّة فى ثلاث قِباب متداخلة .

وفى هذه الأبنية يقول الأسود آبن يَعْفُر :

ماذا أُؤَمِّلُ بَعْــدَ آلِ مُحَــرِّقٍ * تَرَكُوا منازِلَهُمْ، وبَعْــدَ إِيادِ؟

أهلِ الخَوَرْنَقِ والسَّــدِيرِ وبارِقٍ * والقَصْرِ ذِى الشُّرُفاتِ من سِنْدادِ.

(١) والأصح خانقاه . (من هامش الأصل) .

وقال عدىّ بن زيد العِبَادىّ :

وتفكَّرْ رَبُّ الخوَرْنقِ إذ أشْـــرف يَوْماً، وَللْهُدى تَفْكيرُ.

سَرّه مُلْكه وكثرةُ ما يَحْـــويهِ والبحرُ مُعْرِضا والسَّدِيرُ.

فَارْعَوى قلْبُه، فقال: فما غِبْـــطة حَىٍّ إلى المَمَات يَصيرُ؟

وأما الغَرِيّانِ (١٣٤)

فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة .

بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء، على جاريتين كانتا قَيْنتيْنِ تغنّيان بين يديه، فماتتا. فأمر بدفنهما وبنى عليهما الغريَّيْنِ .

ويقال إن المنذر غزا الحارث بن أبى شَمِرٍ الغَسَّانىّ. وكان بينهما وقعة على عين أُبَاغ، وهى من أيام العرب المشهورة . فقُتِل للحارث ولدان، وقُتِل المنذر وٱنهزمت جيوشه. فأخذ الحارث ولَدَيْه وحملهما عِدْلين على بعير، وجعل المنذر فوقهما، وقال: "ما العِلَاوة بِدُون العِدْلين" فذهبت مثلا. ثم رحل إلى الحيرة فأنتهبها وحَرَّقها ودفن ٱبنيه بها، وبنى الغَرِيَّين عليهما . حكاه ٱبن الأثير فى تاريخه "الكامل" .

وأمر المنصور بهدم أحدهما. لكنز توهَّم أنه تحتهما . فلم يجد شيئا .

وقيل فى سبب بنائهما غير ذلك . والله أعلم .

ذكر الأبنية القديمة التى بالديار المصرية

وهى الأهرام، وحائط العَجُوز، ومَلْعب أَنْصِنا، ومدينة عَيْنِ شَمْس، والبَرابى، وحَنِيَّة اللازَوَرد، ومنارة الإسكندرية، ورُواق الإسكندرانيِّين .

فأما الأهرام

التى بأرض مصر فهى كثيرة . وأعظمها الهَرَمان اللذان بالجيزة غَرْبىّ مصر . وقد آختلف فى بانيهما .

فقال قوم : بانيهما سُورِيد بن سهلوق بن سرناق . بناهما قبل الطوفان لرؤيا رآها، فقصَّها على الكَهَنة، فنظروا فيما تدل عليه الكواكب النيرة من أحداث تحدث فى العالم، فأقاموا مراكزها فى وقت المسألة . فدلت على أنها نازلة من السماء تحيط بوجه الأرض . فأمر حينئذ ببناء البَرَابى والأهرام، وصوّر فيها صُور الكواكب ودَرَجها وما لها من الأعمال وأسرار الطبائع والنواميس وعمل الصنعة .

ويقال إن هرمس المثلث بالحكمة (وهو الذى يسميه العبرانيون أَخْنُخ، وهو إدريس عليه السلام) آستدلّ من أحوال الكواكب على كَوْن الطوفان . فأمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائفَ العلوم وما يُخاف عليه الذهابُ والدُّثور .

وكل هَرَم منها مربع القاعدة، مخروط الشكل، آرتفاع عموده ثلثمائة ذراع وسبعة عشر ذراعا، يحيط به أربعة سطوح متساوياتُ الأضلاع، كل ضِلَع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا، ويرتفع إلى أن يكون سطحُه مقدارَ ستة أذرع فى مثلها .

ويقال إنه كان عليه حجر شبه المِكَبَّة فرمته الرياح العواصف .

وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة وإتقان الهندسة وحسن التقدير بحيث إنه لم يتأثر إلى يومنا هذا بعصف الرياح وهطل الأمطار وزَعْزَعة الزلازل، وطولُ الحجر منه خمسة أذرع فى سَمْك ذراعين .

و يقال إن بانيهما جعل لهما أبوابا على آزاجٍ مبنيةٍ بالحجارة فى الأرض ، طول كل أَزَجٍ منها عشرون ذراعا . وكل باب من حجر واحد يدور بلولب ، إذا أطبق لم يعلم أحد أنه باب . فأَزَجُ الشرقىّ منها فى ناحية الجنوب ، وأَزَجُ الغربىّ فى ناحية الغرب . يُدْخَل من كل باب منها إلى سبعة بيوت ، كل بيت منها على آسم كوكب من الكواكب السبعة ؛ وكلها مُقْفلة بأقفال . وحِذاءَ كل بيت منها صنم من ذهب مجوّف ، إحدى يديه على فيه ، وفى جبهته كتابةٌ بالمُسْنَد إذا قرئت آنفتح فوه فتوجد فيه مفاتيح ذلك القفل فيفتح بها .

والقبط يزعمون أنها والهرمَ الصغير الملوّن قبورٌ : فالهرم الشرقىّ فيه سوريد الملك ، وفى الهرم الغربىّ أخوه هوجيت(١) .

والصابئة تزعم أن أحدها قبر أغاثُذِيمُون ، والآخر قبر هرمس ؛ والملوّن قبر صاب ابن هرمس ؛ و إليه تنسب الصابئة على قول من زعم ذلك منهم ؛ وهم يحجّون إليها ويذبحون عندها الدِّيَكةَ والعجول السُّودَ ، ويُبَخِّرون بدُخَن ؛ و يزعمون أنهم يعرفون عند آضطراب ما يذبحون حالةَ الذبح ما يريدن عمله من الأمور الطبيعية .

وقَصُرت هممُ الملوك والخلفاء عن معرفة مافى هذين الهرمين ، إلى أن وَلِى عبد الله المأمون الخلافةَ وورد مصر ، أمر بفتح واحد منها . ففتح بعد عناء طويل ، وآتفق لسعادته أنه وقع النَّقب على مكان يسلك منه إلى الغرض المطلوب ، وهو زَلَّاقة ضيقة من الحجر الصوّان المانع الذى لا يعمل فيه الحديد ، بين حاجزين ملتصقين بالحائط قد نُقِر فى الزَّلَّاقة حُفَر ، يتمسك السالك بتلك الحفر ، و يستعين بها

(١) كذا بالأصل وكذلك فى خطط المقريزى . وفى ياقوت "هوجيب" .

على المشى فى الزَّلَّاقة لئلا يَزْلَق ، وأسفل الزلاقة بئر عظيمة بعيدة القعر . ويقال إن أسفل البئر أبواب يُدْخَل منها إلى مواضع كثيرة و بيوت ومخادع وعجائب . وآنتهت بهم الزَّلَّاقة إلى موضع مربَّع فى وسَطه حوض من حجر صَلْد مغطًى. فلما كُشِف عنه غطاؤه، لم يوجَدْ فيه إلا رِمّة بالية. فأمر المأمون بالكف عما سواه.

(١٣٥) وهذا الموضع يدخله الناس إلى وقتنا هذا .

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر الأهرام عند ذكرنا لأخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان و بعده، وذلك فى الباب الثانى من القسم الرابع من الفن الخامس، وهو فى السفر الثانى عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك .

وقال بعض أهل النظر، وقد عاين الأهرام : "كلُّ بناءٍ يُخاف عليه من الدهر، إلا هذا البناء فإنى أخاف على الدهر منه" .

ونظم عمارة اليمنىّ هذا القول، فقال :

خليلىَّ، ما تحتَ السماءِ بَنِيَّةٌ * تُماثِلُ فى إتقانها هَرَمَىْ مِصْرِ!
بناءٌ يَخافُ الدهرُ منه، وكلُّ ما * على ظاهرِ الدنيا يَخَاف من الدهْرِ!
تَنَزَّه طَرْفِى فى بَدِيع بنائها، * ولم يتنزَّهْ فى المُراد بها فكرى.

وقال بعض الشعراء :

حَسَرتْ عقولَ ذَوِى النُّهى الأهْرامُ، * وآستصغرتْ لعظيمها الأعْلامُ.
مُلْسٌ مُنَيَّفَةُ البناءِ شواهِقٌ، * قَصُرت لعالٍ دُونَهنّ سِهامُ!
لم أدْرِ حين كَبَا التفكُّرُ دُونَها * وآستَبْهَمَتْ لعجيبها الأوهامُ،
أَقُبورُ أملاكِ الأعاجم هنّ، أمْ * طِلَّسْمُ رَمْلٍ هُنّ، أم أعلامُ؟

وقال أبو الطيّب المتنبي :

أَيْنَ الذى الهَرَمانِ من بُنْيانِهِ؟ * ما قَوْمُه؟ ما يَوْمُه؟ ما المَصْرَعُ؟
تَتَخَلَّفُ الآثارُ عن أصحابِها * حِينًا. ويُدْرِكُها الفَناءُ فتَتْبَعُ.

وقال أُميّة بن عبد العزيز الأندلسيّ :

بعَيْشِكَ هل أبصَرْتَ أحْسَنَ مَنْظَرًا * على طُولِ ما عايَنْتَ من هَرَمَىْ مِصْرِ؟
أنافَا بأعْنانِ السّماءِ وأشْرَفَا * على الجوِّ إشرافَ السِّماكِ أوِ النَّسْرِ.
وقد وافَيَا نَشْزًا من الأرضِ عاليًا * كأنّهما ثَدْيانِ قاما على صَدْرِ.

وقال آخر :

أُنْظُرْ إلى الهرمَيْنِ إذ بَرَزَا * للعَيْنِ فى عُلْوٍ وفى صَعَدِ!
وكأنّما الأرضُ العَرِيضةُ إذ * ظَمِئَتْ لفَرْطِ الحَرِّ والوَمَدِ.
حَسَرَتْ عن الثَّدْيَيْنِ بارِزةً * تَدْعُو الإلهَ لفُرْقَةِ الوَلَدِ.
فأجابها: لَبَّيْكِ! يُوسِعُها * رِيًّا ويَشْفِيها من الكَمَدِ.

وقال ابن الساعاتيّ :

ومن العجائبِ، والعجائبُ جَمّةٌ * دَقَّتْ عن الإكثارِ والإسْهابِ.
هَرَمانِ قد هَرِمَ الزمانُ وأدبَرَتْ * أيّامُه، وتَزِيدُ حُسْنَ شَبابِ.
لله! أىُّ بَنِيَّةٍ أزَلِيَّةٍ * تَبْغِى السّماءَ بأطولِ الأسْبابِ؟
ولُرُبَّما وقفَتْ وُقوفَ تَبَلُّدٍ * أسَفًا على الأيّامِ والأحْقابِ.
كَتَمَتْ عن الأسماعِ فَصْلَ خِطابِها * وغدَتْ تُشِيرُ به إلى الألْبابِ.

وقال سيف الدين بن جُبارة :

لله! أىُّ غريبــةٍ وعجيبــةٍ * فى صَــنْعة الأَهْرام للألباب؟
أخفَتْ عن الأسماعِ قِصّةَ أهلها، * ونَضَتْ عن الإبْداعِ كلَّ نِقابِ.
فكأنَّمــا هى كالخِيام مُقامــةً * من غير ما عَمَــدٍ ولا أطْنابِ.

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزرىّ فى ذكر مصر ووصف الأهرام، جاء منها: بلدٌ أشهَدُ بفضله على البِلاد، ووجدتُه هو المصرَ وما عداه فهو السَّواد . فما رآه راءٍ إلا ملأ عينَه وصدرَه، ولا وصفه واصف إلا علم أنه لم يقدُرْه قَدْره . وبه عجائبُ من الآثار، لا يضْبطها العِيَانِ ولا الإخبار . فمن ذلك الهَرَمان، اللذان هَرِم الدهرُ وهما لا يَهْرَمان؛ قد آختص كل منهما بعظمِ البِناء، وسَعةِ الفِناء، وبلغ من الآرتفاع غايةً لا يبلغها الطيرُ على بُعْد تحليقه، ولا يُدرِكها الطَّرْف على مدّة تحديقه؛ فإذا أُضْرِم برأسه قَبَسٌ ظنه المتأمل نجما، وإذا آستدارت عليه قوسُ السماء كان لها سَهْما» .

(١٣٦) وبالقرب من الأهرام صنم على صورة إنسان، تسميه العامة "أبو الهول" لعظمه . والقبط يزعمون أنه طِلَّسم للرمل الذى هنالك لئلا يغلب على أرض الجيزة .

وأما حائط العجوز

والعجوز هى دَلُوكا ملكة مصر .

وهذا الحائط من العريش (وهو حدّ مصر من جهة الشام) إلى أسوان (وهى حدّ مصر من جهة النوبة)، شاملا للديار المصرية من الجانب الشرقىّ .

وزعمت القبط أنّ سبب بنائها أن الله عز وجل لمـا أغرق فرعونَ وقومه، خافت دَلُوكا على مصر أن يطمع الملوكُ فيها . فبنته . وزوّجت النساءَ بالعبيد حتّى يكثر النَّسل والذرية .

وقيل فى سبب بنائه : إن دَلُوكا ولدت ولدا فأخذت لمولده رصدا ، فرأت أن التمساح يقتُله ، فبنت هـذا الحائط وقايةً له من التِّمساح . فلما شبّ الغلام رأى فى مولده ذلك ، فأحب أن يراه . فصُوِّر له من خشب . فلما رآه ، هاله منْظَرُه وآستولى على نفسه الوهم والفزع، فمات[1] .

وأما ملعب أنْصِنا

فإنه كان مقياسا للنيل .

ويقال: إنه من بناء دَلُوكا . وكان بناؤه كالطَّيْلسان، وعليه أعمدةٌ بعدد أيام السنة من الصوّان الأحمر الماتع، بين العمود والعمود خَطْوة . وكان النيل يدخل إليه من فُوهَةٍ فيه عند زيادة النيل . فاذا بلغ الحدّ الذى يحصُل به الرِّىّ ، جلس الملك فى مُشْترف له ، ويصعد قوم إلى رءوس الأعمدة فيتعادَوْن عليها مابين ذاهب وآت . فمن زلّت به قدمه منهم، سقط إلى البِرْكة .

وأما مدينة عين شمس

فهى من المبانى التى دَرَسَتْ .

وكانت مصرَ فرعونِ موسى، ومنها خرج بجنوده فى طلب موسى و بنى إسرائيل؛ وكانت عدّتهم ستمائة ألف ، ليس فيهم آبن عشرين سنة ولا آبن ستين سنة . وآستقلّ فرعون هـذا العدد وقال كما أخبر الله تعالى عنه : (إنَّ هٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) .

وكان بها هيكل الشمس خرِب .

(١) لم يرض آبن فضل الله بذكر هذه الخرافة فى كتابه . وقد وصف لنا جزءا من هذا السور (أنظر مسالك الأبصار المطبوع ، ج ١ ص ٢٣٩) .

والقُرس تزعم أن هرميك بناها .

و يقال : إنه كان قد بقى منها عمودان من حجر صلد، فكانَ طول كل عمود منهما أربعة وثمانون ذراعا ، على رأس كل عمود صورةُ إنسان على دابة ، وعلى رأسيهما شبهُ الصومعتين من نحاس. فإذا كان (النيل)، قَطَر من رأس كل واحد منهما ماء لايتجاوز نصف العمود الذى هو مركب عليه . والموضع الذى يصل إليه الماء لايزال أخضر رطبا .

وقد وقع العمودان بعد الخمسين وستمائة .

وأما البرابى

وهى بيوت حكمة القبط . و يقال : إنه كان لكل كُورة من كُوَر مصر بِرْباة، يجلس فيها كاهن على كرسى من ذهب .

ومن أعجب البرابى وأعظمها (برباةُ إخميم) . وهى مبنية بحجر المَرْمر، طول كل حجر خمسة أذرع فى سَمك ذراعين . وهى سبعة دهاليز، سقوفها حجارة، طول كل حجر منها ثمانية عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع، مدهونة باللازَورد وسائر الاصباغ، يخالها الناظر إليها كأنما فَرغ الدهّان منها . يقال إن كل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة . وجُدْران هذه الدهاليز منقوشة بصُوَر مختلفة الهيئات والمقادير، يقال إنها رموز على علوم القبط ، وهى : الكيمياء، والسيمياء، والطلّسمات، والطب . أودعوها هذه الصور .

ويقال إن ذا النون المصرىّ العابد فكّ منها علم الكيمياء .

وأما حَنِيَّة اللازورد

وهى بأرض مَنْف. ومَنْف هذه هى التى تسمّى مصر القديمة.

يقال إن عَقْد الحَنِيَّة أحسنُ من عَقْد قنطرة صَنْجَة التى تقدّم ذكرها. والحَنِيَّة معقودة من حجارة مهندمة، طولُ كل حجر منها أكثر من خمسة عشرَ ذراعا. وفيها نقوش وكتابة وطِلَّسْمات مموّهة باللّازورد. وهى من الشرق إلى الغرب، وفى صدرها فَضَاء فيه بناء مرتفع، عليه بَلَاطةٌ من الصوّان الأسود، مكتوب فيها بالقلم البِرْباوى ثلاثون سطرا. يقال إنه قبر الذى بنى الحَنِيَّة. وأنه دِيساره: ملك كان بمصر، حكيمٌ.

وللقبط عيد يسمّى ديساره: وهو عيد هذا الملك. ويسمّى عيد العنب.

وأما منارة الإسكندرية

فهى مبنية بحجارة مهندمة مضَبَّبة بالرصاص، على قناطر من زجاج، والقناطر على ظهر سَرَطان من نحاس. وفيها نحو ثلثمائة بيت بعضُها فوق بعض، تصعدُ الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها. وللبيوت طاقات يُنْظر منها إلى البحر.

وبين أهلِ التاريخ خلافٌ فيمَن بناها.

فزعم بعضُهم أنها من بناء الإسكندر بن فيلبّس المَقْدونىّ. وزعم آخرون أنها من بناء دَلُوكا، ملكة مصر. ويقال إن على جانبها الشرقىّ كتابةً، وإنها نقلت إلى اللسان العربىّ فوجدت "بَنَتْ هذه القنطرة فرتنا بنت مرتيوس اليونانية لرصد الكواكب". (١٣٧)

ويقال: إن طولها كان ألف ذراع.

وكان فى أعلاها تماثيل من نحاس.

منها تمثال قد أشار بسبابته اليمنى نحو الشمس: أينما كانت من الفلك، يدور معها حيثما دارت.

ومنها تمثال وجهه فى البحر متى صار العدو منهم على نحو من ليلة، سُمِعَ له صوت هائل يعلَم به أهل المدينة طُروقَ العدو.

ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة، صوّت صوتا مطربا.

ويقال: إنه كان بأعلاها مرآة تُرى منها قُسْطنطينيّة، وبينهما عرض البحر. وكلما جهز الروم جيشا رؤى فى المرآة.

وحكى المسعودى فى "مروج الذهب" أن هذه المنارة كانت فى وسط الإسكندرية، وأنها تعد من بناء العالَم العجيب، بناها بعض البَطالسة من ملوك اليونان يقال له الإسكندر، لمَا كان بينهم وبين الروم من الحروب فى البرّ والبحر. فجعلوا هذه المنارة مَرْقَبا، وجعلوا فى أعلاها مِرْآة من الأحجار المُشِفَّة، تشاهَد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رُومِيَة على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها.

ولم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون، فاحتال ملك الروم على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خَواصّه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب فى الإسلام. فوصل إلى الوليد وأظهر الإسلام، وأخرج كنوزا ودفائن كانت فى الشام حملت الوليد على تصديقه فيما يدعيه. ثم قال له: إن تحت المنارة أموالا ودفائنَ وأسلحة، دفنها الإسكندر. فصدّقه وجهّزه مع جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية، فهدم ثلث

المنارة وأزال المِرْآة ، ثم فطن الناس أنها مكيدة ، فاستشعر ذلك فهرب في مركب كانت معدّة له . ثم بُنِيَ ما هُدِم بالجص والآجُرّ .

ثم قال المسعودىّ : وطول المنارة فى هذا الوقت (يعنى الوقت الذى وضع فيه كتابه ، وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة) مائتان وثلاثون ذراعا . وكان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع .

وهى فى عصرنا هذا ثلاثة أشكال : فمنها تقدير الثلث مربع مبنىّ بالحجارة ، ثم بعد ذلك بناء مُثَمَّنُ الشكل بالآجُرّ والجص نحو ستين ذراعا ، وأعلاها مدوّر الشكل .

ويقال إن أحمد بن طولون بنى فى أعلاها قبة من الخشب فهدمتها الرياح . فبنى فى مكانها مسجدا فى الدولة الظاهرية الركنية بيبرس صاحب مصر رحمه الله تعالى . ثم هُدِم فى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة بسبب الزَّلزلة الحادثة . ثم بنى فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة فى دولة السلطان الملك الناصر ولد السلطان الملك المنصور، ثبت الله دولته ، وكان المندوب لذلك الأميرَ ركنَ الدين بيبرس الدَّوادار المنصورىّ ، نائب السلطنة الشريفة فى الغيبة .

وقد وصف الشعراء منارة الإسكندرية .

فمن ذلك ما قاله الوجيه الدروىّ :

وساميةِ الأرجاءِ تُهدى أخا السُّرى * ضياءً، إذا ما حِنْدِسُ الليلِ أظْلَما .
لبِسْتُ لها بُرْدا من الأُنْسِ ضافيا * فكانَ بتَذْكارِ الأحِبَّةِ مُعْلَما .
وقد ظلّلتْنِي من ذُراها بقُبَّةٍ * أُلاحِظُ فيها من صِحَابِيَ أنجُما .
تُخُيِّلْتُ أنَّ البحرَ تحتي غمامةٌ * وأنّيَ قد خَيَّمْتُ فى كَبِدِ السَّما !

وقال أبو الفتح الأغر بن قلاقس :

وَمُـنْزِلٍ جاوَزَ الجَوْزاءَ مُرْتقيا * كأنَّما فيه للنَّسرين أوكارُ
راسي القَرارةِ سامي الفَرْعِ في يدِه * للنُّور والنُّون أخبارٌ وأخبارُ (١)
أطلقتُ فيه عِنانَ القولِ فاطَّردتْ * خيلٌ لها في بديع الشِّعرِ مضمارُ

وأما رواق الإسكندرانيين

فهو ملعب كان بالإسكندرية .

كانوا حكماء يجتمعون فيه فلا يرى أحد منهم شيئا دون الآخر ، ووجهُ كل واحد منهم — وإن اختلفت جهاتُهم — تلقاء وجه الآخَرِ . وإن عمل أحد منهم شيئا أو تكلم ، سمعه الآخَر . ونظرُ القريبِ والبعيدِ فيه سواءٌ .

وقد بقيت منه بقايا عُمُد تكسرت ، غير عمود منها يسمى عمود السَّوارى فى غاية الطول والغلظ من الحجر الصوَّان الأحمر .

ذكر شىء من عجائب المبانى

قال صاحب كتاب " مباهج الفكر ومناهج العبر " :

(١٣٨) ذكر بعض المصنفين لكتب العجائب ، أن الفرس تزعم أن أوشهنج بنى بأرض بابل سبع مدائن ، جعل فى كل مدينة منها أعجوبة ليست فى الأخرى .

---

(١) هكذا فى الأصل . وفى بدائع البداءة " أخبار وآثار " وفى مسالك الأبصار " إخبار وأخبار " وهذا الوجه الأخير أولى ويكون المعنى أن هذه المنارة تخبر عن المراكب المقبلة القادمة الى الإسكندرية وأن فيها أخبارا عن السمك السابح فى البحر حولها .

فكان فى الأولى — التى يكون فيها الملك — مثالُ أنهار الدنيا كلّها . فإذا آلتوى عليه أحد من أهل مملكته بخراجهم ، تخرّج نهرا من تلك الأنهار الشبيهة بنهر تلك الناحية فتَرِقوا. فإذا أدّوا الخراجَ، سدّ عليهم من عنده فانسدّ عنهم .

وفى الثانية حوض . فإذا أراد الملك أن يجمع الناس لشراب، أتى من أحبّ منهم بشراب له خاص فيصبه فى الحوض . يفعل ذلك كل إنسان منهم ، فيختلط الجميع. ثم تقوم السُّقاة فتأخذ الأوانى ويُسْقى كلُّ واحد من شرابه الذى جاء به .

وفى الثالثة طبل . فإذا غاب من البلد أحد وأراد أهله أن يعلموا خبره ، أحىّ هو أو ميت ، ضربوا الطبلَ : فإن كان حيا صوّت، و إن كان ميتا لم يصوّت .

وفى الرابعة المِرْآة . فإذا غاب الرجل عن أهله وأرادوا أن يعلموا حالَه ، نظروا فى المِرْآة فرأَوْه فى الحالة التى هو عليها .

وفى الخامسة إوَزّةُ نُحاسٍ . فإذا دخل المدينة غريب، صَفَّرت. فيعلمون أن غريبا دخلها .

وفى السادسة قاضيان جالسان على الماء . فيجىء المُحِقّ والمُبْطِل ليجلسا معهما . فيجلس المحق، و يرسب المبطل .

وفى السابعة شجرة . لا تظل إلا ساقها . فإذا جلس تحتها واحد أظلته إلى ألف . فإن زاد على الألف واحد، قعدوا كلهم فى الشمس .

وكنتُ قد أنكرت هذه الحكاية وقصدت حذفها وإلغاءها والإضراب عنها. فرأيت آبن الجوزى وضعها فى كتابه الذى سماه "سلوة الأحزان" فأوردتُها .

وحكى أنه كان بمدينة قَيْسارِيّة — لما كانت فى أيدى الروم — كنيسةٌ بها مرآة. إذا آتهم الرجلُ آمرأته بزنًا، نظر فى تلك المرآة، فيرى وجه المتّهم فيها. وأن بعض الناس آتُّهم فرأوه فيها فقتله الملك، فجاء أهله إلى المرآة حِيلةً فكسروها.

وحكى الواقدىّ فى فتوح السند: أن عبد الله العبدىّ عامل معاوية على السند غزا بلد القِيقَان، فأصاب منهم غنائمَ كثيرةً، وأن ملك القيقان بعث إليه يطلب منه الفداء وحمل إليه هَدايَا كان فيها قطعة من مِرْآة، يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها على آدم عليه السلام، لما كَثُر ولده وآنتشروا فى الأرض، فكان ينظر فيها فيرى من بَعُدَ منهم على الحالة التى هو عليها من خير أو شر، فحملها عبد الله إلى معاوية، فبقيت فى ذخائر بنى أمية إلى أن آنتقل الملك عنهم إلى بنى العباس، فضاعت فيما فُقِد من الذخائر.(1)

وقيل: إن بِنَهاوَنْد حجرا يسمّى الكِلان، بالقرب منه صخرة، من أراد أن يتعرّف حال غائب أو آبق أو سارق، أتى إلى تلك الصخرة فنام تحتها، فيرى فى النوم حال ما تَعرف به على ما هو عليه. وعجائب المبانى كثيرة، سنذكر إن شاء الله تعالى منها جملة فى أخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده، فتأمله هناك تجده.

---

(1) بهامش الأصل ما نصه: "قد ذكر أبو جعفر الطبرى فى تاريخه أن هذه المرآة كانت عند أبى جعفر المنصور فالله أعلم أين صارت بعده".

الباب الرابع
من القسم الخامس من الفن الأوّل
(فيما وصفت به المعاقل والحصون)

وهذا الباب قد ترجمتُ عليه فى الفن الثانى الذى يلى هـذا الفن فيما يحتاج إليه الملك . و إنما ضممتُه إلى هذا الفن لمناسبته له وشَبَهه به ، وآستثنيته من الفن الثانى وآقتصرت فيه على مجرّد الترجمة . و بالله التوفيق .

وقد أوسع الفضلاء والأدباء والكتّاب والبلغاء القولَ فى هذا المعنى وتواردُوا فيه ، فاقتصرنا على مانورده من ذلك ، وهو قليل من كثير .

فن ذلك ما قاله بعض الأندلسيين يصف قلعة فتحت من غير حصار :

« ... وهـذه القلعةُ التى آنتهينا إلى قرارها ، وآستولَيْنا على أقطارها ، أرحبُ المدن أمدا للعيون ، وأخصبها بَلَدا إذا أَمْحلَت السّنون ، فُرُوعها فوق الثُّريَّا شامخه ، وعروقها تحت الثَّرى راسخه ، تباهى بأزهارها نجوم السماء ، وتُناجى بأسرارها أُذُنَ الجوزاء ، وكانت فى الزمن الغابر ، عتَتْ على عظيم القياصر ، فنازلَهَا بأكثر من النجوم عددا ، وطاولها بأوفى من البحر مَدَدا ، فأبتْ على طاعته كلَّ الإباء ، وآستعصَتْ على مقارعته أشدَّ آستعصاء ، ومَرَدتْ مرود ماردٍ على الزَّباء ، فأمكننا الله من ذِرْوتها ، وأنزل رُكّابَها لنا عن صهْوتها » .

وقال القاضى الفاضل عبدالرحيم البيسانى رحمه الله ، يصف آمِدَ من رسالة جاء منها :

« ... وآمِدُ ذِكْرها بين العالَم متعالَم ، وطالما صادَمَ جانبُها مَنْ تقادَم ، فرجع عنها مَقْدوعا أنفُه و إن كان فحلا ، وفرّ عَنْها فَريدا بهمّه و إن آستصحب خيلا ورَجْلا ،

(١٣٩) ورأى حجرها فقدّر أنه لا يُفَكُّ له حَجْر، وسوادَها فظنّ أنه لا ينسخه فجر، وحَمِيَّةَ أنف أنفها فاعتقد أنه لا يستجيب لزَجْر؛ من ملوك كأنهم قد طوى صدْرَه على الغليل إلى مَوْرِدها، ووقف وقفة المحب السائل فلم يفُزْ بما أمّل من سؤال مَعْهَدها» .

وقال من أخرى يصفها :

« ... وهى العقيلة التى صَدَرُ الصُّدورِ الأُوَلِ مُحَلَّأً عن وِرْدها، والطريدة التى حصل منها على راحة يأسه وتعب طَرْدها ؛ والمحجَّبة التى كُشِفتْ ستورُها، ودار لعِصْمتها كِسوار مِعْصَمِها سُورُها ، وغلَتْ على أنها السوداء على خُطَّابها لأن المُهَجَ مُهورُها ؛ ولربما نأى بجانبها الإعراض، ونبا جوهرُها عن الأَعْراض. وطاشَتْ دون أوصافها سِهام الأغراض ؛ ودرَجتِ الملوك على حسرتها فلم تحْسِر لها لِثاما، وما آستطاعت لثغرها لَثْما ولا له الْتِثاما» .

وقال من أخرى يصف قلعة نَجْم، وهى من عيون الرسائل، جاء منها :

« ... هى نَجْم فى سَحَاب، وعُقَاب فى عِقاب؛ وهامة لها الغمامة عِمَامه، وأنملة إذا خَضَبها الأصيلُ كان الهلال لها قُلَامه ؛ عاقدةٌ حُبوةً صالحَها الدهرُ أن لا يَحُلَّها بقَرْعه ، بادية عصمة صالحَها الزمن على أن لا يروِّعها بخُلْعه ؛ فاكتنفَتْ بها عقاربُ منجنيقات لم تُطْبِع طَبْعَ حِمْصَ فى العقارب ، وضربتها بحجارة أظهرتْ فيها العَدَاوة المعلومة فى الأقارب ؛ فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثَّرتْ فيها الحجارةُ جُدَرِيًّا بضربها ، ولم يصل إلى السابعة إلا والبحرُ مؤذِن بنَقْبها ؛ فاتسعَ الخرقُ على الراقع ، وسقط سعده عن الطالع ، إلى مولد من هو إليها طالع ؛ وفُتِحت الأبراج فكانت أبوابا ، وسُيِّرت الجبال فكانت سرَابا» .

وقال من أخرى فى فتح بيت المقدس، جاء منها :

« ... زاوَلَ المدينـــةَ من جانب ، فاذا هو أودِيَةٌ عميقة : ولُجَجُ وَعْرٍ غريقة ؛ وسور قد انعطف عَطْفَ السِّوار، وأبْرِجة قد نزَلت مكانَ الواسطةِ من عُقْر الدار؛ وقدّم المَنْجنيقات التى تتولّى عِقابَ الحصون عِصيّها وحبالُهـا ، وأوتر لهم قِسيّها التى تَضْرب ولاتفارق سهامَها ولاسهامَها نِصالُها ؛ فصافحت السُّور فإذا سهامُها فى ثنَايا شُرُفاتها سِوَاك ، وقدّم النصر بشرى من المنجنيق تُخْـلِد إخلاده إلى الأرض وتعلو عُلُوّه إلى السِّماك ؛ فشَــجّ مَرَابع أبراجها ، وأسمَعَ صـــوتَ عجيجها ، ورفع مَثَــار عَجَاجها ؛ وأســفَرَ النُّقّاب عن الخَراب النِّقاب ، وأعاد الحجر إلى خِلْقته الأولى من التُّراب ؛ ومَضَــغ سَرْد حجارته بأنيابِ معْوله ، وأظهر من صناعته الكثيفةِ مايدلُّ على لَطَافة أنمله ، وأسمع الصخرةَ الشريفة أنِينَه إلى أن كادت ترقُّ لمقتله » .

وقال أيضا من أخرى :

« ... فنصبْنا عليهــا المَنْجنيقاتِ تمطر سمــاؤُها نَبْلَ الوَبَال ، وتملأ ارضَها بالنِّكاية والنَّكال ، وتهدّ بسارِيَات حجارتها راسِيَاتِ الجبال ؛ وتُنْزِل نوازلَ الأسْواء بالأسوار ، وتُوسِع مجالَ الدَّوائر فى الدِّيار ، وتَخْطَف بخُطّافاتها أعمارَ الأغْمار ؛ وتُطير حمَامَها بكُتُب الحِمام ، وتديم إغراء سِهامها فى أهلها بتوفير سهام الإرغام ؛ وكَشَفَ النقّابون نِقابَ السُّور المحجوج المحجوب ، فتهدّم بنيانُه ، وتداعت أركانه ، بتظاهر المنجنيقات عليها والنُّقُوب » .

ووصف القاضى الفاضل المنجنيق من رسالة فقال :

« فسلَّمتْ كأنّها بَنَان ، ونضنضت كأنها لسان ، وأطّت كأنها مِرْنان ، واهتزّتْ كأنها جانّ ، وتقوّمت كأنها سِنَان ، وانعطفتْ كأنها عِنَان ، وأقدمت كأنها شُجَاع وأحجمت

كأنها جبان . ورمَتْ رءوسَهم الموقَّرة من أحجارها بأمثال الرءوس المحلّقه، فأعادتهم إلى الخلقة الأولى مخلّقة وغيرَ مخلّقه » .

ووصف النامى المنجنيق فقال :

وحِصْــنِ زيادٍ غُدوةَ السَّبْت نافثاً * سِمَاما، أراكَ آبْنَ الأراقِمِ أرقَـا .
نصبتُ له فى الأرض بَيْتَ حَدِيقةٍ * تُمُـدُّ لهـا فى الجو كَفًّا ومِعْصَما .
لهـا أخَـواتٌ للمنَـايَا كَـوَامِنٌ * وإنْ لم يكن ما أضمَـرَتْه مُكَتَّما .
عَذَارى، ولكن قد وُجِدْن حواملًا * بعُـــرْس تَرَاه للجَنَـادِل مأتمـا .
ترى الصَّخْر فيه الصَّخْرُ وهو نَسِيبه * عَدُوًّا بيـوم أرضُــه تُمْطِر السَّما .
إذا أقْعــدَتْ جُذْرا قياما، رأيتَهَا * تُنَبِّــه قِيعانًا من التُّرب نُوَّما !

ومما وصفت به المعاقل والحصون نظما .

فمن ذلك قول كعب الأشقرى، يصف قلعة :

مُحَلِّقَــةٌ دُونَ السَّماء كأنَّهـا * غمـامةُ صَيْفٍ زالَ عنها سَحَابُها .
ولا يَبْلُغُ الأرْوى شمارِيخَهَا العُلى، * ولا الطَّـيرُ إلا نَسْرُها وعُقابُها .
ولا خُوِّفَتْ بالذِّئْبِ وِلْدانُ أهْلِها، * ولا نَبَحَتْ إلا النُّجُـومَ كِلَابُهـا . (١٤٠)

وقال أبو تمـام، يصف عَمُّورية :

وبَرْزَةُ الوجه قد أعيَتْ رِياضَــتُها * كِسرى وصَدّت صُدُودا عن أبى كَرِب .
بِكْرٌ، فمـا آفترَعتْهـا كَفُّ حادثةٍ * ولا تَرَقَّتْ إليهـا همَّــةُ النُّــوَبِ .
من عَهْد إسكَنْدرٍ أو قَبْل ذاكَ، فقد * شابَتْ نَواصِى اللَّيالِى وهى لم تَشِبِ !

وقال الخالديان :

وخَلْقـاءَ قد تاهَتْ على من يَرُومُهـا * بمَرْقَبِها العـالى وجانِبِهـا الصَّـعبِ .

يَزُرُّ عليها الجَوُّ جَيْبَ غَمَامِه * ويُلْبِسُها عِقْدًا بأنجُمِه الشُّهْبِ.
إذا ما سَرى بَرْقٌ ، بَدَتْ من خِلَالِه * كما لاحتِ العَذْراءُ من خِلَلِ الحُجْبِ.
سَمَوتَ لَها بالرأيِ : يُشْرِق فى الدُّجى ، * ويَقْطَعُ فى الحُلِّ، ويَصْدَعُ فى المَضْبِ.
فأبْرَزْتَها مهتُوكةَ الجيبِ بالقَنا * وغادَرْتَها ملصوقةَ الخَدِّ بالتُّرْبِ!

وقالا أيضا فى قلعة :

وقَلْعةٍ عانَقَ العَيُّوقُ سافِلَها، * وجازَ منطقةَ الجَوْزا أعالِيها.
لا تَعْرِفُ القَطْرَ، إذ كان الغَمامُ لها * أرضًا تَوَطَّأُ قُطْرَيْهِ مَواشِيها.
إذا الغَمامةُ لاحَتْ،خاضَ ساكنُها * حِياضَها قبلَ أنْ تَهْمِى عَزالِيها.
يُعَدُّ من أنْجُمِ الأفلاكِ مَرْقَبُها، * لَوْ أنّه كان يَجْرِى فى مَجارِيها.
على ذُرَى شامِخٍ وَعْرٍ:قد امتلأتْ * كِبْرًا بِهِ، وهو مَمْلُوءٌ بها تِيهًا.
لهُ عِقَابٌ : عُقَابُ الجَوِّ حائمةٌ * من دُونِها، فهى تَخْفَى فى خَوافيها.

وقال أبو بكر الخوارزمى :

وبِكْرٍ تحامَتْها البُعُولُ مَخافةً، * فقد تُرِكَتْ من كَثْرة المَهْرِ أيِّما.
مُمنَّعةٌ لم يَغْلَطِ الدهرُ باسْمِها، * ولم يَرَها فى النَّوْمِ إلا تَوَهُّما.
تَزِلُّ عُقابُ الجَوِّ عن شُرُفاتِها، * وتَبْغِى إلَيْها الرِّيحُ مَرْقًى وسُلَّما!
ويُسْمَعُ فى الأفلاكِ صَيْحةُ دِيكِها، * فتَحْسَبُ دِيكَ العَرْشِ صاحَ تَرَنُّما.
عَجُوزٌ، تُرَى فى صِحَّةِ الجِسْمِ كاعِبًا؛ * ولو أُرِّخَتْ، كانتْ مِنَ الدَّهْرِ أقدَما!
تُوارِى أساسًا بالتُّخُومِ مُؤَزَّرا، * وتُبْرِزُ رأسًا بالنُّجُومِ مُعَمَّما.
تُنازِعُها الأرضَ السَّماءُ وتَدَّعى * لَدَيْها بها حَقًّا لها مُتَهَضَّما.
وتَحْسَبُها زُهْرُ الكواكبِ كَوْكَبًا * هَوَى خَلْفَ شيطانٍ رَجيمٍ، فخَيَّما!

الباب الخامس

من القسم الخامس من الفن الأوّل

(فيما وصفت به القصور والمنازل)

ولنبدأ بذكر ما بناه المتوكل من القُصور وما أُنْفِق عليها، ثم نذكُر ما قيل فى وصفها، وما وُصِفت به المنازل الخالية، وما قيل فى حُبّ الوطن .

فأما قصور المتوكل، فهى : الكامِلُ، والجَعْفَرِىّ، و بركوانا[1]، والعَرُوس، والبِرْكة، والجَوْسَق، والمُختار، والغَرِيب، والبَدِيع، والصَّبِيح، والمَلِيح، والقَصْر، والبُرْج، والمتوكِّلِيَّة، والقُلَّاية .

حكى المؤرّخون أنه أنفق فى بنائها مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار عينا، ومائتا ألف ألف وثمانيةٌ وخمسون ألف ألف وخمسمائة ألف درهم .

قالوا : وكان "البرج" من أحسنها . كان فيه صُوَر عظيمةٌ من الذهب والفضة، و بركةٌ عظيمة غُشِّى ظاهرُها و باطنها بصفَائح الفضة، وجعل عليها شجرةٌ من الذهب فيها طُيُور تصوت وتصَفِّر سماها "طُوبى" بلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار .

وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك قول السرىّ :

مجلِسٌ فى فِناء دِجْلةَ، يَرْتا * حُ إليه الخَليع والمَسْتُورُ.
طائرٌ فى الهواءِ، فالبَرْق يَسْرى * دُونَ أعلاهُ والحَمَامُ يَطِيرُ.
فإذا الغَيْمُ سِر، أُسْبِل منه * حُلَلٌ دون جُدْرِه وسُتُور.
وإذا غارَتِ الكَواكبُ صُبْحا، * فهو الكَوْكَبُ الذى لا يَغُور!

(١) كذا بالأصل . وفى معجم ياقوت "بَزْكُوَار" .

وقال أيضـا :

مَنْزِلٌ كالرَّبيع حَلَّت عليــه * حالِياتُ السَّحاب عقدَ النِّطاق .
يُمْتِع العَيْنَ فى طرائفِ حُسْنٍ * تتحامى بهـا عن الإطْراق .
بيْنَ سـاجٍ كأنَّهُ ذائبُ التِّـبرِ على مِثْـلِ ذائبِ الأَوْراق .

وقال أيضـا :

والقصرُ يَبْسِم عن وجه الضُّحى ، فترى * وجْهَ الضُّحى ـ عنْد ما أبدى له ـ شَحِبا .
يَبِيتُ أعْلاهُ بالجَــوْزاء منْتطِقـا ، * ويَغْتَــدِى بِردَاءِ الغَــيْم محتَجبا !

وقال أبو سعيد الرستمىّ ، يصف دارا بناها الصاحب بن عبَّاد :

وسَامِيَــةِ الأعْلامِ تَلْحَظُ دُونَهـا * سَــنَا النَّجْمِ فى آفاقها مُتَضائِلا .
نَسَخْتَ بها إيوانَ كِسْرى بنِ هُرْمُزٍ ، * فأصبحَ فى أرض المَدائِنِ عاطِلا .
فلو أبصَرَتْ ذاتُ العِمادِ عِمَـادَها ، * لأمسَتْ أعَالِيها حَيـاءً أسافلا .
ولو لحَظَتْ جنَّاتُ تَدْمُرَ حُسْنَها ، * درتْ كيف تَبْنِى بعدَهُنَّ المَجادِلا .
متى تَرَها خِلْتَ السَــماءَ سُرادِقًا * عليهـا وأعْلامَ النُّجومِ تَمـاثِلا .

وقال علىّ بن يوســف الإيادىّ ، يذكر دارا بناها المعز العُبَيدىّ بمصر وسمـاها "العروسين" :

بَنَى مَنْظَرا يُسْمى "العَرُوسَيْنِ" رِفعةً ، * كأنَّ الثُّرَيَّا عَرَّسَتْ فى قِبَـابِهِ .
إذا الليــلُ أخْفاهُ بِحُلْكَةِ لَوْنِه ، * بَدَا ضَوْءُه كالبَـدْرِ تحت سَحَابِه .
تمكَّنَ من سَــعْدِ السُّعود مَحَلُّه ، * فأضحى ومِفْتاحُ الغِنى فَتْحُ بابِهِ .
ولو شَـادَهُ عَــزْمُ المُعِزِّ ورأيُهُ * على قَـدْرِه فى مُلْكِه ونِصَـابِه
لكانَ حَصى اليَاقُوتِ والتِّبْرِ مُفْرَغًا * على المِسْك من آجُرِّه وتُرَابِه .

وقال عبد الجبار بن حمديس الصقلى، يصف دارا بناها المعتمد بن عبّاد من أبيات :

ويا حبّذا دارٌ قضى اللهُ أنّها * يُجدّد فيها كُلّ عِزّ ولا يَبْلى !
وما هيَ إلا خِطّةُ المَلْكِ الّتي * يُحَطُّ إليها كُلُّ ذِى أمَلٍ رَحْلا .
إذا فُتِحَتْ أبوابُها ، خِلْتَ أنّها * تقولُ بترحيبٍ لداخِلِها : أهْلا .
وقد نقلَتْ صُنّاعُها من صِفَاتِهِ * إليها أفانِيناً، فأحسَنَتِ النّقْلا .
فمِن صَدْرِه رُحْبا ، ومن نُورِه سَنًا ، * ومن صِيتِه فَرْعا ، ومن حِلْمِه أصْلا !
فأعلَتْ به فى رُتْبةِ المُلْكِ نادِيًا ، * وقلّ له فوقَ السِّماكَيْنِ أن يُعْلى .
نَسِيتُ بِهِ إيوانَ كِسْرى ، لأنّنِي * أراهُ له مَوْلًى من الحُسن لا مِثْلا .
تَرى الشّمْسَ فيه لِيقَةً تستَمِدُّها * أكُفٌّ ، أقامتْ من تَصاوِيرِها شَكْلا .
لها حَرَكاتٌ أُودِعتْ فى سُكُونِها ، * فما تَبعتْ من نَقْلِهنّ يَدٌ رِجْلا .
ولما عَشِينا من توقّد نُورِها ، * تخِذْنا سَناهُ فى نواظِرِنا كُحْلا .

وقال أيضا من قصيدة يصف فيها دارا بناها المنصور بِبُجاية ، جاء منها :

وآعْمُرْ بقَصْرِ المُلْكِ ناديكَ الّذى * أضحى بمَجْدِك بَيْتُه معْمورًا !
قَصْرٌ لو آنّكَ قد كَحَلْتَ بنُورِه * أعمى ، لعادَ على المَقامِ بصيرا .
وآشتقّ من مَعْنى الحياةِ نَسِيمُه ، * فيكادُ يُحْدِث للعِظام نُشُورا .
فَلَو آنّ بالإيوانِ قُوبِلَ حُسْنُه ، * ما كان شَيْئاً عِنْده مَذْكورا .
نُسِيَ "الصَّبيحُ" مع "المَلِيح" بذِكْرِه ، * وسَمَا ففاقَ "خَوَرْنقًا" و"سَدِيرًا" .
أعْيَتْ مطالِعُه على الفُرْسِ الأُلى * رَفَعُوا البِناءَ وأحكَمُوا التَّدبيرا .
ومضَتْ على القَوْمِ الدُّهُورُ وما بَنَوْا * لِمُلُوكِهِمْ شَبَهًا له ونَظِيرا .
أذكَرْتَنا الفِرْدَوْسَ حِينَ أرَيْتَنا * غُرَفًا رفَعْتَ بِناءَها ، وقُصُورا .

فلكٌ من الأفلاكِ ، إلّا أنه * حقَر البُدورَ فأطلَع "المَنْصورا".
أبصَرْتُه فرأيتُ أبدعَ مَنظرا * ثم انثنيتُ بناظِري مَحْسورا.
وظنَنْتُ أنّى حالِمٌ فى جَنّةٍ * لمّا رأيتُ المُلْكَ فيه كَبيرا.
وإذا الوَلائدُ فتّحتْ أبوابَها ، * جعلَتْ تُرَحِّبُ بالعُفاةِ صَريرا.
عَضَّتْ على حَلَقاتِهِنّ ضَراغمٌ * فغَرتْ بها أفواهَها تَكْشيرا. (١٤٢)
فكأنّها لَبَدَتْ لتَهْصِر عندها * مَنْ لم يَكُنْ بدُخولِه مأمُورا.
تَجْرى الخَواطِرُ مُطْلَقاتِ أعِنّةٍ * فيه ، فتَكبُو عن مَداه قُصورا.
بمُرخَّمِ الساحاتِ تَحسَبُ أنّهُ * فُرِشَ المَها وتَوَشَّحَ الكافُورا.
ومُحَصَّبٍ بالدُرِّ تَحسَبُ تُرْبَه * مِسكًا تضَوَّعَ نَشْرُه وعَبيرا.
يَسْتَخْلِفُ الإصْباحُ منه إذا انْقضى * صُبْحًا على غَسَقِ الظّلامِ مُنيرا.
ضَحِكَتْ محاسِنُه إلَيْكَ كأنّما * جُعلتْ له زُهْرُ النُّجومِ ثُغورا.
ومُصَفَّحِ الأبوابِ تِبْرًا نَظَّروا * بالنَّقْشِ بين شُكولِه تَنْظيرا.
تَبْدُو مَساميرُ النُّضارِ كما عَلَتْ * فَلَكُ النُّهودِ من الحِسانِ صُدُورا.
خلَعَتْ عليه غَلائِلًا وَرْسيّةً * شَمْسٌ تَرُدُّ الطَّرْفَ عنه حَسيرا.
فإذا نَظَرْتَ إلى غَرائبِ حُسْنِه ، * أبصَرْتَ رَوْضًا فى السَّماءِ نَضيرا.
وعَجِبْتَ من خُطّافِ عَسْجَدِهِ الّتى * حامَتْ لتَبْنى فى ذُراه وُكورا.
وضَعَتْ به صُنّاعُه أقلامَها ، * فأرتْكَ كُلَّ طَريدةٍ تَصْويرا.
فكأنّما للشَّمسِ فيه لِيقَةٌ * مَشَقُوا بها التَّزْويقَ والتَّشْجيرا.
وكأنّما فَرَشُوا عليه مُلاءةً * تَرَكُوا مَكانَ وِشاحِها مَقْصورا.
ياما لكَ المُلْكِ الذى أضحى لَهُ * مُلْكُ السَّماءِ على العُداةِ نَصيرا.

كَمْ من قُصُورٍ للملوكِ تقدّمتْ * فاستوجَبتْ بقُصورِك التأخيرا .
فعمرتَها وملَكْتَ كلَّ رِياسةٍ * منها، ودمَّرتَ العِدا تدميرا .

وقال عمارة اليمنى، يصف دارا بناها فارس الإسلام من أبيات :

فتَملَّ دارًا شيّدَتْها همّةٌ، * يَغْدو العَسِيرُ بأمرِها متيَسّرا.
فاقَتْ على الإطْلاقِ كُلَّ بَنِيّةٍ، * وسمَتْ بسَعْدِكَ عِزّةً وتكبُّرا.
أنشأْتَ فيها لِلعيُونِ بدائعًا * دَقّتْ، فأذهَلَ حُسْنُها مَنْ أبصَرا.
فمِنَ الرُّخامِ : مُسَيَّرًا، ومسَهّما، * ومُنَمْنَمًا، ومُدَرْهَمًا، ومُدَنَّرا.
وسقَيْتَ من ذَوْبِ النُّضارِ سُقُوفَها * حتّى يَكادَ نُضارُها أن يَقْطُرا .
لم يبْقَ نَوْعٌ صامِتٌ أو ناطِقٌ * إلا غَدَا فيها الجَميعُ مُصَوَّرا .
فيها حَدائقُ لم تَجُدْها دِيمةٌ، * كَلّا ولا نَبَتَتْ على وَجْهِ الثّرى .
لم يَبْدُ فيها الروضُ إلا مُزْهِرا، * والنخلُ والرُّمّانُ إلا مُثْمِرا.
والطّيْرُ مُذْ وقعَتْ على أغصانِها * وثِمارِها، لم تَسْتَطِعْ أن تَنْفِرا.
وبها مِنَ الحَيَوانِ كُلُّ مُشَبَّهٍ(١) * لَبِس الحريرَ العَبْقَرِيَّ مُصَوَّرا.
لاتَعْدَمُ الأبصارُ بين مُرُوجِها * لَيْثا ولا ظَبْيًا بوجْرَةَ أعْفَرا.
أنِسَتْ نوافِرُ وَحْشِها لِسِباعِها : * فظِباؤُها لا تَتَّقِي أُسْدَ الشّرى.
وكأنَّ صولَتَك المُخِيفةَ أمَّنَتْ * أسرابَها أن لا تَخافَ فتُذْعَرا.
وبها زَرافاتٌ كأنّ رِقابَها * فى الطُّولِ ألْوِيَةٌ تَؤُمُّ العَسْكَرا.
نُوبِيّةُ المَنْشا تُرِيكَ من المَها * رَوْقًا، ومن بُزْلِ المَهارِى مِشْفَرا.
جُبِلَتْ على الإقعاءِ من أعْجازِها، * فتَخالُها فى التِّيهِ تَمْشِى القَهْقَرى!

(١) فى الأصول "مسبهن" . ولعلها تصحيف .

وقال أبو الصلت أميّة بن عبد العزيز، يصف قصرا بناه علىّ بن تميم بن المعزّ بمصر:

لله، مجلسك المنيف! فبابه * بموطّد فوق السّماك مؤسّس.
موف على حبك المجرّة تلتقى * فيه الجوارى بالجوار الكنّس.
تتقابل الأنوار فى جنباته * فاللّيل فيه كالنّهار المشمس.
عطفت حناياه دوين سمائه * عطف الأهلّة والحواجب والقسى.
واستشرفت عمد الرّخام وظوهرت * بأجلّ من زهر الرّبيع وأنفس.
فهواؤه من كلّ قدّ أهيف، * وقراره من كلّ خدّ أملس.
فلك تحيّر فيه كلّ منجّم، * وأقرّ بالتقصير كلّ مهندس.
فبدا للحظ العين أحسن منظرا، * وغدا لطيب العيش خير معرّس.
فاطلع به قمرا، إذا ما أطلعت * شمس الخدور عليك شمس الأكؤس.
فالناس أجمع دون قدرك رتبة، * والأرض أجمع دون هذا المجلس!

وقال الوزير أبو سليمان بن أبى أميّة:

يا دار، آمنك الزما * ن خطوبه ونوائبه.
وجرت سعودك بالّذى * يهوى نزيلك دائبه.
فلنعم مأوى الضّيف أنـ * ـت، إذا تحاموا جانبه.
خطر شأوت به الدّيا * ر، فأذعنت لك قاطبه.

وقال أبو صخر القرطبىّ:

ديار عليها من بشاشة أهلها * بقايا، تسرّ النّفس أنسا ومنظرا.
ربوع كساها المزن من خلع الحيا * برودا، وحلّاها من النّور جوهرا.

وقال الشريف الرضيّ : (١٤٣)

مازلتُ أطّرِقُ المَنازِلَ باللِّـوى * حتّى نَزَلْتُ مَنازِلَ النُّعمان.
بالحِيرةِ البَيْضاءِ حيثُ تقابَلَتْ * شُمُّ العِمادِ، عَريضَةُ الأعْطان.
شهِدَتْ بفضْلِ الرّافِعينَ قِبابهـا. * ويَبِين بالبُنْيانِ فَضْلُ البانِي!
مايَنْفَعِ الماضِينَ أنْ بَقِيَتْ لهم * خِطَطٌ مُعَمَّرةٌ بعُمْرٍ فانِي!

وأما ما وُصفت به المنازل الخالية

فمن ذلك ماقاله البحتريّ يشير إلى "الكِرْمان" الذى بناه كسرى أنو شروان من أبيات :

فَكأنَّ الكِرْمانَ من عَدَمِ الأُنْـ * ـسِ وإخْلائِه بَنِيَّةُ رَمْسِ.
لو تَراه ، عَلِمتَ أنَّ اللّيالى * خلَعَتْ فيه مأتَمًا بعد عُرْس.
وهْوَ يُنْبِيك عن عَجائبِ قومٍ، * لايُشابُ البَيانُ فيها بلَبْس.
وإذَا ما رأيْتَ صُورَةَ أنْطا * كِيَةَ، ارْتَعتَ بيْنَ رُومٍ وفُرْس.
والمَنايَا مَواثِلٌ وأنُو شَـ * ـروانُ يُزْجِى الصُّفوفَ تحتَ الدِّرَفْس!

وقال أيضا من قصيدة يرثى فيها المتوكل، ويذكر قصره "الجعفرىّ" :

مَحَلٌّ على القاطُولِ(١) أخْلَقَ دارُهُ، * وعادَتْ صُروفُ الدّهرِ جَيْشًا تُعاوِرُه.
كأنّ الصَّبا تُوفِى نُذُورا، إذا انبرَتْ * تَجُرُّ به أذْيالَها وتُباكِرُه.
ورُبَّ زَمانٍ ناعِمٍ ثَمَّ عَهْدُه، * تَرِقُّ حَواشِيه ويونِقُ ناظِرُه.
تغيّرَ حُسْنُ "الجَعْفَرِىِّ" وأُنْسُه، * وقُوِّضَ بادِى "الجَعْفَرِىِّ" وحاضِرُه.
تَحَمَّلَ عنه ساكِنُوه بجُاءةً، * فعادَتْ سَواءً دُورُه ومَقابِرُه.
إذا نَحْنُ زُرْناه، أجَدّ لنا الأسَى؛ * وقَدْ كان قَبْلَ اليَوْمِ يُبْهِجُ زائِرُه.

(١) نهر مشهور معروف .

ولم أنسَ وَحْشَ القصرِ إذ ريعَ سِرْبُهُ، * وإذ ذُعِرَتْ أطْلاؤُه وجآذِرُهْ.
وإذْ صِيحَ فيه بالرَّحيلِ فهُتِّكَتْ * على عَجَلٍ أستارُه وسَتائِرُه.
وأوحَشَه حتّى كأنْ لم يكُنْ به * أنِيسٌ، ولم تحْسُنْ لعينٍ مناظِرُهْ.
كأنْ لم تَبِتْ فيه الخلافةُ طَلْقةً * بشاشتُها، والمُلْكُ يُشرِقُ زاهِرُهْ.
ولم تَجْمَعِ الدُّنيا إليه بَهاءَها * وبهجتَها، والعَيْشُ غَضٌّ مَكاسِرُهْ.
فأينَ الحِجابُ الصَّعْبُ حيث تمنَّعتْ * بهيْبتِها أبوابُه وسَتائِرُهْ؟
وأينَ عَمودُ المُلْكِ في كُلِّ نَوْبةٍ * تَنُوبُ، وناهِي الدَّهرِ فيه وآمِرُهْ؟

وقال عمر بن أبي ربيعة:

يادارُ، أمسى دارِسًا رَسْمُها * وَحْشًا قِفارًا مابها آهِلُ.
قد جَرَتِ الرِّيحُ بها ذَيْلَها، * واستَنَّ في أطلالِها الوابِلُ.

وقال شاعر أندلسيّ:

قُلْتُ يومًا لدارِ قومٍ تفانَوْا: * أينَ سُكّانُكِ الكِرامُ لَدَيْنا؟
فأجابَتْ: هنا أقامُوا قليلًا * ثم سارُوا، ولَسْتُ أعلَمُ أيْنا!

وقال عبد الله بن الخياط الأندلسيّ:

يادارَ عَلْوةَ، قد هيَّجتِ لي شَجَنًا * وزدْتِني حَزَنًا! حُيِّيتِ من دارِ!
كم بِتُّ فيكِ على اللذّاتِ مُعتكِفًا، * والليلُ مُدَّرِعٌ ثوبًا من القارِ!
كأنّه راهِبٌ في المِسْحِ مُلتحِفٌ، * شَدَّ المَجَرَّ له وَسْطًا بزُنّارِ!

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكيّ:

إنّ رَبْعًا عرفْتُه مألُوفا * كان للبِيضِ مَرْبَعًا ومَصيفَا.
غَيَّرتْ آيَهُ صُروفُ الليالي، * وغَدَا عنه حُسْنُه مَصْروفَا.

مامَرَرْنا عليــه ، إلّا وَقَفنا * وأطلْنَا شَوْقًا إليــه الوُقُوفا.
آلِفًــا للبُكاءِ فيــه ، كأنّى * لم أكُنْ فيه للغَوَانِى أَلِيفَا.
حاسِدًا للجُفُونِ لَمَّا أذالَتْ * فى مَغَانِيهِ دَمْعها المَذْرُوفَا!

وقال الشريف الرضىّ من أبيات :

ولقــد رَأَيْتُ بِدَيْرِ هِنــدٍ مَنْزِلًا * أَلِمًــا من الضَّرَّاءِ والحَــدَثانِ!
بالِى المَعَالِمِ، أطْــرَقتْ شُرُفاتُه * إطْراقَ مُنْجذِبِ القَرِينة عانِى.
أمَقَاصِرَ الغِزْلانِ ، غَيَّرَكِ البِلى * حتَّى غَدَوْتِ مَرَاتِعَ الغِزْلانِ! (١٤٤)
ومَلَاعِبَ الأُنْسِ الجَميع طوى الرَّدى * مِنْهم ، فَصِرْتِ مَلَاعِبَ الجِنَّانِ!

وقال أبو الحسن علىّ القابوسىّ نثرا :

«قد كان منزِلُه مَأْلَف الأضياف، ومَأْنَس الأشراف، ومُنتَجع الرَّكْب، ومقصد الوَفْد؛ فاستبْدَل بالأُنْس وَحْشــه ، و بالنَّضَارة غُبْره، و بالضِّــياء ظُلْمه، واْعتاض من تزاحم المواكب، بالأُدْم النَّوادِب؛ ومن ضَجيج النِّــداء والصَّهِيل، عَجيجَ البكاء والعويل» .

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزرىّ، جاء منها :

« ... دارٌ لَعِبت بها أيدى الزمــن ، وفرّقت بين الساكن والسَّكَن . كانت مقاصيرَ جَنَّة ، فأضحت وهى ملاعب جِنَّة . ولقد عَمِيَتْ أخبــار قُطَّانها ، وعَفَّت آثارُها آثارَ وُطَّانها ، حتى شابهت إحداهمــا فى الخفا ، الأخرى فى العفا . وكنت أظن أنها لا تُسْقَى بعدهم بغمام، ولا يُرفَع عنها جلْبابُ ظلام؛ غير أن السحاب بَكاهم وأجرى بهــا سوافِحَ دموعه ، والليــل شقَّ عليهم جُيوبَه فظهر الصَّباح من خلال صُدُوعه» .

وممّا قيل في حب الأوطان

قال ابن الروميّ (وهو أول من بيّن السبب في حب الوطن) :

ولي منزلٌ، آليتُ أن لا أبيعَهُ * وأن لا أرى غيري له الدهرَ مالِكا!
عَهِدتُ به شَرْخَ الشباب ونِعمةً * كنِعمة قوم أصبحوا في ظلالِكا.
وقد ألِفَتْه النفسُ حتّى كأنّهُ * لها جَسَدٌ، إن غاب غُودِرتُ هالِكا.
وحبَّب أوطانَ الرِّجالِ إليهمُ * مآربُ قضّاها الشّبابُ هُنالِكا.
إذا ذكَروا أوطانَهم، ذكَّرتهمُ * عُهودَ الصِّبا فيها فحنّوا لذلِكا!

ذكر شيء مما قيل في الحمّام

قال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ :

أهلًا ببيتِ النارِ من منزلٍ * شِيدَ لأبرارٍ وفُجّارِ!
يدخُلُه ملتمسٌ لذّةً * فيدخُلُ الجنةَ في النار!

وقال أبو عامر بن شهيد الأندلسيّ :

نعمْ. أبا عامرٍ بلذّته * واعجبْ لأمرينِ فيه قد جُمِعا!
نارُه من زِنادِكم قُدِحتْ * وماؤه من بَنانِكم نَبَعا!

وقال عليّ بن عطية البلنسيّ :

رُبَّ حمّامٍ تلظّى * كتلظّي كُلِّ وامِق.
ثم أذرتْ عَبَراتٍ * صوبُها بالوجدِ ناطِق.
فغدا منّي ومنه * عاشقٌ في جَوْفِ عاشِق!

وقال أبو طالب المأمونيّ، شاعر اليتيمة :

وبيتٍ كأحشاءِ المُحِبِّ دخلْتُه * ومالي ثيابٌ فيه غيرُ إهابي.

أُرى مُحْرِمًا فيه وليس بكَعْبةٍ ، فمَا ساغَ إلا فيه خَلْعُ ثيابِى .
بماءٍ كدَمْعِ الصَّبِّ فى حرّ قَلْبِه * إذا آذنَتْ أحْشَاؤُه بذَهَابِ .
توهَّمْتُ فيه قِطْعـةً من جَهَنَّمٍ * ولكنّها من غير مَسِّ عقابِ .
يُثِـيرُ ضَـبابا بالبُخَار مُجَـدَّلا * بُدورُ زُجاجٍ فى سَماءِ قِبَابِ !

وقال آخر :

إنَّ حَمّـامَك هـذا * غيرُ مَذْمُومِ الجِوارِ .
ما رأيْنَـا قَبْل هـذا * جَنَّةً فى وَسْطِ نارِ !

وأنشدنى جمال الدين محمد بن الحكم لنفسه :

قالوا : نَراكَ دخلْتَ حَمَّاما ، وما * حِلْفُ الهوَى يلتذ بالأهواءِ .
فأجبْتُهم : لم تَكْفِ أدْمُعُ مُقْلتِى * حتَّى بكَيْتُ بجملة الأعضاءِ .

تم السـفر الأوّل

(نسخة ما هو مكتوب فى آخر الأصل بخط المؤلف)

نجز السِّفْر الأول من "كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب" على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكرى التيمى القرشى ، عرف بالنويرى عفا الله عنه ، ووافق الفراغ من كتابته فى يوم السبت المبارك لعشر بقين من ذى القعدة عام إحدى وعشرين وسبعمائة أحسن الله تقضيه ، وذلك بالقاهرة المعزية عمرها الله تعالى يتلوه إن شاء الله تعالى فى أول السِّفْر الثانى "الفن الثانى فى الإنسان وما يتعلق به" والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه وسلم آمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

فهرس

السّفر الأوّل

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

للنـــويرى

صحيفة

الباب الثالث :

الباب الرابع :

صحيفة

الباب الخامس :

القسم الثانى

فى الآثار العلوية، وفيه أربعة أبواب

الباب الأوّل :

الباب الثانى :

صحيفة

القسم الثالث من الفن الأوّل

فى الليالى والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد،

وفيه أربعة أبواب

البـاب الأوّل :

صحيفة

البـاب الثـانى :

البـاب الثـالث :

البـاب الرابع :

صحيفة

القسم الرابع من الفن الأوّل

فى الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغدران، وفيه سبعة أبواب

صحيفة

الباب الخامس :

الباب السادس :

صفحة

الباب السابع :

القسم الخامس من الفن الأوّل

في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمباني القديمة، والمعاقل، وما وصفت به القصور والمنازل، وفيه خمسة أبواب

الباب الأوّل :

الباب الثاني :

تمّ فهرس السفر الأوّل

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى
